الترجمة الكاملة

وصف مصر

المجلد الثالث

المدن والأقاليم المصرية

تأليف
علماء الحملة الفرنسية

ترجمة
زهير الشايب

الناشر
مكتبة الخانجي بمصر



وصف مصر

الترجمة الكاملة

(٣)

دراسات عن
المدن والأقاليم المصرية

تأليف
علماء الحملة الفرنسية

ترجمة
زهير الشايب

الطبعة الأولى
١٩٧٨



بسم الله الرحمن الرحيم

هذا هو المجلد الثالث من الترجمة العربية الكاملة لكتاب وصف مصر وأقصد بالترجمة الكاملة ـ كما قلت من قبل فى مقدمتى المجلدين الأول والثانى من هذه الترجمة ـ النص الكامل ، حيث لا تتعرض الدراسات التى تقدم هنا لأى تصرف من أى نوع .

وهذه هى المرة الثالثة كذلك التى أجدنى ملزما بتقديم هذا العمل إلى القارىء وأرجو المعذرة هذه المرة إن قلت إننى لم أعد استشعر حاجة إلى الحديث لا عن أهميـــة وضرورة وصف مصر ، ولا فى إعطاء القارىء فكرة عن أجزائه ومحتوياته ، ولا عن خطة الترجمة التى أتبعها وبالذات فى تقديم الدراسات المتوسطة والقصيرة فقد تناولت ذلك كله فى تقديمى للمجلدين السابقين : دراسة فى عادات وتقاليد سكان مصر المحدثين ؛ والعرب فى ريف مصر وصحراواتها .

وعلى الرغم من ذلك كله أشعر أن « المنهج » المتبع يحتاج إلى إعادة نظر بين وقت وآخر : فحين نتصفح المجلد الذى بين يدينا والذى يدور حول « مدن وأقاليم مصر » نجد أنه فى الحقيقة متمم للمجلد الثانى الذى سبق أن تناول بدوره « مدن مصر وأقاليمها » أيضاً ، وإن ظلت الدراسات التى اختيرت داخل إطاره تقصر حديثها على المدن والأقاليم الصحراوية ؛ لكننا نستطيع أن نضع المجلدين ، الثانى والثالث ، داخل إطار واحد يمكن أن نطلق عليه اسم « موسوعة المدن والأقاليم المصرية » الجزء الأول : الأقاليم الصحراوية ، أو أطراف مصر ، والجزء الثانى : الوادى والدلتا .

وهكذا يجدنا القارىء الكريم نخلع من عندياتنا أسماء وعناوين على دراسات جاءت بوصف مصر مبعثرة على مجلداته المختلفة ، وليس فى هذا تحريف من أى نوع ، فلقد كان عسيراً بل مستحيلا تقديم دراسات وصف مصر كما جاءت بنفس ترتيبها فى الأصل الفرنسى ، أى أنه كان لابد من خيط يضم هذه الحبات المتناثرة ليتكون هذا « العقد » أى أنه كان لابد من اتباع خط بعينه ، أو تلمس هذا الخط فى الحقيقة ، لكى تتجاور دراسات كانت متناثرة ، وتتباعد دراسات كانت متلاصقة أو متجاورة ، فلم أجد مستساغا مثلا أن أقدم دراسة عن ملح النوشادر تعقبها دراسة عن مدينة القصير وتليهما دراسة عن الضرائب على الأطيان الزراعية ثم دراسة عن مقياس النيل . . وهكذا ؛ وإذا كان الأصل الفرنسى قد جاء على هذا النحو ، فقد فعل ذلك لأنه اتخذ لنفسه إطاراً أوسع وأهم هو « وصف » مصر .

بل إن المضى فى الترجمة لأشواط أبعد قد يدفع دفعاً إلى تعديل هذا المنهج ذاته ؛ فمن المعروف أننى أقتصر حتى الآن على تقديم الدراسات التى نشرتها مجلدات الدولة الحديثة أو الحالة الحديثة لمصر ، أو مصر كما شاهدها علماء الحملة الفرنسية ؛ وحين نصل إلى الدولة القديمة أو الحالة القديمة لمصر سنجد دراسات تتعرض لموضوعات بعينها سبق أن تناولتها مجلدات الحالة الحديثة ، وبذلك يبرز منهج جديد لماذا لا نضع الدراستين اللتين تتناولان موضوعا واحداً : دراسة عن حالته القـــديمة ثم دراسة عن حالته الحديثة إلى جوار بعضهما البعض ؛ فهناك فى الحالة القديمة على سبيل المثال دراسات عن البحر الأحمر وموانيه القديمة ، وعن فروع النيل القديمة .. ويمكن أن تضاف هذه « لموسوعتنا » هذه عن مدن وأقاليم مصر ، لتكون متممة ومكملة لها .

وسوف يلاحظ القارىء أيضاً فى المجلدين الثانى والثالث أننى لجأت إلى اختيار عناوين للدراسات أسرع من العناوين الأصلية لها وأكثر حداثة ، لقد كان ذلك ضروريا ، فقارىء اليوم لا يمكن أن يسيغ عنوانا لدراسة يبلغ أحيانا

حوالى ثلاثة أو أربعة أسطر ، ومع ذلك فقد قدمت ترجمة حرفية لعنوان الدراسة ؛ وأرجو ألا يجد البعض فى ذلك تصرفا معيبا .

كذلك سوف يستشعر القارىء حاجة ماسة إلى وجود الخرائط التى أعدها علماء الجيش الفرنسى لهذه الأماكن ، وإذا كان ذلك عسيراً على هذه المرة ، فأرجو ان اتمكن من ذلك فى دراسات تالية أو فى طبعة تاليـــة لنفس هذا المجلد ؛ إن وصف مصر ليس بالعمل الهين ، وتقديمه ليس بالأمر السهل من كافة النواحى ، ومع ذلك فأرجو ألا يعد الاقدام عليه رعونة أو تهوراً أو غروراً أحمق ، وعلى الله دوما قصد السبيل .

بل إننى أشعر بمدى رغبة القارىء فى أن يرى لوحات وصف مصر ؛ وجزء من أسباب احتجاب اللوحات حتى الآن يعود إلى أن الدراسات التى تقدم حتى الآن لا تلعب فيها اللوحات دوراً كبيراً ، بل ان غالبيتها العظمى لا تصحبها لوحات على الإطلاق ، أما الجزء الثانى فيرتبط بالمنهج : هل تقدم اللوحات مستقلة كما هو فى الأصل الفرنسى ، أم تقدم اللوحات مع الدراسات التى تتصل بها ، وكيف يمكن علاج مشكلة الحجم .. بالإضافة قطعاً إلى مشكلة الإمكانيات وان كنت أرجو أن يكون السبب الأخير قد بدأ ينتهى بعد أن شاءت مكتبة الخانجى مشكورة أن تحمل أعباء طبع ونشر هذا العمل على نفقتها ، فحملت عنى عبئا ثقيلا كنت أنوء به وكان له أثره بالتأكيد فى ذلك الخطو البطىء والمتعثر الذى سار عليه العمل فبدا معه وكأنه يحبو ، ولهذا السبب لابد لى أن أبدأ بشكر الحاج نجيب الخانجى وولده الأستاذ محمد الخانجى على العون الصادق الذى قدماه لهذا الجهد .

وحين أصل إلى تقديم الشكر ، أجدنى أواجه سؤالا هاماً : هل يمكننا أن نصف جهداً ما بأنه جهد فردى ؟ حين يتباهى كثيرون بأنهم يقدمون عملا من خلقهم وحدهم ، فإنهم يجافون الحقيقة فى الواقع ، فهل يمكن إغفال كل الذين عاونوا فى «صنع» هذا العمل ؟ وماذا سيكون هذا العمل لو لم يتوفر له من يعاون

على صنعه ، منذ كان مجرد فكرة إلى أن أصبح واقعاً ملموساً ؟ ويدرك ذلك حقيقة كل من بذل جهداً علمياً أو فكرياً . . وأبسط سؤال فى هذا المجال : ما هى قيمة عمل مهما بلغت قيمته حين لا يجد من يقدمه للناس ويوفره لهم .

ويدفعنى الانصاف والوفاء أن أقدر دور كل الذين ساهموا فى رأيى فى تقديم هذا العمل ونشره على الناس ، وتأتى مجلة الثقافة ، ويأتى رئيس تحريرها الدكتور عبد العزيز الدسوقى فى مقدمة من يستحقون الشكر ، ولست أبالغ حين أعد المجلة ورئيس تحريرها شريكين حقيقين فى هذا العمل فقد احتضنته المجلة منذ كان مجرد فكرة ، وأفردت له من صفحاتها الكثير ، مما كان له أكبر الأثر فى المضى قدما بهذا المشروع ، وتستحق مجلة الإذاعة والتليفزيون الشكر هى الأخرى لنفس الغرض ويستحق رئيسا تحريرها : الأديب الكبير الأستاذ ثروت أباظة ، ثم الأستاذ أحمد بهجت شكراً جزيلا على ترحيبهما على التوالى بنشر أجزاء كبيرة من العمل على صفحات المجلة ، كما سيظل هذا العمل مديناً للأخوة الأساتذة : ريليه خورى ، والدكتور عبد الرحيم عبد الرحمن ، والدكتور عبد الرحمن زكى وإبراهيم المويلحى على ما قدموه من عون علمى صادق ، كما لابد أن أوجه الشكر لكل الأقلام التى رحبت بالعمل ، ولكل الذين منحونى من تشجيعهم ما كان له الأثر فى نفسى على تحمل هذا العمل الشاق ، وفى هذا الصدد لابد أن أقدم للسيدة زوجتى شكراً خاصاً .

على أننى احتفظ بأكبر قدر من الشكر والتقدير لكل من يتفضل بالنصح والإرشاد حتى يبلغ هذا العمل القدر اللائق الذى يجعله فى الشكل الذى يليق بأن نهديه لأمنا مصر وأهلنا المصريين .

زهير الشايب

سبتمبر ١٩٧٨

الفهرس

Converted by Tiff Combine - (no stamps are applied by registered version)

(١)

رحلة الى شرق الدلتا

"مالو"

العنوان الأصلي للدراسة : مستخلص من دراسة عن الحالة القديمة والحديثة للأقاليم الشرقية لمصر السفلى للسيو مالو .



تذكر كل المؤلفات القديمة التى تتحدث عن جغرافية مصر أن النيل كان يصب مياهــه فى البحر من طريق سبعة مصبات لكن الجغرافيين المحدثين لا يعرفون بعد سوى فرعين لهـذا النهر هما فرع رشيد وفرع دمياط ، لأنهما الفرعان الوحيدان اللذان يمكن عن طريقهما اختراق الأقاليم التى يمران بهـا والتى لاتزال تحتفظ بظلال التحضر وذلك بتأثير حركة التجارة .

وبالرغم من الانتقادات الهامة التى قدمها العلامة الجغرافى دانفيل d'Anville فإن أبحاثه هو نفسه عن آثار مصبات النيـل السبعة لم تفض إلى شىء ، كما أن الخريطة التى قدمها بعد أبحاث عديدة تمتلىء بالأخطاء وبالمعلومات غير الدقيقة. لـكن الأمر لاينبغى أن يكون مدعاة للدهشة فهذا هو هيرودت نفسه وهو الذى جاب الجزء الأكبر من هذه البلاد يخطىء فى تحديد بعض فروع النيل السبعة هذه وكذلك فى تحديد اسم بعض مدن مصر ، حيث كانت البلاد فى الفترة التى كان يجوبها فيها هذا المؤرخ خارجة للتو من حرب طويلة مما جعل الظروف غير مواتية للقيام بملاحظات جغرافية .

وعندما كلفت فى أشهر الحمـــلة الأولى — ومعى المسيو فيفر M. Fèvre باستكشاف الدلتا والأقاليم الشرقية لمصر السفلى ، واتتنى الفرصة لاجتياز تلك البلاد مع قوات كافية لحماية أبحاثى وسأكتفى هنا بالحديث عن الفرع التانيسى الذى عثرت عليه وعبرته بكل امتداده ، وهو أقصى فروع النيل الشرقية التى ماتزال باقية حتى اليوم .

كان يوجد بين هذا الفرع وبين خليج السويس الفرع البيلوزى الذى كان مايزال صالحا للملاحة فى عصر الإسكندر الذى اخترق أسطوله مصر عن طريق هذا الفرع ، لـكنه الآن يكاد يكون مطموساً برمال الصحراء وإن كان مصبه

على البحر لايزال قائماً على الرغم من أنه يقع أبعد بمقدار أربع مرات عن بيلوز القديمة كما كانت فى زمن سترابون Strabon[1] فهى تقع عند طرف سهل يسميه العرب الطينة وهى الترجمة العربية للكلمة اليونانية بيلوز Pélos أى الطين .

كان ينبغى أن يكون الفرع التانيسى — وهو الفرع الثانى عند البدء من جهة الشرق — أفضل حالا حيث هو أكثر بعداً عن الصحراء ولو كان هذا الفرع قد ظل موجوداً حتى اليوم لكان بمقدوره أن يصبح منفذاً جديداً للتجارة وللاتصالات العسكرية .

ولكى نعثر على آثار هذا الفرع من فروع النيل ، ولكى نحدد موقعه — رحلنا من القاهرة مع كتيبة قوية محاذين فرع النيل الذى ينتهى عند دمياط . وفى اليوم الثالث من مسيرتنا وصلنا إلى مشارف ولاية قليوب التى تنتهى عند أتريب ، وقد بنيت هـــذه القرية الصغيرة على طرف خرائب مدينة كانت تحمل نفس الاسم والتى يبدو أنها كانت تحظى بمكانة مرموقة حيث كانت عاصمة لأحد الأقاليم . ويبلغ طول خرائبها ١٦٠٠ متر وعرضها ١٥٠٠ متر . وقد أرشدنا الناس إلى قصر الحاكم ، وهو يقع فى المنطقة ما بين الشارع الكبير والميدان العمومى ولم يكتشف بعد أى من أطلال القصر ، ويدعى السكان أنه يعثر على كتل من الرخام عند القيام بأية عمليات حفر .

ونستنتج نحن من ذلك أنهم قد حولوا كل ما وجدوه فى أيديهم من حجارة إلى جير وأن كل الأحجار الجيرية التى كانت توجد وسط أنقاض المدينة قد لقيت نفس المصير . وتلك هى عادة هؤلاء السكان مع كل الأحجار التى يعثرون عليها فى كل المدن القديمة ، البعيدة عن المحاجر . وقد شاهدنا كذلك فى خرائب

---

(١) يقول سترابون إن محيط بيلوز كان يبلغ ٢٠ غلوة (١٠٢٠ قامة = ٦٨٠ ياردة) . وهذا هو طول أسوار بيلوز فى الواقع ، ويضيف سترابون أن هذا السور كان يقع على نفس هذه المسافة من جهـــة البحر ، واليوم ، فإن مصب الطينة يبعد عن بيلوز (بالوظة) بـ ٨٠٠٠ ياردة .

هذه المدينة بقايا بعض أفران الجير (الجيارات) — وثمة آثار لبعض القباب الصغيرة توجد تحت الأرض وتشبه تلك التى يدفن فيها سكان القاهرة اليوم موتاهم . لقد كانت هذه على وجه التقريب مقابر ، وكان الشارع الكبير الذى مايزال ظاهراً لحد كبير يؤدى عمودياً إلى النيل الذى تبلل مياهه أطراف هذه الخرائب . وثمة شارع آخر أقل أهمية يخترق المدينة من الوسط ذاهباً إلى الشمال .

وعلى بعد فرسخ من هنا توجد قرية مويس وهذا هو نفس اسم لترعة كبيرة وهذه المنطقة هى جزء من إمتدادها . وكان اتساع فرع دمياط فى تلك الفترة التى دخلنا فيها — أى فى التاسع عشر من ديسمبر وبعد الفيضان بحوالى ثلاثة شهور ، يبلغ ٣٠٠ متر كما كان اتساع هذه الترعة يبلغ ١٥٠ متراً ويجرى جزء من مياه النهر المتجهة إلى الشمال الشرقى بسرعة فى هذا الفرع الجديد . ويبين للوهلة الأولى أن هذه الترعة لم تحفرها يد الإنسان وإنما هى فرع النيل الذى كان على أن أكتشف مجراه ، فشواطئها مسطحة وفى مستوى السهل الذى تمر به . ولم أستطع أن أحصل من السكان على أية معلومات عن البلاد التى تعبرها هذه الترعة فقد أكدوا لى جميعاً بأنها تضيع فى الأراضى على بعد مسافة من منبعها وأن السهل الذى ترويه يتردد عليه العربان البدو .

وقد نزلنا لمسافة ستة فراسخ فى هذه الترعة دون أن نجد شيئاً لافتاً للنظر على شواطئها ؛ فالسهل الذى تخترقه يتكون من أرض سميكة ومزروعة بشكل طيب ، وهى تنتج القمح والذرة والقطن وقصب السكر ، كما يخترقها عدد كبير من الترع التى تمتلىء وقت الفيضان والتى تحجز فيها المياه بواسطة قناطر أقيمت عند منبعها فى الترعة الكبيرة .

وعند مرتفع دنوهيا تتفرع الترعة إلى فرعين ، وقد سرنا نحن فى الفرع الشرقى ، أما الفرع الثانى فينقسم إلى عدة جداول تنضم كلها فيما بعد إلى الفرع الذى كنا نجتازه .

وقد لحنا عند نقطة انفصال هذين الفرعين خرائب هائلة قال عنها الأهالى أنها تسمى تل بسطة ، فهى إذن خرائب بوباساطة القديمة ، وقد وجدناها وقد احتلها العربان ، ولقد مررنا هناك بعدة مبان يمكن لها أن تكون ذات نفع فى دراسة تاريخ العمارة المصرية . كان ثمة كتل هائلة من الجرانيت تغطيها كتابات هيروغليفية مشوهة أن قليلا أو كثيراً . وكانت هذه الكتل مكدسة بطريقة تبعث على الدهشة . ولا يكاد المرء يستطيع أن يتصور أية قوة أمكنها أن تحطم هذه الأحجار وأن تكدسها هكذا واحدة فوق الأخرى . وقد قطع عديد من هذه الأحجار لاتخاذها كأثاثات . وقد رأينا ركامات كاملة من أحجار ضخمة تركت فى مكانها وذلك بلا جدال بسبب نقص وسائل نقلها .

وقد بنيت هذه المدينة — ككل المدن القديمة فى مصر السفلى — على مصاطب كبيرة من الطوب النيء ترفعها فوق منسوب مياه الفيضان ، ويبلغ طول قالب الطوب قدما واحداً كما كان عرضه وسمكه يبلغان نفس الحجم .

ولقد استخدم الإسرائيليون وقت أسرهم فى إنشاء وإقامة هذه المصاطب ، وفى فترات عديدة من سفر الكتابة نراهم يشكون من أنهم قد أرغموا على القيام بهذا العمل الشاق والمحط . ويبلغ اتساع بوباسطة من كل الجهات مابين ١٢٠٠ — ١٤٠٠ متر وثمة حوض واسع فى داخلها يقع وسط المنشآت التى رأيناها .

ويدعى هيرودت أن ديانا كانت تسمى فى اللغة المصرية بوباسطة (*) ،

(*) يقول صاحب القاموس الجغرافى للبلدان المصرية بأنها لاحدى المدن المصرية القديمة وان اسمها المصرى القديم هو Per Bastit أى مدينة الآلهة Bastit ، وكان اسمها الرومى هو Boulostis أما اسمها بالقبطية فكان Bouloast ، ووردت فى قوانين ابن مماتى بسطة من أعمال الشرقية ، وقد خربت وتعرف اطلالها اليوم باسم تل بسطة ، حيث مبانيها تشغل أرض حوض التل رقم ١٢ بأراضى شوبك بسطة على بعد كيلو متر واحد جنوب شرق الزقازيق (المترجم) .

ويطلق أوفيد على هـذه المدينة اسم بوباسطة المقدسة ، وقد عثرنا فيها على آثار لعبادة القمر . فقد كان ثمة حجر مرصع بالنجوم ويمثل شكل قبة على النحو الذى نراه فى المعابد وفوق أحجار السقوف . وكانت الاحتفالات بعيد ديانا تقوم فى الواقع كل عام فى هذه المدينة وكان هو العيد الرئيسى عند المصريين ، كما كانت تتجمع فيها أعداد هائلة من الأجانب يقدرهم هيرودت بـ ٧٠٠,٠٠٠ نسمة دون أن يدخل الأطفال فى هذا التعداد ، وكان هـذا العيد فى الواقع نوعا من طقوس العربدة واللهو شبيها بأعياد باخوس عند الاغريق . ويتحدث القدماء عن كميات كبيرة من النبيذ كانت تستهلك هناك . وكانت تدفن فى هذه المدينة مومياوات القطط التى كان يقدسها المصريون بنفس القـــدر الذى كانوا يقدسون به عجول أبيس ، وكما كانوا ينقلون مومياوات هذه العجول المقدسة إلى هرموبوليس فقد كانوا ينقلون مومياوات القطط المقدسة إلى بوباسطة .

وتجاه المدينة ، ثمة جزيرة كبيرة يكونها الفرع الذى تحدثنا عنه من قبل ، وكان القدماء يسمون هـذه المدينة ميكفوريس وهى ولاية قائمة بذاتها كانت تسكنها قبيلة تخصصت فى صنع السلاح . وهذه المنطقة اليوم تضم سهلا طيب الزراعة به غابات كبيرة من أشجـار النخيل وقرى شديدة الصغر من بينها قرية القنايات التى منحت اسمها للفرع الغربى من الترعة .

وعلى بعد ثلاثة فراسخ من بوباسطة ، وعلى نفس الشاطىء توجد مدينة صغيرة حديثة تسمى هريا وهى محاطة بغابة كثيفة من النخيل ، وعلى الرغم من أن أسمها كان مجهولا من كل الجغرافيين ومن أنها لم تكن معروفة فى ذلك الجزء من البلاد الذى يعد متحضرا ، فإنها فيما يبدو كانت تضم سكانا كثيرين كما كانت توجد حول أسوارها زراعة ممتازة ليست لدى البلدان المحيطة بها . والجزء من غابة النخيل القريب من السكان، يزرع فى شكل تخميسة وأربع فى زوايا المربع وواحدة فى الوسط ، وبعناية تشبه العناية التى تلقاها الحدائق الأوربية ، وتحاط المدينة بسور به فتحات يبلغ ارتفاعه خمسة أمتار وهو فى حالة جيدة وتعلوه أبراج

قوية مسلحة بصف مزدوج من متاريس الطوابى وتعلو أبوابهـا التى صنعت بشكل أسطوانى جزءاً من هذا السور . ويبدو سكان هذه المدينة أكثر تحضراً من جيرانهم . ومنذ غادرنا النهر وجـدنا الناس فى كل مكان يحملون السلاح ، يسودهم روح من التمرد والضجر . وفى هــــذه المدينة ، وعلى الرغم من أننا كنا ــ ربما ــ أول أوربيين يمثلون أمام ناظرهم ، خرج الناس فى شكل جمهور ليقدموا لنا الأطعمة ولم نلمح من بينهم رجلا مسلحاً .

وابتداء من ضواحى المدينة ، وحتى الجزء الأدنى من الترعة ، لاحظنا على الشاطئين وجود عـدد كبير من الأبراج المبنية بلا أبواب ولا نوافذ والتى تخترقها بعض الطوابى ، وهذه الأبراج تستخدم كمأوى للسكان عندما يفاجئهم أو يلاحقهم عربان الصحراء فيصعدون إليها بسلالم من حبال .

وفيما وراء هيبا ووسط سهل منخفض وملىء بالمستنقعات ترتفع خرائب مدينة كانت تسمى قورب حسبما يذكر السكان . وقد قامت فى هذا المكان قرية هوربيط وقد عثرنا فيها على قدم وجذع لأحد التماثيل الضخمة كما وجدنا أيضاً قطعاً من الأعمـدة وشظايا من الجرانيت ، وكانت هذه المدينة فيما يبدو ضئيلة الأهمية وكانت مساحتها تبلغ ربع مساحة بوباسطة على أكثر تقدير .

وعلى بعد فرسخ من ذلك وعلى الشاطىء المقابل توجـــد قرية تسمى كفر فورنيجة(*) وينظر إليها فى هذه الجهات باعتبارها نهاية الأراضى المتحضرة إذ لا يمكن لقوارب الجزء الأعلى من الترعة أن تجرؤ مطلقاً على أن تتقدم لما وراء ذلك ، كما لا يمكن لقوارب الجزء الأدنى كذلك أن تصعد لأبعد من ذلك . وخط الانفصال هذا شديد الوضوح لحد أن الترعة نفسها تفقد اسمها عنده ليصبح اسمها بعد ذلك ترعة صان . وتبدو القرى التى وجدناها بعد هذه النقطة وبها عدد كبير من الأبراج . وكل البيوت هناك مسورة بجدران متينة

(*) هكذا فى الأصل ، وإن كنت لم أستطع العثور على الاسم الصحيح لهذه القرية . [المترجم]

وليس لهذه القرية سوى باب واحد ، ويسير فيها السكان وهم مسلحون على الدوام حتى عندما يمارسون أعمالهم فى الحقول .

وإبتداء من « فورنيجة » يأخذ اتساع الترعة فى الضيق فلا يعود يبلغ أكثر من ٦٠ متراً أما عمقهـا فيظل كما هو . وقريباً من بحيرة المنزلة حيث تصب هذه الترعة يبلغ عمقها أربعة أمتار . وإبتداء من هوربيط يقطع البلاد الواقعة على كلا الشطين عدد هائل من الترع والبرك والمستنقعات التى تجعل من المواصلات أمراً بالغ الصعوبة ، ويحتفظ بعض هذه الترعة بمياهه لمدة ستة أو ثمانية أشهر .

وفى مواجهة قرية اللبايدة على الشاطىء الأيسر لمحنا بحيرة واسعة تتصل بالترعة عن طريق فروع عدة وتحتفظ بمياهها لمدة ثمانية أشهر فى العام وهى صالحة للملاحة لجزء من هذا الوقت وتمتد حتى أبى داود ولا يفصل هذه البحيرة عن بحيرة المنزلة إلا لسان من الأرض وليس ثمة أى اتصال بينهما .

وعلى بعد فرسخين من طرف الترعة وقبل أن تصب فى بحيرة المنزلة ترتفع خرائب صان أو تانيس التى أعطت اسمها من قبل لهذا الفرع من فروع النيل . وتشتهر هذه المدينة بكثرة عدد سكانها وبالمنشآت التى خلفها هناك ملوك مصر وبالمعجزات التى أتى بها موسى هناك قبل أن يغادر أرض مصر . وترى هناك أيضاً مسلات مقلوبة وقمم أعمدة تتشابه نقوشها مع النوع الكورنثى ، كما يرى كذلك مبنى متهدم من الجرانيت ومنقسم إلى جزءين وقد أستنتجنا أنه مقبرة ، وقد عثرنا فيها على بقايا زهريات مصنوعة من طين بالغ النعومة وبعضها مدهون بطلاء لامع مازال موجوداً حتى اليوم . وقد عثرنا كذلك على طوب محروق من أنواع متعددة وعلى أجـزاء من الزجاج والكريستال المصقول بشكل جيد .

وإلى الشمال من صان توجد ترعة صغيرة تؤدى إلى الصالحية لكنها غير

صالحة للملاحة إلا لمدة شهر واحد . أما السهل الموجود فيما وراء هذه المدينة وفى بحيرة المنزلة فتخترقه أعداد هائلة من الترع تتقاطع فى كل الاتجاهات . وعلى طرف هذا السهل تدخل الترعة إلى البحيرة وتخترقها لمسافة ١٢ فرسخاً تظل خلالها محتفظة بمجراها ولا تختلط ــ برغم ذلك ــ مياههما ، حيث لا يبلغ عمق البحيرة هناك أكثر من المتر ، لذا فإننا نميز فى كل مكان مجرى هذه الترعة .

وهكذا وصلنا إلى أقصى الترعة بعد أن تأكدنا بأنفسنا أنها صالحة للملاحة فى كل أجزائها . وحسب المعلومات التى جمعناها فقد علمنا أنها لا تستخدم بالنسبة للسفن الكبيرة إلا لمدة ثمانية أشهر فى العام ، وبعد هذه المدة يمكن لبعض الوقت فقط أن تستخدم فيها القوارب الصغيرة والخفيفة ولكن فقط فى الجزء الأدنى منها . ولمدة تسعة أشهر من العام تجرى مياه النيل بحرية نحو بحيرة المنزلة ، وفى أثناء الأشهر الثلاثة الأخيرة من العام تمتد مياه البحيرة إلى الأراضى الأدنى من مستوى الترعة . ولتفادى هذه الكارثة يبنى كل عام فى كفر مويس سد يمكث ثلاثة أشهر . وعلى الرغم من هذه الحيطة ، فإن المياه المالحة تطغى على الأرض لمسافة تبلغ من ٧ ــ ٨ فراسخ . وفى أثناء الأوقات المتأخرة من الفيضانات تصبح المياه أمام اللبايدة ــ حيث لم يعد يوجد من مياه الترعة إلا ما يبلغ عمق قدم واحد ــ مالحة تماماً .

تلك هى المعلومات التى استطعنا أن نتزود بها عن هذه الترعة : عن طولها وعن عمقها وعن العدد العدد الهائل من الخرائب التى توجد على شطآنها ، ويكاد يكون من المؤكد أن مجراها هو نفس مجرى الفرع التانيسى القديم . ولن نسوق هنا ، للبرهنة على ذلك ، نفس الملاحظات التى سقناها فى مكان آخر كما أننا لن نقدم أيضاً أية ملاحظة عن مصب هذا الفرع فى بحيرة المنزلة وعن الفائدة التى نستطيع أن نجنيها من الترعة الواطئة التى يمكن استخدامها للمواصلات من دمياط ومن الصالحية ، لكننا نكتفى بأن نلاحظ فيما يتعلق بمواصلات القاهرة

أنه سيكون من الأسهل أن نتوجه مباشرة من صان عن طريق مويس بدلا من أن يتم ذلك عن طريق بحيرة المنزلة ، وبذلك نتفادى إنزال البضائع فى دمياط ثم نقلها أيضاً إلى البحيرة ثم تحميلها من جديد وسوف يكون هذا اقتصاداً فى الوقت وفى التكاليف أما سبب قلة استخدام هذه المواصلة السهلة والمفيدة فهو السلب الدائم الذى يدور هناك ، كما أن غيبة قوة الحكومة قد أرغم الأهالى على أن يتحاشوا ذلك بقدر الإمكان : من هنا تولدت هذه الأحقاد من قرية نحو الأخرى ، ومن هنا نشأت هذه الحروب الصغيرة التى خنقت الثقة بشكل تام .

ولو أن هذه المنطقة البائسة كانت فى حوزة شعب متحضر لكان مثل هذا الاتصال الجديد بين النهر والبحر وفى داخل البلاد ذا نفع هائل للتجارة، ولكان قد ضم فى وقت سريع إلى الحضارة مساحة من البلاد تبلغ حوالى ٥٠ فرسخا لا يسكنها إلا قوم همج لاهم لهم إلا شن الحروب المستمرة ، بينما تنقصهم - وهم يعيشون فوق هذا السهل الخصيب — الضرورات الأولى للحياة .

(٢)

جولة فى بحيرة المنزلة

"أندريوسى"

العنوان الأصلى للدراسة : دراسة عن بحيرة المنزلة ، تبعاً لنتائج داورية الاستكشاف التى تمت فى فندميير من العام السابع (سبتمبر وأكتوبر ١٧٩٩) ـ وقد نشرت هذه المقالة فى Décade Egyptienne وهى دورية كان يصدرها الجيش الفرنسى فى القاهرة كل عشرة أيام .



كانت مصر مهداً للعلوم والفنون ، لكن مبادىء هذه العلوم والفنون ظلت رهينة مدارس الكهنة ، أو حبيسة داخل هذه الهيروغليفية التى لم تفك طلاسمها بعد . وكان الكهنة المصريون ، المشغولون بشكل خاص فى تأمل السماء ، يولون إهتماماً أقل بالظواهر الطبيعية التى تتم تحت ناظرهم ، ولذلك فقد لاحظ هيرودت عندما كان فى ممفيس ، وعند حديثه مع الكهنة أنهم كانوا يجهلون أسباب التغيرات التى كانت تحدث فى الجزء الأسفل « الشمالى » من بلادهم ، الواقع بين بداية السهل وحتى البحر والتى يبدو أنها كانت تفاجئهم .

ومع ذلك فثمة ظروف ينبغى أن توضع فى الحسبان ، ذلك أن مصر . فى الفترة التى كان أبو التاريخ هذا يتجول فى ربوعها ، كانت خارجة لتوها من حرب طويلة ، أهمل خلالها كل ما يتصل بالنواحى الاقتصادية العامة ، وتأثرت بذلك بطبيعة الحال تلك العناية التى تعطى للترع . وكانت هذه البلاد تئن فضلا عن ذلك تحت وطأة حكم عسكرى تشبه حكومته حكومة المماليك ، كما كانت المناطق القريبة من الصحراوات تتعرض للدمار على يد اللصوص وقطاع الطرق ، شأن ما يحدث فى هذه الأيام .

إذن فلقد وجد هيرودت مصر فى نفس الحالة تقريبا التى وجدها عليها الفرنسيون ، ولم يستطع أن يرى ولا أن يجمع عدداً كبيراً من الوقائع . وعلى الرغم من أن الوقائع التى ضمنها مؤلفه الهام قيمة لحد كبير ، إلا أنه تركنا فى حالة من الشك حول كثير من وقائع أخرى . ولقـــد أضاف سترابون وديودور الصقلى أشياء قليلة إلى ما قدمه هيرودت . ولم يصنع أبو الفداء وهو يعرفنا بجغرافية عصره ، وكذلك لم يصنع المؤلفون الآخرون فى القرن الثالث عشر بترجيحاتهم، سوى أن زادوا من شكوكنا . وفضلا عن ذلك فقد تحتم على مصر التى استعبدت أكثر من مرة أن تغير من لغتها ما أن يتغير

السادة المسيطرون عليها ، وهكذا ، فقد عانت مختلف تسميات الأشياء من التعديل والتحوير بل اختفى بعضها بشكل نهائى .. ولم يلبث كل هذا أن ألقى بكثير من الاضطراب حول الأفكار ذاتها .

ولم يكن بمقدور مؤلفى اليوم إلا أن يعودوا إلى ما كتبه هؤلاء المؤلفون القدماء وأولئك الرحالة المحدثون ، ولقـــد نتج عن أبحاثهم ، وعلى وجه الخصوص أبحاث دانفل ، استنتاجات حاذقة ، بنى على أساسها هذا الجغرافى الشهير خرائطه لمصر القديمة والحديثة ، وهى الخرائط التفصيلية الوحيدة التى ظلت متداولة حتى مجىء الجيش الفرنسى إلى هذه البلاد . ولقد لاحظنا فى البداية ، عند استخدامنا لهذه الخرائط احتواءها على كثير من الأخطاء ، ويبدو أنه كان من العسير ، على الرغم من التمحيص الشديد الذى بذله دانفيل أن يكون الأمر على نحو مخالف .

ولقد هيأت المدة التى بقيها الجيش الفرنسى فى مصر ، الوسائل لمراجعة العدد الأكبر من هذه الأخطاء ، كما أتاحت لنا أن ننزع كثيراً من الشكوك وأن نعيد تأسيس وقائع كاد يطويها النسيان بفعل حقبات الأزمان ووقوف همجية الحكومات حائلا ضد كل بحث .

وعندما تلقيت أوامر القائد العام بالقيام بجولة استطلاعية لبحيرة المنزلة ، فقد كانت الإرشادات المبدئية التى زودنى بها وكذلك المساعدات العلمية التى أمدنى بها البعض ، هى ما جعلنى فى وضع استطعت معه أن أعطى لعملياتى من الشمول والدقة ما يتجاوز بقليل ما تحصل عليه الاستطلاعات العسكرية عادة[1] . وسوف أتقدم بملاحظاتى ، كما سأقدم دراساتى مدعما إياها بالبحوث

---

(١) أنشئت بعد ذلك خريطة لهـذه البحيرة بمزيد من العناية والتفاصيل ، وضعها السيدان جاكوتان ولوجنتى Jacotin & le Gentil . [انظر الخريطة الطبوغرافية لمصر]

التى ظهرت ، وعندما استعنت بينما كنت أتناول بعض الوقائع الجغرافية بتراث المؤلفين الأوائل ، فإنى لم أتبن آراءهم بشكل تام ، لكننى رجعت إلى الطبيعة ، التى هى أكثر من هؤلاء المؤلفين القدامى قدما ، كما أنها فى نفس الوقت معاصرة لنا .

(١)

اكتشاف الفرع التانيسى القديم

كان القدماء يرون أن النيـــل يصب مياهه فى البحر عن طريق سبع فتحات[1] ، إذن فقد كان ثمة سبعة فروع كانت تأخذ المياه منذ خروجها من الجبال لتسير بها إلى هذه الفتحات السبع .

وعلى النحو التالى ، كان النظام الذى عرف عليه القدماء هذه الفروع السبعة ذاهبة من الشرق إلى الغرب :

١ ـ الفرع البيلوزى أو بوباسطة .

٢ ـ الفرع التانيسى وهو الذى يحمل اليوم اسم ترعة أم فرج .

٣ ـ الفرع المنديسى أو فرع ديبة .

٤ ـ الفرع البانتينى وهو اليوم فرع دمياط .

---

(١) أطلق الشعراء على كل من هذه المصبات السبع اسم فم النيل (أورا) ، وتعود ذه التسمية إلى ما أرادوا أن يعزوه للنيل من عظمة ، ولكننا عندما نكون بصدد لحديث عن جغرافية مصر الطبيعية سنأخذ على عاتقنا أن نضع تمييزاً محدداً : فنسمى فروعاً لك الفروع التى تتجه إلى البحر المتوسط ابتداء من المنطقة الواقعة شمال منفيس ؛ فى حين نطلق لمة فم على فتحات هذه الفروع نفسها عند البحر . وهذا التمييز بالغ الأهمية ، حيث أن ض الفروع التى كانت موجودة منذ الأصل ، قد اندثرت كلية أو فى جزء منها ، فى حين د فتحاتها هنا وهناك ، لتشكل وسيلة اتصال بين مختلف بحيرات مصر مع البحر المتوسط .

٥ — الفرع السبنيتى أو فرع البرلس .
٦ — الفرع البولبيتينى أو فرع رشيد .
٧ — الفرع الكانوبى أو فرع أبى قير .

فهل بقيت حتى اليوم هذه الفروع ، بأكملها ، أو فى جزء منها ، وهل يمكن العثور على آثار ما درس منها ؟ هذا ما سوف نتفحصه بخصوص الفروع الثلاثة الأولى ، وهى التى تدخل فى إطار المهمة الاستطلاعية التى قمنا بها .

كان الفرع البيلوزى صالحاً للملاحة عندما توغل الأسكندر فى مصر إذ أنه، أدخل من هذا الفرع أسطوله الذى استدعاه من غزة ، لكن الرمال تسد اليوم هذا الفرع ، ولا تزال ترى حتى اليوم عند بيلوز « بالوظة » فتحته التى كانت تؤدى إلى البحر ، وهى مليئة بالطين . وقد أمكننى التيقن من أن آثار هذا الفرع لابد وأنها موجودة اليوم ، فى واقع الأمر ، فى ولاية الشرقية بالقرب من قرية بسطة ، وهى مدينة خربة ، كانت تعرف فيما مضى باسم بوباسطة وهى التى نلمحها على مسافة قصيرة إلى الشمال من بلبيس ونحن فى طريقنا إلى سوريا . ويخيم ظلام كثيف ، لا يمكن اختراق حجبه حول الفرعين : التانيسى والمنديسى اللذين كانا يأتيان فى الترتيب « من الشرق إلى الغرب » بعد الفرع البيلوزى واللذين كانا يصبان فى مكان تشغله بحيرة المنزلة وكان يسمى فيما مضى تنيس .

وعندما توغلت فى بحيرة المنزلة ، عن طريق فتحة ديبة فى الثانى عشر من فندميير «٤ أكتوبر» . أدهشنى كثيراً إتساع وعمق الترعة التى تقع إلى اليمين بعد اجتياز الفتحة «الفم» وبدأت أتشكك أن قد تكون هى طرف الفرع المنديسى القديم ، وحاولت العثور على إتجاه مجراها بإستخدام مجسات متتالية ، لكن الظروف التى دخلت فيها البحيرة لم تسمح لى على الإطلاق بأن أتم هذا العمل .

ومع ذلك فإن ما لم أستطع إنجازه بالنسبة للفرع المنديسى قد استطعت أن أتممه فيما أعتقد بالنسبة للفرع التانيسى الذى كانت فتحته « فمه » هى نفسها فتحة « مصب » ترعة أم فرج . ويمر المرء عند ذهابه من هذه الفتحة إلى سمنة ، وعلى يمينه،بجزيرتى تونة وتنيس ، ثم يتوغل فى ترعة بحر مويس . ومدخل هذه الفتحة غزير المياه ، وقاعها من الطين الأسود ، ويخوض المرء على يمين جزيرتى طاينة وتنيس فى مياه يبلغ عمقها من ١٦ إلى ٢٠ ديسمتر «٦٠ر١م إلى مترين» ، أما الجزء الأيسر فصالح لاستخدام القوارب الصغيرة فقط ، ولا يتجاوز خط حدود الملاحة فى بحيرة المنزلة لأبعد من الخط الواصل بين هاتين الجزيرتين ، أما الجزيرات الصغيرة والأجزاء الضحلة التى تتقارب لحد التلاصق فى جنوب هذه الجزر فتبعث على الشك بأن ثمة قارة غارقة .

وتتوغل ترعة بحر مويس التى تروى ولاية الشرقية من بحيرة المنزلة إلى الجنوب الغربى من جزر المطرية . ويبلغ إتساع هذه الترعة إبتداء من سمنة حتى البحيرة من ٥٠ إلى ١٢٠ متراً ، ويبلغ عمقها من ٣ إلى ٤ أمتار ، وهى متصلة بالنيل وتصب فى البحيرة أثناء الفيضان كمية هائلة من المياه تندفع فيها لمسافة كبيرة دون أن تصبح مالحة الطعم . وشواطىء هذه الترعة مسطحة مما يلىء أنها لا تعود مطلقاً إلى الأزمنة الحديثة كما سنرى فى القسم الخامس .

وهذه الآثار فى مجموعها هى أكثر من كافية كى تجعلنى أظن بأن بحر مويس هذا ليس سوى جزء من الفرع التانيسى الذى كان يمتد حتى فم « مصب أو فتحة » أم فرج ، والذى توجد على شاطئه الأيمن مدينتنا : الطاينة وتنيس ، ولقد تيقنت فى هذه الأثناء . . وعند عودتنا ، وفى وقت إنشائنا خريطة البحيرة تبعاً للبيانات التى حصلنا عليها من العمليات التى قمنا بها حول إتجاه ترعة مويس أن جزر الطينة وتنيس وفتحة أم فرج ليست مصطفة فى خط مستقيم . . وإنما

يتخذ الخط الواصل بينها شكل المنحنى الطبيعى الذى تصنعه مجارى المياه . كما لابد أن أشير إلى أن آثار الفرع المنديسي وفمه هو فتحة ديبة ، ينبغى البحث عنه بالاتجاه نحو ترعة أشمون .

(٢)

الوضع الحالى لبحيرة المنزلة

تقع بحيرة المنزلة بين خليجين كبيرين ، يتجزأ كل منهما إلى خلجان أخرى صغيرة ، وبين لسان طويل من الأرض المنخفضة ، ضيق الإتساع ويفصلها عن البحر . ويشكل الخليجان بإندماجهما فى بعضهما البعض شبه جزيرة المنزلة التى توجد على طرفها جزر المطرية ، وقد تكون هى الجزر الوحيدة المسكونة هناك ويبلغ أقصى إتساع للبحيرة بإتجاه غرب الشمال الغربى حوالى ٨٥٠ر٨٣م « ٠٠٠ر٤٣ قامة » وهو يمتد من دمياط إلى بيلوز « بالوظة » أما أصغر إتساع لها ، وهو إتجاه عمودى مع الإتجاه الأول بدءاً من المطرية فيبلغ ٠٠٠ر١٧متر « ٧٢٢ر٨ قامة » .

وجزر المطرية كثيفة السكان ، وتغطى كل مساحتها الأكواخ التى تؤوى سكانها ، وهذه مبنية فى جزء منها بالطين وفى جزء آخر بالطوب . وتتناثر الأكواخ فى جزيرة ميت المطرية وتختلط بالمقابر ، وهى أشبه ما تكون بأكداس من الجحور منها إلى مساكن الآدميين . . ويبلغ عدد سكان هذه المنطقة — غير النساء والأطفال ١١٠٠ رجل من العاملين بصيد الأسماك والطيور المائية .

ويخضع هؤلاء لنفوذ أربعين رئيساً ، يخضعون بدورهم لحسن طوبار الذى يحتكر حق الصيد فى بحيرة المنزلة نظير أتاوة يقدمها للبكوات « المماليك »

.. وبخلاف ذلك فحسن طوبار هذا هو واحد من أكثر ملاك مصر ثراء . ولعله الوحيد الذى تجرأ على تكديس هذا الكم من الأملاك العقارية التى يتملكها، وعائلته من أكبر عائلات المنزلة . وهى تضم أربعة أو خمسة أجيال من الشيوخ . وسلطة حسن طوبار جد هائلة ، وهى تقوم على نفوذه ، وثقة الناس به ، وعلى ثروته ، وأهله كثيرى العدد ، وعلى العدد الهائل من الأجراء الذين يرتبطون به ، وكذلك على دعم البدو الذين يمنحهم الأرض لزراعتها ، ويغرق شيوخهم بالهدايا ، وتستطيع هذه الجماعات من العربان الوصول إلى ترعة بحر مويس عن طريق الصالحية التى تتفرع منها ومن هناك يبلغون البحيرة للاتصال بسكان المنزلة والمطرية . ويعد الأخيرون باعتبارهم الملاك الوحيدين لحوالى ٥٠٠ إلى ٦٠٠ قارب صيد تجوب البحيرة ، متحالفين مع جيران على هذا النحو « العربان » — يعدون السادة المرهوبين والمتحكمين فى كل البحيرة والبلاد الواقعة على شطآنها . وتقوم تجارتهم على السمك المملح والسمك الطازج والبطارخ. أما صيد أسماك البورى الذى يجيء بيضه البطارخ فيتم بالقرب من فتحة ديبة .. ولهذا السبب يسكن ٥٠ إلى ٦٠ صياداً مع عائلاتهم داخل أكواخ من الحصير على قمم الجزر التى تجاور هذه الفتحة .

وصيادو بحيرة المنزلة ، وكذلك بدو القرى ، أناس بالغو النهم والجشع كما أنهم جاهلون جهلا عميقاً ، فهم لا يعرفون مطلقاً تقسيم الوقت إلى ساعات ولا حتى قياس الوقت بوسيلة الظل كما يفعل عربان الصحراء . فشروق الشمس، وغروبها ، ومنتصف النهار هى الفترات الوحيدة التى يميزونها فى كل الأربع والعشرين ساعة ، وباستعارة هذه التقسيمات الموجودة عندهم ، وبإعطائها تقديراً للمسافات ، يستطيع المرء الحصول على بعض المعلومات حول مواقع الأماكن فى مناطقهم .

أما المنزلة ، التى منحت البحيرة اسمها ، فهى مدينة قليلة الأهمية ، خربة

فى جزء منها ، وتقع على الشط الأيمن لترعة أشمون على بعد ثلاثة فراسخ من المنزلة ، وستة فراسخ من دمياط ، ويبلغ تعداد سكانها حوالى الألفين ، وتوجد فيها مصانع للأقمشة الحريرية وأقمشة القلاع التى تحتاجها المطرية ، وبها كذلك مصابغ وبعض مصانع أخرى ضئيلة الأهمية .

ويرى المرء فى بحيرة المنزلة جزر كانت آهلة فيما مضى ، تغطيها الأنقاض وتشكل نتوءات بالغة الأهمية متناثرة وسط المياه ، مما يجعل السكان يطلقون عليها اسم الجبال[١] ، وسنوضح فيما بعد أن هذه الجزر كانت مدناً تنتمى إلى قارة غارقة .

وتبدو جزيرتا تنيس وتونة باعتبارهما أهم الجزر ، وقد احتفظت الأولى باسمها القديم ، أما جزيرة تونة فقد أصبح يطلق عليها إسم الشيخ عبد الله، وهو اسم شيخ أو ولى أقيم له ضريح فى هذه الجزيرة . وتبعاً لملاحظة المسيو فولنى فإن هذه التسميات : شيخ ، ولى ، مجنون ، ابله .. إنما هى مترادفات.فالأولياء هم أولئك الأشخاص الذين يثيرون أثناء حياتهم دهشة الناس فى آسيا بذلك الغموض المبالغ فيه والذى يحيط بما يأتون به من فعال ، وتقام لهم بعد مماتهم أضرحة مقدسة ، لأنها تثير حماسة المؤمنين الذين يودعون فيها بدافع من الورع بعض الصدقات للفقراء .ومع ذلك أليست لكنائسنا الكبرى وكنائسنا الصغيرة المنعزلة فى الأرياف أو فى الطرق النائية بصناديق الصدقات فيها وبمصابيحها المتوهجة ، وتلك الصور التى خطتها على الجدران ريشة الروحانيات أو الخرافة .. أليست لها نفس الأغراض ؟

وجزر بحيرة المنزلة التى نراها فى مستوى سطح الماء ، إنما هى قاحلة وغير مزروعة ولا يجد المرء أى نتاج فيها سوى نباتات بحرية . وتوجد فى البعض منها

---

(١) فيقولون : جبل تنيس ، جبل التونة ، جبل سمنة .

أضرحة تعلو هذا السطح المستوى ، وهى نقاط الاستدلال الوحيدة التى يمكن أن نجدها هناك لإنشاء خريطتنا .

ومياه بحيرة المنزلة أفضل مذاقاً على نحو ما من مياه البحر . وتكون صالحة أثناء الفيضان على بعد مسافة كبيرة من فتحات الترع التى تصب فيها مياهها مثل ترعة بحر موريس . ويجد المرء المياه مالحة على نحو خفيف أو ذات مذاق ماسخ « لا مذاق له ولا لذة » ، وذلك على الشواطىء التى تخترقها المياه التى تتسرب من مزارع الأرز .

ومياه البحيرة فوسفورية ، أما هواؤها فصحى لدرجة كبيرة للغاية ، ومنذ ما يزيد على ثلاثين عاماً لم يعرف سكان المنزلة شكل الطاعون فى جزرهم . ويبلغ عمق مياه البحيرة فى عمومه المتر ، لكنه يبلغ ما بين مترين إلى خمسة أمتار تجاه الفرعين القديمين التانيسى والمنديسى .

وقاع البحيرة من الصلصال المختلط بالرمال عند المصبات ، ومن الطين الأسود عند فتحتى ديبة وأم فرج ، ومن الطين المختلط بالقواقع فى بقية أجزائها وتغطيه الطحالب فى معظم أجزائه .

وبحيرة المنزلة ثرية فى أسماكها ، ويتردد على مدخل فتحاتها خنازير البحر ولم نشاهد الكثير من الطيور فوق البحيرة ، لكننا شاهدنا ذلك فوق البلاج بطول البحر ، فى الأماكن التى انحسرت عنها المياه منذ مدة قصيرة .

وتتم الملاحة فى البحيرة بواسطة الشراع ، وبالمجداف وبالعصى الطويلة وتضاعف الريح العكسية من الوقت اللازم لرحلة ما ، وأحياناً تصل به لثلاثة أمثاله وذلك بسبب قوتها ويرسى الصيادون قواربهم بربطها إلى عصوين طويلتين ، يغرسون أولاهما من الأمام والأخرى من الخلف بسهولة بالغة . ولمراكب الصيد فى بحيرة المنزلة نفس الشكل على وجه التقريب الذى لمراكب الصيد فى

النيل ، أى أن لها جؤجؤا « مقدمة السفينة » أكثر ارتفاعا بحوالى ٧٠ سم من كوثلها « مؤخرتها » لكن مؤخرة المراكب الأولى تنغمس فى الماء على نحو أكبر ، مما يعطى سهولة كبيرة للصياد الواقف على السطح فى أن يجمع شباكه وأن يقذف بها وأن يسحبها . وصالب هذه القوارب « العارضة الرئيسية التى تمتد بطول القاع » مقعر وذلك بسبب حوادث الجنوح كثيرة الحدوث فى بحيرة قدر عليها أن تضم كثيراً من المناطق الضحلة .

وعندما يذهب أهالى المطرية إلى الصيد بعيداً عن جزرهم ، فإنهم يأخذون معهم المياه العذبة فى جرار كبيرة تربط فى قاع قواربهم ، وفى كل قارب واحدة من هذه الجرار .

ويبدو أن صيادى المطرية يشكلون فئة خاصة . وحيث أنهم يحرمون الصيد فى بحيرة المنزلة على جيرانهم فاتصالهم بهؤلاء الجيران قليل ، وحيث أنهم على الدوام تقريباً عراة فى الماء ، منهمكون فى أعمال شاقة ، فإنهم أقوياء الجسم ، ضخام الهيئة ، نشطون وأولو عزم . وعلى الرغم من تقاطيعهم الجميلة فإن لهم منظراً وحشياً ، وبشرة لوحتها الشمس ، ولحية سوداء خشنة تزيد مظهرهم وحشية .. وعندما يجدون أنفسهم فى حضرة أعدائهم ، يطلقون آلاف الصرخات الهمجية بنغمة مرعبة ، ويضربون على نوع من الدفوف وعلى سطح قواربهم ، وفوق كل ما من شأنه أن يحدث ضجة ، فينفخون فى الأبواق ، وينشرون عن طريق أصداف القواقع هذه إلى بعيد صوت «رحهم»[1] المشهور . يقول جنودنا الذين سمعوا مثل هذه الضجة لو أننا كنا رجال الأمن هنا لأفزعتنا هذه الضجة حتى لنلقى بأنفسنا إلى المياه » وهكذا يحتفظ جندنا الفرنسيون برحهم فى كل مكان ويعرفون كيف يخففون بكلمة طيبة من الضجر الذى يحاصرهم أو الخطر الذى يحدق بهم ، والذى يجدون أنفسهم فى خضمه وقد دفعتهم إليه الظروف

(١) أى : « روح عنى يا كلب » .

ولا تتصل بحيرة المنزلة بالبحر إلا عن طريق فتحتين يمكن اجتيازهما وهما: فتحة ديبة وفتحة أم فرج ، واللتان كانتا مصبي الفرعين التانيسى والمنديسى ، القديمين .

وبين هاتين الفتحتين توجد فتحة ثالثة كان يمكنها أن تتصل بالبحر لولا هذا السد الصناعي المكون من صفين من الأوتاد ، تملأ الفراغات بينها نباتات بحرية مكدسة ، وثمة فتحة مشابهة لكنها تغطى الآن بالرمال ، وتقع خلف فتحة أم فرج. وكان القدماء يعرفون هذه الفتحات ويشير إليها سترابون باسم الفتحات الكاذبة .

أما لسان الأرض الذى يفصل البحر عن البحيرة والذى يمتد عند الفتحة الفاتنيسية — أو فتحة مصب دمياط ، حتى الفتحة البيلوزية أى فتحة المصب البلوزى فليس به سوى أربعة قطوع على امتداد يبلغ ٩٢٫٠٠٠ من الأمتار وهذا اللسان ، الذى يتسع نوعاً ما فيما بين دمياط وديبة ، وبين أم فرج وبيلوز يضيق إلى حد كبير فيما بين ديبة وأم فرج . وهو شديد الإنخفاض ، كما أنه مزروع ، تغطيه فى جزء منــه ، شأنه شأن جزر البحيرة ، نباتات بحرية ، وليس البلاج هنا ثريا فى قواقعه على الاطلاق ولا يرى المرء هناك لا زلطات مستديرة ولا أية أحجار أخرى ، وإنما فقط بعض المسفات « حجارة خفيفة نخرة توجد عند مرمى الموج » التى يرمى بها البحر . وأشهر القواقع هناك هى الحلزون وذات الصدفتين من النوع الصغير .

ويغلق كل فتحة من جهة البحر مرفأ مستدير فى جزء منه يتصل طرفاه بالساحل عند صخور الشاطىء . وتختلف هذه المرافىء عن تلك التى توجد عند مصب النيل فى دمياط ـ والتى لها فضلا عن ذلك نفس الشكل ونفس الموقع ـ فى أن ليس لها على الإطلاق أى بوغاز ، ولكن حيث أن الرياح ترفع المياه فى المضيق لما يقرب من ٦ ديسمترات ، وأكثر فى بعض الأحيان ، فان

بالإمكان عبور هذه المرانىء بواسطة زوارق ذات غاطس معتدل . ولكى تكون هذه المرانىء بوغازات ، ينبغى أن توجد تيارات كبيرة فى هذه الفتحات ، لكن التيارات التى توجد هناك يضمها نوع من التوازن بين مياه البحر ومياه البحيرة أثناء وبعد الانقلابين كما سنوضح .

فى أثناء انقلاب الصيف ، تدفع رياح الشمال الغربى مياه البحر إلى جزء من سواحل مصر ، وتبقيها هناك معلقة مما يجعل مياه بحيرة المنزلة تطفو فوق الجزر الواطئة وعلى شواطىء البحيرة نفسها ، ومن جهة أخرى فان البحيرة تستقبل مياه الفيضان التى يكون فيها سطح هذا الحوض الواسع مستويا .

وعندما تتوقف رياح الشمال الغربى تنحسر مياه البحر من جديد بفعل ثقلها لتترك بلاجا مكشوفا يبلغ عرضه حوالى المائة متر ، وفى نفس الوقت يبدأ فيضان النيل فى الإنخفاض ، وتنسحب مياه البحيرة من فوق الجزء الذى غطته من أرض الجزر كما تهجر مياه الفيضان أرض مصر ، ويتكون عند فتحتى ديبة وأم فرج تيار من البحيرة إلى البحر تبلغ سرعته حوالى ثلاثة آلاف متر فى الساعة مما يحدث بالضرورة وبعد إنقضاء فترة معينة إنخفاضاً محسوساً فى مياه البحيرة .

إذن فمصر تتطلب منا أن ننظر إليها فى حالتين : الأولى فى الفترة التى تغطى فيها مياه الفيضان البلاد ، والثانية عندما تنصرف المياه كلية عن أرضها .

(٣)

عن الوضع الحالى للأراضى المجاورة لبحيرة المنزلة

تعد المناطق المحيطة بالمنزلة قاحلة فى جزء منها ومنزرعة فى جزء آخر ، كما أن ألسنة الأرض التى تمتد من مصب النيل حتى فتحة بيلوز بطول البحر هى

الأخرى قاحلة ، أما سهل بيلوز وحواف البحيرة بالإتجاه جنوباً نحو ولاية الشرقية فأرض صحراوية . ويخترق هذه الولاية ويروى أرضها بحر مويس وتروى هذه الترعة كذلك بالإضافة إلى ترعة أشمون جزءاً من منطقة المنزلة ، وتستقبل منطقة فارسكور مياه تعرف بهذا الاسم ، أما شبه جزيرة دمياط وشبه جزيرة المنزلة فتغطيهما حقول الأرز الجبلية . وتروى أراضيها ترع للرى تجاورها ترع أخرى للصرف . وقد أعطانى اقتراب ترعة قصب القش من ترعة روهار سلامة على بعد فرسخ إلى الجنوب من دمياط مفتاح نظام الرى المتبع فى هذه المنطقة ، كما مكننى من التعرف بسهولة ودون القيام بعمليات مسح على الفرق بين إرتفاع مياه النيل وإرتفاع مياه البحيرة .

وتأخذ الترعة الأولى مياهها من النيل وتتجه نحو البحيرة ، ولكنها لاتتصل بها ، إذ تسدها الأنقاض والأتربة، وتتفرع منها عن ـ طريق قطوع ـ جداول الرى .

أما الثانية فتتصل بالبحيرة ، وهى أكثر إنخفاضاً من ترعة قصب القش التى تنتهى فى مواجهتها ولا تنفصل عنها إلا بجسر قليل السمك ، وهذه الترعة مخصصة لتلقى مياه الصرف من مزارع الأرز .

وبمقارنة إرتفاع المياه فى هاتين الترعتين فى الجزء الجنوبى من الجسر الذى يفصل بينهما، وجدنا أن مستوى المياه فى الترعة يعلو على مستواه فى الترعة الثانية فى الخامس عشر من فندمير ٣٥٠ مم ، وهو نفس ما سجله فى هذا اليوم منسوب إرتفاع النيل فى الجزء المقابل لبحيرة المنزلة حيث أن العلاقة بين هذين المنسوبين ومنسوب المياه فى الترعة الأولى ومنسوبها فى الترعة الثانية » ينبغى أن تتغير تبعاً للكميات التى تنخفض إليها « أو تعلو » كل من مياه النيل ومياه البحيرة وتوجد إلى أسفل المنزلة ترعتان تعطيان النسبتين نفسيهما ، ولا بد أن الأمر لا يختلف عن ذلك فى خليج فارسكور ، وسوف يوضع مقياس للنيل

وآخر للمنزلة ، يوضحان فى كل هذه النقاط العلاقة اليومية بين هذه التغيرات « فى منسوب إرتفاع المياه » .

وتقسم أراضى حقول الأرز إلى أجزاء تحدها جسور صغيرة توجد بها قطاعات تفتح وتغلق حسب الطلب لإدخال مياه الرى أو لصرفها . وبنفس هذه الطريقة تعد الحقول للبذار ، وتعد كذلك مربعات استخراج الملح البحرى عن طريق البخر ، وفى الحالة الأخيرة تتعرض المياه للبخرة الأولى بحصرها فى خزان منفصل وعندما تركز على هذا النحو ، يقوم العمال بإدخالها إلى التقسيمات المشار إليها حيث تنتشر على السطح فى عمق قليل ، أما المياه الأم فتتجه إلى خزان أكثر إنخفاضاً . .

وعندما يراد البذار ، تحرث الأرض حرثة أولى ثم تغمر بعد ذلك بالمياه. وبعد أربع وعشرين ساعة ، وبعد أن تكون الأرض قد نالت كفايتها من البلل ، يدخل إليها رجال كثيرون ، يحرثون فيها حفرات بأيديهم ويسوونها ويلقون إلى الخارج بقطع الطين شديدة الصلابة ، وبعد إنتهاء هذه العملية تصرف المياه وبعد وقت قصير تبذر البذور ، وبعد بضعة أيام تكسو الخضرة كل الحقل. وقد لاحظنا أن أكوام الردم التى تحيط بترع الرى تستخدم سماداً فيقوم الفلاحون بوضعها أكواماً فى الحقول قبل أن تخطط هذه خطوطاً ، ويتم ذلك بنفس الطريقة التى تجهز بها أكوام القمامة فى أوربا . ويلاحظ المرء فى هذا النظام وجود ترعة علوية تغذى الحقول بمياه الرى وترعة سفلية تستقبل صرف هذه المياه نفسها بعد استعمالها .

وعندما لا يصبح فى الإمكان تزويد هذا المستوى العالى بالمياه ، فان مياه الرى هذه ترفع إليها بواسطة سواقى ذات قواديس أو سواقى ذات ثقوب مجوفة ، ويفضل استخدام الأخيرة عندما لا تكون قناة التغذية منخفضة إنخفاضاً كبيراً .

تلك هي الكيفية التي تتم بها زراعة الأراضي في ضواحي دمياط والمنزلة. ويتبع المنزلة بالقرب من البحيرة وفي الجزء الواقع بين الفرعين اللذين تنقسم إليهما ترعة أشمون إلى الشمال من المدينة مستنقعان ملحيان يهيئان كمية كبيرة من الملح الذي يتم إستخلاصه — بالوسيلة التي سبقت الإشارة إليها — ناصع البياض ، متبلوراً في طبقات يبلغ سمكها ٦ — ٨ مم .

ويتجه أحد فرعي ترعة أشمون نحو العصافرة ، وتستخدم مياهها في تغذية حقول الأرز ، أثناء الفيضان في سقاية سكان جزر المطرية وسكان القرى المجاورة . وينتهز السكان هذه الفرصة المواتية ليملأوا الخزانات العامة التي هي خزانات مياه كبيرة ذات سقف مفتوح ومبنية بمواد بناء وتكسوها من الداخل طبقة من الأسمنت بالغ النعومة ، وتخزن فيها المياه بعمق خمسة أمتار ، وعندما ينضب هذا المصدر . تفتح في الريف آبار يبلغ عمقها حوالي ثلاثة أمتار وهي شديدة الوفرة في مياهها وليس من الغريب أن تطفو المياه في هذه الخزانات الصناعية المحفورة في أرض ندية ، تغرقها المياه أربعة شهور في العام ، وتتكون طبقاتها السفلية من صلصال لزج لا تنفذ من خلاله السوائل .

(٤)

تكوين بحيرة المنزلة

تبعاً لما سبق أن قلناه عن الاتجاه القديم للفرعين التانيسي والمنديسي فقد كان هذان الفرعان فيما يبدو يعبران كي يتجها إلى البحر تلك الأرض التي تغطيها اليوم بحيرة المنزلة ، فهذه البحيرة إذن ليست بحيرة على الإطلاق تشابه تلك التي نراها على سواحل لانجدوق « إحدى مقاطعات فرنسا القديمة » وروسيون وعلى هذا فهذه البحيرة لم تكن موجودة منذ البداية . لكن يا ترى ، ما هو السبب في تكوينها ؟ هذا ما نحن بصدد تفسيره .

قلت للتو أن هذه البحيرة ليست على الاطلاق بحيرة بحرية . فطبيعة قاعها الذى يوجد فى كل مكان منه طمى النيل ، وكذلك عمق المياه بها الذى لا يزيد عن متر واحد فى العادة . . بينما يغوص هـــذا العمق لأكثر من ذلك بكثير من الاتجاهين المفترضين للفرعين التانيسى والمنديسى ، كل ذلك يعلن بوضوح أن حوض بحيرة المنزلة هو أرض رسوبية كونتها فروع النيل ، ولم يتكون « هذا الحوض » بفعل حركة مياه البحر .

وقلت فى مكان آخر أن هذه البحيرة لا يمكن أن تكون قد تكونت إلا بفعل فقدان التوازن بين مياه البحر من جهة ومياه الفرعين التانيسى والمنديسى من جهة أخرى .

أما الفرع الفانتيسى أو فرع دمياط ، فحيث أن يد الإنسان هى التى حفرته ـ كما يخبرنا بذلك هيرودوت ـ فلابد أنه لم يكن على الأرجح فى نفس الحجم الذى نراه عليه اليوم ، ومن المحتمل أن يكون حجمه قد كبر على حساب الفروع البيلوزى والتانيسى والمنديسى بحيث أن المياه عندما شحت من الفرعين الأخيرين فإنهما لم يعودا فى حالة تمكنهما من صنع التوازن اللازم مع مياه البحر ، ومن هنا اقتحمتهما المياه المالحة ،ولابد أن ذلك قد تم بقـدر كبير من السهولة ،ذلك أن رياح الشمال الغربى وهى التى يستمر هبوبها شهوراً عديدة من السنة على السواحل المصرية ترفع من منسوب البحر ، وتدفع بمياهه كما سبق أن لفتنا النظر لتستقر فوق الأراضى المجاورة .

وعمل هذه الرياح أمر لافت للنظر فى ضواحى دمياط ، ولابد أن يكون كذلك فى أماكن أخرى ، حتى أن أضخم الأشجار مثل أشجار الجميز تميل دائما نحو الجنوب ، أما قممها ، من ناحية الشمال ، فتكون عارية من الأوراق وتكون أغصانها الجرداء ملتوية وملفوفة كما لو كانت قد قلمت بمقص . وثمة واقعتان قريبتان حدثتا فى مصر تنهضان لدعم إفتراضاتنا هذه .

ففى بداية القرن الأخير « السابع عشر » طغت مياه البحر الهائجة على الساحل بين رشيد والإسكندرية وحفرت لنفسها هناك مجارى عميقة [1] ، وعندما فتحت بعد ذلك من جديد ترعة الفرعونية ، إندفعت مياه النيل فى هذا المجرى الجديد ، ولكن هنا شحت المياه من فرع دمياط فتوغلت فى هذا الفرع ولمسافة كبيرة مياه البحر وكان الدمار كبيراً لحد اضطر معه أولو الأمر أن يعيدوا إغلاق مدخل هذه الترعة على وجه السرعة وهى التى كانت قد أعيد فتحها دون إتخاذ أية احتياطات . « تأخذ هذه الترعة مياهها من فرع دمياط وتصب فى فرع رشيد » ومن المحتمل أن تكون بحيرة البرلس قد تكونت بنفس الطريقة .

أما عن تفتت الأرض الذى نتج ولابد عن إندفاع مياه البحـــر ومن تحركاتها فى الحوض الذى تشغله بحيرة المنزلة ، فقد يكفى أن نسوق هنا مثلا من نهر الموز « نهر ينبع من فرنسا فى مقاطعة المارن العليا ويروى فرنسا وبلجيكا وهولندا » . ألم يؤد انهيار سدود هذا النهر فى عام ١٤٢١ إلى تحول الأرض إلى بحيرات شاطئية،«أى بحيرات تقع بين الأرض والرصيف وتتصل بالبحر بعدد من المجارى » بها عدد كبير من الجزر والأجزاء الضحلة ، يبحر الناس من خلالهـا الآن ؟ وقد غطت هذه البحيرات مساحة واسعة من البلاد كانت تضم أكثر من مائة قرية بأراضيها الزراعية . ومن المعروف أن هذا المستنقع الواسع يحمل اسم بيبس — بوس أى غابة البوص .

ومن جهة أخرى فإن تضخم فرع دمياط لم يكن هو السبب الوحيد لإضمحلال الفروع : البياوزى والتانيسى والمنديسى ، فقد ساهم فى حدوث ذلك تلك الإدارة السيئة للمياه ونقص العناية بالترع ، كما أن وضع هذه المناطق وموقعها قد هيئا فرصة حدوث ذلك .

---

(١) انظر :
Voyage de Paul Iucas au Levant, tome II Pag. 19 et s.

وإذا ما تأملنا المضيق الذى يفصل البحر الأحمر عن البحر الأبيض فسوف نرى أن جبلى المقطم وكاسيوس هما شناخا هذا البحر من الرمال(*) .

كما ينبىء هذا النتوء والذى يوجد بينهما ، والذى يكاد يكون غير محسوس ، وهو ما قد لا تراه العين فى مجمله ، وان كان هذا لا يعنى عدم وجوده فى الطبيعة - ينبىء هذا النتوء عن إنفصال خليج السويس عن خليج غزة ، وهكذا فإذا ما تحدثنا من وجهة نظر طبوغرافية ، فسنجد أن النيل ينتمى إلى أفريقيا أكثر من انتمائه إلى آسيا (١) .

وعلى الرغم من أن الإدارة السيئة للمياه قد ساهمت فى تدهور حالة الفروع البيلوزى والتانيسى والمنديسى . . فان مياه النيل من جانبها لم تكن قابلة الميل للذهاب عبر هذه الفروع للحد الذى يكون من المستحيل معه إعادتها إليها من جديد ، بل أن هناك ظرفا بعينه ، وهو إرتفاع قاع النيل ، و هو الذى أدى بدوره إلى زيادة إرتفاع منسوب هذه المياه ، يجعل من رأينا هـــذا أكثر إحتمالا ، وسوف نتوصل بإعادة العمل إلى الفرعين التانيسى والمنديسى إلى تجفيف بحيرة المنزلة . ومع ذلك فان من المفيد - حتى نحكم على الوسائل التى قد نستطيع اللجوء إليها لهذا الغرض ، أن نتفحص تلك الطريقة التى قد تكون الدلتا قد تكونت بها ، فلهذين الموضوعين - فيما بينهما - علاقة مباشرة .

(*) شناخ : أنف الجبل الخارج منه والداخل إلى البحر . (المترجم)

(١) من المعروف أن النيل فى الأزمنة القديمة كان يفصل أفريقيا عن آسيا . انظر بلين Pline .

(٥)

تجفيف بحيرة المنزلة

عندما تنتظم الجسور مجرى نهر ما ، فان من خاصيتها أن تحصر كمية المياه « التى كانت تفيض على مساحة كبيرة فى رقعة محددة ، ونتيجة لذلك أن ترفع من منسوبها . وعندما تكون هذه المياه حاملة للعكارة والأوحال ، فسوف يكون من خاصية هذه الجسور كذلك أن ترفع قاع الترع ، لأن المياه فى هذه الحالة ترسب فى مكان بالغ التحدد تلك العكارة التى كانت تنشرها فى مساحة أكبر إتساعاً .

وقبل أن تقوم جسور لنهرى ألبو والمانشو « فى ايطاليا » لم تكن فيضانات النهر الأخير لتصل حتى مدينة مانتو[١] ، أما الآن فهى تفيض فى البحيرة الدنيا . ومنذ سنة ١٦٠٧ رفعت الفيضانات قاع النهر الذى كان يبلغ عمقه ٢٣ ديسمتراً بمقدار الثلث بفعل عمليات الترسيب[٢] . وحيث تأتى مياه البحر كما فى الفيضانات الكبرى نتيجة إرتفاع المياه فى البحيرة العليا ، وحيث يبلغ اختلاف المستوى بين البحيرتين ما يقرب من المترين فقد رأينا أنه بانحصار النهرين ، البو والمانشو ، بين جسرين ، فان منسوب البو قد إرتفع إلى مستوى ٤٣ ديسمتراً ، وهو المستوى الذى لم يكن يبلغه من قبل . وينتج عن ذلك أن سرير مجرى البو قد ظل عاليا بالنسبة لتلك السهول الخفيضة التى تجاور مجـــراه لأنها لم تنل نصيباً من ترسيبات النهر كما لم تحصل على أية ترسيبات خارجية ، وأن الأراضى التى تجفف عن طريق صرف مياها ، مهددة فى كل لحظة بأن تغرق غرقا تاماً إذا ما انقطعت جسور النهر أثناء الفيضان[٣] .

---

(١) Bertazzolo Del Sostegno di Governalo. P.31

(٢) Ablati Mari, Montovano, Idraulica Pratica ragionata.

(٣) قدم المستر دولوميو Dolomieu آراء مشابهة فى مقالته القيمة عن مصر ، والتى نشرت فى عام ١٧٩٤ ، وإنى لأشعر بزهو شديد ، إذ تلاقيت فى هذه النقطة مع هذا العالم الطبيعى الفذ ، والذى كنت أتمنى لو أنى كنت ألممت بمقالته تلك ، فى وقت أكثر تبكيرا .

ونفس الشيء بالنسبة للأراضى التى تعبرها كل النهيرات المجسرة فى إيطاليا وهولندا وزيلندا . والتلاندر البحرية . . فان هذه الدلتاوات « دلتا » التى تكونت بفعل ترسيبات الرين والموز والاسكوت وليس بفعل ترسيبات لاحقة ، تعانى من نفس الأمر .

ونخلص فى المقابل إلى أنه ، عندما يوجد سهل خفيض يجاور البحر وتخترقه نهيرات تحمل ترسيبات طينية ، وعندما يكون هذا السهل أعلى من منسوب إرتفاع مياه أقوى الفيضانات فلابد أن يكون هذا السهل قد تكون بفعل الترسيبات .

لنطبق الآن على النيل ما سبق أن قلناه عن نهر البو ، وبإمكاننا أن نقيم مقارنة شيقة بين هذين النهرين ومن حيث أن لكليهما مجرى طويلا ، وأنهما يحملان رواسب طينية ، ويتمتعان بفيضانات موسمية . . كما يتجهان كلاهما ليصبا فى نفس البحر .

وقبل أن ينتظم مجرى النيل ، كانت مياهه بعد خروجها من الجبال تنتشر مثل مياه البو فوق مساحة شاسعة كانت تغرقها طيلة العام . وقد لم سيزوستريس مياه النيل فى ترع إلى الشمال من ممفيس وحصرها بين جسور ، وبهذه الطريقة شكل النهر دلتاوات عدة ولو أن قدماء المصريين قد حالوا بين مياه النيل وهذه الدلتاوات ، ليس فقط بسبب طبيعة المناخ ، لحرموها من الزراعة ، ولكن تبعاً لما سبق أن عرضناه فبدلا من أن نكون بصدد نيل يجرى بين شواطىء شكلها لنفسه . . فقد أصبح لدينا نهر محصور داخل جسور اصطناعية يتحكم فى تربة مصر .

لنلته إذن إلى هذه النتيجة وهى أن دلتاوات مصر قد تكونت بفعل ترسيبات ساعدت على حدوثها أعمال البشر .

ولا بد أن نفترض أن الدلتا التى أصبحت محصورة بشكل قاطع بين الفرعين الحاليين للنيل كانت تمتد لتنحصر بين تلك الجبال النائية والمتباعدة إلى الغرب نحو

الإسكندرية وبين تلك التلال التي يدتمي إليها جبل المقطم. وتنبئنا مواقع فروع النيل القديمة والتي يدل انتظامها على عمل الإنسان أن هذا هو الامتداد الطبيعي الذي حددته الطبيعة والذي كان المصريون القدماء يحددون به الدلتا .

وتبعاً لما انتهينا إليه فإن تجفيف بحيرة المنزلة يقتصر على اتخاذ الخطوات الآتيـة :

١ — التعرف على الاتجاه القديم للفرعين التانيسي والمنديسي وإعادة حفرهما .

٢ — إدخال مياه النيل أثناء الفيضان إلى الدلتاوات الفرعية للحصول على الطمي ، وهذا ما يمكن حدوثه دون المخاطرة بتبديد كمية ضخمة من مياه النيل عن طريق فرع دمياط وترعة بحر مويس.

٣ — عمل قطوع تقفلها هويسات في مناطق من الساحل لتلك الفروع التي يراد إنشاؤها .

٤ — وأخيراً فتح هذه الهويسات عندما تنحسر مياه البحر من جنوب الساحل حتى تساعد على تصريف مياه النهر بعد أن تكون قد رسبت طميها .

وتتطلب كل هذه العمليات ، على الرغم من إمكانية تنفيذها ، أن تتم بأكبر قدر من الحذق والحذر في وقت معاً حتى لا تشح المياه فجأة وبدرجة أكبر عما ينبغي في فرع دمياط الذي قد يتطلب الأمر العمـــل مستقبلا على تضييق مجراه .

كان هيرودوت هو أول من ذكر أن الدلتا هبة النيل . . ويجادل بعض المحدثين في هذه الفـكرة ، وكان فريريه[١] هو الذي تصدى أكثر من غيره لدحض

---

(١) Fréret, Memoires de l'academie des inscriptions.

هذه الفكرة مدفوعاً بما توصل إليه حول بعض الأنظمة الجيولوجية ، بل لقد ذهب إلى حد التشكك فى إمكانية أن تشكل العكارات التى يحملها النيل أية ترسيبات .. ولكن كيف نفسر إذن انسداد الترع فى مصر مالم يكن السبب هو طمى النيل ؟ ولماذا ننكر على المياه التى تنتشر على السطح والتى تقل نتيجة لذلك سرعتها أن ترسب من طميها ، بينما تتمتع بهذه الميزة تلك المياه المحصورة فى الترع والتى لا تتقلص سرعتها لتلك الدرجة ؟

وكان هيرودوت كذلك هو أول من ألمح بذكاء إلى سبب تكون مصادر المياه والذى لم يتيسر تأييده إلا فى القرن الأخير « الثامن عشر » عن طريق حسابات ماريوت والتى قدم لها ديكارت تفسيراً هندسياً وإن كان أقل ترجيحاً . ولهذا فلم يعد المرء ليشك فى هذه الميكانيزم البديعة لدورة مياه البحر نحو الجبال .. ومن الجبال نحو البحر ، بفعل عملية البخر ، وبواسطة ذلك الفاصل الزمنى الذى تستغرقه مسيرة الرياح بين البحر وبين الجبال ، وينبغى أن نضيف : وبواسطة ميكانيزم درجات الحرارة المتعارضة ، إذ أننى أعتقد أن من الممكن التأكيد بأن السحب فى السلاسل المركزية والعالية لا تتجاوز مطلقاً خط منتصف المياه وشبكة السقوط إذ يفصل هذا الخط درجتى حرارة الممرات الجبلية وهى الأجزاء سهلة المنال والتى يمكن لهذا الخط اختراقها ، ولكيلا تكون السحب على هذا الحد من الارتفاع فإنها ينبغى فى نفس الوقت ألا تكون فى موقع أقل منه بالنسبة لبؤرة ثورات الطقس .

ويفسر هذا المبدأ الذى تشكل مع محاولة تفهم حركة الرياح المسيطرة أثناء الانقلابين « الشتوى والصيفى » — يفسر أسباب تلك الأمطار الموسمية التى تحدث فيضان النيل ثم فيضان نهر النيجر ، وهو النهر الذى يجرى على الجانب الآخر من جبال أثيوبيا .

وتلفت الطريقة التى فسرنا بها تكون الدلتا أنظارنا إلى أن هذه الدلتا تعلو

فى نفس الوقت وأن قاع النيل يرتفع معها بالمثل . لكن ما هى العلاقة بين هاتين الزيادتين فى المنسوب ، وما هى احتمالات أن يفيض عليها النيل فى أضعف فيضاناته كما فى أكثرها غزارة بالمياه بشكل كاف وليس بشكل أكبر من اللازم؟ هذا ما ليس من السهل تحديده .

ولقد شعر قدماء المصريين منذ زمن طويل أنه لا بد لهم أن يسيطروا على مياه النيل إذا ماشاءوا ألا يتعرضون مطلقاً لخطر وجود مساحات كبيرة من الأرض محرومة من أحد عوامل النمو والخضرة «الماء» . ويزعم المؤرخون أنهم قد حفروا بحيرة موريس « بحيرة قارون » لكى تكون خزاناً منظماً لفيضانات النيل، فالمياه التى تصب فى هذا الخزان الواسع ،والذى يستقبلها أو يصرفها حسب الطلب عن طريق بحر يوسف تعوض فيما يقال انخفاض مياه الفيضانات بالغة الضعف، أما فى حالة الفيضانات الشاذة والعالية فقد كان هذا الخزان يخلص أرض مصر من المياه التى كان من الممكن أن تظل تغطيها لوقت بالغ الطول ، ولربما كانت هذه هى نفس الفكرة الضخمة التى كانت لديهم على الدوام ، ولعلها فى نفس الوقت أنسب الأفكار التى من شأنها ازدهار بلد ما ازدهاراً حقيقياً[1] .

ولا تزال توجد حتى اليوم تلك الترعة التى كانت تنقل الميـــاه من بحيرة موريس « قارون » أو بالأحرى من النيل من مصر العليا إلى بحيرة ماريوتيس « مريوط » وإن كان التلف قد أصاب نهاية مجراها . . ولهذا السبب ، نجد الجزء المجاور من ولاية البحيرة للصحراء ، والذى سبق أن خصبته مياه هذه الترعة ، محروماً اليوم من الزراعة .

---

(١) أوضحنا فى مقالتنا عن بحيرات وادى النطرون ، وفى ملاحظات عامة حول بحيرة موريس ، ما نراه حول هذه البحيرة ، وحول النظام البدائى للمياه فى مصر انظر المجلد الثانى من الترجمة العربية — الدراسة الرابعة) .

(٦)
طبيعة لسان الأرض
الذى يفصل بحيرة المنزلة عن البحر

رأينا تبعاً لما قلناه فى هذه المقالة أن جيولوجيا مصر السفلى تخضع لمبادىء بالغة البساطة ، فحيث لا تعرف الطبيعة هنا على الإطلاق نوبات المد الكبرى أو البراكين والزلازل أو تلك العواصف والإعصارات العنيفة التى ينظر لما تحدثه من دمار باعتباره كوارث تظل محفورة فى الذاكرة ، فقد وجب على أشكال الأرض فى هذه البلاد أن تحتفظ بالخواص العامة للمادة وأن تتبع تغييرات هذه الأشكال حركة العناصر الموحدة على الدوام والتى تتم بموجب قوانين الحركة والمقاومة . فالأمطار التى تسقط بشكل منتظم كل عام أثناء انقلاب الصيف فوق جبال الحبشة تنحت قمم هذه الجبال لصالح وادى النيل والدلتا ، ويترسب الطمى الذى يحمله النيل من هناك فى كل مكان تقل فيه سرعة مياهه ، فيرتفع مستوى الأرض التى تظل المياه فوقها زمناً ، وتكون كتلا من الرمال وتحدث بعض تغييرات عشوائية فى مجرى النهر وتساهم فى تشكيل المرافىء واتساع البلاجات.

وتحمل الأعاصير الرمال من قاع البحر ، وتلقى بها إلى الساحل ، وفى أوقات انحسار المياه تجف الرمال وتحملها الرياح من جديد من فوق صخور الساحل ولهذا السبب ترتفع البلاجات والكثبان وتتحول الأماكن المغطاة من صخور الساحل إلى بلاجات .

ويلتقى التيار الساحلى الذى يتبع سواحل المتوسط من الغرب إلى الشرق بمجرى فروع النيل ، وينتج من جهة اليسار ، ويسبب تضاؤل السرعة لهاتين القوتين المندفعتين ترسيباً يتخذ شكل قمم تتفاوت فى درجة حدتها ، بينما يتخذ البلاج على اليمين وهو الذى يقع بين اتجاه مجرى النهر وهذه القمم الحاصلة ، شكلا دائريا . وهذان الشكلان دائمان ، ويجدهما المرء عند مصب فرع دمياط وعند فتحتى ديبة وأم فرج .

وتشكل الرمال والطين التى تجلبها هـــذه الحركة المزدوجة ، فى اتساع البلاجات وبخاصة تلك التى تقع إلى اليمين حيث تنشأ تلك القمم أو الرءوس التى يراها المرء بين دمياط وبيلوز ، كما تساهم فى ذلك صخور الرصيف وهذا المنحدر الطويل الذى يتوغل إلى الشمال فى المياه ، والذى يبعد عن الشاطىء تلك المرافىء العميقة . وتتبع هذه المرافىء بطبيعتها اتجاه الرمال والطمى . ولخليج دمياط على يسار مصب النيل قاع صلب من الطين الأسود فى حين أن قاع خليجى بفافة ورأس بوو اللذين يقعان إلى اليمين ، من الطين الرخو الضارب إلى الصفرة ، وهناك تقوم السفن بالصيد فى بعض الأحيان ، دون مخاطر ، على بعد فرسخين أو ثلاثة فراسخ .

ويحملنا التماثل على الاعتقاد بأن البلاجات التى تربط بحيرة البراس وبحيرة البحيرة على فروع النيل تدين بتكوينها إلى نفس الأسباب .

وأخيراً فإن التيار الساحلى سواء فى حركته العادية أو عندما تدفعه الرياح القادمة من الغرب يشكل عند مقابلته لخليج غزة دوامات غير معروفة لنا إلا فيما ندر إذ هى تكاد لم تدرس على الإطلاق وقد ساهمت هذه الدوامات فى طمر الخليج من جهة بيلوز وسوف تواصل التقليل من اتساع هذا البلاج .

والآن ، فإذا أخذنا فى اعتبارنا أن النيل ، بدءاً من الدلتا حتى قمة جبال الحبشة ، يمر بين سلسلتين من الجبال الحجرية حتى أسوان ، والجرانيتية إلى الجنوب من هذه المدينة فسنحصل على فكرة تقريبية عن كل مايتعلق بجيولوجية مصر . وتبدو التلال التى تحيط بالصحراوات الليبية فى الجزء الأدنى من مصر على أنها تلال رملية إذ تغطيها الرمال الصوانية وإن كانت نواتها فى الواقع من الحجر الصخرى .

وقد اقتنعنا بذلك تمام الاقتناع عندما نزلنا فى الكهوف التى بها مومياوات الطيور إلى الجنوب من سقارة ، وعندما دخلنا المقابر الملاصقة لأهرام الجيزة وعندما تأملنا أبا الهول بل والأرض التى قامت عليها الأهرام نفسها .

(٧)
لمحة سريعة عن بعض المدن التى لها صلات ببحيرة المنزلة

تقدم بلاد مصر التى زرتها ، فى كل أنحائها تقريباً ملمحاً لفراغ سكانى كبير، ولقد قدر على مدن هذه المنطقة الواقعة عند مدخل سوريا أن تجد نفسها تحت أقدام الغزاة وكان عليها أن تستشعر قدوم جيوش الغزو التى كانت تنتمى فى غالبيتها العظمى إلى شعوب همجية ويقودها قادة لا سبيل إلى التعامل معهم من قمبيز أو عمرو ، العاتى الفظ ، على أن السبب الرئيسى فى التدهور التام لمدن هذه المنطقة كان بلا جدال هو جفاف الفروع البيلوزى والتانيسى والمنديسى .

كانت تقع على شواطىء هذه الفروع أو فى المناطق المجاورة لها مدن هامة مثل تنيس[١] وتونة ، وسمنـــة ، وبيلوز ، بالإضافة إلى مدن أخرى أقل أهمية .

ولقد أصبحت مدينتا تنيس وتونة ، الخربتان ، تقعان اليوم وسط المياه وتنتميان كما سبق أن قلنا إلى بحيرة المنزلة .

وكانت هاتان المدينتان كـكل المدن التى تصلها مياه الفيضان ، تنهضان فوق بسطة صناعية ، لـكن أرضهما المليئة بالأنقاض والتى نسير فوقهـا اليوم أرض غـير مزروعة بشكل تام ، بل أن سطحها قد أصيب بنوع من التبلور بحيث تئز الأرض وتتفتت تحت الأقـدام كما يفعل البرد وقد بدأ فى التجمد وهذا ما يجعل السير خلال هذه الجزر أمراً شاقاً وعسيراً .

كانت تنيس مدينة بالغـــة الاتساع ، وكان يقوم بالدفاع عنها سور من الجدران تعلوه أبراج وحصون وبه آبار تمتلىء بالمياه ، لـكنها اليوم خالية من

---

(١) تنيس Tennys ، مدينة رومانية ، بنيت فوق أنقاض مدينة مصرية ، وكانت تنيس هذه مزدهرة أيام أغسطس .

أى مبنى . فأنقاض حمامات ، وأطلال بعض القباب تحت الأرضية والمبنية بحذق بالغ . والتى يغطى جدرانها أسمنت بالغ الصلابة ، بل ويبدو بالغ الحداثة، وأنقاض كهف مستطيل من الجرانيت الأحمر.. تلك هى كل المبانى التى يستطيع أن يميزها المرء وسط أنقاض واسعة من الطوب الأحمر والخزف والفخار والقطع الزجاجية من كل لون .

ويقوم سكان البلاد المجاورة باستمرار بالحفر فى هذه الجزيرة ، ويجمعون هناك مواد يستخدمونها فى إقامة مساكنهم ، وبهـذه الطريقة نقلت العمد وقواعد العمد ، وقممها ومواد البناء المختلفة التى نراها اليوم موضوعة بشكل شديد الهمجية فى المساجد والمنشآت الرئيسية أو الملقاة كيفما أتفق فى المبانى العادية ، وعتبة أشكنة دمياط على سبيل المثال إنما هى قطعة من مسلة بالغة الجمال ، تملؤها النقوش الهيروغليفية ، ولقد وجدنا فى هذه المدينة بجوار أحد الأبواب قاعدتين عموديتين مليئتين بكتابتين أحداهما يونانيـــة والأخرى لاتينية ، كما وجدنا فى أحد مساجدها عموداً من الرخام الغامق المجزع ، يحمل كتابة يونانية متأخرة امتد إليها بعض التلف .

وكانت تونة أقل أهمية من تنيس ، ولقد قادتنا الصدفة السعيدة فيها لنعثر فوق سطح الأرض على تمثال قـديم من العقيق المجزع يقف فوق قاعدة من العقيق ويبلغ طوله ٣٦مم وعرضه ٢٨مم ويمثل رأس إنسان من منظور جانبى ، ينطق بتعابير كثيرة : عين ثاقبة ، وملمح شجاع ، وشفاه لامبالية تدل على الازدراء ، وشواهد أخرى ، وكل هذا يحملنا على الظن بأننا هنا بصدد تمثال لرأس أغسطس، ذلك الذى استطاع أن يقاوم سحر وجمال كليو باترة وأن يتغلب على كل الصعاب التى كانت تحول بينه وبين السلطة .

وتقع سمنة [٢] على شاطىء ترعة بحر مويس . . ويبدو أنها كانت مدينة

---

(١) سمنة Samnah ، وصان هى مدينة تانيس القديمة ، وقد أطلق عليها فى الترجمة السبعينية (التوراة) التى تمت فى مصر اسم تزوان Tzoan ومنها جاءت كلمة صان .
(انظر d'Anville) .

هامة فى الماضى وأنها كانت تمتد كثيراً محاذية للترعة ، ونرى بداخلها نوعاً من الفورم أو الميدان العمومى على شكل مستطيل ، وله مدخل كبير من ناحية الترعة ومنافذ فى الأجزاء الجانبية ، ويتجه المحور الكبير لهذا الميدان من الشرق إلى الغرب ، ولقد لمحنا فوقه كثيراً من المبانى المحطمة والمسلات المكسورة والمقلوبة . وعندما نتأمل أنقاضاً بهذه الضخامة فقد يحق أن ندهش من المجهودات التى لابد قد بذلت لقطع هذه المسلات بالقرب من قاعدتها ثم قلبها فى الأتربة بأكثر مما ينبغى أن ندهش من الوسائل والجهود التى استخدمها الناس أو بذلوها لإقامتها . ولقد احترم الزمن النقوش الهيروغليفية لواحدة من هذه المسلات وقد أخذنا رسماً لها .

واليوم ، فإن سمنة هى مستودع البلح الذى يجلب من الصالحية والذى يذهب صيادو البحيرة ليأخذوه مبادلة بالسمك المملح .

أما بيلوز[1] فتقع على الطرف الشرقى لبحيرة المنزلة بين البحر والكثبان ووسط سهل قاحل عار من أية خضرة . ويعبر طرف الفرع البيلوزى الذى تضاءل ليصبح قناة كبيرة تملأها الأوحال — يعبر هذا السهل بادئاً من البحيرة إلى البحر . ويوجد على شاطىء هذه الترعة قصر الطينة الذى انهار أنقاضاً بعيداً عن الشاطىء بمسافة كافية ، ويبدو أنه يعود إلى عصر دخول سليم إلى مصر . أما خرائب الفرما فتقع إلى الشرق من بيلوز نحو البحر .

وبعد أن اجتزنا المرفأ الواقع عند مدخل الفتحة البيلوزية ، وجدنا عمقاً كافياً من المياه فى مساحة معينة تكفى كى يحتمى فيها أسطول صغير من المراكب الصغيرة . ومن هذه المنطقة كانت مراكب بحيرة المنزلة تمارس عمليات التهريب إلى سوريا .

---

(١) بيلوز ، كلمة مشتقة من كلمة يونانية تعنى : الطين ، وقد احتفظ لها العرب بهذه التسمية عندما سموها الطينة .

أما الطريق الذى يؤدى من فتحة أم فرج إلى قطية[1] فيمر إلى الغرب من الطينة ومن خلال بيلوز . وهذا الطريق موحل للغاية ومن الأفضل أن يحاذى المرء فى سيره الفتحة البيلوزية .

وقد لاحظنا أثناء مرورنا أن ارتفاع الكثبان التى تقع إلى الشرق من بيلوز والتى تتجه جنوباً نحو ولاية الشرقية أمر يسمح لنا بالتأكد من أن ترعة الاتصال بين الخليج العربى « البحر الأحمر » والبحر المتوسط لا يمكن أن تؤدى إلا إلى الفرع البيلوزى وعلى مسافة كافية من مصب هذا الفرع . ومن هناك كانت الترعة تتفرع من النيل نحو البحر الأحمر ، إن الخوف من اندفاع مياه هذا البحر نحو البحر الأبيض ، والذى أعتقد أنه لا ينهض على أسس كافية سيكون برغم ذلك أقل احتمالا بكثير إذا ما أقيمت هويسات لتفادى هذا الاندفاع المفترض .

ويجد المرء فوق سطح سهل بيلوز ، وهو يتجه من البحر إلى الكثبان ، وعلى بعد مسافة قصيرة من هذه ، قواقع تنتشر فى البداية بوفرة كبيرة ثم تأخذ بعد ذلك فى التناقص حتى تصبح نادرة ، وفضلا عن ذلك تغطى كل سطح الأرض على وجه التقريب قشور ملحية ، وهكذا يعلن كل شىء أن مد البحر يصل إلى هناك

---

(١) يبدو أن قطية هى المدينة التى كان يطلق عليها كينت كوريس Quinte Curce (الكتاب الرابع) « معسكر الاسكندر » .

واليكم النص الذى ذكره ، نقلا عن ترجمة بوزيه Beauzée : « بعد رحيل الأسكندر بسبعة أيام من غزة ، وصل إلى هذه المنطقة من مصر ، التى تحمل اليوم اسم معسكر الاسكندر ، ومن هناك سير جنوده نحو بيلوز ، ثم أبحر عن طريق النيل مع رفقة من صفوته ، وقطية هى المعسكر الوحيد ، بسبب بعض الآبار الغزيرة التى توجد بها ، والتى يمكن أن يجدها المقدونيون فى اليوم السابع من رحيلهم من غزة ، وهى كذلك النقطة شديدة الاقتراب لتسيير فرق عسكرية إلى بيلوز ، وقد قطع جنود نابليون هذه المسافة فى ستة أيام فى حين قطعها جنود الأسكندر فى سبعة .

(وقد درست هذه المدينة الثانية فطيمة كما يذكر القاموس الجغرافى للبلاد المصرية ، والذى وضعه المرحوم محمد رمزى — المترجم) .

وتظل المياه فوق هذه المنطقة لمدة من العام وقت انقـــلاب الصيف على وجه التقريب . وظاهرة السراب شديدة الانتشار فى سهل بيلوز وتصبح الأشياء بعد نصف ساعة من شروق الشمس تبدو شائهة حتى أن المرء لا يعود قادراً على التعرف عليها[1] .

ويقول سترابون أن محيط بيلوز كان يبلغ عشرين غلوة وإنها كانت تقع على مسافة مماثلة من البحر . وبالفعل فإن امتداد السور الحائطى الذى يوجد فى بيلوز يبلغ عشرين غلوة ، وإن كان البحر يبعد عنهـا الآن بمسافة أكبر أربع مرات من تلك التى كان يبعد بها عنها فى زمن سترابون ، بحيث أننا لو قمنا برسم قوس من بيلوز إلى النقطة من البلاج الأكثر اقتراباً من البحر ، لبلغ طول هـذا القوس ٦٠ غلوة . وقد رأينا على الشمال من مدخل قرية أم فرج منطقة واسعة من الأرض تكونت عن طريق الإيداعات التى رسبها النهر بوفرة ، وعن يمين هذه المنطقة يتحرك ذلك التيار الساحلى الذى يسير بحذاء سواحل البحر الأبيض متجهاً من الغرب إلى الشرق .ولسوف يؤدى ذلك إلى اختفاء هذا المجرى الطويل الذى نشأ كما هو واضح عن تكوين جديد ، وسيزيد اقتراب جزيرة تنيس من البحر بفرسخين مما سيؤدى إلى أن يتطابق موقعها فى هذه الحالة مع ذلك الموقع الذى حدده لها المؤلفون القدماء .

ولا يوجد أقل أثر للخضرة فوق السهل ، حيث تقع بيلوز ، ويرى المرء داخل أسوارها ربوة منعزلة تتوجها الأشجار الصغيرة . وبعض العصافير هى

---

(١) عرف القدماء ظاهرة السراب . واليكم ماقاله كينت كورس ، الكتاب السابع ، الفصل الخامس «فى صحارى سوجديان (بالقرب من سمرقند) تؤدى حرارة الشمس فى أثناء الصيف الى التهاب الرمال ، وفضلاعن ذلك ، يخرج البخار من جـــوف الأرض بالغ الالتهاب ، فيجعل الضوء مبهراً ، فلا تعود الأرض تبدو سوى بحر واسع عميق » .

ضيوف هذا الدغل الوحيدون وهم الذين يخففون بعض الشيء من تلك العزلة المقبضة التي ترين هناك . وفضلا عن ذلك فسوف لا يرى المسافر الذي تستبد به الدهشة في هذا المكان الذي كانت توجد به ذات يوم مدينة كبيرة وشعب كثير إلا بعض الأعمدة الراقدة في الأتربة ، وبعض الأنقاض الفقيرة، وسيظل يبحث بلا جدوى في الضواحي عن ظل أثر لمقاتل عرف السعادة زمناً طويلا وكان عليه في النهاية أن يخضع لمشيئة قيصر ، لكنه لن يجد هناك سوى ذكرى هذا الرجل الشهير ، ضحية الغدر والنكران ، وأكثر حوادث الاغتيال خسة وجبناً ونذالة .

إن نصباً يقام فوق هذا الشاطىء المهجور الذي دفنت فيه بقايا بومبي(*) سوف يكون تخليداً لآلاف الذكريات[1] وفوق ذلك ، فاسوف يحدد هذا النصب تلك الفترة التي جاء فيها أحفاد هؤلاء الفرنسيين[2] أنفسهم الذين حملوا آخر طلقاتهم إلى بيلوز ، بعد أن خاض هؤلاء الأحفاد معركة خالدة ضد أوربا المتحالفة ، وبعد أن اجتازوا المتوسط واخترقوا الإسكندرية .. جاءوا بعدستة قرون ، ليس كفرسان مغامرين متعصبين ، وإنما كمقاتلين أصدقاء للبشر وللفنون والعلوم ، ليرسموا معالم الطرف الآخر من قاعدة مصر «الدلتا» والطريقين اللذين يؤديان إلى آسيا وإلى الهند ، وبلغوا في مهمتهم تلك أرض النوبة الحارقة، ولسوف يسعون لتخليد إقامتهم في هذه المناطق بنصب تذكاري يكون لائقاً بالدرجة الأولى بحضارة شعوب الشرق .

(*) Pompée ، انفصل روما عام ٨٨ ق. م .

(١) ويمكن المرء أن يخط هذه العبارة البسيطة فوق هذا النصب : «من بونابرت ، تخليداً لذكرى بومبي » .

(٢) الصليبيون .

ملحـــق

بشكل تقريبي تعداد سكان المدن والقرى التي تجاور بحيرة المنزلة: أقول بشكل
ى حيث لم يكن هناك ما هو محدد في هذا الخصوص، وسط هذه الأنقاض، إذ أن
مات التي يمكن للمرء أن يحصل عليها في مثل هذه الظروف، تكون غامضة لحد كبير.

العزبة[1]	٢٥٠
....	١٥٠
....	١٥٠
....	٢٠٠
دمياط	١٨٫٠٠٠
السنانية	٣٠٠
منية شريف (حالياً)	١٥٠
(ميت شريف)	
....	١٫٠٠٠
قصب القش	١٢٠
....	١٠٠
....	١٠٠
الرحامية	١٥٠
المنزلة	٨٫٠٠٠
منطقة المنزلة	٥٠٠
الدسايمة	٢٠٠
....	١٠٠
المطرية	٣٫٠٠٠
....	٠٨٠
المجموع	٣٢٫٥٥٠

(١) لم يتم تصحيح املاء هذه الأسماء بسبب غيبة المعلومات اللازمة (وقد تعذر بالتالي
وتصويب هذه الأسماء فآثرت أن أترك مكانها خالياً — المترجم) .

(٣)

رحلة إلى غرب الدلتا

"شابرول لانكريه"

العنوان الأصلي للدراسة : نبذة طبوغرافية عن الجزء
من أرض مصر الواقع بين الرحمانية ومدينة الاسكندرية ،
وعن ضواحي بحيرة مريوط .

(١)*

بينا فى دراستنا عن ترعة الاسكندرية ، المواقع بالغة الأهمية التى يقابلها المرء بطول مجرى هذه الترعة ، ولقد كان الغرض من تلك الدراسة أن نتعرف على حالة الملاحة حالياً فى هذه الترعة ، وعلى الوسائل التى يمكن أن تجعل منها مجرى صالحاً للملاحة طيلة العام ، ويتبقى علينا هنا أن نضيف بعض التفاصيل حول هذه المنطقة من أرض مصر التى ترويها ترعة الاسكندرية والتى تلامس منطقة المريوطية ، كما يمكن لهذه المعلومات أن تستخدم فى تكملة اللوحة الطبوغرافية لذلك الإقليم المسمى : ولاية البحيرة .

يوجد القليل من الآثار فى كل هذه المنطقة التى عانت كثيراً من التغييرات الفيزيقية والسياسية ، فقد أدى طول مكث المياه ، والأعمال التى تتطلبها الزراعة وكذلك غزو رمال الصحراء لأراضى هذه المنطقة — أدى ذلك كله بالضرورة وبدرجة كبيرة إلى إختفاء آثار العصور السابقة على غزو الاسكندر ، هذا إن كانت هذه المنطقة فى تلك العهود مسكونة أو مزروعة على الإطلاق .

وبرغم ذلك فقد عثرنا هناك على آثار قديمة ، ففى سماديس رأينا قطعتين لعمود من الجرانيت الأحمر يبلغ طول قطره ٤٠ سم ، كما وجدنا فى قرية أفلاقة ، وهى تقع على بعد حوالى ألفى متر من النيـــل ، على الشاطىء الأيمن لترعة الاسكندرية ، بالقرب وإلى الشمال من دمنهور ، وجدنا ثلاث قطع لنحت مصرى يحمل كتابات هيروغليفية ، ولم تكن هذه الكتابات شديدة الوضوح ، لكنها كانت منحوتة بعناية كبيرة ، وفى واحدة من رسومها البارزة والتى انقسمت إلى جزئين توجد وجوه لبعض الحيوانات ، وثمة رسم لأوزة صغيرة ضمن رسوم أخرى ، لكن ما هو أكثر إثارة من الرسوم الثلاثة التى تحدثنا عنها

---

* الدراسة العاشرة من هذا الكتاب .

من قبل وفى مكان سابق هو وجه لسيدة جالسة ، وهو عمل بالغ الروعة ، منحوت بشكل بارز ، وفى الفراغ ، على حجر صلب بالغ النعومة ، من نفس نوع حجر أنيتوبوليس .

وإذا ما عدنا إلى الرسم الموجود فى هذا العمل ، فسوف نرى أن رقة التمثال لم تفارقه مطلقاً ، مثله فى ذلك مثل النقوش البارزة فى أجمل معابد مصر العليا ، فكل شيء يعلن أن هذه القطعة الثمينة ربما كانت جزءاً من إفريز أو من رسم بارز لمعبد كان يوجد فى ضواحى هذه المنطقة لرفات نسر ، نتعرف فى وجهه ورأسه المغطاة ، على الإلهة إيزيس ، التى يرتسم على ملامحها تعبير يطفح بالرقة والرضا .

وعلى بعد مائة متر من قرية محلة داود التى تقع على شاطىء ترعة دمنهور ، وعلى بعد ٤٠٠ متر من الرحمانية ، شاهدنا مبنى قديما من الطوب مساحته كبيرة ، وبجواره كومة ضخمة من الملاط المختلط بالجير ، وقد علمنا أنه كانت توجد فى هذا المكان فى الزمن القديم مدينة مسيحية ، وأن هذه المبانى كانت حمامات هذه المدينة . وفى الواقع فقد رأينا أن بعض هذه المبانى واسع وبعضها الآخر ضيق ، ويتخذ هذا وذاك إما شكل دائرة وإما شكل نصف دائرة وكانت كل هذه المبانى مطلية بأسمنت رائع أحمر اللون ، تغطيه طبقة من أسمنت أبيض بالغ الصلابة والنعومة ويقول أهالى البلاد بأن هذا الأسمنت قد عومل بالزيت . وبعد صفين من الطوب يوجد أسمنت مماثل وطلاء مماثل .

وبعد أفلاقة وقابيل بالاتجاه نحو الغرب ، وجدنا كثيراً من الخرائب وهى أنقاض لمدن أو كفور كانت فى الماضى مزدهرة . ويحيط شاطئ الترعة أكوام مغطاة بالطوب المحروق وهى بقايا مساكن قديمة وبقايا أشياء اندثرت منذ زمن طويل . وعلى الرغم من الفوائد التى تقدمها هذه الترعة . فقد فقدت هذه البلاد كل أهميتها وهجرها على وجه التقريب كل سكانها ، بل إن الزراعة نفسها قد توقفت .

وكانت قرية بسلتواى هى آخر قرية فى هذا الجانب والتى ما يزال لها بعض من الأهمية .

وحسب المعلومات التى قدمها لنا شيخ العرب مسبك : فإن بحيرة من النطرون تقع على بعد ثلاثة فراسخ فقط من دمنهور ، لكن هذا النطرون محدود القيمة . ويتفق هذا الموقع لحد ما مع موقع قرية محلة خيل ، غير بعيد من الحد الشرقى الأقصى لبحيرة مريوط . وفى إتجاه الشمال الغربى ، بالقرب من قرية سنهور ، نجد فوق ارض سميكة بالغةالسواد مياها مالحة ، وملحاً بحرياً متكلساً ، يختلط دون شك بقليل من النطرون[١] .

وعند أبى الخذر ، وهى قرية تقع على شاطىء ترعة الاسكندرية ، كما أنها اليوم غير مأهولة بالسكان ، توجهنا إلى قرية كوم البركة وعبرنا الترعة ، وعلى بعد حوالى ٢٥ متراً عبرنا ترعة أخرى بالغةالانتظام ، يبلغ عرضها من ١٦ – ١٧ متراً وتندمج بالقرب من القروى مع الفرع الحالى وتتجه من الجهة الأخرى نحو بسلتواى ، ويقول أهالى البلد أن هذه ترعة قديمة تأخذ مياهها عند أطفيح بالقرب من فوه . وقد عثرنا على هذه الترعة وعبرناها عندما اتجهنا مباشرة من برك الحمام إلى الرحمانية على بعد ½ فرسخ قبل بسلتواى وإن كانت فى هذه المنطقة أصغر كثيرا منها عند كوم البركة . ولعل السبب فى ذلك . هو نفس الرأى الذى استنتجناه بخصوص ترعة الاسكندرية الحالية التى ننظر إليها على اعتبار أنها قد تكونت من اتصال عدة ترع كانت فيما مضى ترعاً مختلفة[٢] .

وعلى شاطىء هذه الترعة يوجد تجاه قرية أبى الخذر كوم بالغ الارتفاع

---

(١) كتبت هذه الملحوظات فى عام ١٨٠٠ ، وقد تغيرت أحوال هذه المنطقة بعد أن قطع الجيش الانجليزى سد هذه الترعة ودخلت مياه البحر المجرى القديم لبحيرة مريوط وهو الحادث الذى يعود إلى عام ١٨٠١ . وتشكل هذه القرية اليوم جزيرة وسط هذه البحيرة .

(٢) شاهدنا فى بسلتواى غزلانا تتجول على حريتها فى السهل .

يغطيه الطوب . وهذه المنطقة من ولاية البحيرة تزخر بأعداد لا حصر لها من الكثبان المتشابهة وبخاصة في المنطقة الواقعة بين قرية كوم البركة والاسكندرية وثمة تل تجاه هذه القرية نفسها في الجانب الآخر من الترعة . وقد لحنا في بقعة واحدة خمسة عشر تلا ، وهذه المرتفعات هي بلا أدنى شك بقايا مدن أو قرى قديمة . وينبغي على المرء أن يرى بنفسه هذا السهل الفسيح حتى يستطيع أن يكون فكرة عما كانت عليه هذه المنطقة في الماضي .

للوحة(*) واحدة من هذه القرى المهجورة ، وتقع على الشط الأيسر للترعة ، وتوجد على الشط الأيمن قرية الدشو التي تقع في نفس الوقت في الزاوية الجنوبية الشرقية لبحيرة أبي قير . وهناك تبدأ سلسلة من المرتفعات الموازية للترعة والتي تلامسها بالقرب من قرية الكريون لكنها ليست على الإطلاق خرائب من الطوب ، ونحن نحدس أنها كانت تستخدم سداً أو هويساً لإحدى الترع ، ويوجد بالقرب من ذلك حائط من الحجارة يفصل الترعة عن بحيرة أبي قير ويبلغ سمكه من ١ إلى ١٫٣ مترا ، واسمنت هذا الحائط بالغ الصلابة ، وهو جزء من سد أرضي يبلغ سمكه حوالى ستة أمتار(١). وفي مناطق عديدة نجد مباني مماثلة يبدو أنها ذات أصل أغريقي ، وتفصل الترعة عن المستنقعات المالحة جدران بالغة الضخامة من الحجارة لكن بعض هذه الجدران قد تقوض حتى الأساس . وفي البيضا التي تقع على مرتفع ، يوجد حائط قديم من الطوب الذي يبلغ طول الواحدة منه من ٢٠ — ٣٠ سم وهو متماسك بفعل كثير من المونة . وثمة آبار واسعة مبنية من الطوب كتلك التي توجد في قرية كوم البركة .

وفي قرية الكريون وبالقرب من أحد خزانات المياه ، وجدنا أيضاً

(١) تحدثنا في دراستنا عن ترعة الاسكندرية عن سد حجري يبلغ سمكه من ٦ — ٧ أمتار ، لكن ذلك هو السمك الإجمالي للسد ، فالسمك الحجري لايبلغ إلا متراً واحداً أو ١½ من الأمتار .

(*) أو للوها Léloha . وقد جاء بوصف مصر، الدولة الحديثة ، مجلد ٣ ، الفهرس الجغرافي ص ٨٤٢ ، أنها قرية مهجورة [المترجم] .

أنقاضاً تعود إلى الأزمنة القديمة وهى عبارة عن بقايا نقش بارز من الحجر الجيرى يبلغ ارتفاعه حوالى المتر ، أما طولاه الآخران فيبلغان ٢٠ ، ٣٠ سم وعلى إحدى واجهاته رسمت زينات تسمى سلاسل الرماح والتى يحسن أن نقارنها بنباتات رمزية . فهل جلبت هذه الشظايا وكذلك مثلها التى توجد فى قرية أفلاقة من مكان آخر ، أم كانت توجد مبـــان مصرية قديمة فى كل هذه الأماكن المختلفة ؟ أما نحن ، فإننا محمولون على الاعتقاد بأن هذه وتلك قد أتت من خرائب جزيرة هيرموبوليس القديمة وهى التى كانت تقع فى نفس المكان الذى تشغله اليوم مدينة دمنهور .

(٢)

بحيرة إدكو وضواحيها

يرتفع البحر أحياناً مابين إدكو وسدود أبى قير فوق مستوى سطح الأرض بكثير ، وعندما ينحسر فإنه يترك أرضاً سوداء عارية تتكون من رواسب بالغة القدم من رواسب النيل . وتعلو هذه المسافة من الأرض لقدم أو قدمين فوق مستوى سطح البحر ، وهى مغطاة فى كل مكان بالرمال ، ومع ذلك فهناك منطقة تدوس فيها القدم على نفس الأرض القديمة ، وعلى نفس الطريقة نرى واحداً أو اثنين من كثبان من الطين الأسود المختلط ببقايا من الفخار ، وتلك مرتفعات كانت تنهض فوقها فيما مضى بعض القرى[1] .

---

(١) لاحظنا أن النباتات فى هذه المنطقة تنمو بسرعة كبيرة وبدرجة أكبر مما هو معتاد فى مصر ، فقد رأينا أن القمح التركى ، بعد خمسين يوما من زراعته قد نما لطول ٥ أقدام بل لقد بلغ طول بعض السيقان ٦ أقدام أى حوالى المترين . وهكذا فمع افتراض أن النمو يحدث بنفس النسبة مع الزمن وهذا صحيح لحد ما ، فاننا نستنتج أن هـذه السيقان الخارجة عن المألوف كانت تنمو بمعدل ٤ سم فى اليوم الواحد أى بمعدل $\frac{1}{6}$ سم فى الساعة الواحدة .
(القمح التركى هو الذرة الشامية) .

ومنذ عامين ألحف سكان إدكو فى طلب قطع جسر طويل يمتد على شاطىء النيل ويحمى ديروط ، وقد ووفق على الطلب دون دراسة كافية ، وقطع الجسر شمال ديروط بنصف فرسخ ، وجرت مياه النيل بكميات كبيرة للغاية إلى البحيرة . وفى عام ١٨٠٠ كان الفيضان كبيراً فطفت المياه فى البحيرة بوفرة شديدة وأتت هذه المياه التى لم تحجزها أية ترعة على جزء كبير من أراضى ديروط واجتاحتها من كل الجهات وخلطت بأرضها كميات كبيرة من الرمال ، وهذان أمران يحول كل منهما دون زراعة الأرز . فالأمر الأول لا يسمح بأن تسوى الأرض بطريقة تسمح باستقبال نوبات الرى الصناعى ، أما الثانى — وهو الرمال فينزع عن الأرض خاصية سرعة إنماء المحصول ، ذلك أنه من الجدير بالملاحظة أن كل الأراضى التى يزرع بها الأرز تكون سوداء لحد كبير حتى فى أكثر الحالات جفافاً ، وهو ما يعنى أنها لا تحتوى على أى جزء من الرمال . واستوجب الأمر أن يقفل الجسر الذى قطع برعونة كى تعود إلى أراضى ديروط خصوبتها القديمة ، وهو ما لا يمكن أن يتم دون كثير من الوقت والجهد والتكاليف .

وتشبه إدكو الواقعة على الطريق بين رشيد والإسكندرية لمدينة صغيرة أكثر مما تشبه لقرية ، ويوجد بها عديد من المآذن والمنازل المبنية بالطوب المحروق وهو نفس ما نجده فى رشيد ، حيث المنازل واسعة وتتكون من عدة طوابق . ولا تشاهد فى هذه الأماكن أية حيوانات ضخمة ولا يسكنها إلا الصيادون . وقد تزايد عدد سكانها بسبب تهدم القرى المجاورة لأبى قير .

وقد دفنت الرمال التى يخرجها البحر من جوفه باستمرار ، والتى تحملها رياح الشمال فوق إدكو جزءاً من المدينة بالفعل ، وسوف تتقدم هذه الرمال باستمرار وعلى الدوام حتى تبلغ رشيد وهى التى تواجه نفس الوضع .

والبحيرة الواقعة قريباً من إدكو كثيرة الأسماك ، ويشكل الصيد بالنسبة للأهالى كما هو الحال بالنسبة للحكومة دخلاً كبيراً . وهذه البحيرة ليست سوى

مستنقع ضحل لا يصل عمقه فى أى مكان لأكثر من متر تحت مستوى سطح الأرض . وهى تستقبل مياه النيل وقت الفيضان ، وعندما يكون الفيضان بالغ الوفرة تصب المياه فى البحر بالقرب من بحيرة أبى قير عند الوكالة أو منزل المسافرين التى يطلق عليها الفرنسيون إسم : المنزل المربع .

وهذه الوكالة مبنية بالحجارة وهى شديدة المتانة ، وعندما تتصل مياه البحيرة بماء البحر تغرق المياه جدرانها ، وكان عمق منطقة الاتصال فى عام ١٨٠٠ يبلغ حوالى من ٦ — ٧ أمتار وعرضها حوالى ٣٥ متراً . وتكفى الرمال التى يحملها البحر عادة لإغلاقها . وهذا المكان ، هو نفسه المعدية التى تحدثت عنها كل مؤلفات البحارة المحدثين إذ لم يكن قد تم فى عهدهم قطع سدود أبى قير .

وفى عام ١٨٠٠ تلقت بحيرة إدكو ، بخلاف المياه التى تأتيها من ديروط مياهاً أخرى من جزء من سهل دمنهور بفعل قطع حدث فى جسور ترعة الإسكندرية بالقرب من سنهور ، وهذا ما يدل على حقيقة المستوى الخاص بهاتين البقعتين . وأخيراً فقد تلقت البحيرة مزيداً من المياه بين الفتحة المسماة : أبو جاموس بالقرب من قرية محلة داود عن طريق المستنقع الذى تنظر إليه باعتباره مجرى الفرع الكانوبى القديم . وهذا المجرى الأخير ، حسب أقوال أهل البلاد ، هو المنفذ الوحيد الذى كان فيما مضى يحمل المياه إلى البحيرة .

ولو أن جسور ديروط كان قد أحسن بناؤها ، لكان فى الإمكان زراعة كل أراضيها ولزادت كمية إنتاج البحيرة من أسماك الصيد ولأمكن لفتحة : « أبى جاموس » أن تحصل كل عام على كمية كافية من المياه ، بل ولربما كانت قد عادت تبعاً لذلك شواطىء الفرع الكانوبى القديم لتصبح آهلة بالسكان . ولكن ينبغى أن نضع فى الاعتبار أن معدل الانحدار من ديروط إلى البحيرة شديد

السرعة ، فلو أن ترعة قد أنشئت فى هذه المنطقة لأصبحت بالغـــة الاتساع ولأحدثت الكثير من الأضرار .

وعندما يكون الفيضان ضعيفاً أو عندما يهمل فتح الجسور التى ينبغى أن تسمح بمرور مياه النيل إلى بحيرة إدكو ، فإن البحيرة تتضاءل لتصبح صغيرة الاتساع ولتصبح مياهها شديدة الملوحة ويصبح عائد الصيد منها بالتالى ضئيلا[١] .

(٣)

بحيرة مريوط

لم تكن شواطىء بحيرة مريوط وقت مجىء الحملة الفرنسية[٢] — وكما يعتقد البعض — ممحوة تماماً ، فعند رحيلنا من البيضا متبعين ترعة الاسكندرية لاحظنا بعد مسيرة ثلاثة أرباع الساعة وعلى بعـد حوالى ٥٠ — ٦٠ متراً من الترعة منحدراً سريعاً على مقربة فرسخ أو أثنين من الاسكندرية . وكان هذا المنحدر نفسه شديد الاقتراب من الترعة . وكنا نرى على قمة هذا المنحدر ومن مسافة إلى أخرى بقايا جدران ليست من الطوب وإنما من الحجر الجيرى . كانت أرض قاع المنحدر رطبة بدرجـــة ملموسة ، بل وكانت تحتوى على عدة مستنقعات من المـاء المالح كما كانت أيضاً أكثر رملية من بقيـــة أراضى مصر .

ويذكر بيلون Belon أنه رأى بحيرة مريوط مليئة بالمياه ومن السهل تبين ذلك ، فعندما تكون مياه النهر فى قمة ارتفاعها فإن كل السهل الواقع إلى يسار

---

(١) ينبغى أن نتذكر أن الفترة التى كتبت فيها هذه الملاحظات هى عام ١٨٠٠ .

(٢) على الرغم من أن الأماكن قد تغيرت كثيراً منذ الوقت الذى كتبت فيه هـــذه الملاحظات فاننا نعتقد مع ذلك أن من الواجب الاحتفاظ بها هنا بالشكل الذى سجلناه فى مذكراتنا عن هذه الرحلة .

الترعة يمتلىء بالمياه التى تبقى حتى مجىء الربيع ، ولا تقل هـذه المياه مطلقاً أثناء الشتاء بسبب الأمطار التى تسقط هناك دائماً بكميات تكفى لتعويض الفقد الذى يسببه البخر .

وتدعم الجسور اليسرى لترعة الاسكندرية المجاورة للمستنقعات المالحة بالقرب من المنخفض بحائط من الحجارة تقويه من مسافة لأخرى دعائم سميكة، ويبدو أن هذا الحائط قد صنع لحماية الجسر من مياه بحيرة مريوط التى كانت فى هذه الفترة دون شك تحتفظ بمياهها طيلة العام ، وحيث أن المياه لاتوجد بها الآن إلا لفترات محدودة ، وحيث أن مياهها لم تعد تعلو فإن هذا الحائط لم يعد ضرورياً .

وعندما نتوجه من الاسكندرية إلى البيضا عن طريق أقصر فإننا نعبر مجرى بحيرة مريوط (مريوتيس) القديمة ، لكن هذا الطريق لا يستخدم إلا فى الصيف إذ توجد المياه فى الأوقات الأخرى فى هذا الاتجاه ، وترتفع هذه المياه لتبلغ نحو قدم ، بل إن الأرض حتى فى الصيف تكون شديدة الرطوبة ، ويتكلس الملح فوق كل مكان من سطحها .

وعند الاتجاه إلى الجنوب الغربى من قرية كوم البركة ولمسافة ثلاثة فراسخ ونصف إلى سيدى غازى وهى القرية التى تقع على وجه التقريب عند أقصى المنطقة القابلة للزراعة فى هذا الإقليم . وهـذه القرية تابعة لعربان مزارعين ، وتروى أرضها عن طريق الترعة الغربية التى تشكل امتداداً لترعة بنى يوسف والتى يغذى مجراها فروع عديدة مثل فرع الطرانة ، وفى بعض الأحيان يوجد بها مياه كثيرة ، وفى عام ١٨٠٠ تلقت الترعة كمية كبيرة من المياه بلغت مستوى فوق مستوى النيل وسالت بكميات كبيرة خلف دمنهور لتصب فى بحيرة مريوط

بعد أن روت المنطقة[١] .

وعند الاتجاه إلى الغرب من سيدى غازى وبعد مسيرة ثلاث أو أربع ساعات بدأنا نخوض فى أرض رطبة كانت وقت الفيضان شديدة الوحولة ، تلك هى بقية الجزء الغربى من بحيرة مريوتيس القديمة ، وبعد أن سرنا حوالى الفرسخ من هذا المكان وجدنا أنفسنا عند بداية وادى مريوط . هناك يبدأ الجبل الذى يعد بارتفاعه أضيق فروع البحيرة ، وقد ميزنا المكان بزاوية ولى يسمى الشيخ على ينهض مقامه فوق صخرة ، وقد استغل الصخر للحصول منه على الأحجار بل لقد حفرت فيه كهوف ومغارات ، وتوجد بالقرب من ذلك مياه حلوة تأتى مثلها مثل مياه سيدى غازى من الأمطار التى تسقط بكميات وفيرة فى كل هذه المنطقة . وتبلغ المسافة من هذه الزاوية حتى شاطىء البحر مباشرة حوالى الفرسخين لكن هذه المسافة تقل إلى فرسخ واحد إذا اتجهنا إلى الاسكندرية .

ووادى مريوط الذى يعبره المرء وهو متجه من الزاوية إلى البحر ، منبسط تماماً وأرضه سوداء موحلة يختلط بها كثير من الرمال ، وعند الاقتراب من الشاطىء ترى كمية كبيرة من كتل الحجارة الضخمة المقتطعة .

والأرض هناك مغطاة بالقواقع لدرجة تبدو منها بيضاء تماماً . وأرض هذا الوادى وكذلك أرض بحيرة مريوتيس مالحة ولا يمكن لها مطلقا أن تزرع لذا يسميها أهل البلاد : السباخة .

وربما كانت الروابى المجاورة للضريح (الزاوية) هى تلك التى كان ينمو عليها النبيذ المريوطى الذى تغنى به هوراس ، والأرض هناك طباشيرية كما هو

(١) بنيت قرية سيدى غازى على نحو مخالف بعض الشىء لقرى الداخل ، فكل البيوت تقريبا على شكل قباب وقد وجدنا فى مسجد القرية محلا كبيراً لأدوات الزراعة وأوانى الألبان التى تنقلها السيدات على ظهور الجمال وكذلك تلك الأغطية التى يصنعها العربان ، وتوجد بالقرب من هذه القرية ، وفى بعض الأماكن من ضواحيها ، مستنقعات كثيرة من المياه الحلوة لكن لونها يميل إلى البياض كما أنها محملة بالجير .

الحال فى شمبانيا ، أما الأراضى المجاورة وكذا أرض الضريح فهى طباشيرية بالمثل ويزرع فيها بكثرة صنف من البطيخ الشهير بجودته البالغة وهو يماثل بطيخ بحيرة البرلس . وهذه الأراضى بيضاء تماماً ويبدو أنها تتكون من أحجار مسحوقة ، ويزرع البطيخ فى خطوط طولية وعلى عمق يزيد على المتر .

وتقع خرائب مريوط وبقايا مدينة ماريا القديمة على بعد حوالى ثمانية فراسخ من الاسكندرية وقد وصفناها فى مكان آخر .

وعند الطرف الشرقى للوادى الطويل ، الذى شاهدناه يمتد بعيداً نحو الغرب ليصبح الفرع الضيق لبحيرة ماريوتيس ، والذى يسميه العربان وادى مريوط وهو يوازى شواطىء البحر ثم ينفصل عنها بواسطة واد يسمى درياح البحر - تسقط الأمطار فى الوادى الأول بسبب حالة خاصة من البرودة ، وذلك بخلاف مياه النيل ، وبرغم هذا يشاهد هناك قليل من العربان ، ولا يمكن أن يشاهد المرء فى هذه المنطقة سوى غابات من النخيل تبتعد الواحدة عن الأخرى بمسافة كبيرة ، كما أنها ليست سوى أدغال يبلغ ارتفاعها بين ٣ و ٤ أمتار كما توجد فى نفس المنطقة ٥ أو ٦ نخلات نمت على نحو طيب ، بالقرب من الضريح الذى يسمى ضريح أبى الخير .

ويبلغ عرض وادى مريوط بالقرب من الاسكندرية حوالى فرسخ واحد لكنه يأخذ فى الضيق شيئاً فشيئاً ، وبالقرب من أبى صير — تابوزيريس القديمة — حيث يقع برج لا يعود اتساعه يبلغ سوى ¾ فرسخ فقط .

وبدءاً من تل حمامات كليوبارة حتى المكان الذى ينتهى فيه التل ليغلق مدخل الوادى المسمى درياح البحر ، أى فى مساحة تبلغ أكثر من ثلاثة فراسخ توجد المحاجر التى استغلت على نطاق واسع والتى استخدمت فى بناء مختلف مدن الاسكندرية .

ولا يستطيع المرء أن يمشي في وادي درياح البحر لأكثر من ٤٠٠ متر دون أن يقابل آثار حوائط إما موازية لطول الوادي وإما متعامدة عليه ، ويرى المرء فيها أيضاً معالم جداول مطلية بالأسمنت ومخصصة لنقل المياه ، وثمة خرائب مماثلة في ذلك الجزء من وادي مريوط الذي نتبعه قبل أن يندمج في وادي درياح البحر ونلاحظ عند فتحة الوادي على اليمين آثار حائطين متوازيين يبلغ ارتفاع كل منهما ما بين ٥ إلى ٦ أمتار ويبلغ طول كل منهما ٩٠٠ متر .

ولابد أننا سنخطىء لو اننا أفترضنا أن كل هذه الخرائب إنما هي بقايا منازل ، لأن الأمر لابد أن يعني عندئذ أنه توجد مجموعة من المنازل المتوالية على امتداد عشرة فراسخ ، لكن الأقرب إلى الصحة أن تكون هذه الأنقاض بقايا لأسوار وحدائق وبساتين . كما لا بد أن نستنتج كيف أن الصناعة التي كانت في مدينة مجاورة بحجم الاسكندرية قد قضت بانتزاع جزء من أرض ترويها مياه الأمطار بشكل يكفي لإمكانية أن تبنى فيها خزانات للمياه . ثم إن إمتداد هـــذه الأسوار التي يقطع بعضها الوادي بشكل عمودي لأمر مناسب تماماً لمثل هذا الاستغلال .

وقد رأينا في نفس الوادي ـ وادي درياح البحر ـ قطيعاً كبيراً من الماعز وحوالي العشرين من الثيران والأبقار ، وهي من نوع يختلف كثيراً عن ماشية الداخل فهي أصغر منها بكثير كما أن سيقانها أقصر نسبياً ، ولونها أشقر يضرب إلى اللون البني أما أسفل بطنها فأسود اللون ، ويتماثل كل القطيع في هذا اللون .

ويحتل كل هذه الوديان العربان الذين يرعون فيها قطعانهم أو ينسحبون إليها عندما يطردون من داخل مصر . وعند جولتنا كانت هذه المنطقة في حوزة قبيلة أولاد على الكبيرة العدد (١٠ فبراير ١٨٠١) لكننا لم نجد في وادي درياح البحر سوى رجلين أو ثلاثة رجال وطفلا واحداً وسيدة مسنة لم يكن قد تسنى لهم الوقت الكافي للفرار قبل مجيئنا فظلوا مختبئين بين الصخور وكثبان الرمال التي تفصل الوادي عن البحر .

(٤)

رحلة إلى أعماق الدلتا

"دي بوا - ايميه"

العنوان الأصلي للدراسة هو :
رحلة الى أعماق الدلتا ، وتتضمن هذه الدراسة بحوثاً جغرافية عن بعض المدن القديمة ، وملاحظات عن عادات وتقاليد المصريين المحدثين .



القسم الأول

لمحة عامة عن الدلتا ــ الرحيل من القاهرة
الوصول إلى منوف ــ وصف المنوفية

الدلتا ، هي ذلك الجزء من أراضي مصر المحصورة بين البحر الأبيض المتوسط وبين فرعي النيل اللذين يصبان بالقرب من مدينتي رشيد ودمياط .

وفيما مضى ، عندما كان النيل يصب في البحر عن طريق سبعة أفرع كبيرة كان اسم الدلتا يعني كل الأراضي الواقعة بين الفرع الكانوبي الذي كان ينتهي بالقرب من موقع أبي قير حالياً والفرع البيلوزي الذي يمكن أن نحدد مصبه عند الطرف الشرقي لبحيرة المنزلة .

والشكل المثلث لهذه الأراضي هو الذي جعل الإغريق يطلقون عليها اسم الدلتا ، وهو اسم حرف من أبجديتهم كانوا يرسمونه على شكل مثلث . هكذا كانت تبدو لهم مصر السفلى في شكل مثلث ، قاعدته ترتكز على المتوسط وتنتهي قمته في الجنوب ، نحو ممفيس .

ولا يكاد يكون هذا الاسم معروفا لدى المصريين المحدثين الذين قسموا أراضيهم على نحو مخالف لما كانت عليه في عهد الإغريق . وحيث أن الدلتا قد تكونت من الطمي الذي رسبه النهر ، فليس بها على الإطلاق أي مرتفع طبيعي ، إذ ليس بها سوى بعض الكثبان الصناعية وبعض النتوءات التي نتجت عن الخرائب والأنقاض التي تحيط بالمناطق المسكونة وكذا بعض الكثبان الرملية .

تلك فقط هي أشكال عدم الاستواء في أرض الدلتا . . . وثمة عدد هائل من الترع يقطع هذه الأرض من كافة الإتجاهات . وثمة بحيرة تشغل

مساحة هائلة فى أقصى الشمال لا يفصلها عن البحـــر سوى لسان ضيق من الأرض ، كانت تعرف فى الماضى باسم بحيرة بوتس لكنها اليوم تحمل اسم البرلس .

وتبلغ المسافة ما بين قمة الدلتا فى الجنوب وبوغازى رشيد ودمياط ، وفى خط مستقيم ما يقرب من ١٦ ميرمامتر « ١٦٠ ألف متر » أما طول فرعى النيل اللذين يصبان عند هاتين النقطتين فيصل طولهما من ٢٣ إلى ٢٤ ألف متر ، ويبلغ طول قاعدتها إذا ما أدخلنا فى الحساب طول التعرجات الساحلية ١٤٥ ألف متر بينما يصل طولها كخط مستقيم بين مدينتى رشيد ودمياط ، طرفى هذه القاعدة ، إلى ١٣٧ ألف متر .

ذلك هو الملمح العام ، وتلك هى مساحة البلاد التى سوف نعبرها فى رحلتنا هذه ، وهى بلاد قل من كان يعرفها من الرحالة الأجانب قبـــل مجىء الحملة الفرنسية ، بسبب الأخطار التى كانوا يستشعرونها ، ما أن كانوا يبتعدون عن شواطىء النيل .

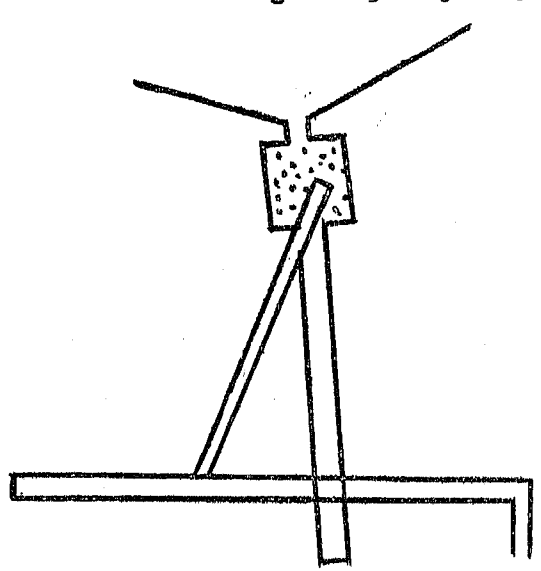
رحلنا من القاهرة فى الخامس من فندميير من العام الثامن « ٢٧ سبتمبر ١٧٧٩ » . وكنا مكلفين بأن نشق فى الدلتا طرقا عسكرية وأن نقوم ببعض تمهيدات للأرض . وأن نتعرف وأن نحسن من نظام ترع الملاحة والرى وأن نقيم خطوطاً تلغرافية بين القاهرة وشاطىء المتوسط [1] . وبعد أن تلقينا التعليمات

---

(١) لأن جيشنا كان قد بدأ يضعف . فقد أصبح فى مسيس الحاجة لكى يعرف على وجه السرعة أخبار العدو . ومن هنا ندرك كم كان من المفيد إنشاء خطوط تلغرافيه ، وكانت تستبعد على الفور أية فكرة نتبين أنه يصعب تنفيذها . ومن العبث أن يقال إنه كانت تنقصنا المواد اللازمة ، فلقد كان الجيش يجد فى شخص المسيو كونتيه Conté ، مدير الورشة الميكانيكية ، رجلا عرف ، بعبقريته الإبداعية ، تلك العبقرية التى صمدت كثيراً للاختبار ، كيف يتغلب على كل العقبات ، فلقد صمم فى وقت وجيز منظارات رائعة ، وأقام عدداً كبيراً من خطوط التلغرافات على نمط جديد . وحيث قد مات المسيو كونتيه قبل أن ينشر وصفاً لجهاز التلغراف الذى صممه ، فقد ظننت أن من الأفضل أن نقدم له هنا هذا الوصف الموجز .

حول هذه الموضوعات ، أبحرنا نحو بولاق ، تلك المدينة التجارية الواقعة على

= يتكون التلغراف ، وهذا هو شكله من :



١ — صارى رأسى يثبت طرفه الأسفل فى طوار البرج .

٢ — قطعة من الخشب على شكل حرف L تتحرك حول مسمار قلاووظ بشكل أفقى ، بحيث يثبت أكبر ضلعيها عند الطرف العلوى للصارى .

٣ — ذراع خشبى يمر عن طريق طوق معدنى يثبت على الصارى عند منتصفه تقريباً ، ويرتبط الطرف العلوى لهذه الذراع بالقطعة الخشبية حرف L بحيث تجعلها تدور رأسياً حول مسمار القلاووظ المثبت فى قمة الصارى . وتحدث الحركة بجذب الذراع أو بدفعها بقبضة موضوعة فى طرفه الأسفل ، ويتحرك امتداد هذه الذراع لبوضع على التوالى فى عدة ثقوب موجودة فى سمك اللوح الخشبى الموضوع بشكل رأسى على أسفل الصارى . وتحدد هذه الثقوب بالنسبة للقطعة L مواضيع مختلفة ، توضح عن طريق معطياتها ، الجمل المستقبلة .

ولما كان المسيو كونتيه قد رغب فى معرفة المعادلة الجبرية للمنحنى الذى يخطه المحرك على اللوحة الرأسية الممتدة ، فقد وجدت أنها معادلة جبريةمن الدرجة السادسة ، ومن السهل أن نتبين أنه إذ كان علينا أن نعتبر الطوق المعدنى فى نقطة ثابتة فوق محيط الدائرة المعطاة التى يرسمها الطرف العلوى للذراع والذى يمر بهذا الطوق ، وإذا كانت الذراع مساوية لقطر الدائرة المعطاة ، فإن فرعى منحنى التلغراف سيتكونان : أحدهما من فوقية علوية والآخر من قوس دائرى ، بطريقة تجعل من كليهما فوقية علوية وقوساً دائرياً كاملين . وتبين المعادلة من الدرجة السادسة نظام هذين المنحنين ، وتقدم كذلك المعادلتين المنفصلتين اللتين تحكمهما ، بانقسامهما إلى معاملين : أحدهما من الدرجة الثانية ، والآخر من الدرجة الرابعة .

ضفاف النيل على بعد ربع فرسخ من القاهرة حتى أنها تعتبر على نحو ما ضاحية من ضواحيها .

ركبنا واحداً من تلك القوارب الخفيفة التي تسير بالشراع والمجداف ، وعند مؤخرة القارب كان ثمة حجرة مجهزة على نحو طيب ، وكنا نستخدمها كمأوى ضد حرارة الشمس بالنهار وضد الرطوبة بالليل .

وعلى بعد حوالى نصف فرسخ من بولاق ، لمحنا عن يميننا قصراً خرباً ، كان البكوات « المماليك » يذهبون إليه فى موكبهم الفخم ليستقبلوا الباشوات الجدد الذين كان يرسلهم بلاط القسطنطينية .

كانت تتحرك من حولنا لوحة حية تتشكل من عديد من القوارب تتقاطع فى شتى الإتجاهات[1] وهى تشق الأمواج بشراعها أو بمجدافها وسط ضجيج من أغنيات البحارة ، واختفت الشمس خلف الهضبة الليبية ، بينما آخر أشعتها لا تزال تلامس قمم الأهرام ، تلك التى كانت تبدو كتلتها السفلى وهى غارقة فى الظلال كما لو كانت تتباعد شيئاً فشيئاً عن سماء أرجوانية اللون ، وكانت صفوف النخيل الطويلة تلوح فى شكل دائرى بهيج ، وكانت تمتد من حولنا حتى تصل إلى رمال الصحراء مراعى البرسيم ؛ وكنا نلمح على شواطىء النيل قطعانا من الجاموس جاءت تغمس أجسادها فى النهر ، وكانت طيور أبى قردان البيضاء تحط فى وداعة وهدوء فوق ظهور الجاموس السوداء ، وكان الأطفال الصغار بأجسامهم العارية وألوانهم البرنزية يلعبون بعضهم مع بعض ، وعندما ، أحياناً ، يتوقف أحدهم بلا حراك ، يخيل إليك أنك ترى فى وقفته وهيئته تلك ، واحداً من تماثيل مصر القديمة وقد عادت إليه الحياة .

---

(١) تؤدى قلة ارتفاع ضفاف النيل ، بالإضافة إلى هبوب رياح الشمال بشكل دائم ، إلى جعل الملاحة فى النيل سهلة ، سواء كنا نتجه مع التيار أو ضده .

كانت هذه النباتات الافريقية ، وتلك الأغنيات العربية ، وتلك الآثار السابقة فى وجودها على الحضارة الأوربية وأخيراً اختلاؤنا بأنفسنا وتذكرنا ما نحن فيه .. كان كل ذلك . يذكرنا ببعدنا عن فرنسا ، وبتلك المسيرة الشاردة للحياة الإنسانية ، وبزوال امبراطوريات كانت أكثر إزدهاراً منا ، وكنا نقول لأنفسنا : بعد وقت طويل ، سوف يزور هذه الأرض القديمة ، مهد العلوم والفنون ، أناس آخرون ، وإذا ما كان الفرنسيون يومها قد اختفوا من فوق الأرض ، شأنهم شأن كثيرين غيرهم من الأمم الشهيرة ، فلسوف تبقى هذه الأهرام شاهدة على انتصاراتهم ، وسوف تظل آلاف النقوش التى خلفوها تشهد على مرورهم بهذه البلاد ، وسوف تحتفظ بذكراهم ، ولسوف يقال عندئذ ، لقد كان ثمة محاربون شبان ، ولدوا فى تلك البقعة الجميلة التى يحدها البحر ونهر الرين وجبال الألب والبرانس ، ولقد جاء هؤلاء يحاربون لينتزعوا مصر من أبناء القوقاز المتعجرفين ، من أولئك المماليك البواسل . وعندما نسمع فى مراقدنا مثل هذا الثناء ، فى ذلك المستقبل البعيد . وفوق أطلال الأزمان والقرون ، فلسوف تخفق قلوبنا ونحن فى اللحد ، حبا للوطن وحنوا عليه .

فاجأنا الليل ونحن فى خضم أفكارنا تلك ، ومررنا أمام ترعة «أبو منجة» ، وعندما تجاوزناها بخمسة آلاف من الأمتار لنصل إلى ذلك المكان الذى يعانق النيل فيه دلتاه بينما هو ينقسم إلى فرعين ، سرنا فى فرع دمياط ، ذلك الذى يمضى إلى الشمال ، بينما يسير زميله فرع رشيد ليتخذ شكل مرفق يتكىء إلى الغرب . ويسمى أهل البلاد نقطة انفصال هذين الفرعين : بطن البقرة .

حاذينا الجسور التى تسد ترعة الفرعونية القديمة ، وبعد عدة أمتار تركنا فرع دمياط لندخل فى ترعة صغيرة من ترع الدلتا ، لا تصلح للملاحة إلا أوقات الفيضان ، وقادتنا هذه الترعة إلى أسفل التل الصناعى الذى أقيمت عليه مدينة منوف .

وبعد عدة أيام من وصولنا إلى المدينة ، أردنا البدء فى تطهير ترعةالفرعونية ولهذا السبب توجهنا إلىالقرية التى تحمل هذا الإسم والتى تقع على فرع دمياط . لم يكن قد سبق لنا أن اتخذنا لأنفسنا حراساً ، وكثيراً ماهوجمت فىهذا الطريق بعض سرايانا ومع ذلك فقد كنا سعداء أكثر منا حذرين ، وفى الوقت نفسه فلربما كان الفلاحون أنفسهم قد أصبحوا أقل جسارة منذ خبروا قوة جيشنا وكفاءة جنودنا . ومهما يكن الأمر ، فلقد لاحظنا بحق أن هؤلاء الفلاحين ليسوا بالغلظة التى كناعادة نظنهم عليها ، كما أن أولئك الذين عملوا منهم فى خدمتنا قد قدموا الدليـــل على المودة والاستقامة والشجاعة ، يضاف إلى ذلك كرم الضيافة التى يحض عليها دينهم . كل ذلك سيكون على الدوام بمثابة ضمان أمان للمسافر الذى ، إن كان يعرف لغتهم ، فلسوف يسير بكل طمأنينة أمام أولئك الذين يرتاب فيهم كأناس سيئى القصد ، ولسوف يطلب إليهم أن يصحبوه إلى رئيسهم وسوف يقول لهذا الرئيس مشيداً بشجاعته وفضائله وكرم ضيافته أنه قد جاء إليه وهو واثق مطمئن . ولقد نجحت هذه الطريقة على الدوام معنا حتى فى تلك المناطق التى لم تكن بعد كلية فى حوزتنا ، وسوف لانتردد فى استخدامها مطلقاً مع أى أناس مهما كانوا ، ذلك أن البشر ، مهما كانت غالبيتهم فى معظم الأحيان قساة ، ومهما كانوا فى العادة سيئين ، فإنهم على الدوام حساسون ، يستجيبون لصوت الشرف ، وليس ثمة ما ينبغى عليك أن تفعله إلا أن تعرف كيف تحسن اختيار الوقت المناسب الذى تجعلهم فيـــه يستجيبون لصوت هذا الشرف .

قدمنا أنفسنا إلى شيخ قرية الفرعونية ، الأمير « أحمد » الذى أوكلت إليه مهمة حراسة جسور الترعة الكبيرة والعناية بها . وكانت قد تهيأت لواحدنا — من قبل — الفرصة لإسداء خدمة جليلة إليه قبل القائد العام للجيش الفرنسى ، فاستقبلنا بسرور وترحاب ؛ نمنا وتعشينا فى كنفه . وفى صباح اليوم التالى دخل علينا الحجرة ومعه ابنته ، وهى طفلة جميلة فى حوالى السابعة من عمرها ، جاءت

لتقدم إلينا الفاكهة والفطائر ، وكان وجهها مكشوفاً ، وكانت هى شاهقة البياض. وبالتأكيد ، فإن زيارة هذه الطفلة لنا ، خاصة وقد خلعت النقاب عن وجهها ، لدليل قوى — بالنسبة لعادات الشرق — على الترحيب الكبير ...

عند رحيلنا ، أراد الشيخ أن يضع فى أيدينا مبلغاً كبيراً من المال ، لكننا رفضنا ، فقدم إلينا حصانين فأجبناه بأن ليس من عادة الفرنسيين قبول هدية بهذه القيمة فنظر إلينا دهشاً ، وسمعنا خدامنا العرب يقولون لبعضهم البعض بصوت خفيض أنه لابد أن سادتهم هؤلاء رجال « جدعان » وإن كانوا مجانين بعض الشىء ، فلقد بدا رفض الهدية فى نظرهم بمثابة عته واختلال فى العقل . على أن عادة تقديم الهدايا لمن أقدمت إليهم واجبات الضيافة إنما تعود إلى الماضى السحيق . ألم يتلق أوليس من مضيفه السليوس كمية كبيرة من الذهب ، ورداء وكأساً ؟ . كان علينا — ربما — أن نتمثل بعض عادات الشرق ، لكن ذلك كان يعنى بالنسبة لنا ، وعلى نحو ما ، أن نتقاضى ثمن خدمات سبق أن قدمناها. لقد تغلبت العادة وعملنا نحن من جانبنا كل ما أمكننا عمله ، حتى يبدو رفضنا أقل فظاظة .

يبدو أن كلمة فرعونية مشتقة من فرعون . وهو الإسم الذى كان يطلق على ملوك مصر القدماء ، وحيث كان سكان هذه البلاد وما زالوا — ينسبون إلى هؤلاء الملوك بناء كثير من المنشآت التى يأتى الأجانب إلى بلادهم شوقا لرؤيتها ، فإن بإمكاننا أن نستنتج أن قرية الفرعونية تضم بعضاً من مخلفات الماضى ، التى عمل الزمن والغزاة البرابرة على إخفائها ، لكننا نجهل أى مدينة قديمة تنهض هذه القرية على أطلالها .

مسحنا مجرى ترعة الفرعونية كله ، وقمنا بما يلزم من تطهير وتسوية . تبدأ الترعة من فرع دمياط إلى الشمال قليلا من القرية التى تحدثنا للتو عنها وتخترق الجزء الأعلى من الدلتا لتنتهى فى فرع رشيد شمال قرية نادر . وانحدار تلك

الترعة الذى يبلغ فى مجمله ثلاثة أمتار و٩٦٣ مم على مدى يبلغ ٣٧ ألفاً ومائتين وخمسين من الأمتار ، بالإضافة إلى ما سبق أن قمنا به من عمليات تعبيد وتطهير فى أماكن أخرى من الدلتا ، إلى جانب ذلك الشح المتواصل فى كمية المياه التى تجرى فى فرع رشيد .. كل ذلك يدفع على الاعتقاد بأن هذه المساحة من أرض مصر تعانى من انحدار عام يتجه من الشرق إلى الغرب . .

كانت مياه الفرع الشرقى بفعل الانحدار التى تحدثنا عنه تصب فيما مضى بوفرة شديدة فى ترعة الفرعونية لدرجة أن الأقاليم التى تليها ، بالقرب من دمياط ، لم تكن تحصل على المياه اللازمة لرى أراضيها وحتى أن البحر كان يغطى بمياهه الأرض الأكثر انخفاضاً . واضطرت حكومة القاهرة بسبب الخسائر التى نجمت عن ذلك إلى إغلاق ترعة الفرعونية . ويبدو أن مراد بك هو أول من أخذ على عاتقه هذا الأمر ؛ ولكن السدود ـ لأنها بنيت بشكل سىء ـ لم تستطع مقاومة ضغط المياه وعندما استولى أيوب بك الشيخ ، على الحكم عاود العملية ، ولكن ما أن انتهت حتى سارع أيوب بك نفسه وعثمان بك ـ تحركهما مصالحهما الخاصة ـ بقطع السدود . وفى النهاية استقر الأمر على إغلاق الترعة نهائياً بموجب أمر من مراد بك عندما عاد هذا المملوك ليعتلى قمة الأحداث . وأوكل الأمير أحمد ـ الذى التقينا به فى الفرعونية ـ بأن يتكفل بهذا العمل فتمكن بمشقة بالغة من إنجازه وذلك بأن ألقى فى مدخل الترعة وقت إنخفاض منسوب المياه كتلا ضخمة من الحجارة ، وكانت مياه فرع دمياط تتسرب وقت الفيضان من خلال السدود لتدخل إلى مجرى الترعة لتتصل بتلك المياه التى تدخلها من جهة فرع رشيد ، مما كان يسمح بالملاحة فيها لبضعة شهور من العام بواسطة القوارب الصغيرة[1] .

---

(١) فى أثناء الفيضان الكبير الذى حدث فى العام التاسع ، اكتسحت المياه السدود لتصب فى ترعة الفرعونية التى عادت بذلك صالحة للملاحة ، وظلت طيلة العام تعمل كفرع كبير من فروع النيل ؛ لكن رحلتنا فى أعماق الدلتا ، كانت سابقة على هذا الحادث .

وشواطىء ترعة الفرعونية ليست ـ كغيرها من شواطىء غالبية الترع فى مصر ـ محاطة بنتوءات طينية نتجت عن التطهير السنوى ، لكنها تشبه شواطىء أفرع النيل الرئيسية ، وتقوم على جانبيها زراعة جيدة كما تنهض قرى شديدة الاقتراب كل منها بالأخرى .

يطلق على المنطقة التى كنا نعبرها : ولاية المنوفية وهو اقليم أقل من غيره من أقاليم الدلتا تعرضاً لغارات العربان، وجزؤه الأعلى المحصور بين فرع دمياط وفرع رشيد . وترعة الفرعونية يسهل الدفاع عنه ضد العدو حين تكون قوات هذا العدو مكونة فقط من الفرسان(١) .

تقدمنا إلى الأمام ، إلى داخل هذه الجزيرة : وعرفنا أنها تروى ـ عموما ـ عن طريق ترعة أبو سرة التى تأخذ مياهها من ترعة الفرعونية حيث تعود لتصب فيها مرة أخرى عند الرملة عن طريق مصبين مختلفين بعد أن تكون قد حملت مياه النيل عن طريق شعاب كثيرة إلى عدد كبير من القرى .

وتبقى مياه الفيضان فى هذه المنطقة من مصر لوقت قصير ، وهذا ما يؤدى بالضرورة بالهواء أن يكون صحيحاً أكثر منه فى المناطق الأخرى لذا فان الطاعون هنا أقل خطراً وانتشاراً عنه فى شمال الدلتا(٢) . ويزرع هناك القمح والشعير والذرة والنيلة والكتان والسلجم والبرسيم والترمس والبصل والفول والعدس وبعض البقول المناسبة ، وكذا بعض الخضروات التى تتناسب مع

---

(١) أوقات انخفاض المياه ، يصبح من السهل اختراق النيل فى مصر السفلى من عدة نقاط ، وهذا هو الوقت الذى كان العربان يختارونه للنفاذ إلى الدلتا .

(٢) الطاعون من الأمراض المتوطنة فى مصر . ويخطىء بوضوح أولئك الذين يظنون أنه يفد إليها كل عام من القسطنطينية ، فها هى تنقضى أربع سنوات منذ أن احتل الجيش الفرنسى مصر ، توقفت فيها العلاقات تماماً بين مصر وتركيا، وطبقت هناك ـ بعناية فائقة ـ

الطقس مثل البامية التي تؤكل ثمارها بعد طهوها في المياه وهو طعام غير مستساغ

كافة الاحتياطات الصحية التي تتخذ في كورنتينات أوربا ، ومع ذلك جاء الطاعون في أوقاته المعتادة ولم تكن أخطاره على مصر أقل من ذى قبل . ولماذا ندهش ؟ ألسنا نعرف أن السكنى بجوار المستنقعات تسبب أنواعاً من الحمى الوبائية أكثر خطورة من مجرد ارتفاع درجة الحرارة ؟ فبعد الفيضان تصبح كل أنحاء مصر مستنقعات واسعة تجف تباعاً بطريق البخر ، وفي نفس الوقت فإن الخضروات التي تذبل والحيوانات التي تنفق في الأوحال تتعفن بسرعة وتنتشر رائحتها الكريهة بفعل الشمس الحارة ورياح الخماسين المسممة التي تهب من قلب أفريقيا لتصبح أكثر التهاباً بينما هي تجتاز سهول الرمال الواسعة . ولهذا فإن حمى المستنقعات — وهي خطيرة في كل بلاد العالم — لابد وأن تتخذ هنا بالضرورة طابعاً معدياً شديد الوضوح .

ولقد لوحظ أن كل الأوبئة الفتاكة ، كانت تسبقها فيضانات عالية .. وفي هذه الحالات كان الطاعون يهبط من مصر العليا ، لأن الصعيد هو المكان الذى يغرقه الفيضان أولا . ولكن حيث أن الجسور هناك — على العكس — قوية ، فليس ثمة مناطق تغرق أو مستنقعات تتكون إلا في مصر السفلى . ولنفس السبب أيضاً يبدأ الطاعون في الظهور في مصر السفلى ثم يؤدى الاحتكاك والمواصلات إلى امتداده إلى الداخل ، ذاهباً من الشمال إلى الجنوب . .

ومع ذلك فمن الممكن أن يفد الطاعون إلى مصر عن طريق البلدان المجاورة ، ولكن إذا حدث ذلك في الوقت الذى لا يحدث فيه الطاعون عادة في مصر فإنه سرعان ما ينتهى .

وقد يقال إن تصاعد الأبخرة من التربة لا يمكن أن يؤدى في حد ذاته إلى حدوث الطاعون ، وأن الرياح هي التي تنقله بسرعة من مكان لآخر ، بل ويلاحظ أن أقل حفرة أو أبسط حاجز كفيل بإيقافه ، لكن هذا الاعتراض مجرد اعتراض شكلى وليس ثمة ما هو أسهل من دحضه . فلا بد أن نقر منذ البداية أن مركز هذه المستنقعات هو مصر السفلى ، لذا سوف يكون من العبث أن ينعزل الناس بعضهم عن بعض ليهربوا من الطاعون ، فإنهم بانعزالهم هذا لن يفعلوا سوى أن يقللوا من درجة الخطر وذلك بتجنبهم للأخطار التي يمكن أن تتهددهم بكل الطرق إلا الخطر الذى ينتج عن طريق الهواء ، ومع ذلك فقد تكون هذه العزلة بذات فائدة في المدن ، ولئن كانت تلك على الدوام أقل صحية من المستنقعات التي تحيط بها . وفي نفس الوقت فإن هذا الاحتياط الحكيم لن يكون بمقدوره أن يحمى كلية ضد كافة الأخطار ، ويقدم لنا التجار الأوربيون الدليل على ذلك ، فإنهم برغم حيطتهم البالغة بعدم اختلاطهم بالشعب المصرى قد أصابهم الطاعون في بعض الأحيان ، وقالوا عندئذ وهم محقون لابد أنها قطة أو عصفور هو الذى نقل إليهم المرض . لذا ينبغى أن نفكر في أسباب مماثلة . وأخيراً فإن الطاعون في مدن أوربا — حيث لا يشكل سوى خطر عارض ، وليس ثمة سبب لحدوثه إلا الاختلاط بالأجسام الحاملة له — له نفس الملمح الرئيسى — فسوف يظل هناك الهواء كسبب للانتشار ، ومن المؤكد أن حائطاً أو حفرة يمكنها أن توقف هذا المرض القاتل .

بسبب لزوجته ، والملوخية وهى عشب يخرط ويطبخ وهى طعام مرغوب من

= ويمكن للأوكسيجين حسب التجارب الرائعة للكيمائيين المحدثين ان تهلك أو حتى تحيد تلك الروائح العفنة ، إذاً فان الهواء الطبيعى — شريطة ألا يكون حاملا للأبخرة التى تتسبب فى حدوث المرض — كاف لقتل العناصر الضارة . إذ يمكن أن يصاب المرء وهو على بعد بضعة ملليمترات من مريض أو من بالة قطن ملوثة بالطاعون فى اللحظة التى تفتح فيها — كما يمكن أن يصاب بالمرض دون أية ملامسة بل يسقط فى بعض الأحيان ميتا منه . وقد حدث من ذلك أمثلة عديدة ، ولكننا إذا ما ابتعدنا عن ذلك المكان الملوث بعض الشيء فلن يكون ثمة ما نخشاه ، ذلك أن كتلة الأكسجين فى تلك المسافة كافية لكى تقضى على كل الروائح الكريهة الحاملة للمرض .

كل هذه تفسيرات بادية البساطة ، ولهذا بالضبط تبدو غير مقنعة ، ذلك أن الإنسان يجب عندما توصف الأخطار التى تتهدده ، أن يقف على الرائع ، على الأمر غير العادى ، وسوف تكون مثل هذه الأسباب الأقل احتمالا ، طالما هى خارجة على المألوف ، هى التى تبعث برغم كل شيء على الإقناع . إنه من السهل على الدوام أن نلهب الخيال أكثر مما نستطيع أن نضىء العقول .

كانت أشد نوبات الطاعون — التى واجهناها فى مصر — فتكاً هى تلك التى حدثت فى العام التاسع ، فقد هلك سكان عديد من قرى الصعيد عن بكرة أبيهم ، أما القاهرة فقد قدمت أعظم المشاهد مدعاة للحزن والأسى ، وكثيراً ما تبدو لى البيانات التى أعدت فى تلك الفترة ، ونشرت فى أوربا عن حالات الوفيات أقل من الواقع . فلقد كانت تسمع الأنات والصرخات من كل البيوت ، وكنا نقابل فى كل خطوة جنازة ، وغالباً ما كانت تجمع العديد من الجثث فى نفس النعش . وفى بعض الأحيان كنت أرى الرجال الذين يحملون النعوش ، وهم يسلمون حمولتهم لآخرين ، ليرقدوا على الأرض يعانون من كل أعراض الطاعون .

وذات يوم ، بينما كنت أعبر السهل الخالى ، سهل ابراهيم ، الذى يفصل القاهرة عن جزيرة الروضة ، شاهدت منظراً لن ينمحى من ذاكرتى مدى الحياة . كانت عن يسارى صفوف متوالية من الأنقاض ، ينهض فوقها معقل معهدنا ، وكانت عن يمينى حقول وأشجار نخيل وجميز ، وكان الجيش فى ذلك الوقت مشتتاً بسبب المناوشات الطائشة للجنرال مينو ، كان العدو يقترب ، وكنا نخلى مستشفى ابراهيم ، وكانت رياح الخماسين تغطى بدواماتها الترابية كل شيء بقناع معتم ، بل إنها صبغت الشمس نفسها بلون شاحب ، وشاهدت صفاً كبيراً من الجمال تتخذ طريقها نحو القلعة ، حيث كان الناس يلتمسون المأوى من تلك الرياح ، وعبرت السهل .

كانت تسمع بين لحظة وأخرى صيحات « النادبات » . ومر بالقرب منى رجل تركى ، يقود حماراً ، وترقد أمامه على ظهر الحمار جثة رجل فرنسى ، وشاهدت رجلا آخر يتقدم =

السكان لكنها قلما تحوز رضا الأوربيين لما بها من مادة رغوية لزجة ، والقلقاس الذى تطهى درناته فى المياه وهو طعام شهى ، كما يزرع الخيار والباذنجان والبطيخ والشمام وأخيراً الخبازى التى يأكلونها ثم الحلبة التى لا نستخدمها فى أوربا

= بخطى واسعة ، وهو يحمل على رأسه سلة ، تتبعه عن قرب سرية المحارب البائسة ، وكان يتمتم بأدعيات الجناز عند المسلمين ، وعلمتنى أذرع الأطفال ، وأقدامهم الصغيرة ، التى تتدلى من السلة التى يحملها الرجل فوق رأسه ، أن نفس المنجل ، منجل الموت ، قد حصد فى نفس الوقت ، الغنى والفقير ، القوى والضعيف ، الصديق والعدو . وفى نفس هذه اللحظة ، وبينما أنا غارق فى هذا المشهد ، وفى تأملاتى ، التقطت أذناى هذه الكلمات ، كأنما ينطق بها صوت نبى :

أيتها المدينة المليئة بالضجيج ،
سوف يموت كل أطفالك ،
لكنهم لن يموتوا بحد السيف ،
فلاك الموت سائر أمامى ،

تلفت ، وتعرفت عليه . كان ضابطاً فرنسياً مسه الجنون منذ بعض الوقت ، وأصبحت ذاكرته منذ مرضه مشوشة لدرجة عجيبة ، ولطالما سمعته يردد بحماس كبير ، بعض أشعار هوراس ، ومقطوعات مطولة من هوميروس ، ومن التوراة . كان يكاد يكون عارياً ، وكان وجهه ملتهباً . وعيناه ثابتتين ، وشعره مبعثر ، وكانت لحيته تتدلى فوق صدره ، وكانت ضجة سلاسله ، وحركاته وصوته ، والمآسى التى ينذر بها — كان كل ذلك يكاد يهد بالأرض من تحت أقدام حراسه ، ويبعث الرجفة فى سلاحهم ؛ كان يصيح :

احفروا قبوركم كما أنذرتكم كلمات الأنبياء والقديسين ،
لقد جاء يوم الغضب ،
ودخل الرب إلى مصر ،
وسوف تنهشها لعناته .

ويستريح هنيهة ثم يعود ليقول :
ها قد خرست أصوات الطبول ،
وما عادت تسمع صيحات الأفراح ،
وأسكتت القيثار أوتارها العذبة ،
واختفت المدينة الرائعة من خريطة العالم .

كانت هذه الكلمات الكئيبة ، وتلك الأناشيد والطقوس الجنائزية ، وتلك العاصفة والدوامات المسممة تتلاقى عند محمد المهد ، ترسم لوحة مريعة تطارق بالحاح فى مخيلتى ، حتى أخالنى اليوم ، أراها ، وأدق تفاصيلها .

إلا كعليق لكنهم فى مصر يستخدمونها كغذاء ويأكلون نباتها نيئاً وبلا تتبيل لبذرتها كما أنهم يأكلون سيقانها الصغيرة .

ولا يزرع القنب إلا بكميات قليلة ولسبب يختلف عن السبب الذى يزرع من أجله فى فرنسا ، إذ يبدو أن المصريين الذين علموا الأوربيين فيما مضى فن غزل الكتان وصنع الحبال والأقمشة منها ، لم يعرفوا أن القنب يمكن أن يستخدم فى نفس الأغراض ، أو أنهم على الأقل قد أهملوا زراعته لهذا الغرض ، فهم يدخنون هذا النبات بدلا من التبغ أو يتناولون بذوره كمخدر يزيد من قوتهم وشجاعتهم ويدفعهم إلى القيام بالأعمال بالغة الجرأة ، ويحبه العامة منهم حباً شديداً ويبدو أنه بالنسبة لهم بمثابة تعويض عن المشروبات الروحية التى حرمها عليهم نبيهم ، ذلك أن الناس فى كل مكان يسعون لتخدير العقل — هذا الذى يتباهى به بنو البشر — إما ببعض النباتات أو بعض المشروبات . أتكون الآلام العالقة بوجودنا نفسه هى سبب تلك اللذة التى يبدو أننا نحس بها ما أن ننسى كل شىء ؟

ومظهر مدينة منوف مظهر غير لائق ، فمنازلها منخفضة ومبنية باللبن ، وشوارعها ضيقة ومتعرجة ، وأكوام الخرائب والانقاض التى تحيط بها تحجب عنها الرؤية كلية من الشرق أو من الغرب . وتحيط بها مياه النيل فى أوقات الفيضان وإن كانت تنصرف عنها سريعاً ، لذا فهى واحدة من أحسن مدن مصر السفلى من الناحية الصحية . ويمكن أن نميز بسهولة بين أولئك الذين احترفوا الزراعة من سكانها وبين أولئك الذين لا تستدعى أعمالهم الحركة ، فالأولون نحيلو الأجسام وأشداء ، بينما الآخرون أكثر سمنة ، وهم بدرجة أساسية النساجون ، وهم كثيرون فى هذه الولاية .

ولا توجد بمنوف أية آثار لمنشآت قديمة ، ولا ينبىء التل الصناعى المبنى بالطوب اللبن والذى تنهض فوقه أنه كانت توجد هناك واحدة من مدن مصر

القديمة — ويعود ذلك بلا جدال إلى أن أطلال هذه المنشآت القديمة قد غطتها من جديد أطلال المنازل الحديثة . وفى الواقع فإن علينا أن نعود بمنوف إلى أصل ضارب فى القدم ، فقد كانت هذه المدينة بالفعل وقت دخول العرب مصر مدينة هامة لحد أنها أعطت اسمها لإقليم بأكمله من أقاليم الدلتا . وربما كان علينا أن نضع فى موضعها الحالى — أو أبعد من ذلك بمسافة جد قصيرة — مدينة نيسى Nicii التى تذكرها الخرائط القديمة والتى كانت عاصمة لإقليم بروزوبيتيس Prosopites .

ذلك أن نيسى حسب مسار أنطونين كانت تقع على بعد ٤٨ ألف متر من ممفيس و ٢١ ألفاً من أندروبوليس وهما المدينتان اللتان يتفق كل الباحثين على مكانهما(١) . فالأولى تقع بالقرب من أهرام سقارة عند قرية ميت رهينة حيث عثرنا بالفعل على خرائبها ، أما الثانية فتقع عند قرية شابور على الشاطىء الأيسر لفرع رشيد .

وقد رأينا فى بعض مساجد منوف أعمدة من الجرانيت يبدو أنها جلبت من مبان قديمة ، كما اكتشفنا عند باب أحد المنازل حجراً أثريا يستخدم كمقعد بينما يمكن أن يدفع تجار العاديات فيه أغلى الأثمان ، وهو عبارة عن كتلة ذات زوايا أربع ، وهو من الجرانيت الأسود وكامل الاستقامة ، وتوجد على أحد جوانبه آثار نقشين واحد بالحروف الهيروغليفية المماثلة تماثل تلك التى نراها على أغلفة المومياوات وأوراق البردى ، والآخر بحروف يونانية جميلة . . ويبلغ طول هذا الحجر ١,٢٤ م وثمـــة إطار أماس طوله سنتيمتران يحيط بالنقوش ويحد من طول الأسطر المكتوبة إلى ١٢٠ سم ، أما زاويتاه البارزتان فمهشمتان ، وكلا النقشين فى حالة من العطب الشديد ، وقد نقلنا عدة كلمات من النقش الأول ، ولا تترك المقارنة التى قمنا بها بينها وبين النقوش الوسطى التى وجدناها فوق حجر رشيد أدنى شك حول هوية الحروف . وقد شاركنا هذا

(١) أنظر على سبيل المثال :

Les mémoires sur l'Egypte, par d'Anville.

الرأى كلية زميلنا المرحوم المسيو ريج Raige الذى أطلعناه على النصوص التى كانت فى حوزتنا ، ولعله كان بقادر على أن يقدم لنا تفسيراً لهذه النصوص لو لم يفاجئه الموت وهو منهمك فى أعماله بنفس الهمة التى كان يعمل بها وقت العثور على حجر رشيد[1] .

أما حروف النقش الثانى فلا تدع مجالا لأى شك ، فهى باليونانية ، لكننا لم نستطع أن نقرأ بوضوح سوى الكلمات الثلاث الأولى وبداية الكلمة الرابعة .

من الملك الشاب ، دائماً . .

وينبغى أن تكون النقوش — إذا ما حكمنا عليها من ناحية الحجم — أكبر أهمية من نقوش حجر رشيد ، فالنقوش اليونانية فى هذا الحجر الأخير لا تشغل سوى مثلث عرضه ٣٤ سم وطوله ٧١ سم بينما يبلغ عرض مثلث منوف ٣٦ سم وطوله ١٢٠ سم كما أن التماثل اللافت للنظر والقائم بين هذين الحجرين يحملنا بالطبع على الاستنتاج بأن لحجر منوف بالضرورة نقشاً ثالثاً باللغة الهيروغليفية .

ومن المعروف أن الاثر الحجرى الذى عثر عليــــه فى رشيد يتضمن مرسوما[2] أصدره الكهنة المصريون يطلبون فيه القيام بصلوات خاصة على شرف بطليموس ابيفان الذى نودى به إلهاً فى معبد ممفيس . واليكم أولى كلمات هذا المرسوم : فى عهد الملك الشاب الذى أعقب . . .

(١) هذا الأثر الحجرى هو أثمن الأحجار التى حصلنا عليها منذ وقت طويل ، وتوجد عليه ثلاثة نقوش : الأول باللغة الهيروغليفية ، والثانى بالمصرية القديمة الدارجة ، والثالث باليونانية .

وقد عثر عليــه زميلنا المسيو بوشار Bouchard ، بينما كان يقوم بالتنقيب بهدف ترميم حصن قديم يقع شمال رشيد بـ ٤٠٠ متراً على الشاطىء الأيسر للنيل .

(٢) أنظر شرح النقش اليونانى لحجر رشيد ، الذى أعده المسيو أميون Ameilon, Paris 1803, in—40

ليس ثمة أى خلاف فى بداية النقش الذى عثرنا عليه وذلك الذى عثر عليه فى رشيد ؛ إنه فى الواقع يتضمن مرسوما من نفس النوع . هذا هو الإنسان فى هوانه المعهود ، وهؤلاء هم الكهنة يصدرون لأكثر من مرة مثل هذا المرسوم العام والعانى سعياً وراء تملق ومداهنة ملوك الأغريق عنـــدما آل إليهم حكم مصر .

وقد عثر زميلنا كارستى Caristie فى القاهرة على حجر آخر من نفس نوع الحجرين سالفى الذكر لكنه يختلف عنهما فى الحجم [1] ، وقد جعل هذا الأثر من الرأى الذى قلناه للتو بخصوص عدد وأنواع النقوش أكثر ترجيحاً .

---

(١) اليكم ما جاء بخصوص هذا الموضوع فى الرسالة المؤرخة فى ٣٠ فتنوز من العام العاشر ، برقم ١٠٨ من بريد مصر Courriers d'Egypte : « اكتشف المواطن كارستى ، مهندس الطرق والكبارى ، فى بداية هذا العام فى جامع الناصرية الواقع فى حى من أحياء القاهرة يسمى بهذا الإسم ، حجراً أو لوحة من الجرانيت الأسود كانت تستخدم عتبة لباب هذا المسجد ، وتعرف فيها على ثلاثة نقوش بثلاث لغات قديمة . وقد وافق الجنرال مينو على أن ينتزع هذا الحجر وأن ينقل إلى المعهد حيث هو الآن . ومقاييس هذه النصف — لوحة التى تلفت وتهشمت عند منتصفها كما يلى : الطول ٦ قدم ، العرض ١٥ بوصة ، السمك ١١ بوصة . وهو من الجرانيت الأسود الجميل ، البالغ النعومة .

ويلاحظ وجود ثلاثة نقوش عليه مكتوبة الواحد منها فوق الآخر :

أولها وأعلاها باللغة الهيروغليفية ويتكون من ٢٦ سطراً محددة باطار .

والثانى بلغة يشك فى أنها إما الهيروغليفية المائلة وإما اللغة الدارجة للمصريين القدماء ، وهى تشبه الحروف المنقوشة على أغلفة المومياوات ، ويبلغ عدد سطوره كذلك ٢٦ سطراً .

أما النقش الثالث فهو باليونانية ويبلغ ٢٥ سطراً . وعلى العموم فان حروف هذه النقوش الثلاثة معطوبة تماماً ، بل لا تكاد تقرأ ، وعلى الجزء الأعلى من هذا الحجر ، عند الحافة المهشمة تجاه العرض ، رسم لجناحين مفرودين ، يماثل تلك الرسوم التى تزين واجهات المعابد المصرية القديمة ، وأسفل ذلك ، نتعرف جيداً على صور لبعض الأشخاص .

وهذا الحجر الذى توجد عليه ثلاثة نقوش ، بثلاث لغات مختلفة ، أكبر كثيراً من الحجر الذى عثر عليه فى حصن جوليان بالقرب من رشيد ، وهو من نفس نوعه وطبيعته .

وهو من الحجر الذى تحدثنا عنه فى رقم ٣٧ من بريد مصر ، لكنه أقل منه فائدة لأن من الصعب بمكان أن نفك بعض كلمات متوالية منه . وهو يشير إلى أنه يعود إلى زمن البطالمة .

أقمنا فى منوف فى منزل واسع لحد ما ، وكان المباشر القبطى يشغل الجزء السفلى من هذا المنزل ، وقد شاهدناه من نافذتنا مرات عديدة وهو يأمر بجلد أولئك الفلاحين الذين لم يدفعوا الضريبة المقررة عليهم — فى فناء منزله . ولكم توسلنا إليه مراراً من أجلهم ، لكن القبطى كان يجيبنا فى كل مرة بأن هذا هو التصرف المعتاد طيلة حكم المماليك ، وأن الفلاحين لن يدفعوا شيئاً إن لم يرغموا على ذلك بالقوة . ويذكر أميان مارسلان Ammien Marcellin أن الضرائب كانت تحصل بنفس الطريقة فى أيام الرومان ، فلقد كان المصريون يجدون أن من العار — حسبما يقول — أن يدفعوا الضريبة طواعية وعن طيب خاطر وبدون أن يرغموا على ذلك بضربات السياط . وفى الواقع ، فكثيراً ما شاهدنا الفلاح من هؤلاء ، بعد أن يكون قد تلقى عدة ضربات بالسوط بلا جدوى ينتزع فى النهاية من فمه أو من ثنايا عمامته النقود المطلوبة ويقدمها للمباشر . يا له من قدر عجيب ! هؤلاء هم الفلاحون المسلمون ، والذين ربما كانوا ينحدرون من أصلاب صحابة محمد ، يضربون بالسياط فى بلد إسلامى على يد الأقباط المسيحيين والمماليك المارقين ! ولقد كانت شفاعتنا لهم تأتى بالنفع فى بعض الأحيان ، ولابد أن المباشر كان يلعننا فى سويداء قلبه دون أن يجرؤ على الافصاح عن ذلك ، ولقد أحبنا الناس فى منوف لهذا السبب ، وأصبح الأمر الذى كنا نفعله فى البداية بدافع من مجرد الشفقة ، يختلط بالنسبة لنا بشعور من الكبرياء القومى ، قد لا يدرك كنهه من لم يفارق وطنه . . فأنت — بعيداً عن الوطن — تعطى للوطن وتنسب إليه كل شىء ، وليس ثمة ما تنسبه لنفسك ، ولن يهمك فى كثير أو قليل أن يذكر اسمك ، شريطة أن تسمعهم ، كما كنا نسمعهم يقولون : « إنه فرنسى ذلك الذى قدم لى العون من حافظة نقوده ، وأسبغ على حمايته من ماله ، إنه فرنسى ذلك الذى أنقذنى من يد الأعداء » .

الرحيل من منوف . وصف الفرع الترموتى — أطلال أتربشيش وبيبلوس وبوزيريس — الوصول إلى سمنود

أقمنا فى منوف لعدة أشهر إلى أن صدر الأمر لفصيلة من جنودنا — من حامية المدينة — تتألف من خمسة عشر جندياً ، من جنود المدفعية ، بالتوجه إلى سمنود ، فسارعنا بانتهاز الفرصة لعبور هـــذا الجزء من الدلتا فى حماية هذه الفصيلة .

رحلنا سائرين على الأقدام فى العشرين من فريمير ، وبعد مسيرة ثلاث ساعات وصلنا إلى شبين الكوم . وهى قرية كبيرة على ترعة واسعة تسمى القرينين ، على بعد فرسخين ونصف فرسخ من منوف . دخلنا القرية كى نقضى فيها بقية النهار ، وقادنا البعض لهذا الغرض إلى بيت المماليك . وثمة أمثال هذا النوع من البيوت فى غالبية القرى ، وهى مخصصة لإقامة رجال الحكومة الذين يجوبون الأقاليم . وليس فى هذه البيوت أثاثات على الإطلاق ولا آنية للطبخ ، والسكان هم الملزمون بتأثيث هذه البيوت وإمدادها بكل ماهو ضرورى لإقامة من ينزل فيها من رجال الحكومة .

أرسل شيخ القرية خبزاً وخروفاً حياً اقتسمناه فيما بيننا ، وجاءنا بعض الفلاحين يبيعوننا الدجاج والبيض[1] وبدأ جنودنا يعدون وجبتهم بينما كان خدمنا المصريون يعدون طعامنا . وذهبنا نحن للتنزه فى القرية ، ولاحظنا وجود أعداد هائلة من الخرائب والأطلال التى تنبىء أن ثمة كانت مدينة قديمة ولسنا نشك فى أننا لو حفرنا هنا ، لعثرنا على مبان قديمة .

---

(١) فى الأيام الأولى من إقامتنا ، كنا نشترى ١٢ بيضة فى مقابل ثلاث بارات ، كما كنا نشترى الدجاجة بنحو ٥ — ٦ بارات . لكن هذه الأسعار تضاعفت بعد ذلك ، وتساوى البارة حوالى ½ ٧ سنتيمات .

لعل من الجائز أن تكون هذه الخرائب هى أطلال مدينة أتربشيش التى حدثنا عنها هيرودت والتى أشار إليها سترابون باسم أفروديس بوليس Aphrodiepolis وقد نكون مصيبين بعض الشيء لو أننا نسبنا إلى هذا الموقع مدينة نيسى Nicii ذلك أن هيرودت يضع أتربشيش داخل جزيرة بروزوبيتس، وقال أنه رأى هناك معبداً مخصصاً لعبادة فينوس، ويضع سترابون مدينة فينوس (أفروديس بوليس) فى إقليم أبروزوبيتيس وهى بالتأكيد نفس المدينة المسماة بروزوبيتس أو بروزوبيتيس كما يذكر بعض الجغرافيين ويعدها بلين ضمن مدن الدلتا، أما إسمها اليونانى أفروديس بوليس (مدينة فينوس) فقد منح لها بسبب العبادة التى كانت تقام فيها لتلك الآلهة. أما اسمها المصرى فله نفس الاشتقاق، واحتفظ اسمها هذا فى اللغة القبطية بنفس معناها السابق (مدينة فينوس).

ومن أتربشيش – كما يذكر هيرودت – كانت تذهب السفن إلى كافة أنحاء مصر لتجلب عظام الثيران كى تدفن هناك فى احتفال دينى مهيب[1]. وتبرهن هذه الملاحة أن أتربشيش كانت تقع على فرع من فروع النيل صالح للملاحة، وشبين الكوم بموقعها الحالى تفى بهذا الغرض.

وليس ثمة فى أى جزء من هذه الترعة ما يدل على أثر لعمل الإنسان، إذ هى تنبع قرب قرية القرينين من فرع النيل الرئيسى المتجه إلى دمياط، لتجرى دفعة واحدة عبر الدلتا حتى تصل إلى قرية شبين الكوم حيث تنقسم إلى فرعين: ويقطع أحد هذين الفرعين الدلتا أفقياً ليصب بالقرب من قرية الفرستق فى فرع النيل، أما الثانى وهو أهمها فيصب مياهه أسفل قرية سبنتيس فى ترعة التبانية التى تصب مياهها فى بحيرة ابرلسس غير بعيد من أطلال يمكن أن ننسبها بكثير

---

(١) كانت العجول تدفن بقرونها فوق سطح الأرض، حتى يستطيع سكان أتربشيش الموكل إليهم جمع عظامها أن يعثروا على هذه العظام بسهولة (هيرودت – الكتاب الثانى).

من الترجيح إلى المدينة القديمة بوتو Buto . ويسمى هذا الفرع الثانى باسم ترعة مليج وذلك ابتداء من شبين الكوم حتى اتصاله بترعة التبانية .

كل هذا يحملنا على الاعتقاد بأن تلك الترعة التى حددناها للتو — منذ منشئها من فرع دمياط حتى مصبها فى بحيرة البرلس — ليست شيئاً آخر سوى فرع النيل القديم الذى كان يسمى بالفرع السبنيتى الذى يذكره سترابون وبذا يكون له نفس المجرى القديم للفرع الترموتى فى عصر البطالمة، بعد أن نضيف إليه ذلك الجزء من فرع دمياط ، الواقع بين قرية القرينين وقمة الدلتا .

كان الفرع السبنيتى الذى تحدث عنه سترابون صالحاً للملاحة وكانت المياه تجرى فيه طوال العام، وكان اندفاع المياه فيه سريعاً بعض الشيء كما كان عرضه يتراوح بين ١٥٠ و ٢٠٠ متر ، وكان فى بعض المناطق يتفرع إلى فروع كثيرة مشكلا بذلك كثيراً من الجزر . كما كان يغذى كثيرا من الترع التى تروى أراضى المدن والقرى الرئيسية فى الدلتا . وهكذا وصلت مياه النهر إلى ما تحت أسوار المحلة الكويرة (الكبرى) ومحلة أبو على .

فى صباح يوم ٢١ أبحرنا فى هذه الترعة مع حراسنا لنقطع حوالى سبعة آلاف متر حتى نصل إلى قرية مليج التى تحمل الترعة اسمها . ولقد لمحنا جنوب هذه القرية ، حيث تنحنى الترعة لتتخذ شكل مرفق ، مرتفعات عالية من الطوب اللبن وهو مايدل على موقع مدينة قديمة بالغة الأهمية ، نعتقد أنها مدينة بيباوس التى تحدث عنها كل من كتسياس وايتيان دى بيزانس . ونحن نعرف أن المصريين عندما أرادوا النكاية بالفرس وضعوا على رأسهم ايناروس ملك ليبيا ، وأن هذا الأمير ، بعد أن دعمه الاثينيون ، وبعد أن أحرز انتصارات واسعة استولى على مصر ، لكنه فى النهاية هزم على يد الفرس وطرد من عفيس واضطر للتحصن مع فلول جيشه فى جزيرة بروزوبيتيس حسبما يذكر ثيوخيديد أو فى بيبلوس كما يذكر كتسياس ، ومن هنا ، فحيث أن هذه الوقائع قد حدثت تحت

نظر هذين المؤرخين ، فأننا نستطيع أن نستنتج من ذلك أن بيبلوس كانت تقع فى جزيرة بروزوبيتيس وكان لهذه الأخيرة تسعة فروع صغيرة تدور حولها حسبما يذكر هيرودوت . والموقع الذى حددناه لمدينة نيسى فى ضواحى منوف يضم خرائب مليج عند الطرف الشمالى للجزيرة وهذا ما يتفق مع الموقع الذى يعطيه العلامة دانفيل لمدينة بيبلوس حسب بعض المعلومات التاريخية ، وقد لاحظ دانفيل أن الفرس بعد حصارهم بيبلوس لمدة عام ونصف ، قد استطاعوا فى النهاية أن يجففوا المياه من حول السفن الاثينية ، تلك التى كانت تساهم بقوة فى الدفاع عن المكان . ولعل الفتحات التى نزحت بواسطتها مياه الترعة هى التى حملته على الظن بأن مدينة بيبلوس تقع فى الجزء الأدنى للجزيرة . ونحن نجد فى الواقع ، فى أعلى مليج فرعين عامين ، احدهما كما سبق القول يتفرع قرب قرية شبين الكوم لينضم إلى فرع رشيد قرب قرية الفرستق ، أما الثانى وهو أقل أهميـــة لدرجة كبيرة وأكثر قربا من مليج ، فهو يجرى إلى الشمال نحو مدينة طنطا . ويمكن الاستنتاج بأن هاتين الترعتين هما من عمل الفرس أثناء حصار بيبلوس ، وأن اختفاء جزيرة بروزوبيتيس يعود لإنشائهما ، أو أنها بالأخرى قد اختفت بفعل الترع التى كانت تحيط بها .

واصلنا السير فى مجرى الترعة ، وأخذ واحد من بحارتنا المصريين ، أكثر حبا للعشرة مما اعتدناه من بقية مواطنيه ، يرفه عنا بأسئلته الساذجة . وحيث أن أفكاره حول بعض الأمور تماثل أفكار كثير من المصريين من أبناء طبقته ، فسوف نذكر أشد هذه الأفكار غرابة .

لم يكن هذا البحار (النوتى) يستطيع على سبيل المثال أن يصدق أن لدينا فى فرنسا نهراً آخر بخلاف النيل ، ولكنه فى مقابل ذلك لم يشأ أن يضىء سماءنا نفس القمر الذى يضىء سماء مصر . وهذا الرأى الذى نراه غير معقول للوهلة الأولى ، يعود مع ذلك إلى جهل عميق أكثر مما يعود إلى عقلية منحطة ، فحيث أنه لا يعرف مطلقاً المجرى الكامل للنيل وحيث أنه لم ير ترعة لا تتفرع منها ترعة

أو فرعاً آخر، فمن الممكن له إذن أن يظن أنه إذا ما قابل واحد – أى واحد – نهيراً عذب المياه ، وفى أى مكان ، فلا بد أن يكون هذا النهير جزءاً من المجرى الواسع لنهر النيل أو من أحد فروعه العديدة ، وكذلك ، وبفكر مشابه ، فها هو ذا يرى القمر كامل الاستدارة فوق رأسه ، فكيف يمكن لهذا القمر إذن أن يضىء سماء شعب آخر ، يبتعد عن مصر بكل هـــذه المسافة ، وهو الشعب الفرنسى .

وقد كانت ديانتنا أيضاً مبعث دهشة له . وكثيراً ما سمعنا مصريين آخرين يقدمون حول هذا الأمر آلاف الاعتراضات الغريبة . وكان احترامنا لدياناتهم، وتلك الديباجة : لا اله الا الله محمد رسول الله ، التى استقيناها من كتبهم المقدسة ليقرأوها فى بداية كل بلاغاتنا وكل منشوراتنا العامة ، لا يمكن لها فى فى رأيهم أن تتفق مع ديننا المسيحى الذى يظنونه دين كل الأوربيين والذى يرونه عدواً للدين الإسلامى . وعندما لاحظ بعضهم أن الفرنسيين لا يمارسون أية طقوس دينية ، ظنوا أنه ليست لدينا أية معرفة بالله ، وظنوا أن هذا هو الوضع الأمثل لنا ، إذ يصبح من الميسور – والحالة هذه – أن نعتنق الإسلام أكثر مما يكون ميسورا لو أننا كنا نعتنق دينا معاديا لدياناتهم . وبسبب هذا الاعتبار لقيت أمتنا لديهم بعض الترحيب .

وفيما نحن نستمع إلى أسئلة ملاحنا ، وإلى الأفكار التى كان يقترحها علينا مررنا أمام قرى ميت عافية ، ديا ، الجعفرية ، عشما ، شبرابلولة ، أبو الجهور الواقعة على الشط الأيمن للترعة وكذلك قرى بركة السبع ، كفر الحاج داود ، السنطة ، على الشط الأيسر .

وقد توقفنا أمام القرية الأخيرة . وفى اليوم التالى أبحرنا إلى الشط المقابل وسرنا على أقدامنا حتى قرية المنشية ومنها إلى شرشابة . وتروى أراضيها بواسطة ترعة تتفرع من ترعة مليج ، ثم وصلنا بعد ذلك إلى سنباط بعد أن مررنا بجسر

يقوم بحجز المياه أيام الفيضان ؛ وأسفل هذا الجسر فتحة ترعة : ثم مررنا فى طريقنا على قريتى شبرا والبنوان ووصلنا أخيرا عند قدوم المساء إلى بوصير[1] وهى قرية كبيرة تقع على شط النيل .

وكل هذه المنطقة من الدلتا — كما رأينا — مزدحمة بالسكان ، وهى كذلك شديدة الخصوبة وزراعتها طيبة ، وعدد العربان هناك أقل منه فى كافة أنحاء مصر ، كما أن الفلاحين هنا لا يستخدمون كوقود إلا سيقان الذرة المجففة وروث الماشية بعد أن تعجنها النساء مع قليل من القش المهروس ، ثم يلصقنها بجدران البيوت حتى تجف بفعل الشمس ، وهذه الطريقة تساهم فى اعطاء القرية مظهرا لا يليق ، سيما وأنها — القرية — مبنية بشكل ردىء ، ومن الطوب اللبن أو ببساطة من الطين . أقمنا خيامنا خارج بوصير تحت بعض أشجار النخيل المزروعة على شط النيل ولاحت لنا القرية بالغة الكبر وأجمل بناء من القرى التى مررنا بها . وقد عثرنا فوق الاطلال التى تحيط بها على كتلة كبيرة من الحجر الرملى تحمل آثار بعض الكتابات المصرية القديمة ، وتنهض هذه القرية على مرتفع صناعى مربع الشكل يقع على بعد ٣٠٠ متر من هذه الاطلال ، كما كان لاسمها رنين خاص عند دانفيل ، الذى يحدد فى مكانها موقع مدينة بيزيرس أو بوزيريس عاصمة أحد الأقاليم القديمة . كان يوجد فى هذه المدينة كما يقول هيرودت معبد كبير مخصص لعبادة ايزيس حيث كان يقام فى كل عام احتفالا بهذه المناسبة الالهية ، عيد يعد من أهم الأعياد فى الديانة المصرية القديمة بعد عيد بوباسطة . وكانت جماهير من الناس من كلا الجنسين يتوجهون إلى بوزيريس من كافة أنحاء مصر ، وكانوا يستعدون لتقديم القرابين بالصيام والصلوات ، ثم يذبحون عجلا

---

(١) ينبغى أن نذكر أنها تكتب فى عديد من الخرائط ابوصير بدلا من بوصير . واعتقد أننا نحن أنفسنا قد سمعنا سكان هذه القرية يلفظون اسمها هكذا وبلا جدال ، فان إضافة أداة المعرفة « الـ » هو سبب هذا الخطأ ، ذلك أن الجغرافيين العرب : الادريسى والمقريزى وأبو الفدا وآخرين يكتبون اسمها : بوصير .

ينزعون عنه جلده ، وأمعاءه ، وأفخاذه وأكتافه ورقبته وأردافه .. ثم يملأون جسمه بالدقيق والعسل والعنب المجفف والتين والبخور والمر ، ومواد أخرى ذات رائحة ، وبعد أن تعد الاضحية بهذه الطريقة ، تشعل فيها النيران وهى موضوعة فوق أتون ، وكانوا يغذون النيران بالقاء الزيوت عليها ، وفى هذه الاثناء كان المتفرجون ينتحبون ويصفقون ويلطمون أنفسهم . ولكن هيرودت الذى نقل الينا هذه التفاصيل أضاف بأنه لم يسمح له بأن يقول على شرف من كان المصريون يظهرون كل هذه الأحزان . وإذا كان من الممكن لنا على الاطلاق أن نبدى رأياً حول موضوع مماثل ، فإنه يلوح لنا بالرغم من مرور كل هذا الزمان وبالرغم من تحفظ المؤرخين أن هذه الأحزان كانت حتما من أجل موت أوزيريس ، ذلك أن بلوتارك فى روايته عن أيزيس وأوزيريس يؤكد أنه بالرغم من وجود مقابر عديدة فى مصر أنشئت خصيصاً من أجل أوزيريس فإن جثمانه فى الواقع موجود فى بوزيريس وأنه ولد هناك . وثمة بعض من الناس يشتق اسم هذه المدينة من الكلمات المصرية القديمة بى — أوصيرى أى مقبرة أوزيريس أو كلمات أخرى تعنى نفس الشىء . ومهما يكن الأمر فيما يتعلق بهذه الاشتقاقات المختلفة فأننا نستنتج منها دائماً أن مدينة بوزيريس قد أخذت اسمها من اسم أوزيريس ، ويمكن أن نرتب على ذلك أنهم كانوا هناك يقيمون عبادة خاصة لهذا الإله . وبمعنى آخر فإن الكهنة جعلوا من انحدار الشمس إلى نصف الكرة الجنوبى ، وانحسار مياه النيل ، وهما الفترتان اللتان تسمحان بقيام احتفالات جنائزية مهيبة ، مقابلا لموت أوزيريس رمز الشمس والنيل عند المصريين ، كما أن الأشخاص غير المؤهلين لفهم أسرار الديانة كانوا يعتقدون أنهم يحتفلون بذكرى موت حق لواحد من آلهتهم .

ويدعى بعض علماء الميثولوجيا كذلك أن مدينة بوزيريس تأخذ اسمها من بيزيريس ، ملك مصر الطاغية المستبد الذى كان يذبح قربانا لجوبتر كل الأجانب

الذين يفدون إلى بلاده وأن هذا الأمير قد قتل على يد هرقل بينما كان هذا الأمير يعد له نفس المصير ، لكن سترابون يؤكد أن هذه خرافة لا أساس لها وأنها قد أخترعت - ربما - للانتقام من المصريين لأنهم غير مضيافين نحو الأجانب . ونحن فى هذا الخصوص نشارك سترابون رأيه تمام المشاركة ، لكنه عندما يضيف بأنه لم يكن ثمة ملك مصرى على الاطلاق يحمل اسم بيزيريس ، فلسنا نستطيع أن نجزم أيهما كان على حق : هو أم ديودور الذى ذكر أميراً مصريا بهذا الاسم ونسب إليه تأسيس طيبة . وفى نفس الوقت فإن ديودور يتفق مع سترابون فيما يختص بالأحداث الاسطورية التى تنسب إلى إلى فرعون ويقدم لها تفسيراً بالغ الاقناع فيقول « أن ملوك مصر القدماء كانوا يقدمون كأضحيات على مقبرة اوزيريس رجالا يشبهون طيفون بشعرهم الأشقر ، وكانت هذه الأضحيات تأتى دائماً من بين الأغراب حيث أنه من النادر أن نجد مصريين لهم هذا اللون ؛ هذا هو أصل الأسطورة التى جعلت الإغريق يرون فى بوزيريس ملكا مصريا يذبح الأجانب ، وفى مقابل ذلك فإن المصريين لا يرون فى هذا الاسم مطلقاً أسماً لواحد من ملوكهم وإنما هو يعنى فى المقام الأول : مقبرة أوزيريس .

وفى اليوم التالى ، عند انبلاج النهار ، تركنا بوصير ، وبعد أقل من ساعتين وصلنا إلى سمنود بعد أن اجتزنا شمال هذه المدينة ترعة كبيرة متفرعة عن النيل .

عن مدينة سمنود — خرائب بهبيت

سمنود « بكسر السين » أو سمنود « بفتحها » هى أهم المدن التى يمر بها المرء منذ أن يسير مع مجرى النيل من القاهرة حتى دمياط . وحيث أنها تقع على النيل ، وحيث أنها محاطة بالترع الملاحية الكبيرة ، كما أنها تجاور المحلة الكبيرة « الكبرى » ، أهم مدن الدلتا الصناعية ، فقد أصبحت سمنود بهذا الموقع المحظوظ

مركزاً بالغ الحيوية للتجارة ، فثمة أسواق عديدة تجذب الناس من البلدان المجاورة حتى أن المرء كثيراً ما يلقى صعوبة فى المشى فى الشوارع . وأغلب المنازل هناك مبنية بالطوب وبناؤها حسن المظهر ، وليس ثمة مثيل لمساجدها ، وأكبر منشأة فيها هى وكالة كبيرة[1] تقع على شاطىء النيل . ويبلغ تعداد الوفيات فى سمنود فى الأوقات العادية من ١٣ — ١٧ نفساً فى الشهر الواحد وهو رقم يجعلنا نفترض أن تعدادها يصل من ٤ - ٥ آلاف نفس .

والسهل المحيط بالمدينة بالغ الخصوبة ، ويخترقه عديد من الترع أهمها اثنتان: تنبع إحداهما من الجنوب بالقرب من سمنود وتنبع الأخرى من الشمال قرب التبانية، وهما تجريان نحو الغرب لتلتقيا بترعة مليج بحيث تبدو سمنود والأراضى المحيطة بها أشبه بجزيرة .

وهذه المدينة جزء من ولاية الغربية ، وقد أصبحت عاصمة للولاية إبان الحكم الفرنسى ، ذلك أن العمليات الحربية جعلت الفرنسيين يفضلونها على المحلة الكبيرة ، فجعلوا منها مقراً لقيادة الولاية .

ويتفق كل العلماء على أن سمنود هى نفسها سبنيتوس القديمة كما كان يسميها الإغريق والتى كان الأقباط يسمونها سيجيمنوت Sjemnout، والتماثل بين هذه الأسماء كما نرى شديد الوضوح . وبالرغم من أن هذا لا يعد دليلاً كافياً فإنه مع ذلك لا ينبغى أن نهمله ، ذلك أننا نجد فى مصر العديد من المدن والقرى التى لم تتغير

---

(١) تبنى الوكالات تقريباً على نفس النمط ، فهى تشتمل على فناء كبير ، مربع الشكل ، يحيط به دهليز تدعمه أعمدة من الجرانيت أو الرخام ، يتكون جذعها من قطعة واحدة ويلاحظ فى ذلك ، على الدوام ، أن تاج العمود يحل محل قاعدته والعكس . وفى الطابق الأرضى ، توجد أبواب المحلات تحت الدهليز . وتكون الأدوار العليا بنفس التقسيم الذى نراه فى الدور السفلى ، كما توجد حجرات ملحقة بالمحلات ، وممرات تؤدى إلى الدهاليز . وتخصص هذه الوكالات للمسافرين . وهى ليست سوى نوع من الفنادق التى يجدها المرء فى مصر . وعلى المرء أن يحضر معه فراشه ، وأدوات المطبخ الخاصة به ، وأن يعد لنفسه طعامه .

أسماؤها منذ عصور بالغة القدم أو أنه لم تتناولها إلا تعديلات طفيفة . كما أن الاطلال التى تحيط بسمنود والتى تمتد مسافة طويلة نحو الغرب من المدينة ، تحمل فضلا عن ذلك ملامح الماضى القديم ، وحيث أن هذه الاطلال قليلة البعد عن ترعة مليج[1] ثم تقترب منها مشكلة منحنى يشبه المرفق ، فلابد أن هذه الاطلال تقع فى نفس المكان الذى كانت توجد فيه ولا بد مدينه سبنيتوس على الفرع السبنيتى الذى يذكره سترابون ، وكذلك هيرودت ، والذى يتكون من ترعة النيانية ومن الجزء العلوى من فرع دمياط[2] بالإضافة إلى هذه الترعة . وفى النهاية فإن النهر يشكل شمال سمنود جزيرة واسعة لحد ما ، يمكن أن تكون هى كسيوس Xios التى يذكرها سترابون كعاصمة للإقليم السبنيتى .

ولا تشغل مدينة سمنود إلا جزءاً ضئيلا من الحيز الذى كانت تشغله سبنيتوس ، ونذكر أنه بين التحف الثمينة التى عثرنا عليها هناك كان التمثال (جسم بلا رأس ولا أطراف) الذى حمله إلى فرنسا الجنرال فيال Vial وكذلك كتلتين من الجرانيت ، يحتمل أنهما كانتا فوق مرتفعات الاطلال التى تجاور المدينة . ويبلغ طول إحدى هاتين الكتلتين مترين وعرضها ٥٠ سم وارتفاعها ٦٠ سم ، وفى أعلى أحد طرفى التمثال جزء من عش كروى ويوجد على أحد وجوهه بقايا جعران كبير مفرود الجناحين وهو الرمز الذى يشير إليه الأثريون باسم الجعران ذى الأجنحة . أما بقية الوجوه وكذلك الجزء الكروى فمغطاة بحروف صغيرة تماثل فى وضوح الكتابات الهيروغليفية ، وقد سبق أن رأينا مثيلات لها على أوراق البردى وعلى أغطية المومياوات ، وفى واحـــدة من مقابر الملوك فى طيبة . ونعتقد أن هذه الحروف — على ما يبدو — هى حروف من الهيروغليفية المائلة التى تختلف عن تلك التى نجدها فوق المنشآت القديمة . ومن الجائز أن هذه الأخيرة قد تناولها التغيير شيئاً فشيئاً لتصبح أكثر سهولة ، فلقد انتهى

---

(١) سبق أن قلنا لن هذه الترعة كانت الفرع السبنيتى الذى يذكره سترابون .

(٢) انظر خريطة مصر التى صممها مهندسو جيش الشرق .

المصريون دون قصد إلى الحروف التى نجدها على أوراق البردى ثم أخيراً إلى الحروف التى تشكل النقش الثانى فى حجر رشيد . وربما كانت لديهم فى وقت معا ثلاثة أنواع من الكتابات : الهيروغليفية المائلة الدارجة ، والهيروغليفية المائلة ، والهيروغليفية بشكلها الأصلى، وذلك دون أن نشير إلى تلك اللوحات المحفورة أو المرسومة فوق جدران المعابد، والتى تذكر بالأحداث الكبرى للتاريخ وبأسرار الديانة ومظاهر الطبيعة .

كانت لدينا رغبة شديدة فى الذهاب لزيارة خرائب بهبيت التى تقع إلى الشمال من سمنود : وقد سهل لنا الأمر الجنرال فوجيير Fugière قائد الولاية ولن ننسى مدى الحفاوة التى لقينا بها ولا تلك الروح العسكرية التى يتحلى[1] بها .

وفى اليوم المحدد للذهاب إلى هناك ركب حصانه وسار معنا يحرسه بعض

---

(١) أثناء معركة أبى قير ، التى دارت فى السابع من ترميدور من السابع ، كسر الذراع الأيمن للجنرال فوجيير بطلقة بندقية ، لكنه لم يشأ أن ينزل عن حصانه ، ولا أن يترك قيادة وحدته ، وبعد لحظات جاءت قذيفة أخرى لتخلع له نفس الذراع عن كتفه . وقابلة القائد العام الجنرال بونابرت ، بينما كانوا ينقلونه إلى مؤخرة الجيش ، فأبدى له عميق تأثره للحالة التى وجده عليها ، فأجابه الجنرال فوجيير : « سوف تغبطنى ذات يوم على هذا المصير . فلقد مت فى ساحة الشرف . [من تقرير النائب العام بونابرت إلى حكومة الديركتوار] . ولم يستطع المسيو لارى Larry ، الجراح الأول للجيش الفرنسى ، أن يقوم ببتر عظمة مقدمة الذراع ، فاضطر لبترها كلية من عند الكتف . وخلال هذه العملية الأليمة نسى كثير من الضباط الجرحى آلامهم وزحفوا نحو خيمة الجنرال فوجيير ، وعبروا بدموعهم عن الألم الذى يستشعرونه لفقد هذا القائد الشجاع ؛ ذلك أن الجميع كانوا على يقين من موته ولكنه ، وبوجه يستعذب الألم ، لم يستطع شبح الموت ولا آلام الجراحة أن تغير من ملامحه لحظة واحدة ، وجه إليهم كلمات عزاء ، وأوصاهم بالحرص على النصر والوطن والشرف . إنها مشاعر النفوس النبيلة التى تتبدد أمامها الآلام . وعندما شفى ، وقد حدث ذلك كما لو كان بفعل تميمة من التمائم — أراد أن يواصل فى شجاعة خدمته العسكرية ، وأصبح قائداً لولاية الغربية ، وقت وصولنا إلى هناك .

« دى بوا — إيميه »

الفرسان ويصحبه بعض مشايخ الولاية . وقد عرجنا فى منتصف الطريق على ترعة التبانية التى تلتقى إلى الغرب من هنا بترع مليج .

وعندما اقتربنا من بهبيت لمحنا عند حامل مدفع فى شرق القرية مرتفعاً من الأرض . كانت تلك هى الخرائب التى كنا نسعى إليها ، هرعنا نحوها وسرعان ما وجدنا سوراً له زوايا أربع يبلغ طول أكبر واجهة له ٣٦٢ مترا ويبلغ طول أصغرها ٢٤١ مترا ويبلغ ارتفاعه فى بعض المناطق ٩ ــ ١٠ أمتار ، وله فتحتان من الواجهة الغربية ومثلهما فى الواجهة الجنوبية وفتحة واحدة فى الشمال ، ولا يمكن أن يعرف المرء أن هذه الجدران مبنية بالطوب النيء إلا فى أماكن محدودة جدا لأن هذا الطوب فى الغالب محطم ومختلط لدرجة لا يبدو معها من الخارج إلا كتلة من الطين ، ويزرع جزء من الأرض التى يحيط بها هذا السور وثمـــة قناة تحمل إليها المياه اللازمة للرى فى أوقات الفيضان ، وفى حوالى منتصف هذا المكان وعلى بعد ١٢٠ مترا من الواجهة الغربية للسور ترتفع فى فضاء مساحته ٥٠ × ٨٠ م أطلال مبنى ضخم . أنها كومة مختلطة من الأحجار الجرانيتية نميز من بينها تيجان عمد ورءوس ايزيس وأحجار سقوف وجذوع أعمدة نقشت فوقها رسوم بارزة نفذت بعناية فائقة ، وقد يبدو لأول وهلة أن من الغريب أن يوجد فى مصر السفلى معابد بأكملها مبنية بالمواد المستخرجة من محاجر أسوان بينما شيدت قصور مصر العليا ببساطة من أحجار رملية أو جيرية . لكننا هنـا وعلى الفور نتعرف على فكرة المصريين القدماء عن العظمة والخلود تلك التى كانت تقودهم على الدوام فى تنفيذ وتصميم منشآتهم . لقد كانوا يعرفون أن الحجر الرملى والحجر الجيرى لا يعمران طويلا إذا ما تعرضا لهواء البحر فلم يترددوا فى استخدام الجرانيت فى الدلتا ، وليس ثمة صعوبة يمكن أن تثنى شعباً يضاعف من قوته صبره وعناده ، وفى مقابل ذلك فى الصعيد ، حيث السماء صحو صافية ، وحيث لا يذوب الخشب ذاته ، وحيث تفلت من البـــلى أجسام الحيوانات التى دفنت بلا تحنيط شريطة ألا تغمر

الأراضى التى دفنت فيها مياه الفيضان[١] . فقد كان على المصريين أن يفضلوا الأحجار الأكثر سهولة ما دامت تتساوى فى مقاومتها لفعل الزمن مع الأحجار الأخرى الأشد صلابة . ولن نتوسع هنا فى وصف خرائب بهبيت ، فقد تحدثنا عنها بالتفصيل فى الفصل ٢٥ من وصف مصر — الأزمنة القديمة .

وتبين خريطة بوتانجيه Peutinger أنه كانت فى الدلتا ثلاث مدن تضم معابد مخصصة لعبادة ايزيس، من بينها دون جدال واحدة يتطابق موقعها مع موقع بهبيت . على أن استنتاج وجود مدينة قديمة فى نفس موقع بهبيت أمر يمكن الاستدلال

---

(١) عندما كنا نحن الاثنين فى سيوط ، فى مصر العليا ، مع صديقنا ادوار ديفلييه E. Devilliers وآخرين من زملائنا ، وافق أحمد العريان ، بعد أن شرينا منه بثمن سخى مومياء ذئب ، وبمعنى أدق مومياء ابن آوى ، كان قد عثر عليها فى الجبل الواقع غرب وادى النيل ؛ وافق أن يصحبنا إلى مكان توجد فيه كما قال مومياوات لرجال ، وفى اليوم المحدد ، رحلنا بلا حراسة ، وبلا أى شىء يذكر من امتعتنا ، خوفا من أن يعترض على رحلتنا قائد المنطقة خشية منه علينا . وتساق الأعرابى سلسلة الجبال الليبية ، ونزلنا نحن من الجهة الأخرى ، عبر واد ضيق ، سرنا فيه لمدة ساعة ، ثم صعدنا عدة تلال ، ثم عبرنا مجموعة متوالية من الوديان الضيقة حيث كانت الحرارة مرتفعة لحد كبير ، بسبب إنعكاس أشعة الشمس التى تردها أرض بيضاء عارية عن أية خضرة ، وفى النهاية ، وبعد مسيرة نحو ساعتين ، قال لنا مرشدنا ، وهو يشير لنا إلى بقايا منشأة قديمة ، وقريباً من بعض القباب التى ترتفع ارتفاعا طفيفاً عن سطح الأرض : « هنا توجد مومياوات لآدميين » . وعرفنا بسهولة ، أننا اسنا إزاء مقابر تعود إلى مصر القديمة ، ولكنها أطلال مسيحية ، مآو بائسة لاولئك الرهبان الذين جاءوا إلى هنا ، فى الأزمنة الأولى للمسيحية ، معتقدين أنهم يهربون من غرائزهم، فى وقت لم يكن لهم فيه من مرشد سوى خيالهم المشبوب . جاءوا إلى هنا والقلب مفعم بالشوق، يختبئون وسط أحجار الصعيد ، ويبحثون فى صمت الوحدة ، وفى كافة ضروب الحرمان ، عن غذاء لرغباتهم الغامضة . وفى الوقت الذى كنا نتفحص فيه أطلال هؤلاء الرهبان المقدسين، بدأ الأعرابى ينقب تحت واحدة من هذه القباب الصغيرة ، وسرعان ما نادانا ليرينا لحداً من خشب الجميز كان قد جذبه لتوه ، كان اللحد يضم رجلا أبيض البشرة ، وكانت عضلاته ، وجلده ، وأسنانه ، وأظافره ، ولحيته فى حالة جيدة ، لاتزال . وكذلك كان الكفن المحيط بالجثمان . ومع ذلك لم نعثر على أثر لتحنيط أو عطور ، ويرجع هذا الحفظ الجيد ، دون ريب، إلى الأرض الجافة التى لا يمكن أن تصلها مطلقاً مياه النيل ولا مياه الأمطار ، وكذلك إلى جفاف الجو وخلوه من الرطوبة ، وإلى حرارة الشمس الحارقة ، وإلى تلك السماء الصافية ، الخالية من السحب والأنواء .

[دى بوا — ايميه]

عليه بفعل تلك الاطلال الرائعة أكثر مما يمكن الاستدلال عليه من شهادات مؤرخي العصور القديمة .

عن مدينة المحلة الكبيرة وطنطا — عن بعض الأطلال المصرية وعن خرائب مدينة سايس

غادرنا سمنود لنعبر الدلتا ابتداء من فرع دمياط حتى فرع رشيد مروراً بالمحلة الكبيرة وطنطا ، وهما أكبر مدينتين فى مصر السفلى .

وتقطع المسافة بين سمنود والمحلة الكبيرة مشياً فى حوالى الساعتين ونصف الساعة . ونصف هذه المسافة على وجه التقريب يمضى بحذاء ترعة سمنود ثم يعبر المرء عبر فرع صغير يتفرع عن ترعة مليج ليمضى حتى المحلة الكبيرة ، وفى الطريق ، قابلنا قرية كبيرة تسمى قرية محلة أبو على ثم ضريحين لوليين يجلهما رجال القرية ، وعند الضريح الثانى لحنا تجويفاً منحوتاً فى قطعة من الصخر على شكل مكعب ينتهى بمخروط ارتفاعه ١٠ سم . ويبلغ طول التجويف الإجمالى ١١٥ سم .

والمحلة الكبيرة هى عاصمة الغربية ، واسمها يعنى حرفياً : المدينة الكبيرة. وهى فى الواقع جديرة بهذا الاسم لأنها أكبر مدن الدلتا اتساعاً، لكنها ليست أكثرها أزدحاما بالسكان بالنسبة للمساحة التى تشغلها ، ففيها أحياء بأكملها خالية تماماً من السكان ، ويدور بها بعض النشاط التجارى ، لكنها تلك التجارة التى تحدث فى مدينة صناعية،وليست تلك التى تحدث فى مناطق التبادل والمستودعات الجمركية ، كما هو الحال فى مناطق عديدة فى مصر حيث الأسواق الكبيرة التى تجذب البضائع الأجنبية والوطنية من كافة الانحاء .

وأكبر المصانع عدداً فى المحلة الكبيرة هى مصانع نسج الحرير . ومما يضاعف من أهمية هذه المصانع أنه لا يوجد مثيل لها فى أية مدينة مصرية أخرى، ويأتى الحرير من سوريا فى هيئة شرانق إلى دمياط وهناك تفك خيوطه لتلف

فى بكرات ويصبح عندئذ أصفر اللون وتشوبه بعض الشوائب ، ثم يبيض فى المحلة الكبيرة وتغلى البكرات فى النطرون وتحل خيوطها ، وتوضع فى شلات تضرب فوق حجارة مسطحة ثم تغمر بالمياه ، ويعطى هذا التجهيز للحرير لوناً أبيض رائع الجمـــال ، وفى المشغل الذى تفقدناه باهتمام شديد ، لاحظنا أنهم لا يصبغون الحرير إلا بثلاثة ألوان فقط هى الأسود والأحمر والأصفر ، وهم يحصلون على اللون الأسود من النيلة والأحمر من الدودة القرمزية ، والأصفر من البابجة ، وتزرع الأخيرة فى إقليم الشرقية المواجه لسمنود . وتصنع كل ملابس النساء الحريرية على وجه التقريب فى مشاغل المحلة الكبيرة ، كما تصنع هناك أيضاً المنـاديل التى يغطين بها رءوسهن وكذا الأقمشة التيلية الزاهية التى يصنع منها المصريون قمصانهم . وقد شاهدنا فوق الأنوال تلك الفوط والمناشف التى تستخدمها السيدات فى الحمامات وحوافها مطرزة بالحرير وهى تصنع من الكتان ومصبوغة بألوان عديدة .

وتضم المحلة الكبيرة بعض أطلال لمنشآت قديمة ولا تنبئنا الآثار عن وجود مدينة قديمة فى هذا المكان ، ولعله كانت تقوم هنا فى المـاضى مدينة سينوبوليس Cynopolis التى كانت تابعة لإقليم بوزيريس والتى يضعها انطونين فى مساره على بعد ٣٥ ميلا من ثمويس ، ويشكل هـذان الموقعان إطاراً حول موقع المحلة الكبيرة عند المقارنة بينه وبين موقع بوصير وتمى الأمديد[1] . أما عن مسافة الـ ٤٢ ميلا الواقعة بين سينوبوليس وآندرو Andro فهى نفس المسافة بين سينوبوليس وموقع طوا Toua القديمة على طريق طنطا ، أما الآثار التى نعثر عليها فى المحلة الكبيرة فهى وثيقة الصلة بالآثار التى وجدناها فى بهبيت .

والمحلة الكبيرة هى ملتقى كل بغايا الدلتا بل وملجأ لـكل اللاتى يتخوفن

---

(١) من المعروف أن بوصير هى بوزيريس القديمة ، كما أن خرائب ثمويس Thumuis تقع على مقربة من تمى الأمديد .

على أنفسهن — فى أماكن أخرى بما فيها القاهرة — من ملاحقة الشرطة لهن . وهن يرتعن هنا فى حرية مطلقة ، ومن هناك تدير زعيمتهن رحلاتهن إلى المناطق المجاورة ، وتجذب الأسواق وموالد الأولياء على الدوام عدداً كبيراً منهن ، وقد حدث أكثر من مرة أثناء جولاتنا بالمدينة أن شاهدنا بعض هؤلاء الفتيات يمرون أمام فرق جنودنا ويشوشن بنغمات الدفوف والصاجات التى يحملنها على موسيقانا العسكرية ، كما كن يلجأن لكل فنون التأنق لإغراء جنودنا كما كن ينصبن خيامهن وسط خيماتنا .

ويوم وصلنا إلى المحلة الكبيرة أقمنا عند واحد من أغنى سكانها ، وكان فى ذلك اليوم يحتفل بزواج رجل شاب هو رئيس خدمه ، وقد لقينا بكثير من المودة والترحيب وأراد أن يشهدنا على كافة تفاصيل حفل الزفاف . كان المنزل مزداناً بالأضواء وكان أصدقاء الزوج متجمعين مع بقية الناس فى فناء المنزل ، وكان الجميع جالسين على مقاعد ، وكانت تسمع من وقت لآخر أغنيات من بعض المغنيات الجالسات فى المندرة [1] ، وسط النساء وصديقات الأسرة . واستمرت هذه الأغنيات التى تصحبها الدفوف وبعض الآلات الموسيقية الأخرى لمدة تقرب من ساعة ونصف . حتى نزلت اثنتان من

---

(١) المندرة حجرة فسيحة فى الطابق الأول ، تفتح على الفناء ، وتتجه دائماً نحو الشمال وتزدان واجهتها عند الأثرياء بعمدان من الرخام ، تشكل ممرات تعلوها عادة بواكى من الخشب ، حيث النقوش والتصميات العربية ، والرسومات ذات الألوان المتعددة ، وهناك درابزين ، إما مصنوعة من الخشب وإما مبنية ، وترتفع فوق واجهة الحجرة بعلو يسمح بالاتكاء ، وتمتد فوقه شبكة تمنع الذباب من الدخول إلى الحجرة . وسقف المندرة شديد الارتفاع ، بحيث يسمح للهواء أن يتجول فيها بحرية . وفى هذا المكان يستقبل رب البيت أصدقاءه ، ويصرف شئونه ، وتشكل الحجرة التى تقع أسفل المندرة ، فى الطابق الأرضى ، مدخلا يقيم فيه الخدم . وواجهة المندرة عادة ، هى أكثر أجزاء المنزل زينة ، فهى المكان الذى يحرص الأثرياء أن يكون جميل البناء ، رائع العمارة .

(جراوا)

العوالم[1] إلى الفناء حيث قامتا بأداء رقصات جنسية عنيفة وكانت إحداهما تقوم بدور الرجل ، بينما قامت الأخرى بدور المرأة ومثلتا بحركات معبرة — بل مسرفة في التعبير لكي يفهمها الأوربي ، هجمات العاشق ومحاولاته وتمنع العروس الشابة ومقاومتها .. ويجد الشرقيون لذة كبرى في هذه التمثيليات الصريحة ، ويحضر الشبان من كلا الجنسين هذه الحفلات بحرية تامة .

وما أن انتهى الرقص حتى ظهر رب البيت وأصدقاؤه في المندرة . ودعينا لاحتلال مكان الصدارة وكان يجلس إلى جوارنا العريس وكان اسمه على ،وكان جالساً على كنبة ، أما عروسه الشابة عيوشة ، والتى لم يكن قد رآها حتى الآن فكانت في حجرة مجاورة محاطة بسيدات منهمكات في تزيينها . وعندما انتهت من زينتها جاء من يصحب عليا لدخول هذه الحجرة وافتضت أمام عينة بكارة تلك التى أصبحت زوجته . وجاءوا بعد ذلك نحونا ، وبدأ العريس كأنما يسير القهقرى ، كان خطوه بطيئا وكان يستند إلى سيدتين وكانت تتبعه العروس وهى مسنودة بنفس الطريقة ، وكانت تزينها جواهر ثمينة ، كما كانت تزين رأسها عمامة محلاة بسلاسل من ذهب وفضة ، وكانت جبهتها وخداها مصبوغة باللون الأحمر ورسمت فوقها بأوراق ذهبية رسوم غريبة وكانت عيناها خفيضتين في حياء

(١) تتعلم الفتيات اللاتى يعددن كى يصبحن عالمات (عالمة) ، منذ نعومة أظفارهن ، كل مايمكن أن يبعث على الإثارة الشهوانية ، ويكون شغلهن الشاغل تعلم الموسيقى المخنثة ، وأشعار العشق والغزل ، والرقص الجنسى ، وليس ثمة مثيل لرشاقتهن . ولو أن ملامح وجوههن كانت على الدوام في مثل رشاقة قامتهن ، وفى جمال أذرعهن وأيديهن ، وفى نفس دقة تكوين سيقانهن وأقدامهن ، لما وجدت فينوس لنفسها ، في أى مكان من العالم ، وصيفات يلقن بها مثلهن والعوالم ، في مصر ، هن بهجة الأعياد . وفى الأحيان يغنين ، وفى البعض الآخر يقمن بدور عاشقين ، وفى أحيان ثالثة يرقصن على نغمات الدفوف ، ويحملن الصاجات ، مقلدات في رقصاتهن حركات الجماع . وحين يقلدن هذه الحركات الجنسية ، يقفزن في الهواء هازات دفوفهن ، وتستدعى جلبتهن الحسية تلك ، وكذا رشاقة وحيوية خطوهن ، إلى الأذهان ، منظر الغانيات وهن يتقصعن ويتمايلن .

(دى بوا — ايميه)

وعندما يحدث أن ترفع عينيها ، فإنما لكى تثبتهما فوق عريسها السائر أمامها .. وهكذا وصل كلاهما على مقربة من الكنبة التى كنا نجلس عليها ، واتخذ العريس من جديد مكانه إلى جوارنا ، أما العروس فظلت واقفة أمامه لاتتحرك ، وقام أحد الشيوخ — وهو صديق حميم للعائلة — لينتزع قطعة من الذهب من فمه ليضعها فى فمها ، وبعد ذلك عادت إلى الغرفة المجاورة تصحبها على الدوام هاتان السيدتان اللتان كانتا تسندانها وكانتا تصيحان من وقت لآخر : السعيد من يعيش فى ظل شريعتك يانبى .. وغيرت العروس ملابسها وظهرت من جديد أمامنا تتألق فى ملابس جديدة ، ولم يعد على منذ الآن يتابعها وأخذت تقوم بجولة فى الحجرة،وجاءت مرة أخرى لتجلس أمامناوفى هذه المرة وضع العجوز قطعة الذهب على صدرها بدلا من فمها ، وتكررت هذه العملية الغريبة خمس مرات فى حضورنا ، وتكررت كثيراً بعد ذلك فى الليل مع ظهور العروس فى كل مرة بملابس أخرى جديدة . وفى أثناء الفترات الفاصلة بين ذلك كانت المغنيات يؤدين بعض الأغنيات مصحوبات بآلاتهن الموسيقية المنفردة ، وقام الموسيقيون الذين يصحبون العروس — وكذلك القابلة — بجمع بعض البارات من المتفرجين[1] . ولم نبق لننتظر نهاية الحفل فقد كنا فى أمس الحاجة إلى الراحة . فانسحبنا إلى الحجرة التى كانت قد أعدت لنا .

وفراش المصريين فى العادة عبارة عن حشية من القطن مفروشة على الأرض فوقها غطاء من الكتان ، ويحتفظ الرجال والنساء أثناء الليل عادة بأجزاء من ملابسهم وبالذات غطاء رءوسهم وتغطى الحشية ناموسية وهى تقى من لدغات

(١) لا نستطيع أن نجزم أن كل حفلات العرس فى الدلتا تتم على نفس النحو الذى وصفناه ، فمن المحتمل ألا تظهر العروس فى القاهرة على سبيل المثال ، مكشوفة الوجه أمام الرجال . ولقد شاهدنا فى المحلة نساء ، كن غير محجبات أمامنا داخل بيوتهن ، لكنهن كن يسارعن بوضع الحجاب فوق وجوههن ، فى كل مرة يستدعى الأمر فيها أن يحادثن واحداً من الرجال ؛ ولقد قلن لنا إنهن لايكشفن عن وجوههن إلا أمام زوجهن وإخوتهن .

الحشرات المنزلية . وأثناء النهار يطوى كل ذلك ويخبأ فى دولاب بحيث لا تجد بعد ذلك أثراً لفراش منصوب فى البيوت ، كما أن المرء لا يرى هناك لا كرسياً ولا منضدة . أما أرضية الحجرات فمغطاة حتى ثلاثة أرباعها بحصيرة . وبطول جدران الحجرة تصطف المراتب القطنية تغطيها سجادة تتدلى حتى تغطى جزءاً من الحصيرة . وتصف فوق المراتب ، ملاصقة للجدران مخدات ضخمة قماشها من الحرير . فى هذه المنطقة يجلسون عادة، وعلى الداخل أن يخلع نعليه فى ذلك الجزء من أرضية الحجرة الذى لا تغطيه إلا الحصيرة والسجادة . وفى هـــذا الجزء المكشوف كذلك يوضع الابريق والطشت والحنفية وباختصار كل ما يمكن أن يتسبب فى اتساخ السجادة التى يتمددون عليها أو يجلسون القرفصاء لفترة طويلة من النهـار . ويجلس الرجال على عادة الأوربيين أمام باب منازلهم فى بعض الأحيان على مقاعد كبيرة من الخشب لا ظهر لها ولا مساند «دكة». وقد استعاضوا عن المنضدة ـ وهى تنقصهم ـ بأن يسندوا الورق على يدهم اليسرى أحياناً على لوحة متنقلة يحملونها فى أيديهم أو يضعونها فوق ركبتهم وذلك عندما يريدون الكتابة ، أما عند الطعام فتقدم الوجبات على حصيرة مفروشة على الأرض أو على صينية دائرية من النحاس يحملها كرسى بلا مساند مصنوع من الخشب الملون المطعم بالصدف ، ويجلس المدعوون حولها فوق السجادة وسيقانهم مثنية تحتهم ، أما الفقراء فيستخدمون حصيرة خشنة كفراش بالليل وكمجلس ونضد أثناء النهار ، وتغلق النوافذ بقضبان خشبية شديدة الضيق تسمح بمرور الهواء وهو احتياط له ما يستوجبه فى بلاد بمثل هذه الحرارة . وهذه القضبان التى يتم تشكيلها من فوق تستخدم أيضاً بدافع من الغيرة إذ هى تسمح لمن بالداخل أن يرى ما فى الخارج دون أن يكون عرضة لأن يراه أحد . ولم نشاهد ثمـة من يستخدمون الشيش الزجاجى إلا بعض عدد قليل من أهل المدن كانوا على صلة ببعض الأوربيين، وكانوا يستخدمونه أوقات الشتاء فحسب وثمة قلل «قلة» وهى زهريات صغيرة غير مطلية ، مصنوعة من طين ذى مسام ولونها رمادى ضارب إلى الزرقة وتوضع فى النوافذ فى ظل القضبان الخشبية ويؤدى تيار الهواء الذى

يتدفق على الدوام فى هذا المكان إلى تبخر الماء الذى ينز من مسام القلة مما يبرد ما يتبقى من الماء داخل القلة بشدة . ويشرب المصريون من هذه القلل على الدوام ويعطرونها أحياناً .

وعندما تركنا المحلة الكبيرة عرجنا على طنطا عبر سهل خصيب يخترقه عدد هائل من الترع المتفرعة عن ترعة مليج بحيث يمكن أن يقال أن لكل قرية ترعتها، وثمة جسور قوية من الطين تحمى الأرض من مياه الفيضان ولكى تحافظ على المياه حتى تظل تمر تباعاً إلى الحقول التى تحتاج إليها .

والمحاصيل هى فيما يبدو نفس المحصولات التى سبق أن رأيناها فى أماكن أخرى . وهى تكاد تكون موحدة فى كل أراضى الدلتا إذا ما استثنينا الأرز الذى تكثر زراعته فى القرى المجاورة لكل من رشيد ودمياط . وربما كانت أشجار وشجيرات : الجميز ، الموز ، التين الشوكى ، التمر هندى ، النبق ، الست المستحية ، الحنة ، الأكاسيا ، البرتقال ، الليمون ، الرمان ، التين ، القطن . . هى فقط كل ما يمكن للمرء أن يقابله من أشجار .

وقد مررنا فى طريقنا بعدة قرى أخرى أهمها : برقين ، صفط ، طوخ ، أخنوى . . وفى المناطق غير المزروعة ، كانت الشقوق العميقة التى يسببها جفاف الأرض بعد الفيضان تجعل السير عسيراً على الخيول التى لم تنشأ فى مصر . ويبدو أن رقة وذكاء الحصان فى مصر وبلاد العرب تعود بالتأكيد إلى الألفة التى تقوم بينه وبين سادته ، إذ هو ما يكاد يولد حتى يلعب مع أطفالهم . ويعتنى الأطفال به ، وفى تبادل المنافع والملذات هذا تعلم الحصان أن يفهم الإنسان وأن يجعل الإنسان يفهمه ، إنه صديق أكثر منه عبداً ، ويكاد المصرى ، والعربى عموماً ، يعتبره واحداً من أفراد أسرته حتى ليصعب عليه أن يبيعه مهما كان الثمن المعروض فيه ، أما تلك الخيول التى تربى فى بعض أنحاء أوربا فى حرية كاملة وسط المراعى والغابات فتحتفظ فى أغلب الأحيان فى علاقتها بالإنسان

ببعض المساوىء الناتجة عن تربيتها الوحشية ، لقد قلنا فى علاقتها مع الإنسان ، ذلك أن ما نراه سوءة عند الآخرين ليس فى الغالب سوى فضيلة تبعث الضيق ، فالكائن الحر الشجاع ينظر إليه على الدوام ككائن غير مفيد أو مزعج لأولئك الذين يريدون أن يبسطوا سيطرتهم عليه . ولا تلقى الخيول فى الدلتا نفس التقدير الذى تلقاه فى الصعيد ، وفى مقابل ذلك فليس للماشية فى الصعيد نفس القيمة التى لها فى الدلتا ، فهى فى الدلتا أشد جمالا ، والثيران على وجه الخصوص ضخمة ولا يمكن للعجول البقر أن تبلغ مبلغها من الحجم ، ومن النادر أن تستخدم هذه الثيران فى فلاحة الأرض بل تستخدم فى هذا الغرض عجول البقر بينما تخصص فحول الجاموس للاخصاب . ويشكل ابن الجاموس غذاء دسماً للفلاحين . والخراف هناك من النوع المسمى الخراف البربرية وهى لا تخصى ، ولحومها لذيذة الطعم ، أما الماعز فأعدادها قليلة وهى تشبه النوع الذى يطلق عليه العلماء إسم ماعز الشرق ، وشعرها قصير ، ورأسها محدب بشدة ، وآذانها طويلة مدلاة ، والحمير هناك ، وفى كل أنحاء مصر ، قوية ، أما الجمال فليس لها قوة الجمال التى تعيش فى المناطق المتاخمة للصحراوات . ولا ترى هناك خنازير ، فالدين الإسلامى يحرم أكل لحوم هذه الحيوانات التى كان المصريون القدماء ينظرون إليها من قبل كحيوانات دنسة . وفى النهاية فإننا نجد فى القرى أعداداً هائلة من الحمام والدجاج ، وحجم الدجاج صغير للغاية ، وبلا جدال فإن العادة الموجودة فى مصر منذ العصور القديمة ، عادة إفراخ البيض إفراخاً صناعياً بواسطة الأفران لها أكبر الأثر فى تشويه جنسها .

وتقع مدينة طنطا ، التى وصلنا إليها بعد سفرنا من المحلة الكبيرة على مسافة من القاهرة تساوى تقريباً المسافة بينها وبين كل من دمياط ورشيد ، فهى بحق المدينة المركزية فى الدلتا .

وتروى أراضى المنطقة المحيطة بطنطا عدة ترع ترفد من ترعة القرنين الكبيرة ، وتصل هذه الترع حتى شرق المدينة وغربها ويحطن بها ، وهى ترع

قليلة العمق ، ونتيجة لذلك فإن نواحى طنطا التى كانت تلمع بها الخضرة وقت مرورنا بها تصبح أراضى قاحلة تماماً إذا ما كان فيضان النيل ضعيفاً ذلك أن العشب قلما ينمو من تلقاء نفسه فى هذه البقعة من أرض مصر التى تمتدح خصوبتها عن جدارة ، إذ قلما نرى فيها إلا مزروعات بذرتها يد الإنسان ، أما الأراضى التى لا تروى فتظل بلا خضرة ، وأما تلك التى تزرع فتبدو بعد الحصاد فى شكل أرض قاحلة . ولهذا السبب فقد كتب عمرو بعد فتحه لمصر إلى عمر بأن هذه الأراضى تبدو على التوالى فى شكل حقول من التراب ثم بحار من الماء ثم بساط من الورود ، ولتربة مصر خاصة أخرى لا تقل أهمية ، وهى أن الخضروات الأوربية عندما تبذر فى أرضها تأتى بمحصول وفير فى السنة الأولى لكن البذور التى تنتج عنها بذرة عقيم أو أن هذه البذور لا تعطى — إذا ما زرعت — إلا محاصيل هزيلة خواصها أقل بكثير من الأولى ، بحيث يتحتم أن تجلب بذور جديدة فى كل عام وهذا ما يفعله الأوربيون بشأن الخضروات التى يزرعونها فى حدائقهم . وأخيراً فثمة خاصية أخرى - بالغة الخصوصية - تلك هى التشابه القائم فى هذا الأمر بين النبات والإنسان ، ذلك أن الأجانب الذين لا يتزاوجون إلا فيما بينهم بدلا من الاختلاط بأهل البلاد لا يعمرون بأكثر مما تعمر النباتات الأجنبية المجلوبة ، ويقدم المماليك مثالا محسوساً على ذلك : فمنذ أن استقروا فى مصر ، من عدة قرون ، وهم يتزايدون على الدوام عن طريق شراء الرقيق وليس عن طريق التناسل ، إذ كان أطفالهم - كلهم على وجه التقريب - يموتون فى شباب غض ، ويقال أنه كان من النادر أن يستمر جنسهم حتى الجيل الثانى .

ويشرب كل أهالى طنطا بلا تمييز من مياه النيل فى أوقات الفيضان، لكن الأغنياء وحدهم هم الذين يظلون يتمتعون بهذه الميزة بقية العام لأنهم يستطيعون الاحتفاظ بالمياه فى خزاناتهم ، بينما تقنع الغالبية من الناس بالشرب من المياه الملحة التى يستخرجونها من الآبار. وهى المياه التى تزيد ملوحتها بقدر ما ينخفض منسوب النيل ، وهذه الآبار عميقة لحد يكفى أن تمتلىء كلها بالمياه حتى فى الأوقات

التى ينخفض فيها ماء النهر لحده الأدنى . وتتكون فوهة هذه الآبار عادة من قطعة من عمود قديم مجوف من داخله .

وطنطا ، شأنها فى ذلك شأن كل مدينة فى مصر محاطة بالخرائب . وعند شرقها ، ترى كوماً كبيراً من الطوب اللبن أقام عليه السكان مقابرهم ، وهو مقطوع رأسياً فى عدة أماكن مما يسمح برؤية طوب كبير الحجم .

وهذه التلال الصناعية قد بناها سكان مصر القدامى كى يجعلوا مدنهم بمنأى عن مخاطر الفيضان وإذا ما حدث ولجأ المصريون المحدثون فى بعض الأحيان لعمل مشابه ، فمن الممكن تمييزه عن الأعمال الأولى بصغر حجم المواد المستخدمة ، إذن فقد كان ثم مدينة قديمة فى نفس المكان الذى نشأت فوقه مدينة طنطا .

وبالرغم من أن هذه المدينة تعد أكبر مدن الدلتا ازدحاماً بالسكان ، فليس بها سوى ١٠ آلاف من السكان ، وبيوتها مبنية من القرميد وهو يصنع فى البلدة نفسها من تراب الخرائب التى تحيط بالمدينة[١] ومن السهل أن نحدد حركات التوسع التى تمت فى عمران المدينة ، فالبيوت تشكل شارعا حول المدينة القديمة وهى مبنية فوق الأطلال المتراكمة على سفح الدور الأول، وقد نتج عن ذلك أن المدينة بكل شوارعها ليس لها سوى منفذين ، وهو وضع لم نقابل له مثيلا فى أى مكان آخر فى مصر .

وتضم مدينة طنطا ضريحاً لأحد الأولياء يجتذب المتدينين الذين يأتون من

---

(١) كل مدن مصر محاطة بالخرائب ، ذلك أن المواد الناتجة عن تهدم البيوت القديمة لاتصلح للاستخدام فى اقامة منشئات جديدة ، لذلك يضطر الناس لنقلها إلى خارج المدن ؛ كما أنهم يفضلون التضحية بجزء من الأرض ليكدسوا فوقها كل هذه الأنقاض ، عن أن يبسطوها فوق الحقول ، التى قد ينتهى بها الأمر — إذا ما ارتفع منسوبها — إلى أن تحرم من مياه الفيضان .

شتى بقاع مصر فى شكل حجيج . لذلك فإن على بك المعروف بما أولاه للتجارة من رعاية وبالإنشاءات النافعة التى أقامها خدمة لها عرف كيف يستفيد بمهارة من هذا الوضع كى يجعل من هذه المدينة مركزاً هاماً للتجارة . فأنشأ فيها منذ حوالى أربعين عاماً وكالة واسعة من أجل الاغراب .

والولى الذى تحدثنا عنه للتو هو السيد أحمد البدوى . وقد ولد فى فاس سنة ٥٩٦ هـ ، ١٢٠٠ ميلادية ، ومر بمصر فى طريقه إلى مكة وأنهى حجه وعاد من مكة إلى طنطا فى يوم واحد[١] . واستقر هناك ومات عن تسعة وسبعين عاماً ، وقد صنع فى حياته عدداً لا يحصى من المعجزات فأحيا الموتى ، وجعل الكسيحين يمشون والعميان يبصرون . . إلخ وكل هذه الوقائع مدونة فى تاريخ طويل، ورآها حسب أقوال النساك المسلمين جمهور كبير من الناس رأى العين .

وفى عام ٧٠٠ هـ ألحق السلطان الملك الناصر بالمبنى الصغير الذى أقيم فى البداية حول ضريح الولى مسجداً يضارع أجمل وأفخم مساجد القاهرة بسبب اتساعه ودقة تصميمه ، وبسبب التحسينات المتتالية التى أدخلت عليه . وتبدو فخامته بحق فى القبة التى يرقد تحتها جثمان السيد أحمد البدوى . ولم يبخل على بك حين أمر بترميمها لا بالمال ولا بالجهد وقد يظن أحد أن على بك كان فى ذلك الأمر واحداً من النساك أو المريدين بينما هو لم يكن فى الواقع سوى سياسى ماهر . وكانت الجدران حتى بداية القبة مغطاة بالرخام أما القبة وهى من الخشب ، فمغطاة بالرصاص ومزدانة فى الداخل بنقوش مذهبة وزخرفات عربية جميلة .

ويحاط ضريح الولى بسور من البرنز ويعلق فوقه ما يشبه بالسكانة من القطيفة ، وثمة عمامة ضخمة شالها من الكشمير موضوعة فوق الجهة التى تتفق مع موضع رأس الولى . أما أبواب القبة وأقفالها الخشبية فمغطاة بطبقة من الفضة .

---

(١) تبلغ المسافة من مكة إلى طنطا ٣٠٠ فرسخ .

وتهرع أفواج الزوار إلى طنطا من كل أنحاء مصر ومن جهات بلاد البربر المتطرفة فى بماسكة دارفور ومن أعماق الحبشة وعموماً من كافة البلدان التى تدين بالإسلام . ويأتى هؤلاء فى اعتدال الربيع ولهيب الصيف وبخاصة فى الأيام الأولى من هذين الفصلين .

وتكاد تكون الروحانيات على الدوام هى الأسباب الرئيسية لنشأة الأسواق ذائعة الصيت . فالناس تحت صيت المعجزة التى أتى بها واحد من أشباههم ربما كانوا هم أنفسهم يسيئون معاملته وقت حياته ، يهرعون نحو ضريحه ، فحب المعجزة يجذبهم ويجعل أجناسهم المختلفة تختلط عند سفح نفس المحراب ، وهناك تصهرهم الدموع والندم وتقارب ما بينهم ، وقد يكون كل منهم مجهولا للآخر ، لكنهم سرعان ما يعقدون من الصداقات ما سوف يوحد ربما إلى الأبد بين أسرهم عن طريق تلك الذكريات الحلوة ، فهناك يحكى كل منهم للآخرين عن رحلته ، ويتحدث معهم عن منتجات مسقط رأسه ومنتجات البلاد التى مر بها ، ويطلع بعضهم بعضاً على الأشياء التى جلبوها من هناك ويتبادلونها فيما بينهم ، وتتحول شوارع المزار إلى سوق واسعة وتصبح الروحانيات وقد بانت للدنيا فائدتها عربة للتجارة ، وتربط بفعل الاحتياجات الجديدة بين الناس ، أولئك الذين كثيراً ما باعدت بينهم التجارة نفسها فى عنف وشراسة .

والحج إلى ضريح السيد أحمد البدوى مثال على ذلك فهو يجذب أفواجاً عديدة من الغرباء ، لدرجة أن سكان طنطا يؤكدون لنا أن الحقول حول طنطا وعلى بعد فرسخين تكون مغطاة بالبشر ، ويقدرون عدد الزوار بـ ١٥٠ ألف زائر .

وليس من العسير أن يلاحظ المرء أن البيوت فى طنطا مبنية بشكل يتناسب مع أغراض التجارة . فالجزء من الطابق الأرضى الذى يطل على الشارع مخصص فى أحياء كثيرة لمحلات صغيرة تؤجر للتجار الغرباء من أوقات الأسواق . ويقيم

كثير من الزوار خيامهم خارج المدينة وتزدان الخيام والبيوت فى الليل بالأضواء وتسمع من كل الانحاء صيحات الفرح مختلطة بضجيج الآلات الموسيقية المصرية، وتستمر هذه الأسواق ثمانية أيام وتعود على الإقليم بفوائد جمة ، لكن هذه الأسواق لم تقم مطلقاً فترة وجود الجيش الفرنسى فى مصر ، ذلك أن الطاعون قد أدى إلى إيقافها بسبب الخوف من الأخطار التى يمكن أن تنجم وقت انتشار الوباء من تجمع مثل هذا العدد الهائل من الناس .

وبعد أن مكثنا بطنطا عدة أيام واصلنا من جديد طريقنا ومررنا بقرية بيار أو ابيار، حيث اتصلنا بالفرع الغربى لترعة القرينين الذى يشير إليه البعض باسم فرع شبين الكوم ، لأنه ينبع قريباً من هذه القرية . وقد أنهينا يومنا الأول بالقرب من قرى : النحارية ، أسديمة ، حيث نشاهد بقايا منشآت قديمة يمكن أن تكون أطلالا لمدن مصرية قديمة ويمكن أن تكون واحدة منها هى سيوف Siuf التابعة لإقليم سايتس Saites التى ولد بها أمازيس الذى أصبح فرعوناً .

وفى اليوم التالى أبحرنا فى ترعة شبين الكوم حتى مصبها عند قرية الفرستق ثم ذهبنا بعد ذلك إلى صا الحجر وهى سايس القديمة ،حيث لا تزال ثمة أطلال هامة . وسوف نتعرف فى الجزء الأول من اسمها على ملامح الاسم القديم ، أما كنية الحجر فقد أعطاها أياها العرب بسبب الأحجار وأنقاض المنشئات التى توجد بها . وكان المؤلفون الأقباط يسمون هذا المكان باسم ساى Saii [1] ،

---

(١) كثيراً ماتؤخذ الكلمات المصرية والإغريقية : سايس وسايتيك Sais Saitique وتانيس وتانيتيك Tanis Tanitique إحداها فى مكان الأخرى ؛ وذلك بلا جدال ، بسبب تماثل النغمة فى أذن الأجانب ؛ لكننا وجدنا فى اللغة القبطية ،حيث بقيت كلمات كثيرة من اللغة المصرية القديمة ، اسم : سايس ، ويسمى فى القبطية ساس ، واسم تانيس ، حيث لا يمكن أن يكون الحرف الأول منها موجوداً لا فى الفرنسية ، ولا فى الإغريقية ، ولا فى العربية . وقد حاولنا أن نعبر عنه فى لغتنا بالحروف : dj, sj, tz مما يجعلها تلفظ على التوالى : دجانيس ، سجانيس ، تزانيس . انظر ما ذكر عن الفرع التانيسى ، وعن مدينة سايس فى مقالنا عن وصف فروع النيل القديمة ، وعن وصف مدينة هليوبوليس .

ولا يمكن أن يثار أدنى شك حول تطابق هذا الاسم مع سايس ، بالإضافة إلى أن موقع خرائب صا الحجر يتفق تماماً مع الموقع الذى حدده سترابون لمدينة سايس ، لكن الشيء الذى يشهد أكثر من ذلك على وجود هذه المدينة القديمة ، إنما هو الخرائب الهائلة التى لاتزال موجودة فى صا الحجر ، والأنقاض تتشكل أساساً من كوم شديد الاتساع يبلغ طوله ٨٨٠م وعرضه ٨٢٠م ويضم كمية كبيرة من الأنقاض وخرائب الأزمنة القديمة وقد تحدثنا عنها بالتفصيل فى الفصل الخامس والعشرين من وصف الدولة القديمة .

كانت سايس مقرا للفراعنة وقد اهتم أمازيس على وجه الخصوص بتجميلها ؛ لكن ماجعلها أكثر إشراقاً هو أن الاسم الذى خلعوه عليها ذو رنين. ومن هذه المدينة أصطحب شكروبس Cécrops الجالية المصرية التى أنشأت أثينا ، تلك التى خسف مجدها منذ كانت فى المهد أمجاد وأعلام مصر القديمة إذ كثيرا مايكون لمنجزات وعبقرية بل وحتى لأخطاء شعب حر دوى أكبر ومنفعة أعظم من تلك الثروة والأوضاع الداخلية لأمة تخصص فيها السلطات والمعرفة لفئة محدودة؛ بينما يكون الجهل والعمل من نصيب الأغلبية .

أضعنا يوماً فى ظل التنقل من صا الحجر إلى دسوق محاذين شواطىء النيل؛ وعبرنا عند حوالى منتصف الطريق ترعة كبيرة تجرى لتبدد مياهها فى بحيرة البرلس .

ودسوق قرية كبيرة . وقد شاهدنا فى أحد مساجدها ضريحاً لأحد الأولياء يجذب مرتين فى العام عدداً هائلا من المسلمين ، وهو الحجيج الأكبر رواجاً فى مصر بعد مولد السيد أحمد البدوى الذى تحدثنا عنه ونحن بصدد الحديث عن مدينة طنطا .

وقد أرشدنا البعض ، على بعد فرسخين إلى الشمالى الشرقى من دسوق ، وعلى

شواطىء ترعة كبيرة إلى خرائب تسمى كوم فرعون ، ويتفق هذا الموقع إلى حد ما مع موقع كبازا Cabaza عاصمة إقليم كباستى Cabastie ، ويؤكد رأينا هذا إسم شباس الذى يحمله عديد من القرى المجاورة : شباس الملح ، شباس عمير ، كوم شباس . .

اتخذنا طريقنا نحو فوه على بعد ربع فرسخ من شمال دسوق وعبرنا ترعة كبيرة صالحة للملاحة طيلة العـام تقريباً ، وعند حوالى منتصف الطريق قابلنا قرية سلمية التى اقتحمتها قواتنا وأحرقتها فى العام الماضى عقاباً لأهلها على هجماتهم المتكررة على قواربنا ، ومع ذلك فقد كان يبدو أن هؤلاء الناس لا يكنون أية ضغينة على أمتنا كما سبق أن لاحظنا المسيو دينون Denon من قبل .

وسوف نلاحظ فى هـذا الخصوص أن المصريين الذين يظلون يسعون لأجيال عديدة متعاقبة ، وعن طريق عمليات القتل والاغتيال ، للانتقام لذويهم الذين فقدوهم فى مشاحنات خاصـة ، يغفرون فى نفس الوقت تلك الآلام التى تسببها لهم الحروب الصريحة ؛ فها نحن أولاء ، وبعد كل هذه الآلام التى كابدتها فى مصر بعض المدن الكبرى التى هاجمناها ، لا نستطيع أن نسوق دليلاواحداً على أن جندياً واحداً من جنودنا قد اغتيل هناك ، بل إن لنا أن نؤكد بأن ليس ثمة واحدة من البلدان التى حملنا ضدها السلاح ، كنا فيها محبوبين بقدر ما كنا فى مصر ، ومن المعروف أن فى مصر مثلا يقول « اتكلم فرنساوى » ويعنى ذلك : « اتكلم دوغرى » ، ولقد سمعنا واحداً من قناصلنا فى إيطاليا ، كان قد أقام فى القاهرة بعد رحيل جيشنا يحكى أن العامة كانوا يسبونه على الدوام فى الشوارع ناعين عليه أنه لا يحيط حكومته علماً بالفظائع التى ترتكبها القوات التركية فى بلادهم يومياً : « فلو أن الفرنسيين قد أحيطوا علماً بذلك ـ فيما يقول هؤلاء البؤساء ـ لعادوا إلينا وخلصونا » . ويا له من شرف لأمة تترك فى أعدائها المهزومين مثل هذه الذكريات !

أما سكان الدلتا على وجه الخصوص ، فهم أحسن مما يعتقد المرء عادة . صحيح أنهم فى بداية دخول قواتنا إلى مصر قد أبدوا من المقاومة أكثر مما أبدت أقاليم أخرى فذبحوا عدداً من الجنود الفرنسيين وهاجموا بعض فرقنا.. ولكن لنضع أنفسنا فى نفس وضعهم ، وهو أمر ينبغى فعله على الدوام قبل إصدار أى حكم على طباع أمة ما .. فلو أن المسلمين قد أنزلوا عنوة جنودهم عن طريق البحر فى واحد من أقاليمنا شديد التمسك بدينه الكاثوليكى ، وتحكموا فى مدنه الرئيسية فهل يظنن أحد أن فرقهم العسكرية المنعزلة - فى الأيام الأولى لسيطرتهم - سوف تستقبل فى قرانا بالترحاب ، وأن الناس هناك لن يقاوموها بالسلاح وخاصة عندما يأتون لجباية الضرائب من كل نوع - أو أن الحكومة المخلوعة - والتى لم تصف بعد نهائياً برغم ذلك - لن تحرضهم على حرب نبيلة ؟ حسن ، هذا بالضبط هو موقف المصريين نحونا ، ومع ذلك فبعد ثلاث سنوات من الإقامة بينهم ، وبعد أن ألف المصريون سادتهم الجدد ، فإنهم أصبحوا يلاقون بالترحاب سرايانا المعزولة وجنودنا السائرين بمفردهم . ولقد سافر واحد منا بمفرده من سمنود إلى القاهرة ، وكثيراً ما قمنا برحلات طويلة ، اثنين اثنين ، وبدون أية حراسة ، أما فى أعماق الدلتا ، وأما فى مقاطعات مصرية أخرى .. ومما لا جدال فيه أن ثمة بلداناً فى قارتنا الأوربية يضطرب فيها الأمن بحيث يحتاج المرء أثناء السفر فيها إلى حراسة أكبر من تلك ، مثال ذلك بعض أجزاء إيطاليا المطلة على البحر المتوسط .. وفى النهاية فها هى تجربة تمت منذ أربع سنوات ، تبرهن على أن مصر لو ظلت لوقت أطول فى حوزة الفرنسيين لكان النظام والأمن قد استتبا فى ربوعها ، ليس ذلك فحسب ، بل لكانت شعوبها قد استوعبت — وبسهولة أكبر مما كان المرء يعتقد فى البداية - فنوننا وأذواقنا وتقاليدنا .

تقع فوه على شواطىء النيل ، وتكاد تكون موازية للإسكندرية ، وهى تقترب كثيراً من الموقع الذى حدده لمدينة ميتليس Metelis . وهى ليست مزدحمة بالسكان بالنسبة لاتساعها ، وكانت فى القرن الخامس عشر مستودعاً لكل التجارة التى

كانت تتم بين الإسكندرية حيث ترسو السفن القادمة من أوربا وبين القاهرة حيث تأتى القوافل من داخل أفريقيا وبلاد العرب، لكن بسبب الإهمال الذى بدأت تعانى منه الترع التى تتم بواسطتها التجارة بين فوه والإسكندرية فى عهد المخربين الأتراك ، استوجب الأمر أن تمر البضائع المرسلة من القاهرة عن طريق النيل حتى رشيد ثم تنقل من هناك بالبحر حتى الإسكندرية ، ومنذ ذلك الحين تدهورت فوه بعد أن فقدت المزايا التى كانت تعود عليها من موقعها - تدهورت بشكل لافت للنظر بينما أدت نفس الأسباب إلى ازدهار سريع لمدينة رشيد حيث نقل إليها قناصل أوربا مقارهم نتيجة لذلك — وقد كانوا من قبل يقيمون فى فوه .

وعلى بعد فرسخين من تلك المدينة الأخيرة ، نجد القرية الكبيرة المسماة مطوبس الواقعة على شاطىء النيل . وتعرف هـــذه القرية بتقاليدها الغريبة والمتساهلة ، فهى مقر لعدد كبير من العوالم . وتوجد بالقرب منها أكوام عديدة من الأنقاض تسمى كوم الحمر ، ولعلها أطلال مدينة قديمة ، وربما كانت على وجه التحديد هى بقايا ميلسيان Milésians التى كانت كما هو معروف مجاورة لبحيرة بوتوس Butos .

وهذه البحيرة قريبة جداً من مطوبس ، وتشغل من الشرق إلى الغرب أكثر من نصف قاعدة الدلتا ، وهى كذلك أكثر اقتراباً من فرع رشيد عنها من فرع دمياط ويفصلها عن البحر لسان ضيق من الأرض، وتتصل به عن طريق فتحة وحيدة وهى المصب القـــديم للفرع السبنيتى وتوجد على شواطئها بعض الأطلال وهى فى معظمها أكوام من الأنقاض وفتات من الطوب ويحمل أكبر هذه الكثبان إسم الكوم الكبير، ويقع عند حوالى منتصف شاطىء البحيرة المطل على البحر المتوسط ، وعلى بعـــد فرسخ نحو الشرق توجد كومة أخرى من الأنقاض الحمراء يرتفع وسطها عمود نلمحه عن بعد شـديد ، ونقابل أيضاً فيما

بين البحيرة والشاطىء الغربى لترعة التباتية فراغا يمتد من ٥ - ٦ فراسخ توجد فى أماكن عديدة منه خرائب وتلال صناعية تنبىء أنه كانت توجد هنا عدة مدن قديمة ،وثمة ثلاثة من هذه الأطلال تسمى على التوالى : الدمراوى، النميرى، الكالية ، وهى تقع كلها على الفرع السبنيتى ، وأخيراً نرى على بعد خمسة فراسخ من هناك مع الاتجاه نحو الشمال مع شواطىء البحيرة وعلى الشرق من مصب الترعة ـ نرى فوق تل الخنداحور ، حتى اليوم ، وبعدمضى أربع سنوات قبل وصولنا إلى مصر،وذلك منذ الوقت الذى أمر فيه احد الكشاف بانتزاعها، ثلاثة أحجار ضخمة لعلها من أطلال بعض المنشآت القديمة . ويبلغ طول تل الخنداحور حوالى ألف متر وعرضه حوالى المائتين وهو يتكون من أراض يغطيها قليل من الرمال وبعض قطع من الأحجار . ربما كان هذا هو المكان الذى كانت توجد فيه فيما مضى مدينة باخناموتيس عاصمة الإقليم السبنيتى الأدنى التى يضعها بطليموس شرق الجزء الأدنى من الفـــرع الترموتى ، وهو ما يتطابق مع موقع تل الخنداحور بالنسبة لسمنود أوسبنيتوس القديمة ومع ترعة التباتية التى هى جزء من المجرى القديم للفرع الترموتى .

أما بوتوس فكانت تقع على الشط الآخر حسبما يقول نفس العالم الجغرافى، وينبغى نتيجة لذلك ونتيجة لمشاهدات هيرودت أن نبحث عن موقعها فى المناطق المجاورة للترعة وللبحيرة ، بين الخرائب التى سبق أن تحدثنا عنها إذ يقول هذا المؤرخ بأنها تقع بالقرب من مصب الفرع السبنيتى للنيل وتقابلها عندما ندخل البحر عن طريق هذا المصب . الخ وتوجد بالقرب منها بحيرة فسيحة . وكانت هذه المدينة واحدة من أهم مدن الدلتا وكان يوجد بها معبد هائل لإحدى الإلهات المصريات التى اعتبرها الإغريق مثل آلهتهم لاتون وكانت تقدم لها الأضحيات العظيمة ، وكانت تعتبر فى مصر من أكبر الآلهة تأثيراً .

وينقل إلينا هيرودت عن هذه المدينة تفاصيل هامة: « كانت ترى فى بوتوس

معابد عديدة هى معبد أبولون وديانا وكذلك معبد لاتونا Latone حيث كانت تقدم الأضحيات ، وهذا المعبد الأخير معبد ضخم له دهاليز شديدة الارتفاع ، وكان أكثر ما أثار دهشتى فى النطاق المخصص للإلهة لاتون هو معبد هذه الآلهة ، إذ هو منحوت فى حجر واحد مكعب الشكل وطول كل بعد من أبعاده أربعون ذراعاً وثمة حجر آخر مربع الشكل طول حافته اربعة أذرع يستخدم كغطاء له. وجزيرة خميس هى الأخرى مثارة للعجب ، وهى تقع فى بحيرة عميقة وفسيحة بالقرب من معبد لاتون ويذكر المصريون أن هذه الجزيرة جزيرة عائمة على الرغم من أنى لم أرها تعوم أو تتحرك. ويلفت النظر فيها معبد كبير لابولون له ثلاثة مذابح وينمو فى أرضها تلقائياً عدد كبير من أشجار النخيل وغيرها من أشجار فاكهة تؤتى أكلها . وإليكم السبب الذى من أجله كما يرى المصريون تسبح هذه الجزيرة : فلاتونا وهى إحدى الإلهات المعبودة منذ زمن ضارب فى القدم كانت تقيم فى بوتوس حيث يوجد الآن محرابها . وحيث أن إيزيس قد سلمت إليها أبوللو كوديعة فإنها خبأته فى هذه الجزيرة التى تسمى الآن الجزيرة العائمة وهى التى كانت من قبل ثابتة لا تتحرك . وبذلك أنقذته فى الوقت الذى وصل فيه طيفون حين كان يجد فى البحث عن ابن أوزيريس فى كل مكان ، إذ يقال أن أبوللون وديانا قد ولدا من باخوس «أوزيريس» وايزيس ، وأن لاتونا كانت مرضعته «أى مرضعة أبوللو» . وسمى أبوللون عند المصريين حورس وسميت خيريس Cérès إيزيس كما سميت ديانا بوباستيس .

وتضم بحيرة البرلس عددا كبيرا من الجزر ، أراضى معظمها موحلة ، وسوف يكون من الممتع أن نبحث بين هذه الجزر من جزيرة خميس وهلبو المشهورتين فى العصور القديمة . وقد سبق أن نقلنا عن هيرودت ما كان يعرفه عن الجزيرة الأولى ونضيف الآن أن اسمها الذى أطلقه عليها الإغريق ربما يأتى من خمى أو خيمى وهو اسم مصر فى اللغة الإغريقية القديمة . ومن هنا

يمكن أن نستنتج أن المصريين ربما يكونون قد أسموا هذه الجزيرة « جزيرة مصر »[1] تشريفاً لها إذ كانت تستخدم ملاذاً لآلهتهم . أما عن جزيرة هلبو فهى تعرف على وجه الخصوص بأنها الجزيرة التى أقام فيها أحد الفراعنة ، وكان أعمى ، عندما طرده من العرش ساباكوس Sabacos ملك أثيوبيا ، وظل هناك مختبئاً لمدة خمسين عاماً هى فترة السيطرة الأجنبية . وقام بعض المصريين المخلصين بمد أميرهم الضرير سراً بالأغذية ، وكان كل واحد يقدم من المؤن حسب ثروته كما كانوا ينقلون إلى هذه الجزيرة الأتربة لكى يرتفع مستوى أرضها الموحلة عن سطح المياه .

وكانت البحيرة والأراضى غير المزروعة التى تجاور بحيرة البرلس وبالذات إلى الشرق والجنوب تكون الإقليم الذى كان يطلق عليه القدماء إسم اليارخى Eléarchie ومن طريق هذه المستنقعات خرج ابسماتيك بعد أن نفاه زملاؤه الأحد عشر — لكى يطردهم من العرش كما أن أميرتيه Amyrtée قد ناوأ من هناك ولمدة طويلة قوات الفرس .

كانت هذه المناطق فى ذلك الوقت البعيد آهلة بسكان أولى بأس شديد

(١) غالباً ما تلصق النعوت بأسماء المدن المصرية . ومن الطبيعى أن يستعمل الأجانب فى بعض الأحيان هذه النعوت بدلا من الأسماء نفسها ، ولعل هذا هو السبب فى أن نجد أحد الفراعنة يسمى عند الأغريق خيمس Chemmis ، أو أن نجد مدينة بانوبوليس تسمى خمو أو شمو Chémmo أو خمين (شمين) Chemmin ، كما يسميها ديودور الصقلى ؛ كما رأينا العرب عند دخولهم مصر ، يعطون اسم شمون أو أشمون لكثير من القرى والمدن فى هذه البلاد . وأخيراً ، فإذا كان العرب قد أطلقوا على قصر بابليون آن — شيمى اسم قصر الشمع أو قصر الأضواء ، فإن ذلك يعود ، بلا جدال ، إلى أنهم ، عندما وجدوا فى هذا الحصن معبداً مخصصاً لعبادة النار ، قد استمدوا من لغتهم هم ، الكلمة التى يمكنها أكثر من غيرها ، مع قربها كذلك من الكلمة المصرية الأصلية ، أن تكون وثيقة الصلة بعبادة النار وقد حرف كثير من جنودنا أثناء إقامتهم فى مصر ، عن طريق قياس مماثل ، الكثير من أسماء الأشخاص والأماكن .

وهم لا يزالون كذلك حتى اليوم ، حسبما نراهم فى أولئك الصيادين الشجعان الذين يتميزون بأنهم أكثر شجاعة وأكثر استقلالا من الفلاحين داخل هذه البلاد .

وبعد أن عبرنا معا أرض الدلتا على هذا النحو افترقنا ، وعاد أحدنا ليقطن مدينة سمنود ، واستقر آخر فى منوف ، وأصبح من السهل علينا أثناء إقامتنا الطويلة فى هاتين المدينتين أن نسجل وأن نبسط المعلومات والملاحظات التى جمعناها خلال رحلتنا هذه . .



(٥)

جولة بين بحيرات مصر

" جراتيان لوبير "

العنوان الأصلي للدراسة هو :

« مستخلص من دراسة عن بحيرات وصحراوات مصر السفلي » .



بحيرات وصحراوات مصر السفلى (*)

تناول المؤلف بالبحث ، بحيرات مصر السفلى بالترتيب التالى :

١ — بحيرة ماريوتيس (مريوط) .
٢ — بحيرة المعدية .
٣ بحيرة إدكو .
٤ — بحيرة البرلس .
٥ — بحيرة المنزلة .
٦ — بحيرة سربونيد (البردويل) .
٧ — البحيرة بين البحرين (المرة) .
٨ — بحيرة موريس (قارون) .
٩ — بحيرات النطرون .

أولا — بحيرة مريوط

كانت مياه كل من بحيرة مريوط والبحر (المتوسط) تصنع فى الأزمنة القديمة من أراضى مدن الاسكندرية ، فى الوسط ، ونكروبوليس وكانوبى ، فى الشمال الشرقى ، والمدينتين اللتين تحملان كلاهما اسم تابوزيريس ، ومدينة بلنتين ، فى الجنوب الغربى ، شبه جزيرة طويلة وضيقة ، تمتد ، بلا انقطاع ، لمسافة تزيد عن ١٠ ميريامتر . وفى الفترة التى احتل فيها الجيش الفرنسى مصر ، من ١٧٩٨ إلى ١٨٠١ ، لم تكن تشكل هذه البحيرة سوى سهل رملى ، تحتجز المناطق الواطئة منه مياه الأمطار التى تظل تغطيها الجزء الأكبر من فصل الشتاء .

(*) هذه ترجمة حرفية لما جاء فى كتاب وصف مصر ، ولم نتناول نحن الدراسة بأى اختصار ، وجدير بالذكر أن عدداً من الدراسات التى نشرت فى وصف مصر كانت موجزات الدراسات الأصلية .

ويذكر سترابون أن بحيرة ماريا أو ماريوتيس ، التى كانت تمتـــد من تابوزيريس (برج العرب حالياً) ، كانت تبلغ ما يقرب من ٣٠٠ غلوة (٢٨٫٥٠٠ قامة) طولا ، فى حين يبلغ عرضها أكثر من ١٥٠ غلوة (١٤٫٢٥٣ قامة) ، وكانت تضم كما يذكر المؤرخ ثمانى جزر ، كما كانت تغص شطئانها بالمساكن الفخمة . وكانت تتلقى المياه من عدة ترع سواء من الأجزاء العليا من النهر أو الجانبية منه ، وبالإضافة إلى ذلك كانت مركزاً لتجارة مزدهرة للغاية حتى أن ميناء الاسكندرية الذى يطل على هذه البحيرة كان أكثر ازدهاراً من مينائها المطل على البحر المتوسط ، وقد أدت فيضانات النهر إلى اتساع مساحتها لدرجة كبيرة[1] .

ويذكر بلين Pline ، نقلا عن كلوديوس قيصر Claudius Coesar الذى كان قد قاس مساحتها[2] ، أن عرضها يبلغ ثلاثين ألف خطوة ، فى حين يبلغ محيطها ١٥٠ ألف خطوة ، مما يؤدى إذا احتسبنا كل ألف خطوة بـ ٧٥٦ قامة إلى أن يصبح عرضها ٢٢٫٦٨٠ قامة وأن يبـــلغ محيطها ١١٣٫٤٠٠ قامة ، ويضيف نفس المؤرخ أنها قد تكونت ونمت نتيجة فيض الفرع الكانوبى .

وكانت أهم ترعتين تنتهيان إلى البحيرة هما : أولا ، تلك الترعة التى كانت تأخذ مياهها من النهر فى إقليم أرسينويت ، ومن بحيرة موريس عند النيل الأدنى ، لتصبها عند سفح الجبل الغربى الذى يحد وادى مصر ، مارة عند سفح الأهرام لتلتف بعد ذلك عائدة إلى بحيرتنا هذه بعد أن تكون قد روت أقاليم عديدة وبخاصة إقليمى نيتريت وماريوتيت اللذين يلامسان عند الغرب

---

(١) جغرافية سترابون . الكتاب السابع عشر .

(٢) بلين ، التاريخ الطبيعى ، الكتاب الخامس ، الفصل الاول ، المجلد الثانى ، طبعة ١٧٧١

الصحراوات الليبية ؛ أما الترعة الثانية فهى ترعة شيديا التى كانت تتفرع من الفرع الكانوبى ، والتى لا يبدو لنا مع ذلك أن مجراها يتبع على نحو دقيق مجرى ترعة الاسكندرية (الحالية) التى حلت محلها ، فى جزئها الأدنى على الأقل .

وهكذا كانت بحيرة مريوط ، كما سبق القول ، قد جفت بشكل تام عندما استولينا على هذه البلاد ، ويرى المرء عن طريق ما أورده أبو الفداء سنة ١٤٠٠ وبيلون Belon سنة ١٥٣٢ ، وفيلامون Villamont عام ١٥٩٠ ، وتيفنو Thevenot عام ١٦٦٣ ، أن هذه البحيرة ، وكذا الترع القديمة التى كانت تصب فيها ، كانت لا تزال موجودة فى هذه الأزمنة المختلفة[١] . ويذكر Villamont على وجه الخصوص ، أن صيد السمك فى هذه البحيرة التى تبعد عن مدينة الاسكندرية بنصف فرسخ كان يدر عائداً كبيراً . وعلى هذا فإن جفافها لا يمكن أن يعود إلا إلى نهاية القرن السابع عشر أو بداية القرن الثامن عشر .

وفى الرابع عشر من جرمينال من العام التاسع (١٤ أبريل ١٨٠١) قطع الجيش الإنجليزى التركى جسور ترعة الاسكندرية عند الطرف الغربى لبحيرة المعدية ، على مسافة ٧٠٠٠ر٧ متر من باب رشيد الواقع إلى الشرق من السور القديم لمدينة الاسكندرية ، فتدفقت مياه هذه البحيرة المالحة وكذا مياه البحر الذى يتصل بها عن طريق المعدية ، عن طريق ثلاثة أو أربع فتحات حتى نهاية شهر بريريال (١٥ يونيه ١٨٠١) ، واستغرق الأمر سبعين يوماً متوالية لكى يمتلىء ، وبشكل تام ، الحوض القديم لبحيرة ماريوتيس[٢] .

---

(١) Belon ، الكتاب الأول ، الفصل الثامن عشر ، ص ٩٢ ، طبعة ١٥٥٤ . فيلامون ، رحلات ، Voyages ، الكتاب الثالث ، الفصل السادس عشر ؛ Thevenot ، المجلد الثانى ، الفصل الثانى ، طبعة ١٦٧٤ .

(٢) انظر فى دراستى من الجزء الغربى من ولاية البحيرة ما قلته بخصوص داورية الاستكشاف وعمليات الجس والتقدير التى قمت بها فى أرض البحيرة وقت إغراقها بمياه البحر . (الدراسة الثانية من المجلد الثانى من الترجمة العربية) .

ثانياً — بحيرة المعدية

المعدية ، أو بحيرة أبى قير ، بحيرة تكونت حديثاً ، مياهها ، من حيث ملوحتها من نوع مياه البحر الذى يتصل بها عن طريق بوغاز يشغل على وجه التقريب نفس موضع الفتحة (أو المصب) الكانوبية القديمة . وقد وسميت هذه البحيرة باسمها هذا لأن المياه الموجودة فى بوغازها تعبر « أى تعدّى » الطريق بين الاسكندرية ورشيد[1] . ويقع البوغاز وسط جوين عميق يكونه خليج أبى قير على مسافة ٦٠٠٠ر٦ متر (١٠٧٨ر١ قامة) جنوب الجنوب الشرقى لرأس يحمل هذا الإسم ، ويتراوح عمقه بين مترين وثلاثة أمتار حسب اتجاه وقوة الرياح ومدة هبوبها ، فحين تهب رياح البحر بشدة فإن العمق يصل إلى أربعة أمتار ، ويكون المرور هناك فى معظم الأحيان صعباً وخطراً .

ويجد الإنسان فوق لسان الأرض ، الرملى ، الذى يفصل هذه البحيرة عن البحر بقايا لآثار جسر مبنى فى جزء منه بالأحجار ، وفى جزء آخر بالخشب ، ويبلغ طوله شبه المتواصل حوالى ثلاثة آلاف متر (١٥٣٩ قامة) ، ويسير بحذاء الساحل قادماً من الغرب ومتجهاً نحو الشرق ، ونقرأ فيما ذكر عن رحلات بول لوكاس Paul Lucas أن هذا الجسر قد قطع فى عام ١٧١٥ بفعل اندفاع مياه البحر بعنف ، وأن المياه قد غمرت بحيرة المعدية منذ هذا التاريخ كما أن هذا الجسر قد أصابه الكثير من الأذى أيضاً عام ١٧٨٢ بسبب حادث مماثل ، ويعتقد أن هذا الجسر ، الذى اضطررنا لعمل ترميمات عدة له ، يعود إلى عصر السلطان سليم عند حوالى منتصف القرن السادس عشر ،

---

(١) المعدية كلمة عربية تعنى ممر أو مرور المياه . ويمر الناس فى الواقع بوغاز المعدية فى قارب يوجد عند هذه النقطة من الطريق بين الاسكندرية ورشيد . وبوغاز كلمة عربية أخرى تعنى مصب أو فتحة لفرع نهر أو نهير أو بحيرة فى البحر .

أو هذا على الأقل هو ما يمكن استنتاجه من الأعمال الهائلة التى تم إنجازها فى عهد هذا الحاكم ، على ساحل مصر كله .

ويمتد طول هذه البحيرة من ٤ إلى ٥ آلاف متر من شرق معديتها حتى قصر القياصرة بالقرب من مدينة الاسكندرية ، وبعرض يبلغ من ١٥ إلى ١٦ ألف متر . أما أقصى أتساع لها ، وهو يبدأ من نفس النقطة ، المعدية ، حتى تل الجنان ، إلى الجنوب الشرقى ، فيبلغ ١٢ ألف متر (٦,١٦٠ قامة) .

ويبلغ عمق مياهها حوالى المتر (٣ أقدام) ، كما يخبرنا بذلك تقرير المستر ولسون Wilson ، وبالكاد تستطيع القوارب الخفيفة أن تسبح فوقها لكن عملية إغراق بحيرة مريوط بواسطة مياه البحر بسبب القطع الذى تم إحداثه فى جسور ترعة الاسكندرية ، فى أبريل ١٨٠١ ، قد أدى بالضرورة إلى تكوين حفر عميقة بعض الشىء ، لحد سمح لسفن الأسطول الإنجليزى التركى ، التى يبلغ غاطسها من متر إلى مترين بالملاحة فيها ، وبالذهاب من خليج أبى قير ، عن طريق المعدية ، إلى بحيرة مريوط .

ثالثا — بحيرة إدكو

تشغل بحيرة إدكو جزئياً ، وهى التى تتخذ أسمها من أسم قرية كبيرة لحد ما ، تقع فى هذه الانحاء ، الفراغ الواقع بين المعدية التى انتهينا من الحديث عنها ، وبين فرع رشيد ، وكانت هذه البحيرة كبيرة بعض الشىء قبل مجىء الحملة الفرنسية ، وكان عائد صيد الأسماك منها يشكل الدخل الرئيسى لمنطقة إدكو ، لكنها منذ زمن ، كادت تبلغ حد الجفاف التام لأن جسور الترع التى تحمل إليها مياه النهر لم تفتح . وبخلاف المياه التى تحصل عليها من ترعة الاسكندرية ، عن طريق خور أبى جاموس ، فإنها تحصل كذلك على مياه النهر عن طريق فرعين آخرين ، يلبع أحدهما عند قرية سنابادة بالقرب من فوه ، ويلبع الآخر عند قرية ديروط .

وخلال الفيضان الذى تم فى العام ٧/٩ (سبتمبر ١٨٠٠) ، حصل سكان إدكو على تفويض من الحكومة الفرنسية بفتح جسر ديروط ، تلك القرية الكبيرة نوعاً ما والتى تقع على الشط الأيسر للنيـــل ، إلى الغرب من فوة ، وكذلك جسر أبى جاموس : وكان الفيضان فى ذلك العام وفيراً حتى أن مياه البحيرة التى ارتفعت إلى نحو ٥٠ إلى ٦٠سم فوق مستوى مياه البحر قد تسببت فى حدوث بعض الخسائر للبلاد ، فشقت لها فتحة إلى البحر باتساع بلغ حوالى ١٥٠ متراً ، وبعمق قـــدره ٣ إلى ٤ أمتار ، بالقرب من وكالة أو نزل كان الفرنسيون يشيرون إليه باسم البيت المربع La maison Carrée .

رابعاً — بحيرة البرلس

تشغل بحيرة البرلس الجزء الأكبر من الساحل البحرى الواقع بين فرعى دمياط ورشيد ، وتدين هـذه البحيرة التى يبلغ أقصى اتساع لها ٣٥ ألف متر (١٧,٩٥٧ قامة) باسمها إلى رأس منخفض رملى ، كان الأقباط يطلقون عليه اسم برولو Broullo أو بارالو Parallou ويبدو أن مياه البحر كانت تهاجم هذا الساحل بشكل دائم ، حيث أننـا نجـد اليوم تحت مياه هذه البحيرة أطلال مسجد وإحدى القرى .

ولا يزيد عمق مياه بحيرة البرلس عادة عن متر واحد ؛ لذلك فمن العسير الملاحة بها ، وتصب فيها ترع عديدة متفرعة عن النيل ، أهما ترعة التبانية التى تبدأ من سمنود على فرع دمياط .

أما بوغاز البرلس ، فى اتساعه الذى يتراوح بين ٢٠٠ إلى ٢٥٠ متراً فيبلغ عمقه من ٣ إلى ٤ أمتار تبعاً لـ ... ر .

خامساً — بحيرة المنزلة

تمتد بحيرة المنزلة من دمياط حتى ما وراء قصر الطينة، بالقرب وإلى الشمال من أطلال بيلوز[1]. وتفصلها عن طريق البحر كتلة من الرمال ضيقة الاتساع، تقطعها فتحات عديدة لتصل البحيرة بالبحر، وأهم هذه الفتحات فتحتا فم الديبة وأم فارج.

وتدين هذه البحيرة باسمها لقرية المنزلة، وهى مكان رئيسى فى منطقة تقع إلى الغرب من لسان من المياه يشكل إلى الجنوب مصباً لترعة أشمون.

وتمتد مياه المنزلة من الطينة عن طريق القنطرة التى تقع على طريق الصالحية — قطية لمسافة حوالى ٣٥ ألف متر إلى الجنوب نحو مركز البرزخ أو القلزم. وتشكل المياه ألسنة غير صالحة للملاحة يسميها العرب بركة البلح. وتنتهى هذه الألسنة التى تغطيها النباتات والشجيرات ذات الطبيعة الملحية، والتى كانت توجد منذ القدم كما يذكر سترابون Strabon — تنتهى إلى الجنوب الشرقى بمكان يشير إليه العرب باسم رأس المية (رأس المياه أو البلاح). ويجد المرء فى ضواحيها بعض مرتفعات من أنقاض مساكن قديمة، وتوجد قريباً منها بعض الشيء، ناحية الشرق، آبار أبى الروك التى تعطى مياهاً عذبة أو تميل للملوحة قليلا. ويتردد على هذه المناطق العربان الذين يسعون إلى إخفاء سيرهم من مصر إلى سوريا.

سادساً — بحيرة سربونيس أو سباخة البردويل

كانت بحيرة سربونيس كما يذكر كل من هيرودوت، وديودور، وسترابون تبدأ من رأس كاسيوس الواقع إلى الشرق من بيلوز، وتحاذى الساحل البحرى

---

(١) دراسة عن بحيرة المنزلة تأليف الجنرال (بالمدفعية) اندريوسى، الدول الحديثة المجلد الحادى عشر، ص ص ٥١٩ إلى ٥٥٤ (من الطبعة الثانية من وصف مصر).

لمسافة تزيد على مائتى غلوة (١٩ ألف قامة) ، ويبلغ أقصى أتساع لها ٥٠ غلوة (٤٧٥٠ قامة)[١] .

وحتى اليوم ، لاتزال تتطابق الأوصاف التى تركها لنا كل من ديودور الصقلى وسترابون مع وضعها الحالى ، إذ يذكر ديودور أن « فرقاً عسكرية قد هلكت فيها حيث كانت تجهل حقيقة هذه المستنقعات العميقة التى كانت تغطيها الرياح بالرمال التى حجبت هواتها » ويضيف بأن الرمال والأوحال لم تكن تغوص فى البداية تحت الأقدام إلا قليلا ، كما لو كان الأمر لإغراء المسافرين الذين يظلون يواصلون تقدمهم لحد لاتستطيع المساعدات التى يقدمونها لأنفسهم — حالما يدركون الخطأ الفادح الذى وقعوا فيه — أن تنقذهم ، فكل المجهودات التى يبذلونها حينئذ لاتؤدى إلا جذب المزيد من الرمال من المناطق المجاورة وينتهى الأمر بأن تبتلع الرمال هؤلاء المسافرين التعساء ، ولهذا السبب فقد أطلق على هذا السهل الطينى أسم barathrum أى سهل الهوات أو سهل جهنم .

ويذكر سترابون أن كل المنطقة من غزة حتى سربونيس ، وكذلك تلك المنطقة التى يعدها من الغرب رأس كاسيوس حتى بيلوز ذات طبيعة رملية قامة ، قاحلة وتخلو من أية مياه عذبة ، كما أن تربتها على الدوام منخفضة وعميقة وموحلة مثل تربة فينيقيا ، وكانت توجد عند المنتصف فتحة (تصب) طمستها الرمال . ومن كاسيوس يبدأ الطريق المؤدى إلى بيلوز ، ويجد المرء فى هذه الانحاء هوات تكونت بشكل طبيعى ، حيث هى تقع فى ضواحى بيلوز ، من فيض النيل على مناطق واطئة .

---

(١) هيرودوت ، الكتابان الخامس والسادس ؛ ديودور ، الكتاب الأول ، الباب الأول ، الفصل السابع عشر .

ويذكر نفس هذا الجغرافى فى الكتاب الأول[١] أثناء حديثه عن هذه الجهات « لا بد أن البحـــر قد كان فيما مضى يغطى أرض مصر حتى هذه المستنقعات المجاورة لبيلوز ولرأس كاسيوس والمرتفعات المجاورة لسربونيس ، ذلك أننا لا نزال نجد حتى اليوم ، عندما تحفر مناجم الملح فى أرض مصر كتلا من الرمال ومن القواقع المتحجرة ، كما لو كان البحر فى الزمن القديم يغطى هذه البلاد ، ولا بد كذلك أن كل ضواحى كاسيوس وكذا المكان المسمى جرها Les Gerrhes ، كانت قاعا ضحل العمق يلامس خليج بحر أريتريا ، ولا بد أن البحر عند انحساره قد كشف هذه الأرض ، لكن المياه قد بقيت فى بحيرة سربونيس التى أصبحت بعد ذلك ، وبفعل تدفق جديد للمياه مستنقعاً » ؛ ويضيف نفس المؤلف : « وفى أثناء إقامتى فى الاسكندرية ، ارتفع البحر عاليا بين بيلوز ورأس كاسيوس وأغرق الساحل المحيط بهذا الجبل حتى أصبح بمثابة جزيرة وسط المياه ، وحتى أن الطريق المؤدى إلى فينيقيا كان يمكن أن يقطعه الناس بواسطة السفن ، لذلك لا ينبغى أن ندهش لو حدث أن البرزخ الذى يفصل البحر المصرى (المتوسط) عن بحر أريتريا (البحر الأحمر) قد هوى أو تفتت فإن هذين البحرين سيتصلان ببعضهما البعض بواسطة مضيق ضيق يشبه مضيق أعمدة هيرقل » (مضيق جبل طارق) .

وتحمل بحيرة سربونيس اليوم اسم سباخة البردويل باسم بودوين Baudouin ملك أورشليم الذى مات فى العريش أثناء عودته إلى سوريا ، فى عام ١١٧٧ ، بعد الحملة التى سيطر فيها على الفرما (بيلوز) ، وتشكل هذه البحيرة بشكل أساسى كل الفراغ الواقع بين رأس سترا كى ورأس كاس والتى تبلغ مسيرة نحو سبع إلى ثمانى ساعات بحذاء شواطىء البحر الرملية ، ويحد اتساعها

---

(١) سترابون ، الجغرافيا ، الكتاب الأول والسادس عشر والسابع عشر ، الترجمة الفرنسية لهذا المؤلف ، باريس ، سنوات ١٨٠٥ وما بعدها .

إلى الجنوب طريق قطية — العريش الذى يبلغ طوله ١٠ — ١١ ألف متر (٥١٣٠ إلى ٥٦٤٣ قامة) ، وكل هذه المساحة ، هى الحوض القديم للبحيرة ، ولا تزال الرمال المتحركة حتى اليوم تغطى جزءاً كبيراً منها ، وهذه الرمال المتحركة هى التى تركتها هناك نفس الهوات التى تحدث عنها كل من ديودور وسترابون ، وإننا لندين ليوميات زحف السيد الجنرال مينو ، عند عودة الجيش من سوريا إلى مصر بتفاصيل شيقة حول هذا الجزء من الساحل ، الذى اتبعه هذا القائد من العريش إلى قطية[1] ، وإليكم نص هذه اليوميات .

خط السير من العريش إلى قطية عن طريق
سواحل البحر المتوسط ، الذى اتخذته فرقة
من الجيش الفرنسى أثناء عودتها من سوريا إلى مصر

« رحلنا من العريش ، فى الساعة الخامسة من بعد الظهر : وبعد مسيرة نصف الساعة بإتجاه الشمال الغربى ، وصلنا إلى شواطىء البحر ، وسرنا بحذاء الشاطىء بإتجاه ½٥ إلى الجنوب الغربى لمدة ساعة ونصف الساعة قبل أن نصل إلى بئر المسعودى حيث تزودنا بالمياه ، وواصلنا السير فى الساعة الثامنة

---

(١) يعود الفضل فى تدوين يوميات هذا الزحف إلى المسيو لازوسكى Lazousky ، الذى كان فى ذلك الوقت رئيس سرية فى سلاح المهندسين ، التابع لفرقة الجنرال مينو ، أثناء زحفه من العريش إلى قطية ، عن طريق الساحل ، فى المدة من ١ إلى ٣ مسيدور من العام السابع (١٩ — ٢١ يوليه ١٧٩٩) ، وعندما نقدم هنا نص هذا التقرير الهام ، فاننا نحقق إحدى رغبات الجنرال الذى اصطحبته دوماً فى جولات استطلاع وحملات عسكرية أخرى ، وقد أودعنى هـذا التقرير فى القاهرة كى أعمل على نشره ، الأمر الذى تحقق فى هذه الدراسة .

مساء حتى الحادية عشر ، متخذين نفس الاتجاه ، فقطعنا بذلك حتى نقطة أول استراحة لنا أربعة فراسخ .

« وفى اليوم التالى واصلنا السير فى الخامسة صباحاً ، وفى الساعة السابعة قمنا بالتنقيب فى الأرض التى تنتشر بها حفر كثيرة لكن المياه التى عثرنا عليها كانت بالغة الملوحة ، ويتوغل الشاطىء فى هذه المنطقة نحو الشمال ، وكنا نسير بميل يبلغ ½ درجة جهة الشمال ، ثم واصلنا مسيرتنا باتجاه غرب الشمال الغربى حتى وصلنا إلى رأس بالغ الإنخفاض يطلق عليه دانفيل d'Anville فى خريطته رأس ستراكى ، وقد تجاوزناه فى العاشرة والنصف صباحاً .

« وعندما وصلنا إلى هذا الرأس كنا قد قطعنا تسعة فراسخ ، وهو ما يتفق فى كثير مع الخريطة ؛ ولا يزيد ارتفاع الساحل - وهو منخفض إلى حد كبير - عن ٥ إلى ٦ أقدام فوق مستوى مياه البحر ؛ ويشكل الشاطىء ، شأنه فى ذلك شأن الصحراء التى كانت عن يسارنا ، سهلا خفيضا ، وحين اقتربنا من رأس ستراكى وجدنا العديد من البحيرات الصغيرة ، كان قاع بعضها مغطى بملح أبيض جميل تعلوه ست بوصات من المياه ، وقد وجدنا بعض البحيرات كذلك خالية من المياه ، كما وجدنا أن بعضها عميق الغور ، لكنها جميعاً كانت قليلة الإتساع . سرنا بقية النهار ، عن يسارنا سلسلة من بحيرات متشابهة ، فى حين تمتد الصحراء على مدى البصر فوق سهل واسع شديد الانخفاض ، يخلو تماماً من أية خضرة .

« بعد رأس ستراكى يتخذ شاطىء البحر من جديد اتجاه الغرب ، وغرب جنوب الغرب ، مشكلا منحنى يشبه المنحنى الذى انتهينا من اجتيازه بمحاذاة البحر ، ابتداء من العريش ، وينتهى هذا المنحنى الذى نحن بصدده عند رأس كاس كما تسميه خريطة دانفيل ، ويتكون هذا الرأس من كثبان بالغة الارتفاع تتصل بأرض مرتفعة ، تبدأ من داخل الصحراء لتشكل نهاية لسرير بحيرة

قديمة لم تعد بها مياه ، ويغطى هذه المرتفعات نبات العايق أو العيص ، وتبدو قابلة للزراعة ، وتدل المدقات العديدة التى تخترقها ، وكذا روث الجمال والخيول والماعز الذى يغطيها ، على أن العربان يترددون على هذه المناطق ، وقد اكتشفنا خلف وفى سفح الكثبان ، خزاناً للمياه قاعه رملى ، وتكسوه جذوع صبار مطمورة تماماً ، ووجدنا حوله كذلك أنقاضاً لا نهاية لها من الفخار الطينى ومن بعض مواد البناء ، على شواطىء البحر .

« كنا قد قطعنا حتى ذلك الوقت ١٦ فرسخاً ، وقد حاولنا اجتياز الصحراء باتجاه الجنوب الغربى ، كى نصل إلى قطية ، لكن أحواضا أخرى لبحيرات قديمة بالغة الإتساع ، شكلت عوائق بالنسبة لخيولنا وجمالنا ، إذ كانت تغوص فيها حتى بطنها ، لدرجة اضطـــررنا معها أن نعود أدراجنا نلتمس من جديد شواطىء البحر ، التى يفصلها عن هذه المستنقعات جسر رملى يبلغ عرضه من ١٠٠ إلى ١٥٠ قامة ، ويبلغ ارتفاعه حوالى ستة أقدام فوق مستوى سطح البحر وقطعنا بعد ذلك أربعة فراسخ حتى بلغنا استراحة المساء ، وفى اليوم التالى ، وبعد أن سرنا بحذاء البحر ، الذى يمضى شاطئه هناك فى خط شبه مستقيم ، باتجاه ¼ درجة نحو الجنوب ، وبعد مسيرة خمس ساعات وجدنا مبنى من القرميد جيد البناء ، له شكل المنزل المربع يقسمه من الداخل جدار ، ويقع هذ الطلل ، الذى تتناثر من حوله آثار أخرى من مواد بناء ، فى الطرف الشمالى الشرقى لمرتفع لا يشكل مطلقا رأساً فى البحر ، وإن كان يشكل ، من جهة الغرب ، نهاية أحواض كبرى للبحيرات القديمة التى سبق أن تحدثنا عنها ، وفى هذا المكان ، أمر قائد الفرقة مينو بالسير إلى قطية ، وكنا عندئذ قد قطعنا ابتداء من العريش حوالى ٢٥ فرسخا فوق رمال متحركة ، دون أن نعثر على مياه ، بخلاف تلك التى وجدنا فى بير المسعودى .

« أما بخصوص خزان رأس كاس ، فقد يكون من المفيد القيام بتطويره

لمعرفة نوع وكمية المياه الموجودة به وهو يقع على بعد تسعة فراسخ من طلل القرميد الذى تحدثنا عنه من قبل ، ومن المرتفعات التى اجتزناها لنتجه صوب قطية . وبعد مسيرة ساعة دخلنا الطريق المؤدى من الطينة إلى قطية » .

حرر فى قطية ، فى الثالث من ميسيدور من العام السابع

قائد لواء المهندسين لازوسكى

(توقيع)

وهكذا نتبين من هذه الأوصاف ، أن طبيعة هذه المناطق لم تتناولها تغيرات ملحوظة ، منذ ما يقرب من عشرين قرناً .

سابعاً — البحيرة المرة أو البحيرة بين البحرين

تتخذ البحيرة التى أشار إليها مؤلف دراسة « القناة التى تربط بين البحرين» المسيو لوبير Lepère ، أخى الأكبر ، والذى كنت واحداً من معاونيه ، باسمها القديم ، البحيرة المرة ، تتخذ فى هذه الدراسة تسمية جديدة ، هى البحيرة بين البحرين ، وهو الاسم الذى أطلقته عليها والذى يبدو منطبقاً تمام الإنطباق على حالتها ، وعلى موقعها وسط قلزم السويس ، وعلى الدور الذى قامت به فى الإتصال القديم بين بحر الهند وبحر اليونان ، وعلى الدور الذى تستطيع أن تقوم به بشكل طبيعى عند إعادة فتح هذا الإتصال[١] .

ثامناً — بركة قارون أو بحيرة موريس

تعتبر بحيرة موريس ، بين كل الأعمال المدهشة التى قام بها قدماء المصريين ، هى ذلك العمل الذى تحدث عنه المؤرخون القدامى بأكبر قدر

---

(١) انظر دراسة المسيو Lepère عن القناة التى تربط بين البحرين ، الدولة الحديثة ، المجلد الحادى عشر ، ص ٣٧ . (الطبعة الثانية) .

من الاطراء والحماسة ، ومع ذلك ، فنحن نعرف عبقرية شعوب الشرق فى كل العصور ، وروح وأسلوب كتابهم ، فإن المرء لا يدهش بعد أن يجد ، كما يقول سترابون حين يتحدث عن هوميروس ، أن الأساطير والخرافات تتداخل فى كتاباتهم ، ولهـــذا على وجه الدقة ، فإننا لن نجافى الحقيقة حين نحمل محمل الأسطورة ما كتبه هيرودت عن أعاجيب بحيرة موريس ، وفى الواقع ، فإن هذا المؤرخ ، وهو أقدم هؤلاء الذين كتبوا عن مصر ببعض التفصيل ، هو سبب الأخطاء والمعلومات غير الدقيقة التى جعلت كتابنا المحدثين ، حتى عصرنا هذا ، مشغولين بهذه المسألة الجغرافية ، سواء كان ذلك من هيرودوت بفعل تقليد خاطىء أو مغلوط منه أو كان بسبب تفسيرات غير دقيقة حصل عليها من الكهنة المصريين .

لكننى لن أدخل فى هذا الصدد فى أية مناقشات حول موضوع أرى أنه قد توضح الآن بشكل كاف حتى لأعده بذلك منتهياً ، بعد هذا الذى كتبه ونشره فى مصر ، المسيو جومار Jomard ، الذى كان ضابطاً فى سلاح المهندسين الجغرافيين[1] .

تاسعاً ـ سباخة النطرون أو بحيرات النطرون

يضم الوادى المتاخم لمصر السفلى ، فى جزئه الأوسط والأكبر انخفاضاً ، بعض ألسنة يطلق عليها بحيرات النطرون ، باسم مادة ملحية حجرية تنتجها هذه البحيرات ؛ وتتجه هذه البحيرات إلى شمال الشمال الغربى موازية الفرع الغربى للنيل ، الذى يبعد عنها بمسيرة نحو ١٠ إلى ١٢ ساعة نحو الغرب ، ويبدأ ظهور

---

(١) دراسة عن بحيرة موريس ، الدولة القديمة ، المجلد السادس ، ص ١٥٥ (الطبعة الثانية) .

هذا الوادى بين أهرام سقارة والجيزة ، وينتهى عند تخوم ولاية البحيرة إلى الجنوب من ماريا Maréa ، عاصمة إقليم المريوطية القديم .

وتقع بحيرات النطرون على خطوط موازية لقريتى ميت سلامة والطرانة على النيل ، على مسيرة ١٢ ساعة إلى الغرب من الطرانة أى مسافة نحو ٤٨ ألف متر من هذه القرية ، على اعتبار أن مسيرة الساعة تساوى أربعة آلاف متر .

ولابد أن يتبادر إلى ذهن المرء أن قاع هذه البحيرات أدنى من مجرى النيل وكذا من مستوى مياه البحر المتوسط ، بل إننا مدفوعون إلى الاعتقاد كذلك بأن مياه النيل تتسرب إليها عن طريق الرشح حاملة معها المادة الملحية الحجرية التى تحملها من التربة التى تخترقها ، والتى تستخدم فى تشكيل وتجهيز النطرون فى هذه الحفرات الطبيعية ، ذلك النطرون ، الذى استطاع العلم فى كل العصور أن يعده لاحتياجاتنا الصناعية ، ويقول هيرودوت بهذا الخصوص « إن النيل أثناء فيضاناته الكبرى يغرق ليس الدلتا فقط ولكن كذلك مناطق الصحراوات الليبية وكذلك بعض أجزاء من بلاد العرب ، إذ يفيض على الجانبين لمسيرة نحو يومين » ويؤكد بلين Pline هذا الاستنتاج عندما يقول إن مياه النيل تحدث فعلها فى ملاحات النطرون .

وعلى غير سند قوى ، فى رأيى ، رفض واحد من أحدث رحالتنا هو المسيو سوينى Sonnini رأى الطبيعيين اللاتين ، الذى تبناه وتوسع فيه الجنرال أندريوسى فى دراسته الموجزة عن وادى بحيرات النطرون[١] وحيث أننى لست أستهدف هنا الدخول فى تفاصيل كثيرة حول هذا الوادى ، فإننى أحيل هنا إلى الدراسة التى دونتها فى بريد مصر Courrier de l'Egypte وبصفة

---

(١) Memoire sur la vallée des Lacs des Natroun وصف مصر ، الدولة الحديثة ، المجلد الثانى عشر ، وهو الدراسة الرابعة من المجلد الثانى فى الترجمة العربية .

خاصة إلى الدراسات التى سبق أن ذكرتها لكل من المسيو سونينى والجنرال أندرويوسى ، وأذكر هنا[1] حكاية طريفة من شأنها أن تعرفنا على طبيعة

---

(١) فى أثناء الرحلة التى قمت بها إلى بحيرات النطرون صحبت معى ، بناء على رغبته ، السيد قائد الفرقة الجنرال مينو ، وكان على رأس ٥٠٠ من رجال المدفعية وقت إبرار الجيش الإنجليزى — التركى فى أبى قير ، فى السادس والعشرين من ميسيدور من العام السابع (١٤ يولية ١٧٩٩) ، وكان — هو — مكلفاً بمسح الصحراء ، بهدف قطع خط الرجعة على مراد . وكان هذا البك ، المتحالف مع العدو ، والذى كان يهدد فى ذلك الوقت سواحل أبى قير ، يجتاز البحيرة مع بعض من أحزاب المماليك والعربان ، حيث كان يسعى إلى تأليب هذه الولاية ضدنا ، لكنه عرف كيف ينسحب من هناك فى الوقت المناسب . وقد عانينا فى هذه الحالة العسكرية ، فى هذا الوقت من السنة ، من أشد درجات حرارة الصيف ، ومن أقسى المتاعب ، ومن الخسائر فى الرجال والخيول ، كما سنعرف للتو ، فى التفاصيل التالية :

بعد أن رحلنا فى الخامس عشر من يوليو ١٧٩٩ من امبابة ، وهى قرية تقع على الشط الأيسر للنيل ، حازت شهرة بسبب معركة الأهرام ، أصبحنا فى السادس عشر من الشهر داخل الصحراء فى منطقة مرتفعة ، على مسيرة ثلاث ساعات إلى الغرب من وردان ، وزحفنا نحو الأديرة اليونانية والسريانية الموجودة عند بحيرات النطرون ، وهنا اضطر نقص المياه ، الجنرال مينو إلى التماس النيل مرة أخرى ؛ وكنا قد فقدنا حتى ذلك الوقت بسبب متاعب العطش رجلين : أحدهما يونانى ، قتل نفسه يأساً ببندقيته ، وقد بلغنا النيل بعد ساعتين ، بالقرب وإلى الشمال من ميت سلامة ، وعندما عاودنا الرحيل ، عند الساعة الرابعة ، عدنا مرة أخرى إلى الصحراء حيث ضربنا خيامنا ، وفى اليوم التالى وصلنا ، عند حوالى الساعة العاشرة ، إلى دير القديس مكاريوس ، بعد أن فقدنا مرة أخرى أربعة رجال ، وحصاناً ، وجملا ، واستغرقت مسيرتنا من شواطىء النيل إلى هـذا الدير عشر ساعات من السير المتواصل ، وبعد وصولنا استشعرت سعادة غامرة حين تمكنت من إنقاذ حياة ثلاثة جنود ، زحفوا ، وفمهم يرغى رغوة الموت ، وجسدهم يرتجف بشدة ، نحو الدير الذى كان دخوله ممنوعاً على الفرقة ، وبعد أن وضعناهم فى ظل الجدران ، وبعد أن قدمنا لهم الماء المنعش بالقدر المناسب ، استطعت أن أستعيدهم إلى الحياة التى خرجوا منها بعد ذلك بربع الساعة ، وبلا عودة : عندئذ حفرت الفرقة وهى تجرى هنا وهناك ، الرمال ، على بعد ٢٠٠ إلى ٣٠٠ متر من الدير ، حيث عثرنا على قليل من المياه المالحة تكفى بالكاد لرى عطش لا سبيل إلى وصفه ، وكان لابد أن تحدث بعض إصابات بالحمى الرهيبة ، التى يتسبب فى حدوثها فى هذه الصحراوات عطش مهلك ، تبلغ قسوته درجة لا يمكن تخيلها أو وصفها ، ولسنا فى حاجة بالتأكيد إلى أن نلتمس فى عاصفة هبت على هذا البحر من الرمال الليبية ، السبب فى ضياع جيش قمبيز الذى ابتلعته هذه المنطقة من بلاد آمون ، ذلك أنه تكفى بساطة هبة ملتهبة من رياح الخماسين لمدة يوم أو يومين فقط ، أو مجرد زحف اضطرارى فى هـذه الصحراوات الخالية من المياه ، كى يهلك هناك جيش بأكمله .

الصحراوات التى تقع فى وسطها بحيرات النطرون ، وعلى الخطر الكامن فى اجتيازها فى فصول السنة شديدة الحرارة وبخاصة لو أن ذلك قد تم ، دون اتخاذ الاحتياطات الضرورية .

وفى رأيى أن من المهم أن يلم بهذه الحكاية الطريفة أولئك الذين يتحتم عليهم أن يسافروا إلى هذه المناطق .

= وفى التاسع عشر من يوليو ، وبعد مسيرة خمس عشرة ساعة من دير السيدة (أو دير السريان) بلغنا النيل من جديد ، من جهة الشمال الشرقى ، عند العويجة ، وفى أثناء هذه الرحلة فقدنا رجلين آخرين بعد ساعة واحدة من السير إلى غرب النهر ، وقد وضع المسيو جاكوتان Jacotin الكولونيل بفرقة المهندسين الجغرافيين عند رسم خريطة مصر الكبرى ، مخططاً تبين هذه المسيرة الصعبة التى كان على القائد أن يتحملها مع الجندى . إذ كانت هذه الحملة جد متسرعة ، لحد لم يكن لدينا من الوقت ما يكفى كى نتزود لا بالخيام ولا بأية مؤن ضرورية أخرى ، أما عن أنا ، فبعد مسيرة سبعة أيام من زحفنا ، أربعة منها فى الصحراء ، لحقت فى أبى قير بالجنرال مينو ، الذى تولى قيادة حصار هذا الحصن . وبعد استسلام الحصن عدت إلى رشيد حيث عانيت من آلام شديدة مع كل الأعراض التى تصاحب الطاعون الذى أنقذنى منه لحسن الحظ نوبة عرق غزير ، جاءتنى المبجة سير اضطرارى . وعند العودة إلى القاهرة ، بعد ذلك بشهر ، هاجمتنى نوبة رمد ، حرمتنى كلية ، طيلة اثنى عشر يوماً ، من النظر ، وهى نوبة لم أشف منها إلا بعد ستة أسابيع . وقد عانى آخرون ، كثيرون ، من الظروف القاسية للغاية التى صحبت هذه الرحلة ، وقد ظل حصانى ، وكذا حصانان آخران من خيول الجنرال ، مرضى بسبب هذه الرحلة لمدة ١٥ — ٢٥ يوماً حتى أنها استطاعت بالكاد أن تواصل السير معنا فى اليوم الأخير حين اتجهنا من العويجة إلى الرحمانية ، وقد أتيح لى أن ألاحظ وأن أقتنع كذلك بأن سبب الحوادث التى عانيت منها بصفة خاصة يعود إلى أثر الفرق الملحوظ ، والمؤثر أبلغ الأثر فى الجسم ، بين الحرارة الشديدة فى النهار والتى تبلغ من ٣٢° إلى ٣٥° وبين البرودة الشديدة بالليل وسط هذه الصحراوات ، وبخاصة حين لا يحرص المرء على أن يغطى نفسه جيداً أثناء الليل ، وهذا أيضاً سر الإرهاق الشديد الذى يحس به المرء هناك ، ذلك أن امتناع العرق فى مصر ، كما فى كل البلدان الحارة ، هو أحد الأسباب الأولى لوجود الأمراض الملازمة لأجوائها .

ملاحظات عامة

يقول المسيو جراتيان لوبير Gratien le Père إنه قد أطلعنا فى الوصف الخاص الذى قدمه عن بحيرات مصر والذى نقلناه بالنص فيما سبق ، على ما لم يكن قد نشر من قبل :

١ — إن حوض بحيرة مريوط ، الذى يمتـــد بطول الساحل البحرى للاسكندرية حتى برج العرب ، لمسافة من ٣٨ إلى ٤٠ ألف متر ، والذى كان قد جف تماماً فى عام ١٨٠٠ ، قد ظل حتى اليوم أدنى من منسوب البحر بشكل ملموس ، بحيث أن المياه المالحة ، نتيجة لعملية تخريبية ، تغمره اليوم كله ، ويبلغ عمقها فى نقاط عديدة سبعة أو ثمانية ، وربما عشرة أمتار .

٢ — أن قاع حوض كل من بحيرات المعدية ، وإدكو ، والبرلس ، وكذلك بحيرة المنزلة التى تلامس بقية الشاطىء البحرى للدلتا القديمة ، والتى تتصل مباشرة بالبحر بواسطة فتحة أو عدة فتحات ، ينخفض بوضوح عن مستوى البحر ، حيث تتخذ مياه هذه البحيرات الملحية ، حين تتناقص بتناقص منسوب النيل ، كل ملوحة مياه البحر التى تصب فيها عندئذ ، وترتفع بدرجات تتفاوت بحسب قوة واتجاه الريح القادمة باتجاه عرض هذه البحيرات .

٣ — وأن بحيرة سربونيس التى تمتـــد من رأس ستراكى إلى رأس كسارون ، والتى تغطيها قشرة ملحية ، تضم ، شأنها فى ذلك شأن الألسنة المتاخمة من جهة الغرب باتجاه الطينة ، نفس الهوات التى كانت موجودة هناك منذ ألفى عام .

٤ — أن بركة البلح ، التى تتصل شمالا بالمنزلة ، وتمتد حتى رأس المية عند حوالى منتصف قلزم السويس ، لا تزال حتى اليوم ، وبشكل ملموس للغاية ، أدنى من مستوى سطح البحر المتوسط ، حتى أنها ليست سوى فيض بمعنى

الكامنة لمياه حلوة أو مالحة من المنزلة ، تبعاً لحالات المنزلة المختلفة ويتم ذلك بفعل القنطرة التى تفصلهما على الطريق من مصر إلى سوريا والذى يمر بالصالحية .

٥ — أنه يتضح بشكل ملموس لكل من يعبر قلزم السويس من بحر لآخر ، على نفس خط عمليات المهندسين الفرنسيين ، مدى إنخفاض أرض البحيرات المرة عن مستوى سطح البحر الأحمر ، وتتطابق النتائج التى توصل إليها من المهندسون الفرنسيون فضلا عن ذلك مع تلك التى توصل إليها من قبل مهندسو داريوس ، كما تقول الروايات المتواترة ، وكذلك مع الشهادات التاريخية للمؤلفين القدامى والمحدثين ، كما تتطابق كذلك مع شهادات الأقباط ومثقفى القاهرة .

٦ — أن بحيرة موريس ـ وبركة قارون ليست سوى أدنى بقعة من هذه البحيرة القديمة ـ تشكل كذلك ، وهو أمر ملموس ، اتساعا لمنخفض يمكن أن يبلغ عمقه ـ وهو أمر لم تحققه أية عملية قديمة أو حديثة ـ نفس ما ذكره هيرودوت ، أى ٥٠ أورجى Orgyies (٩٢ متراً) تحت أعلى مياه فى هذه البحيرة ، وأنه ، إذا لم يكن هذا العمق صحيحاً فى موقع النهرين اللذين أقامهما موريس ، فلا شىء ، فى الواقع ، يتعارض مع ما يمكن لهذا العمق أن يبلغه بالنسبة لأية منطقة أخرى ، حيث تبدو تربتها أدنى بكثير من سرير النيل ، وترتيبا على ذلك ، أدنى من منسوب البحر المتوسط .

٧ — أن تربة البحر بلا ماء ، والتى يعود جفافها بلا جدال ، وكذلك جفاف كل البحيرات الأخرى فى مصر ، تلك التى لم تعد تتغذى بمياه النهر أو البحر ، إلى الأعمال التى قام بها ، فيما مضى ، موريس ، الذى يتحدث عنه هيرودوت ، وكذلك إلى البخر المستمر فى هذه الصحراوات من الرمال القاحلة

والملتهبة ، وأن تربة هذا الوادى ، حسبما أرى ، لابد أن تكون بالمثل ، أدنى من مستوى البحر .

٨ — وأخيراً ، أن حوض بحيرات النطرون ، حيث يجد المرء محجراً طبيعياً غير قابل للنفاد ، من هذا الحجر الملحى ، لابد أن يكون دون ريب أدنى من سرير النيل الذى تجرى مياهه ، فيما يبدو ، تحت قاع هذه البحيرات فتجلب إلى هذه الوهاد رطوبة ملحية ، هى واحدة من العناصر التى تكون هذه المادة المعدنية . ومن الممكن أن نقرر هنا ـ ولا يتم ذلك على غير أساس ـ أن التربة ، هنا بالمثل أدنى من مستوى مياه البحر المتوسط .

وإذا ما حاولنا ، بعد أن تعرفنا هكذا على بحيرات مصر ، أن نضع فى اعتبارنا الطبيعة العامة والخاصة لهذه البحيرات ، التى تحيط بها سهول منخفضة وقاحلة حيث نجد رمالا متحركة ، تبللها مياه مشبعة بالأملاح من كل نوع ؛ وإذا ما وضعنا فى اعتبارنا فى النهاية أن رطوبة الليالى الدائمة ، تهيء بشكل مستمر فى طقس هذه البحيرات ، والصحراوات التى تحيط بها ، رطوبة ملحية تخترق مسام الأجسام وتفعل فيها فعلها ، فإننا نتوصل إلى أن قلزم السويس ، وكل مصر السفلى ، وكذلك كل الساحل المتاخم من الغـــرب لواحة آمون فى الصحراوات الليبية ، وتطابقاً مع الرأى الذى كان يحدسه الكهنة المصريون ، والذى نقله وتبناه هيرودوت ، وسترابون ، وكل فلاسفة الأزمنة القديمة ، تشكل بلا جدال امتداد بحر جفت مياهه .

وقد شارك فى هذا الرأى كل الرحالة المحدثين ، الذين زاروا هذه المناطق ؛ ويمكن أن نذكر من بين هؤلاء الرحالة هورنمان Hornemann ، الذى تعرف فى هذه الصحراوات ، بعد أن عبر أفريقيا سنة ١٨٠٠ من الشرق إلى الغرب مروراً بواحة آمون (سيوة) ، على الآثار المحسوسة للغاية لإقامة طويلة لمياه البحر (فوق هذه المناطق) ، وأضيف إلى ذلك ، تبعاً لرأى الكهنة المصريين

ورأى هيرودوت، أنه يحتمل ألا يكون وادى النيل اليوم، وهو الذى ترتفع تربته بشكل مستمر من القاهرة وهو يتجه جنوباً نحو الصعيد، سوى ترسيب هائل لطمى النهر، وأن وديان بحر بلا ماء، وكذا بحيرات وادى النطرون قد أمكنها أن تشكل فيما مضى خلجاناً مشابهة لخلجان البحر الأحمر؛ وأضيف إلى ذلك، أخيراً، أن الواحات — وذلك من حيث ينظر إلى الصحروات الليبية والإفريقية بشكل عام، باعتبارها أجزاء من أرضية بحر جفت مياهه — وهى تلك الأنواع من الجزر المزروعة أو القابلة للزراعة، والتى نراها مبعثرة باتساع هذا البحر من الرمال، ليست سوى وهاد، مثل تلك التى توجد فى قاع البحار، والتى لا تزال تربتها، جزئياً، أدنى من المستوى الحالى لمياه البحر المتوسط.

ويقول مؤلف هذه الدراسة: لم يكن منوطاً بى أن أحدد سبباً للثورة الفيزيقية التى أمكنها أن تغير على هذا النحو سطح كثير من هذه المناطق، لذلك فاست أدعى بأننى قد توصلت للعثور على هذا السبب الثانوى، سواء بالإشارة إلى أثر المد والجزر غير الاعتيادين، واللذين، تبعاً لما يقول سفر الخروج، والذى تتفق روايته القديمة مع مايذكره ديودور[1] عن أكلة الأسماك Ichthyophages، وهى شعوب سواحل البحر الأحمر، ربما يكونان (أى المد والجزر) قد جففا جزءاً كبيراً من هذا البحر؛ وسواء كذلك بافتراض أن إنخفاضاً قد تم آليا لمياه المتوسط بسبب انقطاع أحدث مضيق أعمدة هيرقل، المسمى حالياً مضيق جبل طارق[2]، كما اننى أخيراً لا ألتمس السبب فى ذلك

(١) سفر الخروج، الاصحاح الرابع عشر، الآية الحادية والعشرين.

(٢) بين كل هذه الروايات أو الافتراضات، تبدو رواية انخفاض مياه المتوسط بسبب انقطاع مضيق الأعمدة، وهى الرواية التى كانت موضع دراسة فى جغرافية سترابون، أكثر الروايات مدعاة للقبول، كما أنها أكثرها احتمالا، ولذا فنحن نقبل بالقول بأن المتوسط كان يغطى فيما مضى الجزء الأكبر من صحراوات ليبيا وأفريقيا، وأن هذه المياه، عندما انخفضت عن ارتفاع بعينه، بفعل قطع طبيعى أو صناعى لمضيق جبل طارق، قد كشف اتساع هذه السواحل التى حولها الجفاف إلى بحر من الرمال القاحلة والملتهبة. أنظر سترابون، الكتاب الأول من المجلد الأول الترجمة الفرنسية، وكذلك بلين، التاريخ الطبيعى، الكتاب السادس، الفصل الأول.

الانحسار السريع للمياه بعد عصر تلك الكارثة العامة التى تحتم خلالها على الكوكب الذى نعيش فيـــه ، أن يدور ، خلال قرون ، تحت غلاف بحر لا حدود له، وهى كارثة لاتزال السهول وكذلك الأغوار بالغة العمق ، والجبال شديدة الارتفاع عن سطح الأرض ، تحمل شواهد لاتنمحى منها، إن من العبث أن نعذب روح الإنسان، القلقة فى حد ذاتها ، بافتراضات تتفاوت فى درجات حذقها أو درجات احتمالها لتفسير أسباب هذه الثورات الكبرى ، كما أن أسباب وأوقات هذه الأحداث المرهبة ، التى تهددنا بمسارها ، الدورى ، ربما ، مجهولة لنا ، وستبقى مدفونة فى طيات ليل الأزمان الأبدى .

ولكى نعود إلى الغرض الذى من أجله أعددنا هذه الدراسة ، فإننا ننتهى بأن نقدم هنا لوحة موجزة لمساحة أسطح البحيرات البحرية لمصر الدنيا ، مع مقارنة هذه المساحة ، بمساحة الدلتا القديمة والدلتا الحديثة .

لوحة موجزة للمساحات المقارنة لبحيرات مصر السفلى[1]

التسميات الحديثة والقديمة للبحيرات	المساحة بالهكتار
١ — بحيرة مريوط . . بحيرة ماريوتيس	٨٥ر٧٨٤
٢ — « المعدية . . « المعدية	١٣ر٨٣٢
٣ — « إدكو . . « إدكو	٢٣ر٧٧٢
٤ — « البرلس . . « البرلس	١١٢ر٨٦٠
٥ — « المنزلة . . « المنزلة	١٣ر٠٢٨
المجموع	٤٤٣ر١٢٠
٦ — سباخة البردويل . . سربونيس	
٧ — البحيرات بين البحرين . . البحيرات المرة	
٨ — بركة قارون . . بحيرة موريس	
٩ — سباخة النطرون . .	

(١) سجلت المساحة المحسوبة جزئياً بالنسبة للبحيرات أرقام ١ ، ٢ ، ٣ ، ٤ ، ٥ =

ويرى المرء من مساحة الـ ٤٤٣ر١٢٠ هكتار ، ما إن كانت مصر ستفعل ما فعلته هولندا ، ذلك البلد الذى تنخفض أرضه بشكل عام بـ ٣ إلى ٥ أمتار عن مستوى سطح المحيط ، والذى يقدم مثلا يدعو إلى الإعجاب ، على مقدرة الإنسان حين انتزع نصفها أو على الأقل ثلثها ، عن طريق تجفيف كل هذه الألسنة المائية الضارة ، التى تفرخ كل أنواع الأمراض الوبائية والمستوطنة فى البلدان الحارة ؛ إن مصر بزيادة وتطهير أرض أقاليمها البحرية ، سوف تجنى بعد وقت قصير عشرة أضعاف القروض التى يمكنها أن تحصل عليها من شركات التجارة والصناعة التى قد تسعى إلى الحصول على تنفيذ هذا المشروع الكبير .

ومن بين كل الأعمال التى ينبغى على حكومة عاقلة ومستنيرة أن تقوم بها لصالح ورفاهية هذه المنطقة ، فإن الأعمال التى تستهدف الرى وتجفيف الأراضى لابد وأن تنال الأولوية عند هذه الحكومة ، وعنايتها الكبرى ؛ ذلك أنه لولا الترع والجسور لسكانت مصر ، وقد كفت عن أن تكون ولودة معطاء ، بل مجرد كتلة هائلة تغمرها مياه النهر أكثر مما يجب ، وتهلك شعبها ، فالعناية السنوية بالجسور والترع هى إذن أساس الوجود الفيزيقى لهذه المنطقة . وإذا كان تاريخ مصر لا يعدد ثناياه إطراء عن منجزات تمت على أرض مصر — ولست أقصد هنا هذه الأعمال العظيمة والعلاقة التى تبدو اليوم وكأنها تزدرى بكبرياء وأنفة بعض حكامها ، بل أقصد هذه الأعمال الكبيرة والنافعة ، التى لم تكن تهدف إلا إلى توسيع وتطهير ، وكذا ازدهار هذه الأرض القديمة والمقدسة — فإننا مع ذلك سوف نجد

= على الخريطة الجديدة لمصر ، بمقياس رسم ديسمتر واحد لكل ١٠ آلاف متر أى بنسبة ١ إلى ٦٠٠٠ بالنسبة للمقياس الطبيعى .

ولم نكن نظن أنه ينبغى علينا أن نقدم مساحات البحيرات الملحية أرقام ٦ ، ٧ ، ٨ ، ٩ لأننا لم نكن نعرف أطوالها بالقدر الكافى ، ولأن تربتها فضلا عن ذلك غير قابلة لأن تزرع بعد تجفيفها .

بعض الذكريات مدونة فوق سطح هذه التربة . ومهما يكن من ضعف هذه الذكريات ، فإنها تشهد بأن مصر يمكنها أن تصبح من جديد ما كانته تحت عهود هؤلاء الحكام الممتازين ، وفى الواقع ، فإننا حين نعبر مصر السفلى ـ وأرضها بلاجدال كما قال هيرودوت هبة النيل ـ نبحث دون جدوى عن مجرى الفرعين الرئيسيين للنهر ، واللذين كانا يكونان جانبى دلتاه القديمة ، ولا نعود نجد وسط هذه السهول المزروعة والخصيبة ،هنا وهناك ، سوى ترعة مطموسة أومتقطعة، ولا تشكل فروعها الكثيرة ، والتى تتقاطع فى كل أتجاه إلا آثارا نتعرف عليها بالكادلنظام الرى، كما لا يلمح المرء اليوم فى مكان هذه الكفور والمدن التى كانت تزدحم بالبشر ، سوى أكوام من الأنقاض العارية والقاحلة : تلك هى بقايا المساكن القديمة قد تحولت إلى رماد . وأخيرا فإن المرء لم يعد بعد يرى سوى ألسنة طينية مليئة بالأوبئة ، أو رمال قاحلة تنسبط وتغزو بلا انقطاع ، أرضاً سبق لدأب الإنسان أن انتزعها من الصحراوات ومن البحر ، لنلق إذن بنظراتنا على الخريطة الجديدة لمصر ، ومع ذلك فإن هذه الخريطة لن تقدم للمشاهد سوى فكرة ضعيفة عن الوضع البائس والحزن الذى تردت إليه هذه المنطقة . وحتى يكون حكمنا فى ذلك أكثر دقة ، فإننا نختم هذه اللوحة بمقارنة بين مساحة الدلتا القديمة ، وتلك المساحة للدلتا الحديثة .

قدم لنا هيرودوت القاعدة البحرية للدلتا القديمة ، وحددها ابتداء من بحيرة سربونيد (أو سربونيس أى البردويل حالياً) بالقرب من رأس كاسيوس حتى تابوزيريس إلى الغرب ، على الخليج البلنتينى ، وهو يقدر هذه القاعدة بـ ٣٫٦٠٠ غلوة ، أى ما يساوى ٣٥٣٫٦٢٨ مترا ، باعتبار أن الغلوة المصرية الصغيرة تساوى ٩٨ مترا و ٢٣سم[1]، لكننا ، مع تضييق هذه المسافة إلى تلك

---

(١) الغلوة التى يشير إليها هيرودوت تبلغ ١/٣٠ شونة ، وهو مقياس يستخدمه المصريون كما يذكر هذا المؤرخ ويساوى Parasanges . وبعبارة أخرى فإن الشونة =

القاعدة (قاعدة الدلتا) التي بين تقع أطلال بيلوز (شرقاً) وبرج العرب (غرباً)، نجد أيضاً أن هذه المسافة ، التي نقيسها تبعاً لانحناء الساحل، على الخريطة الملحقة بالدراسة عن الترعة التي تربط بين البحرين ، حوالى ٣٥٠٫٠٠٠ متر .

أما بخصوص جانبي الدلتا ، فإننا سنحصل على المسافة مباشرة من المقياس الواقع عند القمة الجنوبية لجزيرة الروضة ،التي يرتبط موقعها بالفسطاط العربية ، أو ببابليون المصرية ، حتى أطلال بيلوز إلى الشرق ، وبرج العرب إلى الغرب، باعتبار ذلك هرما يشكل الدلتا القديمة ، لكننا سننقل هذين الجانبين ، فيما يتعلق بالدلتا الصغيرة (الحالية) ، إلى المدينتين البحريتين الواقعتين على فرعى النيل الكبيرين : دمياط ورشيد ، وحيث أننا نعتبر هاتين المسافتين المثلثتي الشكل (لكل من الدلتا القديمة والحديثة على التوالى) تابعتين لقطاع من نفس الدائرة يشكل جانبا كل منهما ، قطرى هذه الدائرة ، فإننا نحصل على الأبعاد والنتائج الآتية :

= تعادل ٤ أميال رومانية وتساوى ٣٫٠٢٤ قامة مما يصل بالغلوة المصرية إلى ٩٨م و ٢٣سم
ل ب ق قامة
(٩ ٤ ٢ ٠ ٥) . أنظر ترجمة هيرودوت التي قام بها المسيو لارشيه ، الكتاب الثانى ، الفصلين السادس والسابع .

دلالات		الأبعاد بالمتر		
		القاعدة البحرية	سواحل الدلتا	
أبعاد الدلتا	القديمة	٣٢٠ر٠٠٠ م	١٧٠ر٠٠٠م	
	الحديثة	١٣٥ر٠٠٠ م	١٧٠ر٠٠٠م	
تبعاً لهذه الأطوال نجد أن المساحة المترية للدلتا القديمة تبلغ[1] :		٢ر٧٢٧ر٥٨٣	٦٣	٣٦
وينبغى أن نقتطع منها مساحة المثلث الذى يكونه الجزء الواقع إلى الغرب من الصحراوات الليبية (مساحة بحيرات النطرون) ،وحيث أن قاعدةهذا المثلث تبلغ١٩٨ ألف متر وارتفاعه يبلغ ٤٠ ألف متر فإننا نحصل على :		٣٩٦ر٠٠٠	٠٠	٠٠
حاصل الطرح الأول من مساحة الدلتا القديمة:		٢ر٣٣١ر٥٨٣	٦٣	٣٦
نستبعد منها مساحة الدلتا الجديدة الذى يبلغ :		١ر١٤٧ر٥٤٩	٤٠	٠٠
وبذا يكون مساحة الجزء المفقود من الدلتا القديمة		١ر١٨٤ر٠٣٤	٢٣	٣٦

(١) على الرغم من أن الشاطىء الغربى للدلتا الكبرى قد يبلغ ١٩٨ ألف متر ، فاننا لانعتمد سوى ١٦٧ ألف متر بسبب الأجزاء الداخلة فيه من الصحراء ، والتى نعتقد أن من الواجب استبعادها .

أما المسافة من المقياس إلى أطلال بيلوز ، والمدونة فوق الخريطه فتصل إلى ١٦٨ ألف متر، وقد رفعناها إلى ١٧٠ ألف متر بسبب الفروق الصغيرة التى توجد فضلا عن ذلك على جانبى الدلتا الصغيرة اللذين ينتهيان عند دمياط ورشيد .

وتعطى الخريطة ١٥١ ألف و ٥٠٠ م من أطلال هليوبوليس إلى أطلال بيلوز وتختلف هذه المسافة من تلك التى يذكر هيرودوت بأنها تبلغ على وجه الدقة ١٥٠٠ غلوة تعطى (بحساب الغلوة ٩٨ م و ٢٣ سم) [أى ٥١ قامة] ١٠٧ ألف و ٣٤٥ متراً ؛ وهذا قد يصل بالفرق إلى ٤ آلاف و ١٥٠ م أى ما يساوى ٤٢ غلوة ½ الغلوة .

من هذه النتيجة نتبين أن الدلتا القديمة قد فقدت أكثر من نصف مساحتها ؛ وتغطى حوالى ⅕ مساحتها كذلك مياه بحيرات مريوط ، المعدية ، إدكو ، البرلس المنزلة ، وهذه هى الآثار المحزنة للامبالاة الحكام المسيطرين ، بل المخربين لهذه البلاد البائسة .

لقد تحدثت فى هذه الدراسة عن الأعمال العظيمة للرى والتجفيف ، التى يمكن القول بأنها استخلصت مصر من قلب البحر ، ووضعتها فى أعلى درجات الازدهار ، ولم يعد على سوى أن أعبر عن أمانى بأن تصدر القرارات اللازم اتخاذها بشكل عام ، لمواصلة تنفيذ هذه الأعمال ، التى بلغت اليوم مرحلة العدم التام ، بفعل تخريب البشر ، أكثر منه بفعل أى دمار يكون الزمان قد أحدثه .



(٦)

دراسة موجزة عن
الحدود القديمة للبحر الأحمر

"دى بوا - ايميه"



يقع الطرف الشمالى للبحر الأحمر على بعد ستة إلى سبعة آلاف متر إلى الشمال من مدينة السويس . وفيما وراء ذلك ، ثمة حوض ينتهى بعد حوالى ستين ألف متر إلى الشمال من هذه المدينة ، ويبلغ أقصى اتساع لهذا الحوض ١٢ — ١٥ ألف متر ، ويضيق كثيراً عند الجنوب (انظر الخريطة) .

وبفعل مظهره ، فإن هذا الحوض ، الذى اجتزته مرات عدة ، يدل على أن البحر كان يغمره فيما مضى ؛ فهناك يعثر المرء على طبقات من الملح البحرى، تتخذ فى بعض المناطق شكل قباب ، تهتز الأرض عندها تحت أقدامنا ويلمح المرء من خلال شقوق صغيرة ، وعلى عمق أربعة إلى خمسة أمتار ، مياهاً ، نتعرف فيها على نفس مذاق مياه البحر ، وفى مناطق الأخرى ، نجد الأرض موحلة .

ونعثر هنا وهناك على مستنقعات من مياه مالحة ؛ وحين يحفر المرء فى الأماكن الرملية ، لعمق يبلغ ١٥ ديسمتراً فقط ، فإنه سيعثر على المياه المالحة ، تحت طبقة من صلصال وحمأ . والأرض فى هذا الحوض تغطيها القواقع ، وتنخفض عن سطح البحر لحد كبير(١) ؛ وعلى الرغم من ذلك . فلا يفصلها عن البحر سوى كتلة من الرمال ، يبلغ عرضها من أربعة إلى خمسة آلاف متر ، وبارتفاع يندر أن يتجاوز المتر الواحد فوق مياه الخليج ، وفى النهاية فإننا نلمح فوق التلال المحيطة به ، خطاً يتكون من مخلفات نباتات بحرية تشبه تمام الشبه ذلك الأثر الذى تتركه البحار فوق الشواطىء ، لكن مايلفت النظر هنا بشكل كبير ، هو أن هذا الخط يوجد على نفس مستوى المد العالى للخليج العربى .

---

(١) يبلغ الفرق فى أماكن عديدة من ١٢ الى ١٥ متراً .

ولكل هذا ، فإنه يبدو لى ، وبوضوح ، أننا هنا بصدد أرض كانت تغطيها فيما مضى مياه البحر . لقد جاء يوم تكونت فيه كتلة من الرمال جنوب السويس بقليل ، بالقرب من أضيق مكان بالبحر ، ولا بد أن أسباباً عديدة قد أدت إلى زيادة هذه الرمال بشكل غير محسوس ، وهنا أصبح كافياً أن تهب عاصفة لترفع هذه الرمال إلى ما فوق المستوى المعتاد للمياه . وبذلك يشكل الطرف الشمالى للبحر الأحمر بحيرة بدأت بعد ذلك فى الجفاف بفعل البخر[١] .

ومن العسير ، بل وربما كان مستحيلا ، أن نحدد على وجه الدقة متى حدث ذلك ، ومع هذا ، فلا بد أنه قد تم بالتأكيد قبل عصر أدريان . وحين نظن أننا قد تعرفنا على آثار الترعة التى حفرها الخلفاء (المسلمون) بعد استيلائهم على على مصر ، إذ أن ترعة القــــدماء ، تلك التى يتحدث عنها هيرودت ، بلين ، سترابون .. إلخ ، كانت تنتهى عند الطرف الشمالى للحوض الذى انتهيت لتوى من تحديده .

وعندما أعلنت عن رأيى هــذا بخصوص الحدود القديمة للبحر الأحمر فى مقالة قرأتها فى المجمع المصرى[٢] ، فإن هذا الرأى قد تعرض للرفض من قبل كافة المهندسين الذين ساهموا ، مثلى ، فى عمليات تفدين(*) قلزم السويس ، لكن غالبيتهم عادوا بعد ذلك ، ليضموا صوتهم إلى صوتى وليعتنقوا رأياً لم أطرحه من قبل إلا كمجرد احتمال .

---

(١) منذ حملة البرتغاليين فى البحر الأحمر ، بقيادة كاسترو ، سنة ١٥٤١ ، سدت الرمال خليج السويس لدرجة خطيرة ؛ ولذا فبالإمكان التنبؤ بأن البحر ستراجع فى حالتنا هذه نحو الجنوب .

(٢) كان عنوان هــذه الدراسة عن عبور الإسرائيليين للبحر الأحمر ، وعن بعض المعجزات التى تمت على يد موسى ، وقد طبعت هذه الدراسة مع بعض التعديل فى المجلد الرابع من Mémoires Sur I,Egypte .

(*) أى قياس ارتفاعات وانخفاضات الأرض .

وأضيف هنا ، إلى البراهين التي استخلصتها عن البنية الفينيقية لخليج السويس ، شهادات القدماء من أشهر المؤرخين والجغرافيين .

يذكر هيرودت (الكتاب الثاني ، الفصل ٥٨) أنه كانت توجد ألف غلوة بين رأس كاسيوس وبحر أرتيريا ، أي خمسمائة ألف متر ، إذ تبنينا التقييم التقريبي الذي يقدر الغلوة الواحدة بمائة متر[١] .

وحسبما يذكر سترابون (الكتاب السادس عشر) ، فقد كان رأس كاسيوس عبارة عن جبل رملي يتوغل داخل البحر الأبيض ، في حين يضعه مسار أنطونين على مسافة أربعين ميلا من بيلوز ، وعلى نفس هذه المسافة بالضبط من أطلال بيلوز نجد اليوم كثيباً عالياً من الرمال يتوغل داخل البحر ، حيث يشكل رأساً صغيراً يسمى رأس الكسارون ، ولا يمكن لأحد الشك في أن هذا الكثيب هو كاسيوس القديم نفسه ، وتبعاً لذلك تكون المسافة من هذه النقطة إلى ما أراه الحدود القديمة للبحر الأحمر ، مائة ألف متر ، الأمر الذي يتفق تمام الاتفاق مع الألف غلوة التي يذكرها هيرودت .

وقد يعترض البعض بأن هيرودت قد قال في موضع آخر (الكتاب الرابع ، الفصل ٤١) ، بأنه توجد مسافة ألف غلوة أو مائة ألف Orgyies ، وأن هذا التقييم للغلوة stade ، يدفعنا إلى الاستنتاج بأن هيرودت كان بصدد الحديث عن الغلوة الأولمبية التي تساوي نحو ١٨٥ متراً ، وليس عن الغلوة المصرية التي تساوي مائة متر ، وأن المسافة بين كاسيوس والخليج العربي كانت تبعاً لذلك ١٨٥ ميلا وليس مائة ألف متر .

لكن هذا التقدير الأخير ، سيرجع بالطرف الحالي للبحر الأحمر نحو الجنوب

---

(١) اتفاق طول الغلوة الصغرى مع تقسيمنا العشري لربع الزوال الأرضي ، أمر جدير بالملاحظة .

بمقدار ٦٠ ألف متر ؛ وعندئذ يكون البحر قد تراجع من الشمال كل هذه المسافة، فى حين أن شكل الأماكن يثبت على العكس من ذلك ، أنه قد انسحب إلى الجنوب ، تاركاً حوضاً واسعاً ، قد يملؤه من جديد ، إذا ما رفعنا فقط أربعة إلى خمسة آلاف متر مكعب من الرمال ، وعندئذ لن يفصله ، بعد ، عن كاسيوس أكثر من ألف غلوة صغيرة .

ومن جانب آخر ، فإننى على ثقة بأن هيرودت ، فى وصفه لمصر ، قد استخدم على الدوام الغلوة الصغيرة . فهل يمكن أن يكون هذا المؤرخ قد استخدم بخصوص القلزم وحده مقياساً مختلفاً ، فى حين تتعارض المسافة التى تنتج عن ذلك كثيراً مع المشاهدات الجيولوجية التى يؤكدها الافتراض الأول ؟ يخيل إلى أنه ليس من العسير أن نتقبل فكرة أن هيرودت ، بعد أن قدر فى الكتاب الثانى من تاريخه امتداد القلزم بألف غلوة ، قد وقع فى خطأ حول طبيعة الغلوة التى كانت فى متناوله فى ذلك الوقت ، وأنه ، عندما عاد إلى الحديث عن القلزم من جديد فى الكتاب الرابع ، لم يفعل سوى أن كرر على نحو ما سبق أن قاله ، لقد كان يعرف من قبل أن هذه المسافة تقدر بنحو ألف غلوة ، وهذا سهو من السهل ارتكابه ، جعله يقدر هذه المسافة بـ ١٠٠ ألف أورجى ، ونحن نعرف أن هيرودت قد ارتكب خطأ مشابهاً حين قارن المسافة بين بيزا Pise وأثينا بالمسافة بين هيلوبوليس والبحر الأبيض .

ومع ذلك ، فإن كل هذه الشروح تصبح عديمة الجدوى ، إذا ما تبنينا ذلك الرأى ، الذى ينهض ، فيما يبدو لى ، على أن الغلوة الصغيرة كانت تنقسم شأنها فى ذلك شأن الغلوة الأولمبية ، إلى مائة قسم متساو ، يسمى كذلك باسم أورجى Orgyie فعندئذ ستطابق شهادة هيرودت ، ما سبق أن ذكرته بخصوص الحدود القديمة للبحر الأحمر .

ويخبرنا بلين Pline (الكتاب السادس ، الفصل ٢٧) أن طول الترعة التى

نهض بمشروعها سيزوستريس ، لتربط النيــــل بالبحر الأحمر ، كان يبلغ ٦٢ ميلا[1] ، وأن هذه المسافة كانت فى ذلك الوقت أقصر مسافة بين النيل والخليج العربى ، ويبدو من المؤكد أن هذه الترعة كانت تتفرع عن النيل جنوب بوباسطة بقليل (هيرودت ، الكتاب الثانى ، الفصل ٥٨) ، حيث يصنع النهر فى الواقع مرفقاً يتجه نحو الشرق ، وفى هذه الحالة ، نجد لدينا من هذه النقطة إلى طرف نهاية الخليج ، وفى خط مستقيم ، ٩٠ ميلا ، فى حين أننا لو تتبعنا تعرجات وادى السبع أبيار ، وتوقفنا عند الحدود القديمة للبحر الأحمر ، سنحصل على الـ ٦٢ ميلا التى يذكرها باين .

ونمضى الآن فى تجميع براهين أخرى .

يقع وادى السبع أبيار ، كما يطلق عليه العرب ، من خط عرض ١٠ً ٣١َ ٣٠° شمالا ، ويبدو على بعد نحو ٢ ميريامتر(*) من بلبيس ، ويتجه من الغرب إلى الشرق ، وتتوغل فيه مياه النيل أحياناً فى أوقات الفيضان ، كما توجد فيه على الدوام مياه عذبة حين نحفر لعمق ١٢ إلى ١٥ ديسيمتر . ولأرض هـذا الوادى نفس طبيعة وملح أرض مصر ؛ ومع ذلك ، فحيث تغطيه مياه النيل لفترة أقل على الدوام ، فإن طبقة الأرض الصالحة للزراعة ، والتى يرسبها النهر ، أقل سمكا ، إذ قلما يبلغ سمكها هذا ثلاث ديسيمترات ، توجد تحته طبقة من صلصال خفيف ، مختلط بالرمال ، وقد حفرت الترعة التى تجلب إليه مياه النيل على امتداد يبلغ ½١ ميريامتر خلف تل يحف بالوادى من جهة الشمال ، مما يسهل كثيرا على السكان مهمة الحصول على المياه اللازمة للزراعة . ومع ذلك فقد يحدث أن تمر فى بعض الأحيان سنوات عدة ، دون أن يصل النهر إلى مثل هـــذا الارتفاع ،

---

(١) يساوى الميـل ٧٥٦ قامة أو $\frac{47}{1000}$ ١٤٧٣ متراً .

(*) يساوى الميريامتر ١٠ آلاف متر .

الكافى لإمداد هذه الترعة بالمياه ؛ وفى هذه الحالة يستخدم الناس الآبار لرى الأرض .

وعند مدخل الوادى توجد قرية العباسة ، التى تقع إلى القرب منها بحيرة يسميها العرب بركة الفرجة أو بركة الحج القديم ،ويقودنا الإسم الأخير الذى يعنى : البحيرة القديمة للحجاج ، إلى أن نستنتج أن موكب الحج الكبير ،الذى يمر الآن ببئر العجرود كان يتبع فى الأزمنة الأولى التى بدأ فيها الحج إلى مكة، وادى السبع أبيار ، ليلتف من حول الخليج ، إما لأن قاع هذا الخليج كان يمتد عندئذ إلى جهة الشمال لمسافة أكبر من تلك التى يمتد إليها اليوم ، وإما لأن كتلة الرمال التى كانت قد كونت حديثاً ، بحيرة اقتطعتها من الجزء الشمالى للخليج ، لم تكن تهيء مطلقاً ، حتى ذلك الوقت ، أى طريق مناسب للمرور . وتتوقف الترعة على مسافة ٢ ميريامتر من العباسة ، وهنا كذلك ينتهى وادى الطميلات، الذى يتخذ اسمه من اسم قبيلة عربان الطميلات التى تقطن هذه المنطقة ، ويمتد وادى الطميلات بعد ذلك لمسافة ٢ ميريامتر نحو الشرق ؛ وفى نحو منتصف هذا الجزء من الوادى ، نجد كومة واسعة ضخمة من الأنقاض ، تنبىء عن موقع مدينة قديمة . ويطلق العربان على هذا المكان اسم : أبو كيشيد(*) وعند قمة مرتفع يتكون من هذه الأنقاض ، توجد كتلة ضخمة من الجرانيت ، نقشت فوقها بحروف بارزة ، ثلاثة آلهة مصريين ، هى فيما أعتقد : أوزيريس ، إيزيس ، حورس ،وتتبدى فى هذه الرسوم عظمة إنسانية ، ويجلس كل إله منهم إلى جوار الآخر ، أما ظهر الكتلة ، وكذلك الأجزاء الأخرى المسطحة ، فتغطيها النقوش الهيروغليفية (أنظر الرسم الذى جمعه المسيو فيفر Fèvre والذى يوجد بين آثار الدلتا) ؛ ونجد كذلك ،فوق الأنقاض ، عددا كبيرا من شظايا الحجر الرملى الأحمر الصوانى ، تشابه حجر الجبل الأحمر القريب من القاهرة ، وفوق الكثير من هذه الشظايا ، توجد نقوش هيروغليفية .

(*) تل المسخوطة حالياً . (المترجم)

وثمة اعتبارات كثيرة تدفع إلى الاعتقاد بأن هذه الأنقاض تنتمي إلى مدينة هيروبوليس القديمة .

ويذكر فلافيوس جوزيف Flairus Joosephe (الكتاب الثاني ، الفصل الرابع) إنه ، عندما رحل يعقوب من بير سبع ، جاء ابنه ، وزير فرعون ليلقاه في هيروبولس . وتفسر الترجمة السبعينية للتوراة ، على نفس النحو (الآية ٢٨ من الإصحاح ٤٦ من سفر التكوين) على الرغم من أن الأمر ، في النص العبري ، لم يكن يتحدث عن هيروبوليس بشكل خاص ، وإنما بأرض جاسان على وجه العموم ، وقد تمت هذه الترجمة في مصر ، بعد حوالي نصف قرن من فتح الأسكندر ، لذلك ينبغي أن نولي بعض الثقة ، للتفاصيل الجغرافية التي تحتويها هذه الترجمة . إذن فقد كانت مدينة هيروبوليس ، في زمن هذه الترجمة السبعينية تقع في أرض جاسان ، في المكان الذي يحدد فيه الأثر (التوراة) لقاء يوسف بأسرته ، وعلى هذا فقد كانت المدينة تقع على الطريق المؤدي ، من بير سبع أو من ضواحي غزة إلى ممفيس ، أي بعيداً جـــداً عن الموقع الحالي للبحر الأحمر ، وفي نفس الوقت ، فإن اسم الخليج الهيروبوليتي Golfe Heroopolite الذي كان القدماء يطلقونه على هذا الطرف من بحر أريتريا ، يبرهن على أن هيروبوليس كانت تقع على شواطئه[1] ، بل يذكر ذلك بشكل قاطع كل من بلين وسترابون ، حين يتحدث الأخير عن امتـــداد البحر الأحمر فقد كانت هيروبوليس على الدوام ، هي التي تحدد طرفه الشمالي .

ويختفي هذا التعارض الظاهري ، إذا افترضنا أن البحر كان يملأ الحوض التي تحدثت عنه : وتبدو أطلال أبي كيشيد ، بوجودها عندئذ على الطريق بين

---

(١) وهكذا فإن مدينة القلزوم ، التي كانت توجد في ضواحي السويس قد أعطت لهذا الجزء من البحر اسم بحر القلزوم ، الذي يحمله حالياً ، وهكذا أيضاً بدأ العرب يسمونه اليوم بحر السويس .

بمنديس وغزة، وبعيداً بعض الشيء عن شاطىء البحر، تبدو مناسبة لموقع هيروبوليس وفى نفس الوقت ، فإن دانفيل d'Anville ، الذى لم يمكن يعرف شيئاً عن اطلال أبى كيشيد ، والذى كان يجهل أن البحر قد تراجع بالمثل نحو الجنوب ، فقد وضع هيروبوليس فى نفس الموقع ، على وجه التقريب .

ويبدو أن هيروبوليس هى نفس المدينة التى تشير إليها التوراة باسم بيثوم Pithem وثمة ترجمة قبطية عن نص إغريقى ، ترجمت فيها هيروبوليس ببيثوم ، وقد ظن كثير من العلماء ، وقد جرهم إلى ذلك التشابه الذى يجدونه بين بيثوم Pithom وباتوموس Patumos ، أن هذين الأسمين يشيران إلى نفس المدينة ، ومن المؤكد أن الإغريق قد حرفوا بشكل كبير أسماء البلدان الأجنبية بإعطائها على الدوام نهاية يونانية ، وفضلا عن ذلك ، فان هيرودت ، يذكر أن الترعة التى تحمل مياه النيل إلى البحر ، كانت تصب فى البحر ، بالقرب من باتوموس ، وقد رأينا أن هيروبوليس ، كانت تقع ، على مسافة قريبة من من الأراضى التى هجرها البحر .

وكانت مدينة كليسما Clysma تقع على الشاطىء الغربى للبحر الأحمر ، وعلى بعد ٦٨ ميلا من هيروبوليس ، تبعاً لمسار أنطونين Antonin ، وتقودنا هذه المسافة ، إلى مدخل وادى التيه ، أى إلى حوالى ½ درجة جنوب السويس، فى حين يضع بطليموس Ptolémée كليسما ، على درجة بأكملها جنوب طرف الخليج ، وإننى لأعرف جيداً أنه لا ينبغى أن نلتزم أكثر مما ينبغى بالتحديدات الجغرافية لبطليموس ، الذى لم يفعل بتحويله مقابل الاتجاهات إلى درجات، سوى أن ضخم من الأخطاء وجعلها أكثر خطورة ، حين أعطاها مظهراً من الدقة الفلكية ، ومع ذلك فإن من المستحيل على الأقل ، أن نتقبل خطأ يبلغ أربعين دقيقة بين نقطتين متجاورتين إلى هذا الحد ، وتقعان ، كما يمكن القول ، تحت نفس خط الزوال (الطول) : ومع ذلك ، فتلك هى الغلطة التى كان

يمكن أن يقع فيها بطليموس لو أن قد كان البحر فيما مضى يجـــرى داخل الحدود التى له الآن ، فى حين يبلغ الخطأ ، إذا ما تقبلنا فكرة أن البحر كان فى عصره ، يمتد إلى جهة الشمال بالمسافة التى سبق تحديدها ، لا يبلغ أكثر من ١٢ إلى ١٣ دقيقة ، وهى نسبة تقريبية كبيرة إلى حد ما فى مناقشة من هذا النوع .

أما عن البحيرات المرة ، فسوف نخطىء إذا ما اعتقدنا أنها تشغل الحوض الذى يقع إلى شمال السويس ، ذلك أن بلين Pline ، بخلاف البراهين التى قدمتها لدحض فكرة أن البحر كان يغرقها فيما مضى ، يذكر بشكل موضوعى أن الترعة المتفرعة عن النيل ، كانت تبلغ فى طولها ٣٧ ميلا ونصف الميل حتى البحيرات المرة ، وحيث كانت هذه الترعة تنبع ، تبعاً لأكبر الاحتمالات ، إلى الجنوب من بواسطة ، فإننا نرى أن البحيرات المرة ، كانت ولا بد — تبدأ إلى الغرب قليلا من هيروبوليس : وفى الواقع ، فإنه يوجد بين هذه النقطة ، وبين الطرف القديم للخليج ، أى بامتداد يبلغ حوالى ٣ ميريا متر ، كثير من البحيرات التى كانت تستقبل مياه النيل فى أوقات الفيضانات الكبرى .

ونرى من النصوص المختلفة التى انتهينا من إيرادها ، ان المؤلفين القدماء يؤكدون ما قد دلنى عليه مجرد مشهد الأماكن ، ويبدو لى أن هذا الإتفاق يشكل احتمالا متساويا لكل ما يمكن أن يطلق عليه الناس فى مجال التاريخ اسم ثقة .

إن معرفة الحدود القديمة للبحر الأحمر ستفيدنا بكل تأكيد ، فى أن نحدد بصورة أكثر دقة مما أمكن فعله حتى اليوم ، موقع المدن التى كانت توجد فيما مضى على شواطىء الخليج ، والتى اضطر الجغـــرافيون المحدثون أن « يكدسوها » فى ضواحى السويس ، فى حين نجد ، نحن ، قريبا من الأرض التى هجرها البحر ، اطلال عديد من المدن ، كانت تقع جميعاً — وهذا هو الأمر

الجدير حقاً بالملاحظة — فوق مستوى منسوب أعلى نوبات المد بالخليج العربى ؛ وسأذكر على سبيل المثال تلك المدينة التى كانت تقع عند الطرف الشمالى للحوض : فقد وجدنا هناك كتلا كثيرة من الجرانيت ، تنتسب إلى مبنى دائرى يبلغ قطره حوالى أربعة أمتار ، وهذا ما يتعرف عليه المرء من شكل بروز بناء منحوت فوق واحدة من هذه الأحجار ، ونقابل قريباً من ذلك عدداً كبيراً لقطع وشظايا الجرانيت ، والحجر الرملى ، والحجر الجيرى ، والتى تنبىء عن موقع مدينة قديمة ، يبدو لى ، أنها لا بد وأن تكون مدينة كليوباتريس Cléopatris ؛ فقد كانت هذه المدينة كما يذكر سترابون (الكتاب السابع عشر) ، تقع فى الجزء الثانى من الخليج العربى ، كما يذكر فى الكتاب سالف الذكر ، أن الترعة المتفرعة عن النيل ، كانت تنتهى إلى البحر ، قريباً من هذه المدينة ، وبمواصلة السير مع الساحل الغربى للحوض ، نقابل كذلك ، بين الأنقاض والخرائب التى تحدثنا عنها للتو ، وبين السويس بقايا منشأة قديمة ، نقشت عليها حروف فارسية .

(٧)

الحدود القديمة للبحر الأحمر

مرة ثانية ...

"دى بوا - ايميه" (١)

« العنوان الأصلى لهـذه الدراسة هو : ملحق للدراسة التى سبق لنـا أن قدمناها عن الحدود القديمة للبحر الأحمر » .



الفصل الأول

عن حالة الأماكن(١)

منذ نشرت دراستى عن الحدود القديمة للبحر الأحمر(*) وأنا أدرك ضرورة أن أدعم رأيى ببراهين تاريخية جديدة ، وبأن أضيف إلى الوصف الذى سبق أن قدمته عن الأماكن بعض وقائع قد تجر — إذا ما لزمنا الصمت عنها — إلى افتراضات خاطئة . وفضلا عن ذلك ، فان كل ملاحظة تتم عن الأماكن نفسها ، وكذلك كل معطى يقدمه الواقع ، لابد وأن يهدف — كل ذلك — إلى التعريف بالحالة الفيزيقية للأرض ، داخل موسوعة كهذه ، تهدف لأن تقربنا على أفضل وضع ممكن — من الوصول إلى الوصف الكامل والدقيق لمصر .

ولقد سبق أن ذكرت (فى دراستى السابقة) أن الحوض الواقع إلى شمال السويس ، والذى سأطلق عليه منذ الآن حوض القلزم ، لاتفصله عن الخليج العربى إلا كتلة من الرمال يبلغ عرضها نحو أربعة آلاف أو خمسة آلاف متر ، وبارتفاع يبلغ متراً واحداً فى أكثر أجزائه علوا حسب خط التفدين(*) الذى

---

(١) عنيت بأن أضع على الخريطة التى أرفقها بدراستى عن فروع النيل القديمة ، كل ما يمكن أن يعين على فهم هذه الدراسة ، وتلك التى سبقتها كذلك . انظر هذه الخريطة ، الأطلس الحديث ، المجلد ١ ، ص ٢٧٧ ؛ كما أن من الضرورى مراجعة دراستى عن الحدود القديمة للبحر الأحمر . الدولة الحديثة ، المجلد ١ ، ١٨٧ (وهى الدراسة السابقة فى هذا الكتاب) وكذلك دراسة المسيو روزيير Roziére عن الجغرافية المقارنة والحالة القديمة لسواحل البحر الأحمر . الأطلس الحديث ، المجلد ، ص ص ١٢٧ ، ٢٢١

(*) الدراسة السابقة من هذا الكتاب .

(*) التفدين هو قياس أو مسح الارتفاعات المختلفة لجزء من الأرض .

أقناه. ولقد كانت كل هذه المقاييس متسقة بعض الشىء ؛ ولهذا السبب فقد شئت أن أتجنب لوماً قد يوجه لى بأنى أنتقى من المعطيات ما يدعم افتراضى؛ وها أنذا أقدم لكم المقاييس التى نتجت عن هذا التفدين [1] .

رقم الموقع	المسافة بين الموقع والذى يليه	الارتفاعات كما تبينها مسطرة التسديد			الفرق بين مستوى السطح ومستوى سطح البحر			ملاحظات
	بالمتر	لنية	بوصة	قدم	لنية	بوصة	قدم	
٠	٠	٠	٠	٠	٠	٠	٠	يبين الموقع صفر وتد القياس الموضوع فى مستوى سطح البحر فى الخامس من بليفوز إلى السابع منه على مسافة ٢٢٧٠ متر شمال السويس وضعت مسطرة الارتفاع لقياس ما هو خلف الموقع رقم ١ فوق وتد الموقع صفر .
١	٣٨٠	بعده ٥ ٦ قبله ٢ الفرق + ٤	٣ ١ ٢	٤ ٢ ٦	٤	٢	٢ فوق سطح البحر	

(١) كانت مسطرة القياس التى استخدمناها تنقسم إلى أقدام وبوصات الخ ؛ أما السلسلة الحديدية التى كنا نقيس بها المسافات فكانت تنقسم إلى أمتار .

ولمزيد من الدقة فقد نقلنا من مفكرتنا عن عملية التفدين هذه الأرقام دون أن ندخل عليها تعديلا من أى نوع .

رقم الموقع	المسافة بين الموقع والذى يليه	الارتفاعات كما تبينها مسطرة التسديد				الفرق بين مستوى السطح ومستوى مسطح البحر			ملاحظات
	بالمتر		لنية	بوصة	قدم	لنية	بوصة	قدم	
٢	٦٤٠	بعده	٣	١	٣	٣	٦	٢	الموقع رقم٢ هو أعلى نقطة فى خط تفديتنا . وقد أقيم بين كتل الرمال التى تفصل البحر عن حوض القلزم حالياً .
		قبله	٤	٩	٢	شرحه			
		الفرق +	١١	٣	٠				
٣	٨٠٠	بعده	٢	١	٣	٤	٩	٠	
		قبله	١٠	١٠	٤	شرحه			
		الفرق −	١١	٨	١				
٤	٨٠٠	بعده	١١	٣	٤	٠	١	٢	
		قبله	٣	٠	٣	شرحه			
		الفرق +	٨	٣	١				
٥	٨٠٠	بعده	٨	٥	٢	١٠	١٠	٠	
		قبله	١٠	٧	٣	شرحه			
		الفرق −	٢	٢	١				
٦	١٢٠٠	بعده	٧	٨	١	١١	٨	٠	ابتداء من هذا الموقع تأخذ الأرض فى الانحدار نحو حوض القلزم. وهذا الحوض أدنى فى كل جزء منه من البحر الأحمر، وقد وجدنا الفرق يبلغ أحياناً نحو ٥٤ قدماً و ثلاث بوصات .
		قبله	٤	٤	٣	تحت سطح البحر			
		الفرق −	٩	٧	١				

وهكذا ، فالمسافة يبلغ طولها ٤٨٢٠ متراً من نقطة البدء . حتى اجتيازنا لكتلة الرمال التى كونتها التراكمات الأرضية التى سبق أن تناولتها فى دراستى السابقة ؛ وكانت أعلى نقطة فى خط التفدين الذى اتبعناه لاجتياز هذا السد الطبيعى تبلغ قدمين وست بوصات ولينيتين فوق المستوى المتوسط لأعالى المياه فى البحر الأحمر [١] .

وحين نلقى نظرة على اللوحة الثانية (الدولة الحديثة) فسوف نجد أن نقطة بدئنا كانت تقع على بعد ٢٢٧٠ متراً إلى الشمال من السويس ، وسوف نرى كذلك أننا لو كنا بدأنا من قاع الخليج كما تحدده خطوط المدى [٢] التى تبلغها أعلى مستويات المد ، لكننا قد وجدنا أن هذه المسافة حتى النقطة التى تنخفض عندها الأرض إلى ما تحت مستوى سطح البحر لا تبلغ سوى خمسمائة أو ستمائة متر .

وفى النهاية فإننا نستنتج من الملحوظات التى لاحظناها فى السويس أن البحر يرتفع فى نوبات المد غير العادية إلى قدمين وست بوصات فوق مستوى المد الذى استخدمناه قاعدة للمقارنة فى تفديننا [٣] . وعلى هذا فإن السد الطبيعى الذى يحول اليوم دون أن يلقى البحر ، فى أقصى نوبات مده ارتفاعا ، بمياهه فى

---

(١) عندما نتحدث عن مياه البحر الأحمر . فإننا نعنى على الدوام المستوى الذى وصلت إليه ، فى السويس ، فى الخامس من بليفوز من العام السابع (٢٤ يناير ١٧٩٩) عند أعلى نوبات المد . وقد بلغ الفرق بين أعلى وأدنى مستوى البحر فى ذلك اليوم خمسة أقدام وست بوصات .

(٢) تستخدم هذه الكلمة هنا ، كما تستخدم فى كثير من المؤلفات للاشارة إلى المخلفات النباتية ، وربما كذلك القواقع والأصداف التى يلقى بها البحر على شواطئه والتى تحدد على نحو ما تمرجاته أو خطوطه الكنتورية .

(٣) انظر دراسة المسيو لوبير lepère عن اتصال بحر الهند بالبحر الأبيض المتوسط عن طريق البحر الأحمر وقلزم السويس ، الدولة الحديثة ، المجلد الأول ، ص ٢١

حوض القلزم ، قد لا يعلو فوق مستوى مياه البحر بأكثر من ثلاث لنيات ، كما توضح لنا الأرقام التالية :

	لنية	بوصة	قدم
مستوى أعلى مياه للبحر فى الخامس من بليفوز من العام السابع	•	•	•
مستوى أعلى مد معروف للبحر فى الخامس من بليفوز من العام السابع	•	٦	٢
مستوى الموقع رقم ٢ وهو أعلى موقع أقمناه فوق التراكمات التى تحدثناعنها ...	٣	٦	٢

وفى الواقع فلقد تم هذا الجزء من عملية التفدين التى قمنا بها ، فى قاع خور ضيق ، وكانت مساطر قياس الارتفاع مثبتة على الدوام فى أكثر المناطق انخفاضاً ، وأخيراً فقد أمكن لخط المد الذى استعنا به فى تحديد خطوط أكثر نوبات المد ارتفاعا ، أن يزيد ذلك ببضع بوصات ، بالنظر إلى ما يحدثه اندفاع الأمواج من تأثير ، وإلى ما للرياح كذلك من أثر فى بعض الأحيان . وهكذا ، فحتى إذا لم نتشبث ببوصاتنا الثلاث ، فإننا على الأقل نستطيع أن نؤكد أن البحر الأحمر ، خلال نوبات المد غير العادية ، يصل على وجه التقريب إلى نفس مستوى سطح بعض أجزاء من الأرض التى تفصله عن حوض القلزم .

ومع ذلك ، فإذا كان هذا القدر الضئيل من الارتفاع ومن الاتساع كافياً كى يسد هذا الخور أو هذه الترعة التى تتبعناها فى هذا الجزء من عملية التفدين التى قمنا بها ، ولكى يحول بين البحر وبين الامتداد إلى ماوراء حدوده الحالية ، فلماذا نمنع أنفسنا إذن من أن نصدق أن سداً طبيعياً مشابهاً ، يقع عند الطرف

الشمالى من حوض القلزم يمكن أن تكون له نفس النتيجة عندما كان البحر فيما مضى يملأ كل حوضه ؟ وإذا كان هنالك بعض من عبروا عن شكوكهم فى ذلك، فإن كل المهندسين وكل أعضاء شعبة العلوم والفنون المصرية ، الذين شاهدوا حوض القلزم[1] ووادى السبع أبيار قد شاطرونى هذا الرأى . أقول إنه كان يوجد إلى شمال حوض القلزم سد طبيعى مماثل للسد الذى يفصله حالياً عن الخليج العربى ، ونجد البرهان على ذلك فى الموقع رقم ١٦٠ الذى يعلو بمقدار قدم واحد وتسع بوصات وأربع لنيات فوق مستوى أعلى مياه البحر الأحمر وفيما بين هذين الموقعين كان يوجد المستوى الذى نشير إليه ، وعند نقطة أكثر ارتفاعا من تلك التى سجلنا عندها الارتفاعات[2] ذلك أن مسطرة القياس قد سجلت بعده تسعة أقدام وأربع بوصات وسبع لنيات ، أما مسطرة الارتفاع التى وضعت قبله فقد سجلت خمسة أقدام وثمانى لنيات . ومن جهة أخرى فحتى إذا ما افترضنا — وهو مع ذلك أمر مستحيل — أن أداتنا كانت تسجل ارتفاعا

---

(١) أعضاء الشعبة الذين عبروا وادى السبع أبيار وحوض القلزم هم السادة : لوبير ، ديفلييه ، شابرول ، سان جينى ، فافيه ، جراتيان لوبير ، دى شابروى ؟، فيفر ، وأنا ؛ وقد مر آخرون فيما بين حوض القلزم والسويس ، لكنهم لم يعبروا هذه المنطقة ، بل لم يلمحوها ولو من بعيد .

(٢) لم ننشر فى وصف مصر إلا بعض معطيات هذا التفدين ، ولعله ، كان من المفيد أن نعرف بهذه المعطيات كلها ، مع تفاصيل ارتفاعات المواقع عند كل تغير فى الارتفاع . ولو فعلنا ، لكانت لدينا ، ليس فقط معطيات كل المواقع ، ولكن كذلك ، وعلى وجه الدقة ، ارتفاع النقاط الوسيطة بين المواقع المتعاقبة ، مع مقارنة الارتفاع الآنى للسطح بالارتفاع السابق عليه واللاحق له . ولعله كان من المثير للاهتمام كذلك أن ننشر بتفصيل أكبر ، يوميات التفدين بعد أن يراجعها كل المهندسين الذين ساهموا فى عملية التفدين هذه .

وقد شاء المسيو لوبير أن يتفضل فيسمح لى أن أستخلص من هذه العملية المعطيات التى أقدمها هنا ، وقد راجعتها على مسودة الخريطة المرسومة للقاهرة ، وكذلك على أصول المذكرات التى كان يدونها المهندسون خلال عملية التفدين .

رقم الموقع	المسافة بين المواقع بالمتر	الارتفاعات كما تبينها مسطرة التسديد	ل	ب	ق	الفرق بين مستوى السطح أو مستوى سطح البحر ل	ب	ق	ملاحظات
١٠٠	٨٧٠	بعده	٠	٦	٧	٧	١١	٠	
		قبله	١١	٣	١	فوق			
		الفرق +	١	٢	٥	مستوى البحر			
١٥١	١٢٠	بعده	١٠	٨	٠	١١	٩	٧	
		قبله	٤	٦	٩	تحت			
		الفرق —	٦	٩	٨	مستوى البحر			
١٥٢	٠٨٠	بعده	٢	٣	٧	٠	٩	٦	وجدنا فيما بين الموقعين ١٥٢،١٥٣ حوالى حوض القلزم التى بينت لنا من جديد مدى مشابهاً لمدى البحر الأحمر . ولها نفس المستوى الذى للمدى الآخر.
		قبله	٣	٢	٦	تحت			
		الفرق +	١١	٠	١	مستوى البحر			
١٥٣	٣٢٠	بعده	٤	١	٩	٦	٨	٠	يبعد هذا الموقع عن السويس بـ ١١٢ر٧٧ مترا .
		قبله	١٠	٠	٣	تحت			
		الفرق +	٦	٠	٦	مستوى البحر			
١٥٤	٧١٠	بعده	١	٤	٠	٨	٨	٥	
		قبله	٣	٤	٥	تحت			
		الفرق —	٢	٠	٥	مستوى البحر			
١٥٥	٤٤٠	بعده	٥	٠	٥	٥	٠	٧	
		قبله	٢	٤	٦	تحت			
		الفرق —	٩	٤	١	مستوى البحر			
١٥٦	٧٢٠	بعده	١	٨	٧	٤	٣	٦	
		قبله	٠	١١	٦	تحت			
		الفرق +	١	٩	٠	مستوى البحر			

. . . .

رقم الموقع	المسافة بين الموقع والسابق عليه	الارتفاعات كما تبينها مسطرة التسديد	ل	ب	ق	الفرق بين مستوى السطح ومستوى سطح البحر ل	ب	ق	ملاحظات
	بالمتر		ل	ب	ق	ل	ب	ق	
١٥٧	٤٠٠	بعده	٤	٥	٨	٤	١١	١	يوجد هذا الموقع أسفل أكمة تتكدس فوقها أنقاض تعود إلى عصور قديمة أشرنا إليها في الخريطة باسم سرابيوم
		قبله	٤	١	٤	تحت			
		الفرق +	٠	٤	٤	مستوى البحر			
١٥٨	٦٦٠	بعده	٨	١	٤	٠	٦	٣	
		قبله	٤	٨	٥	تحت			
		الفرق —	٨	٦	١	مستوى البحر			
١٥٩	٢٠٠	بعده	٨	٢	٦	٧	٦	٢	وجدنا أن الأرض فيما بين الموقعين ١٥٩ ، ١٦٠ تعلو بمقدار قدمين وعشر بوصات عن خط ذوبات المد العالية بالبحر الأحمر .
		قبله	٣	٣	٥	تحت			
		الفرق +	٥	١١	٠	مستوى البحر			
١٦٠	٦٠٠	بعده	٧	٤	٩	٤	٩	١	
		قبله	٨	٠	٥	فوق			
		الفرق +	١١	٣	٤	مستوى البحر			
١٦١	٥٤٠	بعده	٦	٣	٩	٤	١	٢	وهكذا نجد أن الأرض بين الموقعين ١٦٠ ، ١٦١ تعلو عن البحر بأقل من ٧ قدم و ١٠ بوصات .
		قبله	٢	٢	١٣	تحت			
		الفرق —	٨	١٠	٣	مستوى البحر			

ونستخلص من الجدول السابق أن هناك سدوداً طبيعية تعلو عن مستوى البحر الأحمر تقفل حوض القازم عند الشمال بالقرب من سرابيوم .

رأسياً يبلغ كل طولها ، أى أربعة أقدام[١] ، لكانت النقطة التى وضعت فيها قد بلغت قدمين وعشر بوصات فوق مستوى عرض البحر الأحمر . وأخيراً فقد كانت مساطر الارتفاع ، فيما بين الموقعين ١٦٠ ، ١٦١ ، اللذين يبعد كل منهما عن الآخر بـ ٤٥٠ متراً ، تسجل ٩ أقدام و ٣ بوصات و ٦ لنيات ، ثم ١٣ قدماً وبوصتين ، مما يعطى للنقطة الوسيطة التى توجد بها الأداة ارتفاعاً يبلغ على الأقل سبعة أقدام وعشر بوصات فوق سطح البحر ، وكنا عندئذ بجوار سرابيوم وأنقاضها أكثر من ذلك ارتفاعاً . وتتصل الربوة التى توجد فوقها سرابيوم بسلسلة من الروابى والتلال ، تقفل حوض القلزم عند الشمال .

وبالإضافة إلى ذلك فإنه مما يلفت النظر ذلك الاتجاه الذى اتخذته مياه الفيضان الكبير فى العام التاسع (١٨٠١) ، فلقد اندفعت المياه بغزارة إلى وادى السبع أبيار كما ارتفعت عند خرائب الموكل(*) إلى أربعة أقدام وست بوصات وثلاث لنيات ، فى الثلاثين من بروميير فوق النقطة الأدنى من مجرى الترعة[٢]

---

(١) كانت الحفر التى نثبت فيها طرف أداتنا ثابتة بحيث تجعل خط ارتفاع المنظار ٣ ق و ٦ بوصات فوق مستوى الأرض ، لكننا نفترض هنا أن الأرض صلبة لا يمكن لقمم الحديد المدببة والموجودة فى أطراف أقسام المنظار وهى قمم يبلغ طولها البوصتين وسبع لنيات أن تغوص فيها . وعلى هذا فلا بد أن تكون أداتنا فى الأرض الرملية أكثر انخفاضاً بثلاث أو أربع بوصات على الأقل ، ويبلغ ارتفاع الأداة وأرجلها معاً أربعة أقدام ، بدءاً من المنظار حتى أدنى الطرف الحديدى المدبب . وقد أخذنا الحد الأقصى للارتفاع حتى نفوت الفرصة على من يشاء أن يتهمنا بأننا نختار المعطيات التى تتفق مع رأينا .

(*) le Mouqfâr ، ووردت فى القاموس الجغرافى لوصف مصر باسم خرائب الموكل ، وهى نفسها المكفر ، وتقع على مسافة قريبة إلى الجنوب من طريق الاسماعيلية — القاهرة وكان يطلق عليها رمسيس عند حفر قناة السويس . (المترجم)

(٢) يبلغ ارتفاع أعلى جزء من صخرة الموكل بدءاً من أدنى نقطة من الترعة ثمانية أقدام وأربع بوصات . وحين رآها المسيو ديفلييه أثناء فيضان العام التاسع وجدها تبلغ متراً واحداً و ٢٤ سم أى ثلاثة أقدام وتسع بوصات وتسع لنيات فوق سطح الماء . ويعطى هذا النقص الذى يبلغ ثمانية أقدام و ٤ بوصات ، عمقاً للمياه يصل إلى أربعة أقدام وست بوصات وثلاث لنيات . ويقول المسيو لوبير فى صفحتى ٤٤ ، ٤٥ أن هذا العمق ، فى الواقع ، يبلغ نحو أربعة أقدام ، كما أن الترعة يمكن اجتيازها . وسنجد فى نهاية هذه الدراسة مستخلصاً من يوميات المسيو ديفلييه .

والتى يبلغ عمقها فى هذه المنطقة خمسة عشر قدما وعشر بوصات ولنيتين تحت مستوى سطح البحر الأحمر بـ ١١ قدما وثلاث بوصات و ١١ لنيـة ، وأدنى كذلك ، ولأسباب واضحة من الأراضى التى ترتفع عن سطح هذا البحر والتى تحف بحوض القلزم من جهة الشمال .

لم تكن المياه لترتفع فى الموكل لأكثر من ذلك ، بل ثمة اعتبارات كثيرة تحملنى على الاعتقاد بأنها لم تحتفظ بهـــذا الحد من الارتفاع الا لوقت بالغ الضآلة ؛ فمن الثابت أن قوافلنـا وداورياتنا وقواتنا ، وكذلك قوافل الأهالى ، كانت تعبر من هناك دون مشقة خلال مدة الفيضان بأسرها ، فلقد كانت تلك هى نقطة الاتصال الوحيدة بين بلبيس والصالحية ، إذ تخطى الطريق الذى يربط بينهما مباشرة مياه بالغة الارتفاع لحد لا يمكن معه اجتيازه ؛ ولسوف نلاحظ بعد ذلك أن المياه — بعد أن كانت تتقدم بشكل بالغ البطء فى فندميير من العام التاسع ، فى وادى السبع أبيار[1] — لم تعد تبدى على الإطلاق ، فى الثلاثين من برومير — أى تحرك ملموس بين رأس الوادى وأبو كيشيد(*) ، فى نفس الوقت الذى تنطلق فيـــه ، فيما وراء الموكل ، وبالقرب منها ، بشكل بالغ الاندفاع[2] وتوضح لنا الكلمات التى تفوه بها المسيو لوبير Le Père بهذا

---

(١) نقصد بهـذه التسمية كل الوادى الذى ينفتح بالقرب من العباسة ثم ينبسط من الشرق الى الغرب حتى ما وراء آبار السبع أبيار .

(*) أو أبو خشب هى تل المسخوطة حالياً ، وتقع على بعد ٦٠٠٠م الى غرب أبو صوير على حافة ترعة الاسماعيلية إلى الجنوب ، ويتطابق موقعها مع بلدتى هيروبوليس وبثيوم القديمتين . (المترجم)

(٢) يوميات المسيو ديفلييه ، ودراسة المسيو لوبير ، ص ص ٤٠ ، ٤٥ . وقد أخطأ المسيو لوبير فقط فى تحديده للتواريخ ، فلم يكن الأول من برومير من العام التاسع مطلقاً هو اليوم الذى رحل فيه السادة لوبير وشابرول وديفلييه من القاهرة . ولنمـا تم ذلك فى السابع والعشرين من فريمير . وفى الواقع ، فاننا نجد فى ص ١٦٤ المسيو لوبير يخبرنا بأنه وجد نفسه بالقرب من الشيخ هنادى فى الأول من فريمير ، وهذا صحيح ، لكن ذلك يحول دون أن يصبح فى الإمكان عودته الى القاهرة فى الحادى عشر من برومير كما يذكر هو =

الخصوص أن هذا الاندفاع قد بدا له أكبر بكثير من اندفاع مياه النيل فى فرع من فروعه الطبيعية . ويقدر المسيو ديفلييه هذه السرعة فى الاندفاع بأربعة أقدام فى الثانية مما يبرهن على أنها تصل إلى أراض أكثر انخفاضاً بكثير ، كى تنتشر فوقها . ومع ذلك فأين كانت تصب هذه المياه ؟ أكان ذلك فى حوض القلزم كما ظن ذلك البعض؟ كلا ، ولقد تأكد من ذلك السادة شابرول ولوبير وديفلييه عندما اجتازوا هذا الحوض متوجهين إلى السويس ؛ إذن فلا بد أن المياه كانت تنتهى إلى رأس المية كما أكد شيوخ العرب إلى المسيو ديفلييه حين عاد فى العام التاسع إلى وادى الطميلات[1] ، وفضلا عن ذلك ، فمن الضرورى أن تجعلنا نتائج التفدين ، وشكل الأرض نحدس ذلك ، إذ أن الألسنة المسماة كراش ، إلى الشمال من سرابيوم والشيخ هنادى تتلقى مياه النيل أثناء الفيضانات غير العادية . وقد أقر ذلك بشكل موضوعى ، الجنرال رينييه Reynier [2] ، وهو الذى تولى القيادة ، لفترة طويلة ، فى هذه المنطقة من أرض مصر ، وبذلك فقد كان فى متناوله أن يستعلم من السكان على الدوام ، ويبدو أنه لم يعلم منهم مطلقاً أن مياه النيل تنتهى إلى حوض القلزم : بل إننا فى وضع يسمح لنا بأن نؤكد أن ذلك لم يحدث فى أية فترة على الإطلاق حتى لو افترضناها ضاربة فى القدم ، فلو كان ذلك قد حدث ذات يوم لكنا قد عثرنا عن آثار لطمى النيل

** فى ص ٤٨ ؛ تلك ولا بد هى غلطة الناسخ ، وقد خولنى — هو — بأن أذكر أن من الضرورى أن نقرأ الشهر على أنه فريمير فى هذا الجزء من دراسته بدلا من بروميير ؛ وكذلك فإن لدى المسيو ديفلييه الرسالة الأصلية من المسيو لوبير ، وهى مؤرخة فى ٢٤ بروميير ، ويطلب إليه فيها هـذا المهندس الرئيس أن يستعد للرحيل معه ومع المسيو شابرول للتعرف على مسيرة المياه فى الوادى ؛ ومن المهم تصويب هـذا الخطأ ، وهو من النوع الذى يسهل الوقوع فيه .

(١) كان المسيو ديفلييه خلال هذه الفترة مكلفاً — ومعه المسيو فيار Viard — باكتشاف ترع النيل ابتـداء من القاهرة حتى وادى السبع أبيار . انظر (فى نهاية هذه الدراسة) المعلومات التى جمعوها (حول هذا الموضوع) .

(٢) مصر بعد معركة هليوبوليس ، تأليف الجنرال رينييه .

على النحو الذى نجده فى كل المناطق التى توغلت إليها مياه النهر ؛ ولقد قمنا بتنقيبات عديدة فى حوض القلزم دون أن نعثر على أقل شقفة من طمى ، فى حين وجدنا هذا الطمى ، وفى شكل طبقات أفقية ، فى وادى السبع أبيار .

ولسوف يكون خطأ بيناً أن يعارض أحد شهادتنا هذه بفقرة وردت فى دراسة المسيو لوبير ، قال فيها أن مياه النيل كانت تصل إلى الشيخ هنادى[1] ، إذا كان هذا المهندس الرئيس يعنى سفح الربوة التى أقيم فوقها هذا الضريح ، كما أنه لم يكن ليكلف نفسه عناء الإشارة إلى ذلك إلا لأن خريطته توضح ذلك الأمر بشكل كاف . أما المسيو ديفلييه Devilliers ، الذى كان يرافق المسيو لوبير ، فقد تناول هذا الأمر ، فى يومياته عن الرحلة ، بشكل بالغ التحديد ؛ وهذا هو نص كلماته : « تمتد المياه حتى سفح الربوة التى أقيم فوقها ضريح الشيخ هنادى ، وحول جزء من الهضبة المجاورة يمكن الوصول إليه عن طريق لسان من الأرض . وهذه الهضبة التى تسمى جبل كراش والتى تستمد اسمها من ألسنة تجاورها تسمى بهذا الاسم ، تشكل أثناء فياضانات النيل غير العادية بحيرة

---

(١) يقدر المسيو لوبير ، ص ١٦٤ ، معطى تفدين مكان يسمى كما قال هنادى الشيخ بـ ١٥١ قدماً و ١١ بوصة و ١٠ لنيات ، الأمر الذى يبدو وكأنه يضع هذا المكان تحت مستوى سطح البحر الأحمر بقدم واحد و ١١ بوصة و ١٠ لنيات . ومع ذلك فلا بد لنا أن نثق بأن ليس هذا مطلقاً هو المعطى الصحيح لضريح الشيخ هنادى لأن هذه المنطقة لم تكن مطلقاً واحدة من محاطنا لإذ تركه إلى الشمال خط تفديننا . وهكذا نرى أن المسيو لوبير قد توسع فى إطلاق اسم الشيخ هنادى إلى أراض مجاورة له . وتوضح لنا الخريطة فضلا عن ذلك أن الخط رقم ١٦٤ والذى يتفق معطاه مع الـ ١٥١ قدماً و ١١ بوصة و ١٠ لنيات يقع على بعد نحو ٣٠٠٠ر متر من الشيخ هنادى . وأخيراً ، فعندما يضيف المسيو لوبير بأن هذا الجزء من الصحراء كانت تغمره مياه فيضان النيل فى سنة ١٨٠٠ ، فلا بد أنه لم يكن يقصد بذلك حتى أنها كانت تصل إلى الخط رقم ١٦٤ ، إذ كان ينبغى ، ليتم ذلك ، أن تعلو مياه النيل بـ ١٣ قدماً و ١٠ بوصات و ٤ لنيات فى الموكل ، فى حين كان أقصى ارتفاع وصلت إليه هو ٤ أقدام و ٦ بوصات و ٣ لنيات . وقد وافقنى المسيو لوبير على هذا الإيضاح حين هرعت بإبلاغ النتيجة بحثى إليه .

تشير إليها الخرائط باسم بحيرة التمساح [١]. ويعلو جبل كراش بنحو ٤٠ إلى ٥٠ قدماً عن الأراضى الطينية التى تحف بالجزء الشمالى منه : إلى هذه المستنقعات كانت تصل المياه ، ومع ذلك فلم يخطر ببال أحد من المهندسين الذين شاهدوها أن هذه المياه يمكن لها أن تعلو لتبلغ قمة الهضبة التى تقفل شمال حوض القلزم وتتحكم فيه .

وقد سبق لنا القول بأن عمق مياه النيل ، فى الثلاثين من برومير من العام التاسع ، لم يبلغ سوى ٤ أقدام و ٦ بوصات و ٣ لنيات فى أدنى مناطق الترعة بالقرب من الموكل — وهى التى ظلت على الدوام يسيرة العبور — كما رأينا أنه قد يستوجب لعبور حوض القلزم أن تعلو المياه لأكثر من اثنين وعشرين قدماً فى نفس هذه المناطق ، أو بشكل أكثر تحديداً لأكثر من ٢٢ قدماً و ١١ بوصة، منها ١٢ قدماً و ١٠ بوصات ولنيتين لكى تصل إلى مستوى سطح البحر الأحمر، وفضلا عن ذلك فلقد كف النيل عن الزيادة منذ الثانى عشر من فندميير، وتملىء سرعة المياه فى الموكل أنها قد وجدت أراضى أكثر انخفاضاً كى تنتشر فوقها؛ وقد عرف السادة شابرول وديفلبيه ولوبير أن المياه لا تصل مطلقاً بالرغم من ذلك — إلى حوض القلزم . ومنذ ذلك الحين لم يتمكن أى مهندس ولا أى عضو آخر فى شعبة العلوم والفنون ، بسبب أحداث الحرب ، من العودة إلى هذه المنطقة من الصحراء ؛ اللهم إلا فى نهاية نيفوز ، عندما توجه المسيو ديفلبيه بعد ذلك بشهر إلى وادى السبع أبيار ، ووصل إلى ما وراء العباسة بقليل ، وسأل هناك العديد من مشايخ العربان وعدداً من الأهالى ، واتفق هؤلاء جميعاً على القول بأن المياه لم تتجاوز مطلقاً الشيخ هنادى ، وأنها تصل إلى رأس الميه أو البلاح بما يعنى أنها تصب فى بحيرة المنزلة .

وقد عرفت فى دراستى الموجزة عن الحدود القديمة للبحر الأحمر بالشكل

---

(١) يقول المسيو لوبير فى ص ٥٨ أن هذه البحيرة تسمى ذاب التمساح .

الداخلى لحوض القلزم ؛ وقـــد أضيف بأن الملح البحرى (موريات الصودا أو هيدروكاوريد الصودا) توجد بهذا الملح بوفرة شديدة عما توجد عليه مع أى ملح آخر ؛ ويجعل العرب من هذا الملح موضوعا لتجارة هامة بعض الشيء مع مصر وسوريا . وبشـكل أساسى ، تتكون الكتل التى تشكل أرضاً رنانة وكثيرة الكهوف ، من هذا الملح ، وإن كان يغطيه فى بعض الأماكن قليل من الرمال .

وتوجد هذه الطبقة الملحية ، هناك وهناك ، مفتتة . مما يجعل المسيو لوبير يشبهها بأكداس من قطع مكسورة من الثلوج يصنعها فيض نهير فوق شط قاحل ورملى[1] (فى مناطق باردة) ولـكى أدعم هذا التشبيه أقول أيضاً أن هذه الهضبة الملحية كانت تشكل فى مجملها ما نراه فى معاملنا عندما نركز محلول ملحى ، حبيس فى كبسولة ، لدرجة تتكون معها على سطحه قشرة ، ثم تمور هذه القشرة وتتكسر بفعل بخر يتولد عن السائل الموجود فى أسفلها . ولم نر شيئاً مشابهاً لذلك فى مناطق أخرى من القلزم . ولا يمكن لفتات هيدروكاوريد الصودا التى يجدها المرء فى أماكن أخرى ، أن تقارن مطلقاً بكتلهـــا الضخمة ، الموجودة هنا .

أما عن الجبس الذى شاهدناه فى حوض القلزم ، فإنه يختلط فى معظم

---

(١) يذكر المسيو لوبير فى ص ١٦٣ ، أن المرء يظن هـذه الكتل الملحية من نوع جبسى . ونرى أنه هنا لا يعبر عن رأى شخصى له ، ذلك أن الرأى الذى يكتفى بايراده إنما يصدر عن شخص لم يزر المناطق التى يتحدث عنها أو أنه لم يلاحظها بالعناية الواجبة ، نظراً لطبيعة الأرض . وقد كان المسيو لوبير قد ألحقنى بعملية التفدين لأنى كنت بالغ الاهتمام بعملية التفدين هذه أكثر من أى واحد من زملائى ويذكر المسيو ديفلييه ، الذى كان متعمقاً هو الآخر فى هذا الفرع من التاريخ الطبيعى — يذكر فى يومياته ما يتفق مع ما قلته من أن موريات الصودا توجد بكميات كبيرة فى كل الأماكن التى يحدث الملح فيها شروخا أو صدوعاً وأنه — هو — لم يستطع — وسط هـذه الشروخ — أن يتوصل عن طريق مقياس (مجس) طوله متر إلى عمق هذه الشروخ (بمعنى أنها أكثر من ذلك عمقاً) ، أما التوضيحات التى يبطها فى يوميات التفدين فانها لم تصلنى مطلقاً .

الأحيان بأملاح أخرى . وقد تكون أخوار مياه الأمطار ، على الرغم من ندرتها فى هذه المناطق ، كافية - مع ذلك - كى تذيب مع الزمن أكثر الأجزاء قابلية للذوبان من غيرها ، وأن تحفر خطوطاً فى الأرض فى بعض الأماكن بحيث تكون كتلا منعزلة ، تبدو — من مسافة بعينها - فى هيئة جذوع شجر مقطوعة ، تعلو فوق سطح الأرض بقدمين أو ثلاثة أقدام ؛ وفى بعض الأحيان الأحيان تبدو سلفات الجير متكاسة على شكل إبر لامعة وبذلك تشكل طبقات شديدة الكثافة .

ويرى البعض فى وجود سلفات الجير هنا دليلا على أن البحر لم يغمر من قبل مطلقاً حوض القلزم . ومع ذلك ، فلو أمكن أن ينحسر البحر تجاه القصير ، لكشف عن أرض جبسية ، كما أن هناك الكثير من التلال ، تقع على شاطىء البحر قريباً من هذه المدينة ، وتتكون من هذه المادة (الجبس) ، كذلك فإن كل المياه الجوفية التى تصب فى البحر ، تحتوى على جزء كبير من محلول هذه المادة .

ومن جانب آخر ، فإن الأصداف التى لمحها فى قاع الحوض ليست أصدافاً نهرية ، كما أنها ليست متحجرة شأنها شأن القواقع التى يلقاها المرء متراكمة فى شكل كتل فى وادى التيه[1] ، ذلك أن أصداف أو قواقع حوض القلزم ليست

---

(١) كثيراً ما عبر زملاؤنا وادى التيه ، وقد حدد المسيو ديفلييه الخطوط الكنتورية لهذا الوادى ، وقد دون عمله هذا على الخريطة الكبرى لمصر . وعندما عبرته فى شهر نيفوز من العام السابع (١٧٩٩) لم يكن قد سبق لفرنسى قبلى أن اجتازه ، ولئن كنت لم أتتبع الوادى فى حد ذاته ، وإنما شعباً من شعابه ، ذلك أن دليلى هنادى لم يحسن قيادتى . وقد وصف السيدان جيرار ولوبير وادى التيه ، لكننى أذكر هنا ما لاحظته فى الوادى المجاور له .

ينفصل هذا الوادى عن وادى التيه على بعد عدة فراسخ من البساتين ، وهى قرية تقع عند مدخل الوادى ، وعلى مسيرة فرسخ واحد إلى الجنوب من القاهرة . وإننى لأفترض هنا أن دليلنا العربى ، حين قادنا فى الشعب الأيسر - كان يهدف إلى تجنب آبار الجندلى ، وإلى =

متماسكة فيما بينها كما أنها ليست ملتصقة بالأرض ، وهى تشبه تلك التى يقذف بها

= أن يخفى عنا كل مصادر المياه التى يمكن لهذه المنطقة أن تهيئها لقبيلته إذا ماحدثت قطيعة بينها وبين الفرنسيين .

وأول الجبال التى يلقاها المرء هى جبال جيرية ، وتشكل هذه فى بعض الأحيان كتلا تتكون كلية من أصداف متراكمة فوق بعضها البعض . ويجد المرء فى قاع هذا الوادى كثيراً من قواقع متحجرة قد انفصلت عن هذه الصخرة .

أما الأرض التى يسير الناس فوقها فثابتة للحد الكافى ، بل إن المرء ليلمح فى أماكن عديدة صخرة جيرية عارية ، ولن كان يغطيها قليل من الرمال الصوانية ؛ وبعد ذلك يأخذ الوادى فى الضيق . أما الجبال الواقعة إلى شمال الوادى فهى من الحجر الجيرى ، أصفر اللون وبالغ النعومة ، ويتشكل من طبقات أفقية ، كما نجد بها كذلك طبقات أفقية من سلفات الجير المتكلس . وبعد ذلك بمسافة كبيرة ، يلمح المرء إلى اليمين سلسلة من تلال عالية بعض الشىء ، وتتميز عن السلسلة الجيرية بأشكالها ، وبألوانها السوداء ، وتتكون هذه التلال من يشب يشار إليه باسم الزلط المصرى . وهذه الزلطات شديدة التقارب ، وتتصل ببعضها البعض بأسمنت صوانى أبيض اللون عند مكسره ومشرب بحمرة طفيفة ، مما يدل على فعل ضئيل للنار ، كما يفسر اللون الأسود الموجود خارجه . وهذه الصخور بالغة الجمال بسبب شدة صلابتها وتنوع ألوانها ، وبسبب الرسوم الغريبة التى توجد داخل الزلط المصرى . ولم يتعرف أحد قبلى على وجود هذه الصخرة التى لا يمكن اعتبارها — كما أظن — لاركتالة (أى صخرة من الحصى المتماسك كأنه مرصوف بالبلاط) ولا ركاماً مسناً ، ويقابل المرء فى الوادى الكثير من الزلط المصرى وقد انفصل عن صخوره ، وأستنتج من ذلك أن الزلطات التى نجدها فى أماكن أخرى قد تنتمى إلى صخرة مماثلة فى سبيلها لأن تتفتت .

قضينا الليل فى هذا المكان ، وسقط المطر فوقنا طيلة الليل ، كما قاسينا من البرد .

وفى اليوم التالى عاودنا السير فى ساعة مبكرة ، وتتابعت لبعض الوقت ، عن يميننا تلال الزلط المصرى ، ورأينا فى المناطق الأكثر انخفاضاً فى الوادى عدداً كبيراً من الشجيرات ، ومع ذلك فلا ينبغى أن يظن أحد أننا بصدد غابات كغابات أوربا حيث نجد الظلال ، وحيث تكفى بضع خطوات (فى داخلها) كى يختفى المرء عن الأنظار ، فأكثر المناطق شجراً فى وديان مصر الصحراوية لا توفر مطلقاً أية حماية من الشمس ، ومن خلال سيقان الأشجار الهشة والمتباعدة ، يستطيع المرء الرؤية لمدى بعيد ، كما لو كان فى سهل عار من أية خضرة .

حاذينا الجبال التى تحف بالوادى من جهة اليسار ، وهى شديدة الانخفاض ، وكانت تتمثل لنا هى الأخرى فى طبقات أفقية من كربونات الجير ، وبلورات من الجبس .

وعند الظهيرة ، صار الجنود المالطيون الذين يشكلون قافلتنا ، متعبين من السير منهكين من العطش لحد اضطررنا معهم لأن نجعلهم يركبون — واحداً بعد الآخر — فوق الجمال

البحر على شواطئه ، ويمكنني أن أضيف إلى شهادتي ماقاله نيبور Niebuhr :

= التي كانت تحمل أمتعتنا . وكانت هذه الحيوانات تحمل في اليوم الأول كمية من المياه ، كنا قدرنا أنها ضرورية لرحلتنا ، مع افتراض أننا سنحصل على مياه جديدة من بئر الجندلي ، الذي لم نمر به على الإطلاق ، ولم تكن المياه ميسورة لنا مطلقاً ، ثم جاء حادث طارىء ليفقدنا بعض ما كان معنا من مياه .

لزمت المركز الأخير في الصف مع قائد الفصيلة ، لكي أرغم الجنود على السير ، وفي كل لحظة كان يرتمي البعض منهم على الأرض ، رافضين الذهاب لأبعد من ذلك ، وكنا نوقظهم ، ونسندهم ، بل كنا نضطر أحياناً لضرب بعضهم لكي ننقذهم من موت محقق ، وإلا لهلك الجميع من العطش ، كما حدث بعد ذلك لفصيلة اضطرت لترك أربعة عشر رجلا ، كانوا مرهقين لحد لم يستطيعوا معه المضي في السير لأبعد من ذلك وعندما عادت بعد ذلك بنحو ثلاث أو أربع ساعات للبحث عنهم ، ومعها الماء الذي عثرت عليه بالقرب من هناك ، كان أوان ذلك قد فات ، فقد مات الرجال الأربعة عشر . وقد كنت أسعد من ذلك حظاً إذ أنني لم أفقد سوى جندي واحد بسبب العطش . أما الجنود الآخرون ، الذين لم يستطيعوا التعرف علينا بعد ذلك ، وكانوا (أثناء رحلتنا) يشعرون بالضجر الشديد من الوسائل التي استخدمناها لقسرهم على مواصلة طريقهم ، فقد ظلوا ينظرون إلينا باعتبارنا منقذين لهم . ولحسن الحظ أيضاً فاننا لم نقابل أي جانب عربي معاد ، وإلا ما كنا بقادرين على إبداء مقاومة كبيرة ضدهم ، ذلك أن الجميع كانوا قد علقوا بنادقهم فوق جمالهم ، فيما عدا الضابط الذي أشرت إليه ، وجنديين أو ثلاثة جنود ، وأنا .

لم أعان كثيراً من العطش ، لكنني عانيت كثيراً مخافة أن أضطر لأن أترك في الصحراء بعضاً من رجال حرسي ، وكانت الرعاية التي أبذلها في سبيلهم تحول بيني وبين مواصلة ملاحظاتي عن الوادي ، كما قدر علينا الخوف أن نكون أبعد عن السويس عما كنا نقدر ، فلقد اضطررنا أن نسير جزءاً من الليل ؛ وكنا نكتفي بين وقت وآخر ببعض وقفات نلتقط خلالها الأنفاس .

وفي النهاية ، وجدنا أنفسنا عند انبلاج النهار ، عند مدخل الوادي ، فتتبعنا المجرى الجاف للخور إلى مسافة قريبة من قصر عجروث أو العجرود . ويضم هذا القصر بئراً ذات مياه ملحية الطعم ، الحاجة وحدها هي التي تجعلها قابلة للشرب . وتنزح مياه البئر بواسطة عجلات ذات قواديس (ساقية) ، وخارج أسوار القصر توجد خزانات مياه واسعة ، ومبنية . تملأ مقدماً عندما يحين وقت مرور المحمل الكبير (قافلة الحج) التي تسافر كل عام إلى مكة . ويظل البئر الذي يقع غير بعيد من هناك جافاً لأطول مدة من العام . وتصب مياهه خلال موسم الأمطار (حوالى فريير ونيفوز) في البحر ، بالقرب من السويس بعد أن تملأ حوضاً يسمى مية الجسر أو المستنقع الأفريقي ، ويستخدم هذا المستنقع في سد احتياجات السكان .

وقد وصلنا إلى السويس ، في نهاية الأمر ، أثناء النهار .

فقد رأى هذا الرحالة بالقرب من السويس كتلة من القواقع الحية فوق صخرة لا تغطيها من مياه سوى مياه المد ؛ كما شاهد — هو — قواقع مماثلة ، لكنها فارغة ، فى مكان آخر لا يصل إليـــه البحر . ومع ذلك فرأى هذا الرحالة لا يتطابق تماماً مع رأيى ، لقد أدرك على نحو طيب أن البحر الأحمر قد انسحب نحو الجنوب ، لكنه نسب الأمر إلى انخفاض مياهه ، فى حين أن أجزاء رملية ضئيلة هى التى انتزعت من البحر مناطق أدنى من منسوب مستواه ؛ ومع ذلك فإن الخطأ الذى وقع فيه نيبور من السهل ارتكابه ، حيث لم يكن بمقدور هـذا الرحالة القيام بأى تفدين . وإن كانت الوقائع التى يعتمد عليها تأتى لتدعم ملاحظاتى الخاصة .

تحدثت، فى مكان آخر عن هـذا الخط المكون من أصداف وبقايا نباتات بحرية يلاحظها المرء بنفس ارتفاع المياه بالنسبة للأراضى التى تحيط بحوض القلزم . وإليكم الآن كيف عبر المسيو لوبير عن ذلك (فى دراسته) فى صفحتى ١٦٣ ، ١٦٤ : « نلاحظ على سطح الصحراء آثارا لشواطىء بحيرة ، وهذه محسوسة بنفس القدر الذى نلمس فيه خطوط المدى العادية عند شواطىء البحر ، والتى نتعرف عليها بأكوام الأصداف والقواقع ، وبالحصى والحصباء والزلط الملفوف . وفى واقع الأمر فلا بد أن حوض البحيرات المرة ، يشكل ذراعاً كان للبحر فى هذا الجزء من القلزم ، كما ينبغى أن نلاحظ أن عملية التفدين تدل بالقدر الكافى على طبيعة مستواه ، حيث تقدم لنا معطيات المحيطين اللذين تقع بينهما خطوط المدى هذه ١٥٠ قدماً ، وهو نفس المعطى الذى يقدمه مستوى سطح البحر الأحمر » .

وفى الحقيقة فقد ادعى البعض أن خطوط المدى هذه قد أمكنها أن تنشأ بفعل المياه الحلوة التى يمكن أن يكون النيل قد صبها فى حوض القلزم . لكن ذلك لا بد له أن يعنى أننا نتناسى أن هذه الخطوط لها نفس مستوى نوبات المد العالية التى للبحر ؛ أو أنه قد يعنى — إن كنا نذكر — أن نقر بأن مياه النيل يمكنها

أن تهبط فى وادى السبع أبيار، وأن ترتفع منه إلى ما فوق مستوى البحر الأحمر؛ وهذه نتيجة مستحيلة بالنظر إلى شكل الأرض، وانحدارها، وكذلك انحدار فروع النيل؛ أما إذا قلنا أن مياه النيل قد أمكنها أن ترتفع فى حوض القلزم، إلى نفس مستوى سطح البحر دون أن يتبع ذلك بالضرورة أن تصل إلى نفس هذا المستوى فى كل امتداد ترعة الملوك، فلا بد أننا نرتكب بذلك خطأ بالغ الشذوذ، وبدرجة لا أجد لدى معها القدرة على وصفه.

ولنا أن نتساءل الآن ما إن كانت هذه الكتل الملحية، وهذه الأصداف والقواقع البحرية وخطوط المدى هذه التى تصل إليها مياه البحر فى أعلى نوبات مدها، والتى لمسنا وجودها للتو فى حوض البرزخ .. ما إن كان ذلك كله بقادر على أن يدل على أن البحر الأحمر كان يشغل فى الزمن القديم كل هذه الأرض، مع منح كلمة الزمن القديم هذه قيمة غامضة، على نحو يدفع إلى الاعتقاد بأنها ترتبط هنا بواحدة من هذه الثورات الداخلية لكوكب الأرض، فى أزمنة سابقة على العصور التاريخية أو على نحو نفهم منه أنها تدل على فترة زمنية قريبة منا بالشكل الذى افترضه أعضاء شعبة العلوم والفنون فى مصر، الذين زاروا هذه المناطق[١]، فهؤلاء جميعاً يظنون – كما ظننت أنا، أن المكان الذى أشرنا إليه على خريطتنا باسم سرابيوم كان يقع على شواطىء الخليج العربى[٢] عندما قام هيرودت بزيارته لمصر.

(١) سبق أن ذكرنا أسماءهم فى هامش سابق.

(٢) نرى من الهامش الذى ينهى دراسة المسيو لوبير، وصف مصر، المجلد الأول، ص ١٥٩، أن مجموعة الوقائع التى جمعها، وناقشها بمهارة كبيرة، قد ألزمته وهو ينهى مؤلفه، أن يتبنى بشكل كامل، نفس الرأى الذى سبق أن عبرت عنه فى البداية، لمجمع القاهرة، فى السادس عشر من برومير من العام التاسع، حول الحدود القديمة للبحر الأحمر، وأن ينظر الآن للبحر الأحمر على أنه كان يشغل بصفة مؤكدة، فى زمن هيرودت، حوض القلزم؛ لذلك سوف يكون خطأ، عند دعم الرأى المعارض، أن استند إلى ما سبق أن ذكره فى صفحتى ٥٩، ٦٠.

وقد يبعث على الدهشة للوهلة الأولى أن البحر الأحمر قد شغل حوض القلزم دون أن يشق لنفسه ـ على المدى الطويل ـ طريقاً إلى البحر الأبيض المتوسط ، وإلى وادى السبع أبيار . وفى الواقع ، فقد كانت الأراضى التى تفصل البحرين لا تعلو عن مستوى سطح الخليج العربى إلا بقدر طفيف . ومع ذلك فمثل هذا الاعتراض يختفى إذا ما تذكرنا أن الأرض التى تحول بين البحر الأحمر اليوم وبين أن يصب فى حوض البرزخ(١) أقل من هذا ارتفاعاً .

ويلتبج عن كل ماقلناه أنه لم يكن هناك ماهو أيسر من ربط البحرين ، لكن الصعوبة الكامنة هنا ، كانت تتمثل فى الحيلولة دون أن تغرق مياه البحر الأحمر أراضى مطر السفلى . لقد كانت الترعة التى شقها الفراعنة ترفد عن النيل إلى الجنوب قليلا من بوباسطة ؛ وقد بات من السهل حين تقدمت الأعمال فيها نحو الشرق فى وادى السبع أبيار ، إدراك أن البحر الأحمر ، بمده العالى ، كان أعلى مستوى من منسوب فتحة مياه النهر ، بل إن فيضاناً مماثلا لفيضان العام التاسع قد جاء ليضع يدنا بسرعة على هذه الحقيقة ، ولكى يجعلنا نحدس كل أخطار المشروع دون أن يكون من الضرورى أن نتحسس فرق المنسوبين عن طريق عمليات هندسية . ولقد فات المصريون كما نرى ، وهم الذين دفعوا إلى الأمام الكثير من العلوم والفنون ، أن يقوموا ببعض التطبيقات الهامة ، ذلك أن مااعتبروه فى ظروفهم تلك أمراً بالغاً العسر والمشقة ، سيقوم بأمر تنفيذه مهندسونا دون صعوبة تذكر .

(١) ألم يحدث ان عادت الى الوجود ترعة ماريوتيس بسبب قطع بلغ اتساعه بضعة أمتار ، حدث أثناء حصار الاسكندرية عام ١٨٠١ ؟ فلقد غزت مياه البحر عندئذ أرضاً بلغ محيطها أكثر من ثلاثين فرسخاً .

الفصل الثانى

شهادات تاريخية

يقول هيرودت إن على المرء لكى يتوجه من البحر الأبيض المتوسط إلى الخليج العربى أن يسلك الطريق البرى مروراً برأس كاسيوس ، فذلك أقصر من تتبع ترعة الملوك ، وتتطابق هذه الفقرة من حديثه تمام المطابقة مع افتراضنا .

لقد كان هيرودت يريد (بقوله هذا) دون شك ، أن يقارن بين الطريقين اللذين كانت تطرقهما التجارة ، كما أنه لم يكن يقصد مطلقاً بما قال عن المسافة ، ذلك الخط المستقيم الواصل بين الطرفين ، إذ أنه يقدر أحد الطريقين بـ ١٠٠٠ غلوة[١] ، ويقدر الثانى بيوم إبحار واحد ، ويلفت النظر بأن الطريق الثانى يزيد طوله بقدر ما تزيد تعرجاته .

ولابد أن الطريق البرى الذى يتحدث عنه هيرودت ويقدر طوله بألف غلوة ، كان يطرقه السوريون على وجه الخصوص ، ويتفق هذا الطول مع الطول الذى أعطيناه من قبل للحدود القديمة للبحر الأحمر ، ويمكن التأكد من ذلك على خريطتنا ، على أن نأخذ فى الاعتبار أن نجعل من رأس كاسيوس نقطة بدء لنا على البحر الأبيض المتوسط ؛ ويشكل هذا الجبل حسبما يقول سترابون بشكل قاطع رأساً فى البحر ، لذلك ينبغى أن نضعه عند رأس الكسرون ، وليس فى قاع خليج بيلوز .

---

(١) الغلوة التى استخدمها هيرودت حين كتب عن مصر ، هى الغلوة المصرية التى تنقسم الى ١١١١ $\frac{1}{9}$ درجة ، وهى التى تحدث عنها أرسطو فى مؤلفه معاهدة السماء ؛ لهذا فان طول هذه الغلوة يبلغ بشكل محدد مائة متر . وقد قسمت كما رأينا بنفس الطريقة المتبعة فى نظام مقياسنا المترى أى بالتقسيم العشرى لربع درجة الزوال . وهذا الاتفاق بين العمليات الفلكية القديمة والحديثة أمر لافت للنظر .

وإذا تتبعنا آثار الترعة القديمة منذ مبدئها عند بوباسطة حتى سرابيوم ، فإننا نجد طولها يبلغ ٩١٫٩٩٠ متراً[١] ، وهو ما يتفق بدقة مع الأطوال التى قدمها بين Pline ، ومع ذلك فمن الممكن أن تكون الترعة فى عهد الفراعنة قد بلغت طولا أكبر من ذلك بكثير . وفى الواقع ، فإننا إذا تتبعنا مجرى مياه النيل أثناء فيضان العام التاسع حتى بحيرة التمساح ، إلى الشمال من سرابيوم ، وإذا اتجهنا بعد ذلك إلى الجنوب نحو حوض القلزم ، وهى نفس الدائرة التى أشار إليها هيرودت فى كتابه الثانى ، الفقرة ١٥٨ ، فسنجد أنفسنا بصدد مسافة يبلغ طولها ١٠٢٫٠٠٠ متر أو ١٫٠٢٠ غلوة ، ولا بد أن الملاحة فى معظم الأوقات كانت تتم فى هذه الترعة عن طريق جر السفن بالحبال ، كما يحدث فى مصر حتى اليوم حيث لا تقطع السفن ، وهى تجر على هذا النحو بواسطة البحارة ، أكثر من أربعة أو خمسة فراسخ فى اليوم ، وهكذا لم يخطىء هيرودت مطلقاً حين قدر طول هذه الترعة بأربعة أيام من الملاحة ؛ ومن جهة أخرى ، فقد كان الطريق البرى ١٫٠٠٠ غلوة ، أى ٢٢ فرسخاً ، ومن المؤكد ان كان بمقدور القوافل أن تقطعه فى مدة يومين ونصف اليوم أو ثلاثة أيام على الأكثر[٢] ، وهكذا أيضاً ، فسواء كان هيرودت يضع فى اعتباره طول هذين الطريقين ، أو الزمن اللازم لقطعهما ، فإنه سيظل محقا فى قوله بأن طريق رأس كاسيوس كان هو الطريق الأقصر ، وأخيراً ، فلعله كان يريد أن يقارن الطريق البرى عن طريق رأس كاسيوس برحلة أكثر طولا بكثير ، كان لابد من القيام بها للانتقال بطريق الماء من البحر الأبيض إلى البحر الأحمر وذلك بصعود النيل حتى جنوب بوباسطة ثم تتبع ترعة الملوك .

وإذا كان هيرودت ، فى كتابه الرابع ، يقدر عرض القلزم كأمر مؤكد

---

(١) انظر دراسة المسيو لوبير ، وصف مصر ، الدولة الحديثة ، المجلد الأول ، ص ٧٩ .

(٢) لا تستغرق المسافة بين القاهرة والسويس بالنسبة للقوافل سوى مسيرة يومين ونصف اليوم ؛ ويبلغ طول الطريق نحو ١٢٥٠ غلوة .

بألف غلوة ، فلا بد لنا أن نصدق أنه ، تبعاً لما قاله عنه سابقاً (فى الكتاب الثانى) ، لم يكن يعرف المسافة الأقصر بين البحرين حين جعل هذا الخط ماراً برأس كاسيوس ، وانه لأمر طبيعى فى الواقع أن يكون الأهالى الذين لجأ إلى سؤالهم قد دلوه على واحد من الطرق ، مطروق أكثر من غيره ، يصل ما بين البحرين الأبيض والأحمر ، ذلك أن الطريق الواصل من بيلوز إلى الخليج العربى ، والذى يشير إليه بلين ، قد لا يكون موجوداً فى زمن هيرودت أو قد لا يكون مطروقا إلا فيما ندر . ويميز بلين هذا الطريق عن الطريق الآخر المار برأس كاسيوس ، وإليكم نص ما ذكره بهذا الخصوص ، وسأنقل ما قال بشىء من الإفاضة لأنه هام لأكثر من اعتبار :

بعد خليج أولانيتيك AElanitique (أى خليج إيلات أو العقبة) نجد خليجاً آخر يطلق عليه العرب اسم إيوانت EAant (لعله خليج السويس) وهناك توجد مدينة الأبطال ، كما كانت توجد أيضاً هناك ، فيما بين عرب نايل وعرب المراشدة(*) مدينة قمبيز (كبريت حالياً) التى كان ينقل إليها مرضى الجيش ؛ تأتى بعد ذلك أمة العمالقة Tyres ثم ميناء دانيون Danéon التى أريد أن تبدأ منها حتى الدلتا ترعة ملاحية يبلغ طولها ٦٢ ألف قدم ، هى المسافة بين النيل والبحر الأحمر ، وكان أول من فكر فى هذا المشروع سيزوستريس ، ملك مصر ، ثم داريوس (دارا) ملك الفرس وبعد ذلك بطليموس الثانى ، الذى أمر بحفر ترعة تصل إلى البحيرات المرة ويبلغ عرضها ١٠٠ قدم ، وعمقها ٣٠ قدما ، فى حين يبلغ طولها ٣٧٫٥٠٠ قدم ، لكن بطليموس لم يتم مشروعه خشية غرق المنطقة إذ وجد أن مستوى البحر الأحمر يعلو بمقدار ثلاثة أذرع عن مستوى سطح أرض مصر ، وان كان ثمة تفسيرات مخالفة عند آخرين ، حيث يرى هؤلاء أن بطليوس قد خشى أن يتلف البحر مياه النهر إذا

(*) كانت فى مصر بقايا قبائل من جزام منها فخذ يدعى نايل Les Nèles : ، أما المراشدة Les Marchades فهم عرب من بنى قضاعة وهذا الاسم تحريف للاسم الصحيح وهو الرواشدة . [المترجم]

ما صب الأول مياهه فى النيل ، وهى المياه الوحيدة القابلة للشرب . ومع ذلك فقد كان هناك على الأقل ، ابتداء من بحر مصر ، ثلاثة طرق يطرقها الناس : يبدأ أحدها من بيلوز ويمضى عبر الرمال ، وكانت تحدده أعواد البوص المغروسة فى الأرض ، وبدون ذلك تضيع معالم الطريق بسبب الرمال ، أما الثانى فيبدأ على بعد ميلين إلى ما وراء رأس كاسيوس ، ثم يعبر أرض العرب الأوسيين (عرب الأوس) Les Arabes Auteens ، وبعد مسافة ٦٠ ألف خطوة يلتقى هذا الطريق بطريق بيلوز ؛ ويبدأ الثالث من جرها التى يطلق عليها البعض اسم أدسبى Adispe وبعد أرض نفس العرب ، ويبلغ طوله أقل من ٦٠ ألف خطوة ، لكن الجبال وقلة الماء قد جعلت منه طريقاً شاقاً . وتؤدى هذه الطرق المختلفة إلى مدينة أرسينويه (*) التى بناها بطليموس فيلادلف على خليج Charandre والتى أطلق عليها اسم أخته ، وهذا الحاكم هو أول من أخضع Troglodiytiques أى سكان الكهوف ، وقد أطلق اسمه على النهير الذى يمر أمام أرسينويه » .

إذن فالطريق الثانى الذى يورده بلين هنا ، يمر حسب قوله برأس كاسيوس ولابد أن يكون هـــذا الطريق تبعا لذلك هو نفس الطريق الذى حدثنا عنه هيرودت ، ومع ذلك فإن بلين يقدر طوله (من بدايته) حتى النقطة التى يلتقى عندها بطريق بيلوز بـ ٦٠ ألف خطوة ، ثم يظل أمامنا بعد ذلك ، للوصول إلى هناك من ١٢ إلى ١٥ ميلا مع جعل نقطة الالتقاء هذه عند أقرب موقع ممكن من الخليج ، الأمر الذى يمنح هذا الطريق ٥ ـ ٦ آلاف خطوة ، أكثر من الطول الذى يعطيه له هيرودت ، حين قدره بـ ١٠٠٠ غلوة ، ولعل ذلك قد نتج عن أن سكان هذه المناطق يضعون تحت اسم كاسيوس ، فى المنطقة المجاورة لمكان يطلق عليه اسم رأس الكسرون ، سلسلة من التلال أو الكثبان

( ) يتفق موقعها مع المنطقة المواجهة للمحطة البحرية لقناة السويس حاليا عند الكيلو ١٥٠ .

الرملية تمتد لمسافة بعينها ، أى أنهم لا يطلقون هذا الاسم ، على نقطة بعينها ، وثمة اعتبارات كثيرة ترجح هذا الرأى . أما الطريق الثالث فكان طوله يبلغ كما يذكر بلين أقل من ستين ميلا ويبدأ من جرها ، وقد بدت خرائب هذه المدينة على خريطتنا فى مكان يسمى عنب دياب Anbdiab على بعد ثلاثة فراسخ إلى الشرق من بيلوز : وبمعنى آخر ، فإننا نجد بدءاً من هذه النقطة إلى سرابيوم وفى خط مستقيم ، ٥٢ ميلا ، ينبغى أن نضيف إليها التعرجات الطبيعية بطريق يعبر كثبانا عالية ، وهو الأمر الذى أشار إليه بلين ، وهذه المسافة بالأميال تنزع كل شك حول تقدير طول الغلوة التى استخدمها هيرودت ، أى تلك الغلوة التى استخدمها فى تقدير المسافة من البحر الأحمر حتى الطرف الشمالى لحوض القلزم .

ويقدر بلين الطول الذى كانت عليه تلك الترعة التى أقامها الفراعنة لتحقيق اتصال مائى بين الدلتا والبحر الأحمر بـ ٦٢ ألف خطوة . وليس من الطبيعى فى عمل بهذا الشكل ألا يحسب حساب لتعرجات الأرض ، وليس ثمة كذلك أى دافع للاستهانة بأهمية هذه التعرجات ، ولا أى سبب للوقوع فى خطأ من شأنه — فى حالة مقاييس تؤخذ على الطبيعة — أن يعطى تقديراً أقل من إجمالى التقدير لمسافة تقاس فى خط مستقيم ، ومع ذلك فهذا ما لعله قد حدث لو قدر أن كانت للبحر فى ذلك الوقت نفس الحدود التى له اليوم ، ذلك أننا نجد ، وفى خط مستقيم ، مسافة تزيد عن المسافة التى يعطيها بلين بمقدار الثلث ، فى حين أننا نجد نفس المسافة ، مع اتباع التعرجات ، بدءاً من وادى السبع أبيار حتى حوض القلزم[1] ، ويضيف بلين أن الملك بطليموس لم يصل بالترعة

---

(١) تبعاً لما يقوله المسيو لوبير ، ص ٧٩ ، كان لا بد أن يبلغ طول الترعة التى كانت تربط الفرع البيلوزى القديم بالقرب من بوباسطة بحوض القلزم ، قريباً من سرابيوم ٩١٫٩٩٠ متراً . وهذا الفرق الطفيف وقدره ٦٣٥ متراً ليس بذى أهمية كبيرة ، فمن الممكن أن تنتج بعض اختلافات طفيفة فى تحديد النقاط القصوى وفى قياس انعطافات وانثناءات الأرض . (المترجم)

التى أمر بحفرها إلا لمسافة تبلغ ٥٠٠ر٣٧ خطوة حتى العيون المرة ، وتبعاً لذلك فلابد أن كانت هذه العيون تشغل منطقة المستنقعات الواقعة بين رأس الوادى وأبو كيشيد[١] ؛ كذلك فإن من الممكن أن يكون الأقومون يقصدون بهذه التسمية وكذلك تحت اسم البحيرات المرة ، تلك البحيرات والمستنقعات الواقعة إلى الشمال من سرابيوم والتى أشرنا إليها باسم مستنقعات كراش وبحيرة التمساح إلخ .

ولسوف نقع فى خطأ مزدوج إذا افترضنا أن البحيرات المرة التى تشغل حوض القلزم ، وكذلك أن نعتقد أن الجزء الذى تم تنفيذه من القناة التى أمر بحفرها بطليموس فيلادلف كان يقع بين هذا الحوض وبين الطرف الحالى للبحر الأحمر ، ذلك أننا نجد أنفسنا هنا فى تناقض بين يستحيل أن يفوت على أحد ، لأننا حين نضع البحيرات المرة فى هذا الموقع نجد أنه كان يكفينا أن نحفر ترعة طولها ٣٠٠٠ — ٤٠٠٠ خطوة لكى يتحقق الاتصال بين الخليج وبين البحيرات المرة ، فى حين يذكر بلين أن بطليموس أمر بإيقاف العمل بعد أن تم حفر ٥٠٠ر٣٧ خطوة بعد أن وصل الحفر إلى العيون المـــرة ، ولابد أن مسافة الـ ٥٠٠ر٣٧ خطوة ، البادئة من السويس ، والمتجهة شمالا إلى سرابيوم كانت تخترق ما يقرب من كل طول حوض البرزخ ، وقاع هذا البرزخ كما هو معروف أدنى بكثير من مستوى مياه البحر ، وفضلا عن ذلك ، فإن الحوض — فى الافتراض الذى نحن بصدده لابد أن يمتـــلىء بمياه النيل ، وهكذا يكون عمل بطليموس فيلادلف مستحيلا وغير ذى جدوى ، فى نفس الوقت .

ولا يمكن على الاطلاق تفسير هـــذا النص من بلين على نحو مخالف لما فعلناه ، كما أننا نرى فيه بوضوح أن طول القناة ابتداء من الفرع البيلوزى

---

(١) فى فيضان سنة ١٨٠٠ كونت المياه فى الشرق ، وبالقرب من الجسر الكبير فى رأس الوادى ، ما يشبه بحيرة .

حتى البحر الأحمر كان يمكن أن يبلغ ٦٢ ألف خطوة لو أن العمل بها كان قد تم، لكننا نعرف فى الوقت نفسه أن هذا العمل قد توقف بعد مسافة ٣٧,٥٠٠ خطوة، بأمر الملك بطليموس .

كان لابد أن تتجمع الطرق الثلاثة التى أشار إليها بلين ، بالقرب من سرابيوم ، فى طريق واحد ، يحاذى الشط الغربى للبحر ابتداء من طرفه الشمالى وانتهاء بموقع قريب للموقع الذى تشغله السويس اليوم ، حيث يتفق كافة المؤلفين على أن يضعوا فى هذه المنطقة مدينة أرسينويه[1] ، وكانت تقع هذه

---

(١) ظننت أن على فى الدراسة السابقة أن أميز أرسينويه ، عن مدينة كليوباتريس وأن أضع الأخيرة بالقرب من سرابيوم . لكن فحصاً أكثر عمقاً وتأملاً قد أوحى لى بشكوك حول هذا الموقع ، ولست أملك من المعرفة ما يجعلنى أحسم أى نص من النصين الواردين عند سترابون ينبغى على أن أتبناه ، أهو النص الذى ذكر فيـــه أن البعض يطلقون على مدينة أرسينويه اسم كليوباتريس ، أم النص الذى يضع فيه كليوباتريس إلى شمال أرسينويه فى الجزء الأدنى من الخليج .

فإذا تبنينا النص الأول ، فإننا نستطيع أن نفسر التناقض البين الذى وقع فيه سترابون ، بأن نفترض أنه قد أضاف فوق كلمة أرسينويه كلمة كليوباتريس مرادفة لها فوقع الناسخون فى الخطأ والخلط .

أما إذا حدث العكس ، وملنا نحو الرأى الآخر ، فينبغى لنـــا أن نقول إن سترابون الذى لم يقم مطلقاً بزيارة هذا الجزء من مصر ، والذى كان يعرف أن الترعة النيلية كانت تنتهى بالقرب من كليوباتريس ، تبعاً لما قاله فى الكتاب السادس عشر ، قد ظن أن الأعمال التى تمت بالقرب من أرسينويه هى امتداد لهذه الترعة ، وأن يخلط بين المدينتين ، عندما تحدث فى الكتاب السابع عشر ، عن النقطة التى تنتهى عندها الترعة . ولكنه ، عندما تلاشى سبب الوقوع فى الخطأ ، قد عاد بعد ذلك بعـــدة أسطر ، ليفصل هاتين المدينتين كلا منهما عن الأخرى . وتبعاً لهذا الافتراض يمكننا أن نقول إن كليوباتريس كانت تقع بالقرب من سرابيوم ، فى المكان الذى توجد به الأنقاض اليوم وقد تناولت ذلك فى دراستى السابقة ، ولعل هذا المكان قد سمى فيما بعد باسم ميناء دانيون الذى نلقاه اليوم عند بلين .

أما عن الخرائب التى تقع على بعد يبلغ نحو فرسخين ونصف الفرسخ إلى الشمال الشرقى من السويس ، فنحن نظن أنها تنبىء عن موقع مدينة كان يسميها العبرانيون بيلفون ، وكانت هذه تقع على الشاطىء الآخر للبحر تجاه فى — حاحيروس التى نظن أنها تقع فى نفس مكان هجروث (أو العجروه) .

المدينة ، تبعاً لما يذكر الجغرافى بطليموس ، على مسيرة أربعين دقيقة إلى جنوب هيروبوليس (أو هيرونبوليس) ، وعلى مسيرة ثلاثين دقيقة إلى الشرق من نفس هذه المدينة[١] (هيروبوليس) والتى نتعرف عليها اليوم فى أطلال أبوكيشيد (أو أبو خشب وهى تل المسخوطة) وبمعنى آخر فإننا نجد فيما بين هذه المنطقة قديماً والسويس اليوم ، وبشكل يكاد يبلغ حد التطابق ، نفس الفروق فى خطوط الطول وخطوط العرض .

أما اسم النهر البطلمى ، الذى يطلق على خور تأتى مياهه لتضيع فى البحر أمام أرسينويه ، فإن من شأنه أن يدفع على الاعتقاد بأن القناة الواصلة من النيل إلى البحر كانت تنتهى عند هذه المدينة . لكن بلين كان يميز أحدهما عن الآخر ، فكان يطلق لفظ نهر على الأول ويطلق اسم ترعة (أو قناة) على الآخر ، ويقول لنا بشكل قاطع إن الأخيرة لم يكن قد حفر منها سوى ٣٧٫٥٠٠ خطوة ابتداء من الفرع البيلوزى . وهكذا كانت هذه الترعة كما نرى أبعد من أن تنتهى عند أرسينويه .

وحين أسس بطليموس فيلادلف مدينة أرسينويه ، لكى ييسر على المصريين سبل التجارة فى البحر الأحمر ، فقد كان أهم عمل يمكن أن يفكر فيه إنسان على الاطلاق هو توحيـــد مجارى المياه العذبة التى تأتى بها الأخوار المتقاربة وأن يوجهها (هذه المياه) نحو موقع المدينة الجديدة ، ولقد كان من الطبيعى لدرجة كافية أن يعطى الملك الحاكم اسمه للنهر الذى انتهى من إنشائه والذى يستطيع وحده أن يمنح الخضرة والحياة لهذا الساحل ، القاحل والمهجور مادام قد أطلق اسم أخته — هو — على هذه المدينة الجديدة .

واليوم ، لم يكد يبقى من هذه الأعمال سوى درسها ومع ذلك فإننا نستطيع

---

(١) بلين ، التاريخ الطبيعى ، الكتاب الرابع ، الفصل التاسع والعشرين .

أن ننظر إلى مستنقع أفريقيا ، الذى يطلقون عليه اسم مية الجسر ، والذى يقع على بعد نصف فرسخ من السويس ، باعتباره جزءاً من هذه الأعمال : فهناك تتجمع مياه الأمطار ، ويتزود الناس بصفة أساسية بمياه خور يأتى فى الشتاء من جبال وادى التيه ماراً بالقرب من هاجيروث (العجرود) ، وينهض سد حجرى صغير يحتجز جزءاً من المياه قبل أن تبدد فى البحر ، ومع ذلك فانه يضيع منها على الدوام كمية محدودة ، قد يكون الاحتفاظ بها ، فى مثل هذه الصحراء أمراً ثميناً ، ويتعرف المرء فى المنطقة مابين هذا المستنقع والمدينة على آثار ترعة صغيرة .

تتبعنا كذلك ، وحتى جبل عتاقة على بعد ثلاثة فراسخ إلى غرب الجنوب الغربى من السويس ، مجرى خور آخر كان جافاً فى ذلك الوقت ، ثم دخلنا إلى واد ضيق حفرته المياه ، وسرعان ما بلغنا طرف هذا الشعب الذى ينتهى بصخور عالية ، تندفع منها المياه فى بعض الأحيان فى شكل شلال . لم تكن المياه تجرى فى ذلك الوقت ، لكن آثارها كانت بالغة الوضوح فوق الصخور . صعدت فوق هذا الشلال بقليل من المشقة ، وكان يؤدى مباشرة إلى هذا الموقع ما يشبه مجرى هندسياً طبيعياً محفوراً فى الصخور . تقدمت فى هذه الترعة فوجدت كهوفاً تمتلىء بمياه بالغة العذوبة ؛ وكانت الصخرة عبارة عن حجر جيرى أملس ، أبيض وأحمر . وعند الخروج من الوادى ينقسم الخور إلى عدة روافد تصب مياهها فى البحر ، بل إننى أعتقد أن واحداً من هذه الروافد ينتهى بالقرب من مستنقع أفريقيا .

وقد ينظر الناس — خطأ — فى البلاد الأجنبية ، بل وفى مصر نفسها ، إلى هذه الأعمال ، التى يرجح كثيراً أنها تمت ولا ريب لتجميع وتوجيه مياه الأخوار المختلفة نحو أرسينويه ، باعتبارها استمرارا للترعة التى كانت — ولا بد تحقق الاتصال بين النيل وبين البحر الأحمر ؛ وقد ينظرون نفس النظرة كذلك إلى بعض الأعمال التى تمت فى نفس ذلك العهد كى تحتفظ لبعض أجزاء البحر بعمق معين فى مضايقة البحرية ، ولكى تزيل كتل الرمال التى كانت تعوق الملاحة فى

أرسينويه ، إلى الشمال من هذه المدينة ، تلك الكثبان الرملية التى انتهت بأن فصلت عن البحر ما نسميه اليوم بحوض القلزم وكم هناك من أخطاء وقع فيها المؤرخون القدامى ، وقد اضطروا — مع أنهم لم يزوروا الأماكن نفسها — لأن يكتبوا (ما كتبوه) نتيجة لاستدلالات غير متأنية نقلها بعضهم عن بعضهم فى أغلب الأحيان . لقد علموا من مصادر عديدة أن مشروعاً قد تم لربط النيل بالبحر الأحمر ، وأن ترعة من المياه العـــذبة كانت تصب فى البحر الأحمر فى ميناء أرسينويه ، وأن هناك هويسات وسدوداً كانت تحجز مياه هذه الترعة ، وأن أعمال تطهير قد تمت بالقرب من هذا المكان لكى تمهد سبيل الملاحة نحو الشمال أمام بعض السفن فى البحر الأحمر . ألا يمكن لهؤلاء أن يخلطوا بين هذه الأعمال المختلفة ، وأن يأخذوا هذه فى مكان تلك[1] ؟

أما عن مدينة هيروبوليس ، ولعلها هى نفسها مدينة أفاريس [2] فانى مصر

---

(١) لم يكن ديودور أو سترابون ، نفساهما ، يعرفان لا أرسينويه ولا أى جزء من القلزم شمال السويس ، وعلى سبيل المثال ، فقد ارتكب سترابون فى حق مناطق أخرى زارها من مصر أخطاء أشد خطورة بكثير من تلك التى ناسبها إليه هنا ، أى فى منطقة لم يرها مطلقاً وفى واقع الأمر ، فاننا نعرف أن هذا الجغرافى قد أخذ ترعة فى منطقة الصعيد على أنها النهر نفسه .

(٢) أوضحت فى مذكرتى عن الحدود القديمة للبحر الأحمر رأى البعض ممن يرجحون أن تكون هيروبوليس هى التى تشير إليها التوراة باسم بيتوم Pithôm ولكن يبدو أن الاحتمال الأرجح هو أن المدينة التى أسماها العبرانيون باسم بيتوم كانت هى تلك التى أطلق عليها الإغريق اسم باتوموس Patumos ، وأطلق عليها الرومان اسم توم Thoum ، وفى الواقع فان هذه الأسماء الثلاثة لا تختلف إلا فى « حركة الإعراب » اليونانية واستعمال أو إهمال أداة التعريف المصرية .

(*) ويقول الأستاذ محمد رمزى فى قاموسه الجغرافى للبلدان المصرية ، الجزء الأول الخاص بالبلدان المندرسة عن مدينة أفاريس : أواريس مدينة مدينة أنشأها الهكسوس جنوبى بياوز (الفرما) وأسموها Hat Awart (هات أورات) ومنها اسمها أواريس . اتخذها رمسيس الثانى سكناً ومعسكراً له وسماها برمسيس أو مدينة رعمسيس . وقد اندثرت الآن وحل محلها تل الحير أو الهير . وظن بعض الباحثين أنها هى مدينة تيكو التى أسماها الرومان باسم هيرو بوليس ومكانها الآن تل المسخوطة . [المترجم]

على أن أضعها فى نفس المكان الذى تشغله اليوم أبو كيشيد . ويغطى هذا الموقع بشكل تام تلك المسافة التى يعطيها مسار أنطونين ؛ ويبدو لى أننا حين نضع هذه المدينة القديمة بالقرب من السويس كما يفعل البعض ، بسبب خط العرض الذى وضعها عليه بطليموس (الجغرافى) ، وحين نلزم الصمت عن الموقع الأكثر مدارية (اتجاهاً نحو الجنوب) بـ ٤٠ دقيقة والذى يعطيه هذا الجغرافى لمدينة أرسينويه ، وكذلك حين نضع هذه المدينة هى وهيروبوليس مجاورتين للسويس — أقول أنه يبدو أننا حين نفعل ذلك لا تسعفنا كثيراً شهادات الأقدمين .

ولقد أورينا فيما سبق أن موقع هيروبوليس ، بالمقارنة مع أرسينويه ، وتبعاً لما ذكره بطليموس ، وإنما يتفق للغاية مع موقعى أبو كيشيد والسويس .

ومن جهة أخرى ، فاذا ما بدا أن بطليموس فى مكان آخر من مؤلفه يعطى نفس خطوط العرض والطول لمدينة هيروبوليس والطرف (نهاية) البحر الأحمر فانه لا ينبغى لنا أن نلزم الصمت أو نمر مرور الكرام بنص آخر يضع فيه هذا الجغرافى هيروبوليس أبعد إلى الغرب بمسيرة ٢٠ إلى ٣٠ دقيقة ، وإلى الشمال بمسيرة ١٠ دقائق ؛ قد لا تكون أبو كيشيد على هذه المسافة من الطرف القديم للخليج ، لكن أهم من ذلك أن نعرف أن هاتين النقطتين (أو الموقعين) لم تكونا متطابقتين ، وأن هيروبوليس كانت تقع إلى الشمال الغربى من قمة الخليج . ولا يحق للمرء أن يتوقع صرامة أكبر فى الكتاب الذى نحن بصدده ، والذى اكتفى فيه بطليموس فى معظم الأحيان بأن يثبت خطوط الطول والعرض تبعاً لمقاييس يقل حظها من الدقة ، كانت تقدمها له بعض خطوط السير .

وهكذا فإننا نظن أن هذا الجغرافى لم يضع مدينة هيروبوليس عند طرف

الخليج إلا لتمييزه عن خليج أولانيتيك أى خليج إيلات أو العقبة ، وأنه قدم فى هذا المكان ماظننه خطى عرض وطول الطرف الشمالى للبحر الأحمر، وليس خطى عرض وطول هيروبوليس التى يوردها فى بقية مؤلفه واضعاً إياها فى الشمال الغربى كما قلنا لتونا ؛ومع ذلك فقد نستطيع أن نفترض ، تبعاً للنصوص التى أشرنا إليها ، أن هيروبوليس كانت لها ، على الرغم من وقوعها فى مكان خرائب أبو كيشيد ، بعض منشآت تقع على شاطىء البحر(١) ؛ لكننا فى كل الأحوال لا نستطيع الاستناد إلى شهادة بطليموس لكى نضع المدينة نفسها على الشاطىء .

وقد سبق أن قلنا أن واضعى الترجمة السبعينية (للتوراة) كانوا يضعون مدينة هيروبوليس فى وادى جاسان أو السبع أبيار ، على طريق عفيس — غزة ؛ وسوف يكون من العبث — لدحض هذه الشهادة — أن نتهم هؤلاء المترجمين بأنهم ظنوا أن الفعل العبرى هوروث ، ومعناه يخبر أو يعلن أو يابىء إنما هو اسم لمدينة ؛ فمثل هذا الاعتراض لن يفعل سوى أن يزيد من الاقتناع بالأمر الذى نتصدى له ، لكننا قد نقول منذ البداية أن من العسير أن نتقبل أن خطأ فاحشاً كهذا ، لا يمكن أن يقع فيه أصغر تلميذ ، يستطيع أن يقع فيه سبعون حاخاماً ، لديهم معرفة عميقة باللغتين العبرية واليونانية ، وأن من الأفضل لنا — بالأحرى — أن نعتقد بأن هؤلاء المترجمين المتبحرين ، لم يسيئوا هنا ترجمة كلمة من كلمات لغتهم ، ولكنهم أضافوا — فيما يرجح — شيئاً ما إلى النص العبرى لكى يجعلوا الترجمة أكثر وضوحاً أو ليرسخوا معنى بعينه ، الأمر الذى حدث منهم فى أماكن عديدة (من ترجمتهم هذه) . فلنقارن إذن النص العبرى للآية التى نحن بصددها بترجمته اليونانية ، وسنجد أن « السبعين » لم

---

(١) قد تكون هذه المنشآت ، بعد اتساعها ، هى التى أدت إلى نشأة مدينة كليوباتريس التى يتحدث عنها سترابون ؛ أو نشأة ميناء دانيون Port Danéon الذى يشير إليه بلين .

يشاءوا مطلقاً أن يترجموا هذا النص ترجمة حرفية ، وإنما شاءوا أن يفسروه . ويدل على ذلك ، على سبيل المثال أن كلمة جاسان تتكرر مرتين فى العبرية فى حين لانجدها فى اليونانية حيث تقرأ كلتى هيروبوليس ورعمسيس ، اللتين لاتوجدان مطلقاً بالنص العبرى . ولايمكن أن يعود هذا الاختلاف ، وغيره كثير ، إلى خطأ يمكن أن نلصقه بالسبعين ؛ وزيادة على ذلك ، فليكن هؤلاء قد تصرفوا تبعاً لدافع قد نفترضه فيهم، أو ليكونوا — حتى — لم يفهموا كلمة هوروث ، فلن يكون أقل من ذلك حقيقة أنه ماكان لهؤلاء أن يتكلموا فى هذا الموضوع عن هيروبوليس لولا أن قد كانت هذه المدينة ، فى زمانهم ، قريبة من الموقع الحالى للسويس فى وادى جاسان أو السبع أبيار . وتنطبق نفس هذه الملحوظة على المؤرخ يوسيفوس الذى يضع كذلك مدينة هيروبوليس على الطريق من ممفيس إلى غزة .

ولنتذكر أن العبريين عندما خرجوا من مصر لينسحبوا إلى صحراء سيناء قد ساروا بحذاء الشاطىء الغربى للبحر الأحمر ابتداء من أرض جاسان إلى المكان الذى عبروا فيه البحر . وهذا ما نقرؤه فى سفر الخروج ، الاصحاح الثالث عشر ، الآية ١٧ : « وكان لما أطلق فرعون الشعب ، أن الله لم يهدهم فى طريق أرض الفلسطينيين مع أنها قريبة ، لأن الله قال لئلا يندم الشعب إذا أرادوا حرباً ويرجعوا إلى مصر » ، والآية ١٨ : « فأدار الله الشعب فى طريق برية بحر سوف » أى إلى الطريق الصحراوى القريب من البحر الأحمر .

كيف سيكون بإمكاننا هنا تفسير هذا النص لو أن كانت للخليج العربى ، فى ذلك الوقت ، نفس الحدود التى له اليوم ؟

أما عن الـ ٩٠٠ غلوة التى يعطيها سترابون لعرض القلزم ابتداء من بيلوز حتى الخليج العربى بالقرب من هيروبوليس ، فإننا لقادرون أن نجدها بسهولة إذا تقبلنا ، وهذا أمر محتمل للغاية — أن تكون المعلومات التى جمعت من

مصر فى العصور القديمة ، من طريق الرحالة الأجانب ، عن المسافات التى كانت توجد بين مختلف الأماكن ، قد أعطيت لهم فى غالب الأحيان بالغلوة المصرية التى يبلغ طولها ١٠٠ متر ؛ وفضلا عن ذلك فلابد ألا ننسى أن هيروبوليس كانت تبعد قليلا عن البحر الأحمر ؛ وكانت هذه المدينة ومدينة بياوز ، على البحرين (الأحمر للأولى والأبيض للثانية) هما مكانى التجارة المتقاربين للغاية ، وفيما بينهما كان يتم تبادل السلع القادمة من أوربا وتلك القادمة من الهند . ولذلك فقد كان من الطبيعى أن يعطى سترابون ، وهو يتحدث عن اتساع القلزم نفس طول الطريق الذى كان يتبعه الناس ، للتوجه من بيلوز إلى الخليج العربى ، مروراً بهيروبوليس . ولذلك نجد نحو ٧٠٠ غلوة من بيلوز إلى أبو كيشيد ، و ٢٠٠ من هذا المكان إلى سرابيوم .

وهذه الاعتبارات المختلفة تفسر بطريقة بالغة اليسر ، لماذا كانت تلتمس هيروبوليس فى روايات الأقدمين ، على الدوام ، فى المنطقة التى كان ينتهى إليها الخليج العربى باتجاه مصر ، على الرغم من أن هذه المدينة لم تكن تقع مباشرة على ساحله[1] . ألسنا لانزال نرى حتى اليوم العديد من المدن الواقعة فى الداخل وهى تعد — مع ذلك — موانىء بحرية ؟

ولسنا نستطيع أن نقترح أية مقاييس أخرى إلى جانب تلك التى ذكرناها تبعاً لشهادات القدماء ، وإن كان بإمكاننا أن نعطيها قيمة مختلفة قد يكون من شأنها أن تضع قاع الخليج إلى الجنوب بمسافة أكبر بكثير مما هى عليه اليوم ، يدل على ذلك أننا محقون فى تقييمنا لهذه المقاييس كما كنا محقين فى تطبيقها على الطبيعة ، وإلا ، فهل ثمة أقل احتمال لأن يكون البحر فيما مضى أقل امتداداً

---

(١) من الضرورى ، عند الرجوع إلى خريطة مهندسى الشرق أن نعرف أن الحدود المعطاة لحوض القلزم ليست دقيقة إلا فى النقاط التى مر فيها خط عملية التفدين بكنتورات الحوض ، وأن هذه الحدود قد خططت على الدوام بشكل تقريبى بالنظر إلى أنه لم يتم هناك مطلقاً أى تفدين إلا ما توضح على الخريطة ، كما أن هذه الخريطة لم تبين خطوط المدى ، أى خطوط أقصى مدى للاغراق يمكن أن يبلغه البحر .

نحو الشمال مما هو عليه الآن ؟ ألا يوجد — على العكس من ذلك عدد كبير من الوقائع الدالة على أن هذا البحر قد انحسر نحو الجنوب ؟

وقد ننهى دراستنا هذه بأن نكرر هنا إن العيون والبحيرات المرة ، تبعاً لما نرى ، كانت تقع إلى الشمال الشرقى وإلى الشمال من حوض القلزم ؛ وإن هذا الحوض ، فى الزمن الذى عاش فيه هيرودت كان يشكل جزءاً من البحر الأحمر ؛ وأن أعمالا لابد وأنها قد تمت فى عصر البطالمة لكى يبقى البحر على عمق بعينه فى المضايق البحرية جنوب أرسينويه ، الأمر الذى جعل من الممكن أن يطلق على هذا الذراع من البحر اسم النهر أو النهر البطلمى ؛ وأنه قد أمكن إطلاق هذا الاسم كذلك على خور من ميـــاه الأمطار كان يصب فى الخليج بالقرب من أرسينويه ؛ وأن الترعة التى شرع الفراعنة فيها والتى تجدد الشروع فيها فى عهد داريوس ، وفى زمن خلفاء الاسكندر قد حفرت ابتداء من الفرع البيلوزى ، عبر الوادى حتى البحيرات المرة ؛ وأنه إلى ما وراء هذه البحيرات، قد توغلت هـذه الترعة دون شك نحو البحر ؛ وإنه كان من الطبيعى بالنسبة لملوك وحكام مصر أن يوقفوا هذا العمل ما أن يتبينوا الأخطار الكبيرة التى كان يشغلها ارتفاع مياه البحر الأحمر وانخفاض مستوى النيل ؛ وأنه فى فترات مختلفة ، على الرغم من ذلك ، قد أمكن الملاحة ، فوق هذه الترعة ، وفوق البحيرات المرة ، أثناء فيضان النيل ، أن تمتد لمسافة قريبة من البحر الأحمر ؛ وأن الرحلة البحرية ، بدءا من هذه النقطة وحتى الخليج عندما اقتصرت على نقل أشياء بالغة الضآلة ، قد جعلت من الممكن للناس أن ينظروا إلى الاتصال المائى (بين البحرين) ، فيما يختص بالتجارة ، كأمر ثابت ، وأننا نستطيع على هذا النحو أن نفسر الواقع الذى حدا بكليوباترة إلى أن تأمر بنقل سفنها براً ليمكن لهذه السفن أن تنتقل من بحر لآخر[1] ، فى نفس الوقت الذى يذكر

(١) Plutarque, Vie d' Antoine, Dion Cassius, Hist. Rom. liv II,

فيه الكثير من الكتاب — مع ذلك — أن ترعة الملوك كانت قد تمت على يد أسلافها(١) ؛ وأنه أمكن أخيراً فى عهود الخلفاء القيام بمحاولة لإعادة دفع البحر الأحمر إلى الأراضى التى كان يغطيها فيما مضى شمال القلزم ، وإن لم تكن هذه الأعمال ، التى سرعان ما أهملت ، بكافية على الإطلاق كى تعيد البحر ، بطريقة ملموسة ، إلى حدوده القديمة .

مستخلص من يوميات رحلة المسيو ديفلييه

مهندس الطرق والكبارى

رحلت من القاهرة فى السابع والعشرين من برومير من العام التاسع مع السيدين لوبير وشابرول .

ومن القاهرة إلى بركة الحج ، يوجـــد سهل رملى يغطيه نوع من اليشب البيضاوى ، يعرف بالزلط المصرى ؛ ويجد المرء إلى اليسار أراضى مزروعة ، كما يلمح ، على اليمين ، وبمسافة نصف فرسخ ، سلسلة من كثبان الرمال على ارتفاعات متفاوتة ، كما يتفاوت امتدادها ما بين ربع ونصف الفرسخ وتقطع الأرض من وقت لآخر أخوار صغيرة تنمو حولها الخضرة ؛ وتستمر الكثبان إلى مسافة قريبة من بلبيس . وعند الخروج من هذه المدينة نحو الصالحية ينبسط — مع ميل غير محسوس ، وإلى مسافة بعيدة — سهل رملى يغطيه الزلط المصرى . وعلى مسافة فرسخ إلى الجنوب من السويس ينتهى الجبل الجيرى ، ويمكن أن يصل ارتفاعه إلى خمسين قدماً فوق سطح الأرض المزروعة .

---

(١) Strabon, Géogr., liv XVII. Diodor de Sicile, Bibl. hist. liv I.

وبالقرب من راهورني[١] . تبدأ كثبان رملية جديدة ، تمتد بطول وادى الطميلات وحتى أبو نشابة ، ويبلغ عرضها تجاه هذه النقطة ، فرسخاً واحداً ؛ وتغمر المياه (مياه الفيضان) هذا الوادى .

وإلى ما وراء ذلك ، أى شمال الجانب الآخر من الوادى، يوجد سهل بالغ الانبساط يغطيه الزلط ؛ أما الجزء الجنوبى من الوادى ، فيما بين أبو نشابة ورأس الوادى فبالغ الإنخفاض ، وليست للمياه به أية حركة محسوسة ،ويصل عمقها إلى ٨ — ٩ أقدام . وهى تزحف إلى بعض الأماكن من خلال الكثبان الرملية . ومن هناك نرى الجبال المجاورة للسويس .

وتغطى المياه كل المنطقة إلى ما وراء رأس الوادى ، ويشكل الفيضان سطحاً بالغ الاتساع يحده إلى الغرب الجسر الكبير ، ونجد أشجار النخيل بالقرب من رأس الوادى وقد غمرتها المياه حتى سعفها . وتتجمع المياه فى المكفر (أو الموكل) داخل ترعة ، ويلزمها متر وأربعة وعشرون سنتيمترا لكى تبلغ الجزء العلوى من الحجر الجرانيتى الذى استخدم نقطة استدلال فى عملية التفدين .

---

(١) تقع هذه القرية على بعد نحو ٣٠٠٠ متر إلى الجنوب الشرقى من العباسة بالقرب من بحيرة تسمى الفرجة أو بركة الحج القديمة ؛ ويدفع هذا الاسم ، بالإضافة إلى بقايا المنشئات التى يقابلها المرء على طريق بلبيس وعلى جسر السنيكة ، الذى يسمى الجسر السلطانى ، وهى المنشئات التى يخبرنا سكان البلاد أن حجاج مكة كانوا يستخدمونها فيما مضى — كل ذلك يدفع على الاعتقاد بأن قافلة المحمل التى كانت تتجمع كل عام بالقاهرة ، والتى كانت تمر بالقرب من هجيروث (أو العجرود) . كانت تتبع فى ذلك الوقت وادى الطميلات ، لتدور بعد ذلك حول الخليج العربى ، الأمر الذى يأتى كذلك لكى يدعم رأى المسيو دى بوا — إيميه du Bois-Aymé عن الحدود القديمة للبحر الأحمر .

(المترجم) لم أجد اسم هذه القرية فى القاموس الجغرافى للأستاذ محمد رمزى ، وإن كنت قد وجدت اسم راوارنى أو الراوارنى فى الفهرس الجغرافى الوارد بكتاب وصف مصر ، الدولة الحديثة ، المجلد الثالث ، فى نفس المنطقة التى تحددها هنا هذه الدراسة) .

وتحيط المياه بآبار السبع أبيار ؛ وبعيداً عن ذلك حفرت المياه لنفسها مجرى عميقاً بعض الشيء وتآكلت بسببها الكثبان ؛ وهناك تجرى المياه بسرعة أمكن تقديرها بأربعة أقدام فى الثانية .

فإذا مضينا لأبعد من ذلك ، نجد المياه لاتزال تزحف ، بعد أن تقوم بدورة كبيرة إلى اليسار لتملأ بعد ذلك حوضين واسعين ، يبلغ محيطهما ٦-٧ فراسخ[1]. ثم تمتد المياه لتبلغ سفح الكثيب الذى أقيم فوقه ضريح الشيخ هنادى ، لتحيط بجزء من الهضبة المجـــاورة ، التى يمكن الوصول إليها عن طريق لسان من الأرض .

تركنا المياه فى الأول من فريمير لنتجه مباشرة إلى سرابيوم متتبعين الكثبان . أما سرابيوم فعبارة عن مبنى دائرى الشكل ، يبلغ قطره من ١٢ إلى ١٥ قدماً ، يتعرف فيه المرء على نتوء بارز أقيم فوق كتلة بيضاوية الشكل من الجرانيت ؛ وثمة خرائب أخرى تقع إلى الجنوب الشرقى ، نجـــد فيها قطعاً من الجرانيت والحجر الرملى والحجر الجيرى ، ويشبه الأخير تلك الكتلة الحجرية التى تشكل الهضبة التى نجد فوقها أطلال هذه المدينة القديمة .

توجهنا من سرابيوم إلى طرف جبال السويس ، وقطعنا مسافة ثلاثة فراسخ ، اجتزنا خلالها البحيرات ، أو الأجزاء الدنيا التى توجد فى هـــذا الاتجاه[2] . وخلال الفرسخ الأول ، يلاحظ المرء وجود سلفات الجير ، متكلسة على هيئة إبر لامعة ، وفى شكل كتل منعزلة يبلغ ارتفاعها نحو ثلاثة أقدام ، ولها مظهر جذوع نخيل مقطوعة ، وتبدأ تصبح الأرض رخوة تندنى ، وأخيراً نجد الطين ومياها تميل كثيراً إلى الملوحة ؛ وقد بدا لى أن موريات الصودا توجد بكثرة فى هذه المياه ، وبدرجة أكبر مما نجدها عليها فى مياه البحر . وفى الجانب الآخر ،

---

(١) اشير اليها على الخرائط باسم بحيرة التمساح .
(٢) تشكل هذه البحيرات جزءاً من حوض القلزم .

يجد الأرض وقد تشققت إلى كتل كبيرة يبلغ حجم الواحدة من ١٥ إلى ٢٠ قدماً وتعلو كل منها إلى أربعة أقدام ، لكن المياه تذيب هذه الكتل وتفتتها ، وتتكون هذه الكتل من قطع كبيرة ، بل وهائلة الحجم فى بعض الأحيان ، من موريات الصودا ، ومن الرمال المختلطة ببللورات صغيرة من سلفات الجير ؛ وبعد فرسخ ونصف الفرسخ من هذه الأرض الخربة والمهلكة تنخفض التربة لدرجة أكبر وتصبح رطبة موحلة . ومن الجهة الأخرى ، يجد المرء مع ارتفاع الأرض بعض الأصداف والقواقع على الرمال ، ثم يجد رمالا بدون أصداف تتناثر فوق كربونات الجير التى أخذت فى التحلل ، وأخيراً بعض بللورات الجبس اللامعة وقد اتجهت قممها إلى أسفل ، أما الأرض هناك فمنتفخة متشققة ، دون أن يبدو الأمر وكأنه قد تم بفعل إنكماش بين اجزاء هذه الكتل ، بل على العكس من ذلك ، كما لو أن تمدداً هائلا قد تسبب فى رفعها ثم تكسيرها .

أما الأجزاء الأكثر ملحية من هذه الأرض ، فهى كتل من موريات الصودا ، تشكل كهوفاً أو شقوقاً صغيرة ، يبلغ عرضها بضع بوصات ، وقد وضعت مجسات داخل هذه الشقوق دون أن تبلغ قاعها وكانت المجسات قد وصلت لعمق المتر أسفل موريات الصودا .

وفى الثانى من فريمير مشينا ، بعد الخروج من هذه الوهاد ، نحو الجنوب الغربى ، واقتربنا كثيراً من الجبال التى يمر بالقرب منها طريق بلبيس ـ السويس ؛ وبعد ذلك اتخذنا وجهتنا نحو الشرق ، وعبرنا بقايا ترعة تقع إلى جنوب وهاد وسط القلزم ، وعدنا بعد ذلك مباشرة إلى السويس ، مجتازين هضبة عالية تتكون من رمال كبيرة الحجم ؛ وقريباً من البحر عدنا ثانية إلى غرب الترعة ، ووصلنا إلى السويس .

معلومات جمعت عن طريق مشايخ وسكان وادى الطميلات فى الأيام الأخيرة من نيفوز من العام التاسع ، بواسطة المسيو ديفلييه المكلف باكتشاف ترع النيـــل ابتداء من القاهرة ، حتى وادى الطميلات

يبلغ أقصى ارتفاع للمياه فى الوادى ، فى المنطقة الواقعة ما بين العباسة ورأس الوادى . وطبقاً لما يذكره سكان طميلات الشريف يمكن أن ترتفع المياه إلى ١٥ قدماً بالقرب من العباسة ؛ وعندما تنخفض تنكشف ضواحى العباسة أولا ثم تجف بعد ذلك الأرض المجاورة لرأس الوادى ، ويتركز الإغراق بالقرب من أبو نشابة ، التى توجد بها - على ما يبدو - أدنى نقطة فى الوادى .

ولا تتوغل المياه فى الوادى إلا عن طريق ترع صغيرة تتفرع من ترعة بلبيس ، وإن كان قاعها أكبر ارتفاعاً لدرجة أن المياه لا يمكنها أن تدخل إلى هذه الترع الصغيرة إلا أثناء الفيضانات الكبرى ، التى قلما تتم إلا مرة كل خمس أو ست سنوات ؛ لذلك يستوجب الأمر أن يعطى أهالى الطميلات لأنفسهم سلطة قطع جسور العباسة والسنيكة رغم مشيئة سكان القرى العليا ، ويتم هذا القطع فيما بين السنيكة والمسيد . ويذكر القوم أنه كانت توجد فى الماضى قنطرة كبيرة تتكون من قوس واحد فيما بين السنيكة والمسيد على بحر الرمل بالقرب من بحطيط . أما الفائدة التى تعود من وراء إنشاء ترعة تصل بالمياه بشكل منتظم إلى رأس الوادى فأمر لا جدال فيه . وقد يكون كافياً أن نعمق واحدة من الترع الصغيرة التى سبق أن تحدثنا عنها . ومع ذلك ، فسوف يكون من الضرورى فى نفس الوقت أن نعيد تثبيت جسور السنيكة أو العباسة حتى لا تمر إلى الوادى إلا كميات المياه اللازمة لريه دون أن تغرقه ، فهذا الإغراق الكامل يضيع على الزراعة سنة بأكملها تستغرقها المياه لكى تنحسر ، إذ لا يمكن - والحالة هذه - زراعة أرض الوادى إلا فى الصيف التالى . وفى السنوات القليلة التى

لا تصل فيها مياه الفيضان إلى داخل الوادى ، تتم الزراعة القليلةالتى يمارسها القوم هناك بواسطة مياه الآبار التى لا تنضب أبداً.

وخلال الفيضانات العالية فى تلك السنة (العام التاسع) ، قطعت الميـاه جسر الوادى ، ولم تتجاوز إلى الشرق وإلى الجنوب المـكان المسمى بالشيخ هنادى ، لـكنها زحفت إلى الشمال حتى رأس الميه (أو البلاح) وأخبرنا أحد شيوخ العرب إن رأس مية البلاح قد « رأت »مياه النيل هذا العام . ونحن هؤلاء ننقل تعبير هذا العربى بنصه.

ولا يقطع الناس مطلقاً جسر رأس الوادى . ويقول أهالى الطميلات إنهم لا يجدون فى ذلك فائدة ما ، ويمكن إدراك ذلك بسهولة.

ومنذ أربعة وعشرين أو ثلاثين عاماً ، لم يحمل النيل مزيداً من الميـاه إلى الوادى .



(٨)

دراسة عن النوبة والنوبيين

"كوستاز"



يطلق اسم النوبة عادة على ذلك الجزء من وادى النيل الواقع بين مصر ومملكة سنار .

وليست لدينا نحن فى أوروبا ، حول هذه البلاد ، إلا أفكاراً متناثرة ، محدودة للغاية ، وبالغة الغموض . بل أن قدماءنا أنفسهم ، وهم الذين عرفوا ، بشكل أفضل منا ، أعماق أفريقيا ، لم ينقلوا إلينا عن النوبة إلا معلومات بالغة الضآلة ، كذلك ، فان الفرنسيين لم يسبق لهم أن جاسوا فى هذه البلاد بما فيه الكفاية ، كما أنهم لم يتوقفوا طويلا هناك للحد الذى يمكنهم من سد هذه الفجوة فى هذه الناحية من معارفنا الجغرافية . واعتقد أنه سيكون من المفيد أن ننقل إلى العامة بعض الوقائع التى جمعتها أثناء إقامتى فى فيله فى شهر سبتمبر سنة ١٧٩٩

يختلف سكان النوبة بشكل أساسى عن كل الشعوب التى تحيط بهم ، إذ يجاورهم المصريون فى الشمال ، وزنوج سنار من الجنوب ، كما تتجول من حولهم قبائل عربية فى تلك الصحروات الواقعة إلى الشرق من النيل وإلى الغرب منه . وبالرغم من كل ذلك فان هؤلاء النوبيين ليسوا عربا وليسوا زنوجاً ، كما أنهم ليسوا مصريين . انهم يشكلون جنساً متميزاً كما أنهم يتكلمون لغة خاصة بهم يشار إليهم داخل إطارها باسم « البرابرة » .

وعلى بعد بضعة كيلو مترات إلى الجنوب من أسوان ، وبخاصة فى تلك المناطق المجاورة لفيله ، يحد البصر من كل جانب جبال مكونة من كتل ضخمة من الجرانيت والزلط الأحمر والأحجار الرملية المكدسة بغير نظام ، وثمة جبلان يظلان على الرغم من تعرجاتهما متوازيين ، على نحو ما ، كل منهما مع الآخر . ويحصر هذان الجبلان النيل ويضيقان عليه الخناق . وهذه الفوضى

من الأحجار الوعرة ، بألوانها الداكنة واللامعة ، تعطى لكل المنطقة مظهراً من الاضطراب والدمار المقبض ، يتناقض معه بشكل مبهج ومستبعد فى وقت معاً ،منظر تلك الكتل المنتظمة والأعمدة الرائعة لتلك المنشآت القديمة التى ترى من جزيرة فيلة . وتنفرد هذه المبانى الرائعة عن المشهد المحيط بها بلون مائل للبياض جميل ، تستريح لرؤيته العين ، وتبدو ، بعد مضى هذه الألوف من السنين على وجودها ، جديدة ، وفى نفس رونق أجمل منشآت باريس التى شهدت منذ عهد قريب .

وفيما بين فيلة وأسوان ، تتناثر فى النيل ألوف لا يحصيها عد من صخور الجرانيت التى تنهض من قاع المجرى لتشكل جزراً بالغـــة الضآلة ، وهناك يجرى النيل سريعاً تتكسر مياهه على هذه الصخور،أو تندفع الأجزاء الفاصلة فيما بينها بصخب واضطراب غير هادئين ، ليكتسى كل سطحه باللون الأبيض، حتى ليظن المرء أن مياهه قد تحولت كلها إلى زبد .

وينتج عن تلاطم الأمواج وتكسرها فوق الصخور زئير مستمر تردد الجبال صداه ليمضى صوت الصدى إلى بعيد بعيد . وفى هذه المناطق الصحراوية، تشكل هذه المجموعة من العوامل مشهداً يهز النفوس بشكل عميق .

وتعرف هذه المنطقة باسم الشلال ، شلال أسوان . . لكننا إذا ما قصدنا المعنى الحرفى للكلمة ، سنقول بأن ليس هذا شلالا على الاطلاق . حقيقة أن النيل هناك سريع وصخاب ، لكننا لا نرى هناك مساقط كبيرة للمياه ؛ وهى تلك التى اعتدنا أن نطلق عليها اسم شلالات بل أن جزءاً من مياه النهر ، تجرى فى نفس المجرى ، تستطيع المراكب أن تصعدها فى موسم الفيضانات إذا ماجادت عليها الطبيعة بريح مواتية . لكن الشلال الحقيقى يوجد على مسيرة عدة أيام إلى الجنوب من شلال أسوان هذا ، كما يسمونه .

ويقابل المرء بشكل شبه دائم ، عند سفح الصخور التى تحصر فيما بينها نهر النيل ، أجزاء صغيرة من الأرض الصالحة للزراعة ، كونتها ومهدتها تلك الترسيبات السنوية لمياه الفيضان حيث الظروف هناك مواتية لحدوث مثل هذه الترسيبات . . وفى كل مكان تتوافر فيه هذه الظروف المواتية ، زرع النوبيون أشجار النخيل ونصبوا السواقى لرفع الميـــاه لرى الحقول التى يزرع فيها هذا النوع من الذرة البيضاء الذى يطلقون عليه اسمه « درة » ، وكذلك بعض الخضروات .

وترين فوق هذه الصخور حرارة مرهقة ـ وعلى الرغم من أننا كنا ما نزال فى اعتدال الخريف ، فقد ظل ترمومتر ديومور الموضوع فى الهواء الطلق ثابتاً طيلة اليوم على درجة ٣٥ ، وهى درجة حرارة أعلى من درجة حرارة الدم إذ أن هذا الترمومتر يهبط فى الواقع ثلاث درجات إذا وضعناه فى الفم أو تحت الابط . وكنا نحس بلهيب الشمس المزعج من خلال نعال أحذيتنا المصنوعة من جلد الماعز . ومنذ عدة أيام رفض أحد أبناء البلاد ، وكان موكلا بتوصيل إحدى الرسائل ، أن يبدأ سيره قبل غروب الشمس ، حيث الحجارة فى أثناء النهار ، تجعل أقدامه تلتهب .

وعلى بعد كبير من قرية باب ، يلمح المرء جداراً عاليا أقيم عند سفح الجبل الشرقى ليقطعه بشكل عرضى : وقد تسلقنا الجبل كى نرى الجدار عن قرب . . فوجدناه بالغ السمك ، مبنيا بقطع غير منتظمة من أحجار الجرانيت والحجر الرملى بدون ملاط «مونة» ، ويمتد هذا الجدار إلى بعيد بحيث لم نستطع التعرف على بدايته البعيدة عن النيل . وقد بدا لنـا أن هذا الجدار قد بنى كسور لصد هجمات الشعوب المعادية لأهل هذه البلاد .

وللنوبيين زوارق ينقلون بواسطتها ـ بين الشلال الصغير والشلال الكبير ـ الأشياء التى يأتون بها من مصر لاستهلاكهم . وتتمثل هذه

التجارة المحدودة بصفة أساسية فى الأقمشة التى يشترونها من اسنا والتى يقايضون بها البلح المجفف « التمر » . ويستخدمون فى ملاحتهم الشراع ، وهو يشبه شراع القوارب المصرية ، وهو صالح بشكل خاص للملاحة الأنهار حيث يساعد على سرعة حركة القوارب بفعل الرياح ، وعلى الرغم من ذلك فهذه الرياح فى جنوب أسوان غير مواتية بفعل تعرجات النهر الكثيرة للغاية ويضطر الناس لوقت طويل إلى جر قواربهم بالحبال . . لذلك تكون الملاحة هناك بطيئة بالضرورة .

ويقوم بإدارة القرى هناك رجال قضاء يسمون السيميلى ، وهؤلاء يحوزون نفس السلطة التى يحوزها شيوخ القرى فى مصر على وجه التقريب .

وتخضع كل المنطقة حتى الشلال الكبير للسيطرة العثمانية وإن كانت سطوة هذه السيطرة تقل فى الواقع وفى غالب الآحيان فى مثل هذه المناطق النائية . ومع ذلك فالنوبيون يدفعون للسلطان ، أو للذين يحكمون باسمه ، ضريبة من التمور والعبيد السود . وهم يشترون هؤلاء العبيد من قوافل سنار ، لأن النوبيين لا يتجرون مطلقاً فى رجال من أبناء أمتهم ، كما لا تسود بينهم هذه العادة الهمجية : عادة اصطناع أغوات .

والنوبيون فى العادة لطيفو المعشر ويعيشون فى حالة سلم بقدر ما يستطيعون مع جيرانهم العربان ، وعندما يشن هؤلاء عليهم هجوماً ، فإنهم يلجأون إلى الصخور وهناك يتخذون وضع الدفاع ، ويبدو أن العربان لا يحبذون القيام بغارات فى أرض غير مواتية لخيولهم وتشكل فى نفس الوقت مأوى آمناً لسكانها أو معاقل حصينة ، سيندمون فى معظم الأحيان إذا أرادوا اقتحامها .

وفى كل عام ، ينزل كثير من النوبيين إلى مصر هاربين من فقر مسقط رأسهم كى يبحثوا هناك عن عمل ، وهو الأمر الذى يكاد يماثل ما يفعله أبناء سافوى وأوفرن « إحدى مقاطعات فرنسا فى التقسيم الإدارى القديم » حين

يأتون إلى باريس . ويفعل أولئك مثلما يفعل هؤلاء إذ يظلون يحتفظون على الدوام بالرغبة المتأججة للعودة لقضاء آخر أيامهم وسط صخورهم ، وما إن يحصلوا على وسيلة لعيش ميسور بعض الشيء حتى يسارعوا بالعودة إلى بلادهم ليتخذوا لأنفسهم زوجات من بنات أمتهم . وعدد النوبيين فى القاهرة كبير ، ويشير إليهم التجار الأوروبيون باسم « بربران » Barbrin . ويتمتع هؤلاء بشهرة كبيرة فى الاستقامة والأمانة ، ويوحى إخلاصهم الذى لم يكذب مطلقاً بالثقة المنشودة ، ويكاد يعهد إليهم بحراسة بوابات كل البيوت والأسواق .

ترى من أين جاء لهذه الأمة كل هذا السمو الأخلاقى الذى يميزهم بدرجة كبيرة عن جيرانهم العربان ، الذين تبدو اللصوصية عندهم مهنة شريفة بل يمكن القول مهنة قومية ؟ أينبغى أن نبحث عن السبب فى ذلك ، فى نوع الحياة التى يحياها كل من هذين الشعبين ؟ فالنوبيون مزارعون والعربان رعاة . والحياة الزراعية تجعل الناس أكثر حساسية واستجابة لأفكار العدل والنظام والملكية . أما فى الحياة الرعوية فيحدث العكس من ذلك ، حيث تؤمن سهولة التنقل ، التملص من العقاب وعدم الوقوع تحت طائلته ، بخصوص كل الجرائم على وجه التقريب . ولهذا السبب فإن هذه الحياة ، التى يمتدحها الشعراء ، ويترحم عليها كثير من أولئك الذين لم يتمعنوا الطبيعة البشرية ، تقود إلى اللصوصية والنهب ، وإذا كان ما نقوله يحتاج إلى تأكيد عن طريق ضرب الأمثلة فيكفينا أن نذكر التتار والأكراد الذين يعيشون بلا مقر ثابت وإنما يقودون مثل العربان قطعانهم من مرعى إلى مرعى ، ولهم نفس عادات السرقة واللصوصية التى تسود عند هؤلاء .

والنوبيون مسلمون شديدو الحماسة لدينهم . وعلى الرغم من رقتهم ولطف معشرهم فإنهم يكنون الكثير من النفور والمقت نحو الأجانب ، ومن العسير عليهم على الدوام أن يروا هؤلاء فى بلادهم . ولقد قال لى أحد هؤلاء الذين كنت على صلة بهم فى فيلة : أنها هى هذه المبانى « الآثار » التى تجذب هؤلاء

الأغراب إلى هنا ، حسن ، ما أن يرحلوا حتى نبدأ فى هدمها كى يتركنا الناس هادئين فى بلادنا » .

لكن النوبيين لحسن الحظ ليسوا بالقوة ولا بالمهارة اللتين تكفلان لها أن ينفذا هذا المشروع الذى لا يمكن أن نعقله . ولم يكن هذا الطابع الجفول والشكاك للنوبيين ليقلقنا على أى نحو . ذلك أننا كنا فى حراسة قوة كافية ، ومع ذلك فيحسن بالرحالة العزل والمتفرقين الذين قد يأتون لزيارة الآثار الموجودة فى فيلة ، أو إلى الجنوب منها ، حيث هم لا يتمتعون بحماية كالتى فى حوزتنا ، أن يتخذوا كافة الاحتياطات الممكنة لكفالة سلامتهم وأمنهم .

ويكاد يكون لون بشرة هؤلاء النوبيين وسطاً بين الأسود الأبنوسى ، لون سكان سنار ، والأسمر البرنزى ، لون المصريين من أبناء الصعيد .

وهو يشبه بالضبط لون خشب شجر الأكاجة المصقول الغامق .

ويفيد البرابرة من هذه النقطة كى يضموا أنفسهم فى صفوف البيض .

سألت ذات يوم واحداً منهم عما إذا كانت إحدى القبائل التى كان قد حدثنى عنها للتو سوداء فأجابنى : « كلا ، كلا . . إنهم بيض مثلنا . . » .

وفى الحقيقة فإن ملامح النوبيين أقرب إلى ملامح الأوربيين منها إلى ملامح الزنوج فنسيج بشرتهم بالغ الرقة ، وليس للونهم أى تأثير منفر وتعطى الحمرة المختلطة به مظهراً من مظاهر الصحة والحيوية ، أما تقاطيعهم المعبرة والحية فتنبىء عن طيبة شديدة وتمتلىء تقاطيع الشبان منهم على وجه الخصوص بالرقة . كما أنهم يختلفون كذلك عن الزنوج فى أن شعرهم الطويل والجعد على نحو خفيف ليس له شكل الصوف . ولقد تأملت عديداً من أطفالهم كان شعرهم خليطاً من خصلات سوداء وأخرى شقراء ، وإن كان بريق هذه الشقرة ليس هو نفسه عند الاوربيين ، وإنما يقترب كثيراً من اللون الذى يكتسبه الشعر

الأحمر عند اقترابه من النار ، وليس هناك ما ينبىء عن أن شعر هؤلاء الأطفال قد اكتسب هذا اللون بشكل صناعى .

ولقد وجد الفرنسيون عندما دخلوا لأول مرة جزيرة فيلة فتاة نوبية تركتها أسرتها بعد أن أخذت — للمحافظة على عذريتها — احتياطاً بالغ القسوة إذا خاطوا بشكل تام عضو إخصابها ، وتنبىء هذه الواقعة أننا بصدد شعب تتملكه غيرة متأججة ، وفضلا عن ذلك فإن هذه العاطفة المتطرفة تتجلى فى تلك العناية التى يخفى بها النوبيون نساءهم عن نظرات الأغراب ، وقد حدث فى أثناء زيارة لنا إلى بعض قراهم — وكان يتبعنا منهم جمهور كبير — أن شاهدنا رجالا يتسلحون بالعصى ولا هم لهم إلا طرد النسوة اللائى جذبهن الفضول إلى موكبنا ، وبرغم ذلك فإن عادة التحجب الشائعة فى مصر ليست مستقرة بين النسوة النوبيات ، فهن يظهرن بوجه مكشوف ، ويتوزع شعرهن بين عشرات من الخصلات « البوكلات » الصغيرة المجعدة بشكل لولبى والتى تتماوج على الجبهة وعلى كل جوانب الرأس . وأرديتهن تغطى أجسامهن بشكل تام ، وقد شاهدنا البعض منهن يتلفعن ملابسهن على نحو يبقى الذراع الأيمن والكتف عاريين . وتبدو حركاتهن وهيأتهن تحت هذا الملبس ، رقيقة تكسوها مسحة من نبل .

ويتكون رداء البنت التى لم تبلغ سن البلوغ من حزام مصنوع من حبال صغيرة مجدولة فيما بينها وتتدلى أطرافها كأهداب حتى ثلث الفخذين ، ولا يخفى عريهن هذا أى حجاب آخر ، ومهما تكن هذه العادات لا تتطابق فى كثير مع أفكار العفة عند الأمم المتحضرة إلا أنها فى الوقت نفسه أكثر اقتراباً إليها من العرى التام ، وهو الأمر الشائع فى مدن مصر بل وحتى فى القاهرة ذاتها .

أما الرجال البالغون فيرتدون قميصاً أزرق أو أحمر اللون مثل الفلاحين

المصريين ، ويظل الأطفال عراة حتى سن الختان وعندئذ يتخذون لأنفسهم رداء ، وقد شاهدت كثيرين منهم يرتدون شالا « إيشارب » أبيض يتدلى من الكتف اليمنى فيغطى الكليتين والأعضاء التناسلية . ولهذا الملبس أثر طيب على نحو ما .

ولغة النوبيين رقيقة . . ليس فيها على الإطلاق هذه الأصوات الحلقية الشائعة فى اللغة العربية والتى تبدو غريبة على الأذن الفرنسية حتى لتصدمها عند سماعها إياها لأول مرة . ومن الممكن كتابة هذه اللغة (النوبية) بحروف الهجاء الفرنسية دون أن يتحور بذلك نطق الكلمات . ولقد قمت بعدة تجارب فى هذا الصدد ونجحت باعتراف أبناء النوبة أنفسهم ، وقد لاحظوا هم بدورهم تطابق نغماتنا ونغماتهم وقال لى أحدهم : « فى أول مرة سمعت فيها الفرنسيون يتكلمون ، ظننتهم أناساً يتحدثون لغتى نفسها دون أن أستطيع فهمهم » .

وقد تفضل المسيو فنسان Vincent عضو جمية الفنون فى مصر ، والذى أصبح يتحدث اللغة العربية بمهارة شديدة — فقبل بأن يكون بالنسبة لى مترجما لتجميع المعلومات الواردة فى هذه المذكرة ، ولم نكن نستطيع أن نعقد صلة إلا مع هؤلاء من النوبيين الذين يعرفون العربية ، وكانت المخارج الصوتية القوية لهذه اللغة ترق فى أفواهم ، ويتخذ العرب من ذلك مادة للسخرية من هؤلاء القوبيين ، ذلك أن كل أمة ترى عادتها قاعدة المفاضلة ونمطا للجمال .

وحيث أن الفترة التى أقمناها بين النوبيين لم تستمر إلا لبضعة أيام ، قضيناها كلها على وجه التقريب فى دراسة الآثار القديمة ، فانه لم يتيسر لى من الوقت ما يكفى لكى أجمع من اللغة النوبية المعلومات التى تكفى لتجعلنى فى وضع من يستطيع أن يحكم على ميكانيزماتها وعلى المصاهرات اللغوية التى قد تكون لها

مع اللهجات المحلية الأخرى التى تستخدمها مختلف شعوب أفريقيا ، ومع ذلك فأظننى أستطيع أن أؤكد أنها لا تختلط مع لغة أى شعب عرفناه حتى اليوم .

وقد ظن بعض الناس أن النوبيين (البرابرة) يمكن أن يكونوا مستعمرة للبربر ، والأخيرون هم ذلك الشعب الذى يسكن جبال أطلس والذى يتكلم هو الآخر لغة متميزة عن لغة كل المحيطين به ، لكن هذا الافتراض الذى ينهض على تشابه فى الأسماء ساقط من أساسه ، ومن السهل التدليل على ذلك بمقارنة الأسماء التى تميز الأرقام العددية الأولى فى اللغتين . وقد حصلت على الأرقام فى لغة البرابرة (النوبيين) وأنا مقيم بينهم وعن طريق رجل من أهل البلاد ، أما أرقام اللغـــة البربرية فقد حصلت عليها من طريق المسيو لانجليه Langlès الذى ألحق بترجمته لرحلة هورنمان Hornmann وملخصاً بالمفردات الأساسية للغة البربرية قام بوضعه المسيو فنتور Venture والمودع على شكل مخطوط بالمكتبة الملكية .

الرقم الفرنسى (العربى فى الترجمة)	الرقم النوبى	الرقم البربرى
واحد ـ واحدة	ويرا	وين ـ ايان
(احد ـ احدى)		وان ـ وا
اثنان ـ اثنتان	أوو	سن ـ سلست
ثلاث ـ ثلاثة	توسكو	كراد
أربع ـ أربعة	كمسو	كوز
خمس ـ خمسة	ديجه	سموس
ست ـ ستة	جورجو	سديس
سبع ـ سبعة	كولدا	ست
ثمان ـ ثمانية	إروو	تم
تسع ـ تسعة	أوسكدا	دزا
عشر ـ عشرة	ديمه	ميزوا

وقد شاء المستشرق المسيو مارسيل Marcel عضو المجمع المصرى استجابة لطلب منى أن يشكل لوحة توضح التقارب بين الأسماء المعبرة عن الأرقام العددية الأولى فى ثمان وعشرين لغة افريقية قديمة وحديثة ولم أجد أى تشابه بين الأرقام النوبية والأرقام التى تنتسب إلى لغات أخرى .

وحيث أن العربان يشغلون الصحراوات التى تفصل النيـــل عن البحر الأحمر وكذلك تلك التى تقع إلى الغرب من الصخور المحيطة بالنيل فقد نتج عن ذلك أن اللغة النوبية قد انحصرت بشكل تام فى ضفاف النيل حيث لا تنتشر إلا فى مساحة خمس درجات فقط من خطوط الطول .

وتعتبر قرية قناق الواقعة على الشط الأيمن (الشرقى) للنيل على بعد ٦ ميريامتر « ٦٠ك . م » من أسوان عند الإتجاه شمالا نحو كوم أمبو النقطة القصوى فى إتجاه الشمال والتى يسكنها النوبيون ، ويبدو سكان هذه القرية كما لو كانوا مستعمرة منفصلة ومنعزلة بين بقية الشعب النوبى ، ويمكن العثور عليها بالصعود إلى جنوب أسوان من جديد ويقطن المنطقة العازلة ، وكذلك مدينة أسوان ، مصريون .

ويسكن جزيرة الفانتين ويقوم على زراعتها النوبيون ، وعندما يبحر المرء إلى الجنوب لمدة ستة أيام يجد هذا الامة حوله على الشاطئين ثم يجد ولمدة يومين آخرين قبيلة عربية وبعد ذلك يجد المرء نفسه من جديد محاطاً بالنوبيين الذين تمتد منطقتهم حتى الشلال الكبير .

لقد حصلت على هذه التفاصيل عن طريق نوبى حاد الذكاء يسمى الحاج محمد ، وهو قد ذهب عدة مرات إلى الشلال الكبير ، وقد أضاف بأنه يوجد فى جنوب الشلال الكبير شعب مزارع بالغ الطيبة يسمى المحس ، ويخضع هذا الشعب لعربان الشيقية الذين يخطفون فى أثناء إغاراتهم الأطفال ويلحقونهم

بالمحس بقصد زيادة عدد الفلاحين الذين يعملون لحسابهم . وهناك احتمال كبير فى أن يكون المحس ينتمون لنفس النوبيين ؛ ويمتـــد هذا الجنس إلى جنوب الشلال حتى دنقلة عند الدرجة الـ ١٩ من خطوط العرض .

وقد رأينا فى تقرير الرحلة التى قام بها بونسيه poncet فى عام ١٦٩٨ حين كان متوجها إلى أثيوبيا عن طريق الواحة الكبرى ، انه بعد أن عبر صحراوات الشب وسليمة قد وصل إلى النيل فى مكان تقع فيه ضيعة ضخمة تسمى مشو يقول بأنها « تتبع ملك سنار وتشكل بداية لبلاد البارورا الذين نسميهم نحن بربران » وفى الواقع فان النوبيين يعرفون بهذا الاسم « بربران » عند التجار الأفرنج المقيمين فى القاهرة .

ولقد أقام المستر براون Brown لمدة ثلاثة أعوام فى كبكبة فى دارفور ووجدها مدينة عامرة بالتجار المولودين على ضفاف النيـل فى المحاز ودنقلة ، وهما منطقتان تروعهما كما يقول هجمات عربان الشيجية « الشيقية » وهو الأمر الذى يطابق المعلومات التى قدمها لى الحاج محمد ، وفضلا عن ذلك فان المستر براون يقول بأن لون هؤلاء التجار زيتونى ، وأن ملامحهم تشبه بعض الشىء ملامح الأوروبيين ، وأن تقاطيعهم على وجـــه العموم مناسبة ومعبرة . وفى هذه الملامح لا يمكن أن نخطىء النوبيين حتى لو لم ينقل إلينا هذا الرحالة بأن هؤلاء يتحدثون فيما بينهم بلغة البرابرة .

وقدم إلى الحاج محمد أسماء كثيرة من القرى والنجوع التى يسكنها النوبيون والتى تقع على ضفتى النيل إلى الجنوب من فيلة .

وتقع اثنتان من هذه القرى إلى الشمال مباشرة من الشلال الكبير ، ويطلق على تلك التى تقع على الشط الشرقى للنيل اسم سيوارتى أما الأخرى الواقعة على الشط المقابل فتسمى اللواناتى ، وتضم القائمة التى كتبت بإملاء من

الحاج محمد ٨٣ نجعاً يقع أربعة وأربعون منها على الشاطىء الشرقى وتقع التسعة والثلاثون الأخرى على الشاطىء الغربى .

ومن بين تلك النجوع الواقعة على الشاطىء العربى « الشرقى » توجد الدر وابريم اللتان ينبغى أن نوضح أهميتهما : فابريم تعتبر بمثابة عاصمة لبلاد النوبة ، وربما يكون لنا أن نطلق عليها إساءة منا لاستخدام المصطلحات اسم مدينة وتذكر سبع من القرى الواقعة على الشاطىء الغربى باعتبارها تضم أطلالا وآثاراً مصرية قديمة . وقد أكد الحاج محمد وعديد من النوبيين الذين شاركوا فى مهمتنا أن الكثير من هذه الأنقاض تماثل فى ضخامتها ودقتها آثار فيلة التى كنا فى ذلك الوقت نراها بأعيننا وهذه القرى هى !

١ — دبودة التى يمكن الذهاب إليها من فيلة فى بضع ساعات .

٢ — أبسكو ٣ — قرتاس .

٤ — هنداو « وهذه الأماكن الثلاثة شديدة القرب من بعضها البعض ، ويمكن الذهاب إليها من فيلة فى بحر يوم » .

٥ — كلابشة غرب : وتقع على مسيرة يومين من فيلة .

٦ — العلاقى وتقع على مسيرة أربعة أيام ونصف يوم من فيلة « وقيل لى أن بها مبنى أثريا ضخما وثلاث مسلات كبيرة » .

٧ — السبوع على بعد خمسة أيام من فيلة .

وكنت فى ذلك الوقت أجهل أن المسيو نوردان قد اتجه عن طريق النيل جنوبا حتى « الدر » وانه قد تعرف على أطلال آثار مصرية فى ثلاث نقاط على الشاطىء الغربى .

واليكم تبعاً لما ذكره نوردان أسماء الأماكن التى تقع بها هذه الآثار :

سهداب ، الدكة ، أبو هور ، على الشاطىء الشرقى ، دبودة ، هنداو ، تيفا ، مارية ، الدندر ، قرشة ، السبوع ، عمدا ، على الشاطىء الغربى .

ومما تجدر ملاحظته أن هاتين القائمتين لاتقدمان سوى ثلاثة أسماء مشتركة هى « دبود ، هنداو ، السبوع كما ترد فى قائمة الحاج محمـــد والتى نجدها عند نوردان : دبدوده ، هنداو ، السبوع . ويبدو تبعاً لذلك انه توجد أطلال « آثار » فى أربعة أماكن أفلتت من أبحاث هذا الرحالة ، لكننى أظنه قدخلط بآثار هنداو تلك الآثار التى يضعها الحاج محمد فى ابسكوو قرتاس ، فقد ذكر هذا النوبى هذين المكانين باعتبارهما قريبين من هنداو ويحكى المسيو نوردان أنه لاحظ فى مساحة تبلغ أكثر من ربع فرسخ على مرتفعات هنداو وجود جدران وأساسات لمنشئات متعددة بالغة الروعة ، ولابد لخرائب تشغل كل هذه المساحة أن تبرهن على أن مدينة هائلة كانت فيما مضى تقوم فى هذا المكان .

ويخيل إلى كذلك أن الآثار التى يضعها الحاج محمد فى كلابشة غرب هى نفس آثار تيفا التى يتحدث عنها نوردان ، وفى الواقع فان تيفا فى خريطة نوردان تقع على الشط الغربى للنيل ، فى مواجهة مكان يسمى كلابشه ويقع على الشط الشرقى ، ومن جهة أخرى فان كلمة كلابشة غرب تعنى كلابشة الواقعة جهة الغروب وتقع فى البيانات التى قدمها الحاج محمد فى مواجهة كلابشة شرق تماماً ، وتعنى هذه الكلمة « كلابشة شرق » كلابشة الواقعة جهة الشروق .

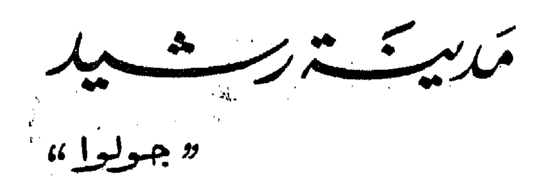
ونجد على الدوام فى هذا الجزء من مجرى النيل قرى تقع الواحدة فى مواجهة الأخرى وتحمل كل منهما نفس الاسم ، وتتميز كل منهما بالصفتين : شرق وغرب ، ونجد على ذلك أمثلة عديدة فى تقرير نوردان وكذلك فى قائمة الحاج محمد التى سأدونها فى ذيل هذه المذكرة .

ولو أن قائمة أسماء النجوع والقرى التى كونتها حسب المعلومات التى قدمها إلى هذا النوبى ، الحاج محمد ، كانت لا تشتمل إلا على البلاد التى رآها المسيو نوردان لما وجدت أهمية تذكر من وراء نشرها ، ذلك أن الوقائع التى رآها فى أماكنها رحالة أوربى ستكون على الدوام أكثر مدعاة للثقة ولاشباع الفضول من تلك التى يقدمها واحد من أهالى البلاد لا يزال — حتى مع ذكائه الشديد — فى مرتبة أدنى بالنسبة لهذا الرحالة من ناحية العلم ودقة التفكير ، لكن قائمة الحاج محمد تحتوى جزءاً من مجرى النيل لم يره المسيو نوردان مطلقا وهى تلك المنطقة الممتدة من جنوب الدر حتى الشلال الأكبر ، ولما كانت المعلومات التى تثير فضول الجغرافيين حول هذه البلاد تنقصنا بشكل تام ، فانه يبدو لى أن نشر هذه القائمة لن يخلو من نفع ، حتى ولو لم نكن نرجو من وراء نشرها ، إلا أن تثير وأن تعين على تخيـــل أفـكار قد تقود ذات يوم ، إلى معارف أكثر دقة .

الجانب العربى أو مايطلق عليه الجانب الشرقى أو شرق	الجانب الليبى أو مايطلق عليه الجانب الغربى أو غرب
الباب	الحصة
—	تنجار
قلة طود	بشير
كوندى	دبود
بهانة	—
جودى	أبسكو
سيالة	قرتاس
دهميت	هنداو
الأمبركاب	تيفا
كلابشة شرق	كلابشة غرب
أبوهور شرق	أبوهور غرب
مارية	مرواو
قرشة شرق	قرشة غرب
كشتمنة شرق	كشتمنة غرب
العلاقى	العلاقى
سيالة	قورته
باردة	—
كرسكو	أدندان
الديوان	شاتورمة
—	الريقة

الجانب العربى أو مايطلق عليه الجانب الشرقى أو شرقى	الجانب الليبى أو مايطلق عليه الجانب الغربى أو غرب
أعراب	—
—	جبل حمام
—	توماس
الدر	—
تنقالة	—
الشيقية	—
—	كوكر
—	العفت
—	مصمص
ابريم	—
توشكى شرق	توشكى غرب
أرمنا	أبو سنبل
أدندان	فرس
سرة شرق	سرة غرب
فرقندة شرق	فرقندة غرب
أشكيت	أرقين
دبروسة	—
وادى حلفا	—

(٩)



العنوان الأصلي للدراسة هو :

« دراسة موجزة عن مدينة رشيد » .

« وتشتمل هذه الدراسة على وصف عبورنا عن طريق البحر من الاسكندرية إلى هذه المدينة ، وكذلك على وصف الرحلة من رشيد إلى القاهرة عن طريق النيل » .

الفصل الأول

العبور من الإسكندرية إلى رشيد

بعد بضعة أيام من نزول الفرنسيين إلى الاسكندرية أعطى القائد العام ، بعد أن قام باستعراض للجيش ، إشارة الرحيل ، فتوجهت فرقة إلى رشيد ، بينما تقدمت الفرقة الرئيسية نحو دمنهور ، لكي تصل بعد عبورها جزءاً من الصحراء ، إلى تلك السهول الخصيبة من وادي النيل . وكنا قد استولينا لصالح الجيش على كل ماكان يوجد بالإسكندرية من مؤن ضرورية ، وكان على الذين لم يتلقوا - مثلي - أمراً بوجهتهم أن يبقوا بالمدينة ليعانوا طيلة الأيام من مشاق ضخمة في سبيل التزود بضرورات الحياة .

وفي هذه الظروف ، الشاقة بقدر ما هي حرجة ، اتخذت مع عـــديد من الرفاق قراراً بالتوجه إلى رشيد ؛ وهي مدينة تقع على شواطىء النيل ، وقد كنا نظنها - ونحن محقون في ذلك - زاخرة بكل أنواع المؤن . وبعد أن اجتزنا الآلاف من المشاق والصعوبات ، مما لا نرى فائدة من تعداده هنا ، أبحرنا فوق مركب حربي صغير من مراكب الحراسة كان راسياً في الميناء الجديد . اجتزنا الممر القريب من الفنار وسرنا بحذاء الشاطىء ، ووصلنا لنرسو وسط الأسطول الفرنسي الذي كان قد ألقى رواسيه في خليج أبي قير . وفي اليوم التالي أبحرنا نحو فتحة مصب النيل .

وسواء كانت الرياح التي تهب بعنف قد أقلقتنا ، أم كنا نخشى الا يكون

عمق مياه البوغاز[1] كافياً فإننا لم نقرر مطلقاً فى هذه الظروف أن نعمل على إدخال مركبنا إلى النهر . عندئذ جعلونا نمضى فوق زورق مدفعية غاطسه غير عميق . وحيث كانت المياه شديدة الهياج فإن تغييرنا لسفينتنا لم يتم إلا بشق الأنفس. صعدنا إلى زورق المدفعية ونحن نلعن البحر والأسفار ، وعلى بعد ثلاثة أرباع الفرسخ من مصب النيل كان لون المياه أخضر فاتحاً ، بل لقد لمحنا بوضوح ، الخط الفاصل بين اللون الأخضر ، لون مياه النيل ، واللون الأزرق ، لون مياه البحر . وما أن اجتزنا البوغاز حتى تغير اللون الأخضر إلى اللون الأصفر ، الناتج بلا ريب من لون الرمال التى ينقلها النهر إلى مصبه ، والناتج كذلك من لون الطمى العالق بمياه النهر . وعندما يكون البحر هائجاً فإن عبور البوغاز يشكل بالفعل مشهداً مفزعاً . كذلك فإن كثبان الرمل التى تحيط بفتحة مصب النهر متحركة مثل الأمواج ذاتها . وليس لمن يبحر فى هذه المنطقة أن يأمل فى النجاة من الغرق إلا إذا كان يقوده بحار متمرس شديد الخبرة . ولقد كان معنا لحسن الحظ بحار بالغ المهارة جنبنا بحذق شديد مهالك يمكن القول بأنها كانت تحيط بنا من كل مكان . وما أن دخلنا النهر حتى أبدى البحار ابتهاجا شديداً ، وعبر له بعض الركاب ، وهم يعطونه بعض قطع النقود ، عن بالغ تقديرهم لمهارته وحذقه .

كنا قد خلفنا وارءنا العواصف والبحر الهائج ، ولم نعد نسمع صوت ضوضاء الأمواج التى كانت تتدافع لتتكسر فى صمت على كتل الرمال وعلى الشاطىء ، وكنا نستمتع بالهدوء شديد العمق ، وكنا نتابع بعيوننا جمال شواطىء النيل الذى

---

(١) كلمة بوغاز بالتركية تعنى gosier أى الحلقوم . والبوغاز عبارة عن مدخل شديد الضيق ، يصل إليه المجرى مخترقاً كتل الرمال ، مكوناً ذراعاً عند مصب النيل . وهذه الكتل الرملية قد نتجت عن ترسيبات النهر ، حين يفقد سرعته عند اقترابه من البحر . وليس هناك ما هو أكثر تقلباً من هذا الممر ؛ فكتل الرمال التى يخترقها ، تتحرك على الدوام بفعل أمواج البحر ؛ وعندما تهب رياح الغرب ، أو رياح الشمال ، بشىء من العنف ، تندفع مياه النيل من جديد عائدة إلى مصدرها ، فيضطرب المجرى فى كل مكان ، حين تلقى المياه أدنى مقاومة .

يستعصى على الوصف فلم نجد أى أثر للمبالغة فى تلك الحكايات التى كان يقصها الرحالة الذين سبقونا إلى هذا المكان ، وكانت الريح تملأ شراعنا ، وكنا نتقدم بسرعة نحو مدينة رشيد ، الهدف القريب من رحلتنا ، وسرعان ما اجتزنا أنقاض حصن قديم مهجور ، كان يستخدم فيما مضى لحراسة مدخل النيل والذى خاض منه الفرنسيون فيما بعد معركة دفاع بطولية[1] بعد أن كان قد أصبح بعد ترميمه[2] مقراً للعجزة والجرحى الفرنسيين .

خلفنا عن يسارنا جزيرة كبيرة بعض الشيء ، تغطيها الخضرة وتنتج أجمل المحاصيل ، أما عن يميننا فقد كان ثمة غابات من النخيل ذات خضرة أخاذة ، وحيث أن شطئان النهر قليلة الارتفاع فقد كان مدى البصر يمتد إلى بعيد حيث القرى الصغيرة والخصيبة ، وكنا نلمح هنا وهناك كفوراً تتكون من عدة منازل بعضها من الطوب وبعضها مجرد أكواخ من قش البوص ، وكنا نلمح هنا وهناك كذلك بعض مساكن منعزلة ومآذن رائعة وأضرحة ومقابر لأولياء المسلمين تتجمع حولها بشكل جذاب بعض مجموعات من النخيل . أمام جهة الدلتا ، فقد كانت العيون تستقر بارتياح وإعجاب فوق حقول يغطيها الأرز ، فتشكل واحداً من

---

(١) فى التاسع من جرمينال من العام التاسع (١٩ أبريل ١٨٠١) ، هوجم حصن جوليان . وقد أطلق الفرنسيون عليه هذا الإسم ، وهو اسم مساعد قتل عند النزول إلى الاسكندرية بيد الإنجليز ، وقد أبدى الحصن مقاومة كبيرة ، وتحمل حصاراً دام عشرة أيام ، على الرغم من النيران المستمرة التى كانت تطلقها المدفعية القوية المعادية . وفى النهاية استسلمت الحامية ، يوم التاسع والعشرين ، بعد أن نالت كل أمجاد وشرف القتال . وسأل الإنجليز ، وهم لا يرون إلا صفاً من العجزة والمشوهين : متى لإذن ستخرج الحامية ؟ ذلك أنهم لم يكونوا ليتصوروا مطلقاً ، أنهم كانوا مشتبكين فى هذا القتال العنيف مع عجزة وعميان .

وينبغى أن نتذكر هنا ، أنه عند عمل تنقيبات ، وقت ترميم هذا الحصن ، عثر المسيو بوشار Bouchard ، الضابط المهندس ، على حجر رشيد الشهير ، ذلك الأثر الثمين ، الذى وضع منذ وقت طويل تحت يد علماء أوربا ، وقد صورت الكتابات الثلاث الموجودة على هذا الأثر المصرى على اللوحات ٥٢ ، ٥٣ ، ٥٤ ، المجلد الأول ، الدولة القديمة .

(٢) أنظر شكل هذا الحصن ، المجلد الأول ، اللوحة ٨١ ، الدولة الحديثة .

أبهج المشاهد . وغير بعيد من النهر ينمو بوفرة شديدة عديد من المحاصيل والشجيرات يلاحظ من بينها غابات من أشجار البرتقال وأشجار الليمون التى تنشر شذى طيباً . أما شطآن النيل نفسها فتزينها نباتات الغاب والخيرزان والبشنين «عروس النيل» ، وتتوزع هنا وهناك فى كل مكان أشجار الجميز الضخمة والتى تغطى أفرعها الكبيرة مساحة واسعة ، فتشكل واحداً من أبهج مشاهد الخضرة ، وتدب الحياة فى هذه اللوحة الرائعة حين يظهر بين الحين والحين بعض السكان الذين كانوا ، بلحيتهم الطويلة وردائهم ، يشكلون بالنسبة لنا شيئاً رائعاً وغير مألوف فى وقت معا ، وكان هذا المشهد مثارا لاهتمامنا الكبير على الدوام .

وفى النهاية ، وصلنا إلى ميناء رشيد ، وكانت القوات الفرنسية قد سبقتنا إلى المدينة فى اليوم السابق .

الفصل الثانى

المظهر الخارجى لرشيد وضواحيها

تقع رشيد أسفل خط العرض ٣٥ً ٨َ ٢٨° وعلى خط طول ٣٤ً ٢٤َ ٣١° وهذه المدينة ، التى كانت قليلة الأهمية فى زمن أبى الفداء ، هى اليوم واحدة من أهم مدن مصر بسبب موقعها وتجارتها واتساعها .

وحيث أن رشيد قابعة على شط النيل وعلى بعد ثلاثة فراسخ من البحر ، فإنها تستخدم كمستودع للبضائع القادمة من القاهرة ، والمناطق العليا من مصر «الصعيد» كى تنقل إلى أوربا عن طريق الإسكندرية ، وبنفس الطريقة ، فهى تستقبل البضائع التى تنزل إلى الإسكندرية قادمة من أوربا : وتنقل هذه البضائع إلى القاهرة عن طريق النيل ، ومن هناك تتوزع إلى كافة أنحاء مصر . ويرجع إنشاء رشيد إلى القرن التاسع ، ويخبرنا المكين بأنها قد بنيت فى عهد المتوكل خليفة

بغداد حوالى عام ٨٧٠ . ولقد ورثت رشيد المكانة التى كانت تحتلها من قبل مدينة فوه والتى كانت فيما مضى ، شأنها فى ذلك شأن مدينة رشيد ، مستودعا للتجارة ، ومقرا للقناصل الأوربيين ، ثم زال عنها اليوم مجدها القديم .

وقد استمد فرع النيل الذى يمر أمام هذه المدينة اسمه من اسمها ، وكان هذا الفرع يحمل فى العصر القديم إسم الفرع البولبيتينى نسبة إلى مدينة بولبيتين الواقعة على نفس الفرع . ويشير إتيان دى بيزانس إلى هذه المدينة دون أن يحدد موقعها بدقة ، ويتحدث بلين عن فتحة «مصب» بولبيتين على النهر لكنه لا يتحدث ولو بكلمة واحدة عن المدينة . ويمكن الاعتقاد بأن موقع بولبيتين كان يوجد إلى الجنوب من رشيد غير بعيد عن حصن أبو منضور الذى سنتحدث عنه عما قليل . وفى الواقع فإنه يوجد فى أسفل هذا الحصن خليج صغير ، نصف دائرى ، يبدو أنه كان يستخدم فيما مضى كميناء ، وقد أصبحت تسده هذه الأيام رمال الصحراء ومنذ فترة غير بعيدة تمت تنقيبات فى هذا المكان فعثر فيه على أعمدة رائعة من الجرانيت[١]، وهذا سبب جديد يحبذ الاعتقاد فى صحة الرأى الذى عرضناه للتو عن الموقع المحتمل لمدينة بولبيتين القديمة .

ولكى نصل إلى حصن أبو منضور ، سرنا بحذاء الشط الأيمن للنيل ، وهو شط مناسب لحد كبير ، وفى النهاية لمحنا ثلاث قطع من الأعمدة الجرانيتية ، اثنتين منها تمثلان بقية الأعمدة المزدوجة التى كانت مقامة على شواطىء النهر ولكن لعل هذه القطع التى وجدناها كانت بعيدة بعض الشىء عن موقعها الأصلى . وقد رأينا كذلك على بعد مسافة من هذه القطع جذعا آخر لعمود كان الأهالى يستغلونه فى صنع الرحيان «رحى» . وهذه الآثار القديمة التى عثرنا عليها فى هذا المكان الذى أشرنا من قبل إليه تأتى لتدعم أكثر ، احتمال كون هذا المكان

---

(١) أنظر رحلة إلى مصر العليا ومصر السفلى ، تأليف سونينى Sonnini ، المجلد الأول ، ص ٤٠٥

هو الموقع الجغرافى لتلك المدينة التى أعطت اسمها فى العصر القديم للفرع البولبيتينى .

وعند سفح حصن أبى منضور ، توجد صومعة إسلامية « زاوية » يشكل مظهرها النظيف تناقضاً صارخاً مع تلك المساكن القذرة فى أحط أحياء رشيد ، وهى ملحقة بمسجد أقيم تكريماً لولى مسلم تقع مقبرته فى داخله . وأبو منضور هو اسم هذا الولى ، وهـذا الإسم يعنى بالعربية : أبو الروعة وأبو الجمال ، أما المكان نفسه فهو بمثابة مزار يتوقف عنده البحارة والمسافرون ليقدموا نذورهم إلى شيخ الجامع حتى يحوزوا بركة ورضاء الولى ، كما يحدث الأمر نفسه فى مزارات كثيرة لأولياء آخرين عرفناهم فى مصر ، حيث يبلغ الوهم بالناس أن الولى من هؤلاء ، قادر على جلب الخصوبة للنسوة العقيمات اللاتى يجئن إليه ضارعات .

وينهض حصن أبى منضور على أحد المرتفعات المبتعدة إلى الجنوب ، والتى تلامس الخليج الصغير الذى تحدثنا عنه ، وهو مربع الشكل ويبدو أنه قد بنى فى زمن العرب ، وهو متهدم حتى أساسه وينذر بانهيار قريب ، ومن حوله تتراكم الرمال التى تذروها رياح الصحراء فغاص فيها حتى منتصف ارتفاعه ، وتحيط به المقابر وكأنما الأمر نذير بالدمار الذى سيكون عليه هـذا المكان ذات يوم .

وعندما صعدنا إلى المبنى تمتعنا بواحد من المشاهد الجميلة والتى تختلف اختلافاً بيناً عن تلك المشاهد التى ألفناها فى أوربا ، فهى ليست تلك المشاهد الرومانسية التى تعلن عن نفسها تلقائياً بتنوع مناظرها الطبيعية حيث الجبال والسهول تشكلان تناقضات جذابة للعيون ، فالتناقضات هنا محددة بحسم ، فهناك الصحراء الليبية فى جانب ، وفى الجانب الآخر هناك شواطىء النيل البهيجة ، وهـكذا يمكن القول بأن الحياة والموت يتجاوران . وإلى الغرب نلمح تلك الصحراء التى تفصل رشيد عن الاسكندرية ، لكن المشهد يضيع وسط الرمال

المتحركة التى لم تبق مطلقاً على أثر لخطوات الرحالة . ولقد كان من الممكن ألا نلحظ الآثار الواقعة على طريق الاسكندرية — رشيد لو لم تكن تشير إليها وتلفت الأنظار تلك الأعمدة من الطوب النيء التى تنهض تباعاً بطول الطريق ، وتزحف هذه الرمال المتحركة حثيثاً نحو مدينة رشيد حتى ليبدو وكأنها تريد أن تغزوها كلية ، فهى تتراكم حول أشجار النخيل وحول أقل العوائق التى هنالك لتكون كثباناً يتزايد عددها يوما بعد يوم ، ولسوف تغطى عما قليل ، الرقعة المنزرعة من الأرض ، وحينئذ ستكون هذه الرمال ـ كما سبق أن عبر المصريون القدماء بدقة ـ هى طيفون الرهيب الذى يهدد بغزو مملكة أوزريس ، أى أرض مصر الخصيبة .

وعندما ينتقل المرء بنظراته نحو الشرق ، يرى تحت بصره نيل مصر العظيم ، تسبح فوقه قوارب ذات شكل جذاب . ويرى كذلك ريف الدلتا البهيج حيث تمتد حقول الأرز وصفوف أشجار النخيل والجميز ذات الخضرة اليانعة ، رائعة الجمال . كل شىء فى هذا الجانب ينم عن حيوية دافقة ، وكل شىء فيه يمتلىء بالحياة ، فهناك ترى قطعان الجاموس ، ترعى الكلأ أو تغمس جسدها فى النهر ، وترى الفلاح منهمكا فى أعمال الحقل دون أن يسمح لنفسه بالتقاط أنفاسه . فتراه وهو يدير ماكينة الرى كى يسقى حقوله فينمو محصول الأرز وينضج فيحصل بذلك على مقابل ما بذله من جهد بالإضافة إلى ما يبتغى من ربح .

وليس الريف فى شمال الدلتا بأقل ثراء أو أقل خصوبة ، ولا هو أقل محصولا ، وتقطع الريف هناك وتخترقه آلاف من الترع والقنوات الصغيرة التى توزع فى كل مكان مياه النهر ، سواء كانت تأتى إليها المياه بشكل طبيعى أو كانت ترفع إليها عن طريق ماكينات هيدروليكية من تلك التى تستخدم فى هذه البلاد . ويشكل البحر خلفية هذه اللوحة ، حيث يمتزج امتداده مع السماء .

ويمكن للمرء من حصن أبى منصور أن يلاحظ حركة السفن التى تسير بحذاء شاطىء البحر كى تدخل إلى مصب النيل، كما يمكنه أن يرى تلك السفن الضخمة التى تمخر عباب البحر. وكم من مرات تملكتنى النشوة فى هذا المكان وأنا واقف أتطلع ذلك المشهد الرائع، فبعد أن أكون قد أنهكت طويلا فى العمل كنت أذهب إلى هناك ساعياً للترويح عن النفس، وعلى نفس المنوال. فعندما كانت ذكرى الوطن الحلوة تلح على مخيلتى بشكل قوى، كنت أذهب إلى البرج وهناك كنت أرى — فى مخيلتى — الطريق المؤدى نحو الوطن، نحو فرنسا، التى لا يمكن للمرء مطلقاً أن يفارقها دون أسى. وذات يوم، وبينما أنا غارق فى أفكارى الحزينة، تتولد فى نفسى هذه المشاعر، دوى فى أذنى فجأة صوت مكتوم، وتكرر الصوت مرة ثانية، وثالثة، وأخيراً تبينت الأمر، إنها أصوات مدافع.

كانت أول فكرة خطرت لى هى أن هذه الأصوات لا يمكن أن يكون مصدرها إلا الأسطول الفرنسى الذى ألقى رواسيه فى خليج أبى قير، عندئذ ألقيت ببصرى فى هذا الاتجاه فأبصرت كل بحريتنا، لكن الشمس كانت عندئذ تغيب خلف الأفق، وعندما أصبح الليل معتماً أمسى فى الإمكان رؤية البروق الناجمة عن طلقات المدافع، وأطلقت السفن دفعة واحدة مدافعها وعلى الفور، حلت ضجة مفزعة مكان ذلك الصمت العميق، آه.. لقد اشتبك الأسطول الانجليزى مع أسطولنا ودارت معركة وحشية. وظهر بريق أبيض أخذ وضوحه يزداد على الدوام ليعلن أن ثمة سفينة قد اشتعلت فيها النيران، وبرغم ذلك فإن هذه السفينة[1] لم تتوقف عن صب مدافع أجنابها بينما تتلاعب بها الأمواج مظهرة مؤخرتها تارة وجانبها تارة أخرى، كانت تشتعل بينما هى تقاتل، وظلت

(١) كانت هذه السفينة تسمى لوريان l'orient، أى الشرق، وهى مكونة من ثلاث طوابق، وكان يقودها الأميرال بروى Brueye.

على هذا الحال نحو ساعة ، حتى قفزت عالياً فى الهواء عندما وصلت النيران إلى مخزن البارود . . وفى حياتى كلها ، لم تر عيناى مشهداً يبعث كهذا المشهد على الروعة والرعب فى وقت معاً ، ولتتصوروا حزمة كبيرة من النيران ترتفع من وسط البحر داخل دائرة من سحب الدخان والأنقاض الملتهبة ، إن أنفجار بركان لا يمكنه مطلقاً أن يقدم مشهداً أكثر روعة وفى نفس الوقت أكثر رعباً . وفى واقع الأمر ، فإنك ما أن تتخيل بمجرد تخيل أخطار معركة بحرية فسوف ترتجف على الفور : فكل شىء هناك يتواطأ على هلاك الإنسان : البحر الهائج والرياح المزمجرة والنار المهلكة المدمرة .

لنحو عشر ساعات من الليل كفت أصوات المدافع عن أن تسمع ، ولكن ما كادت أصوات المؤذنين فى اليوم التالى تنادى الناس إلى الصلاة من فوق المآذن[١] حتى عادت المعركة تنشب من جديد ، وعندما يكون المرء بالغ التأثر لحد عميق ، وعندما تأكله الأفكار والهموم والقلق فإنه يخلع على الأشياء الخارجية ذلك اليأس الذى يستبد بنفسه هو ، ذلك أنه لم يسبق لى مطلقاً من قبل أن رأيت نداء هؤلاء المؤذنين وهو الذى على يتم الدوام فى نغمات مقبورة ، حزينا هذه الدرجة من الحزن والأسى . وأسرعت إلى حصن أبى منضور . كانت ثمة سحب من الدخان كما كانت هناك ضجة مكتومة تعلن أن المعركة تدور بضراوة ، وبعد ذلك لاح منظر شبيه بالمنظر الذى رأيته فى المساء : سفينة[٢] أخرى تشتعل فيها النيران وهى تقفز فى الهواء . . لنكف الآن عن الحديث عن هذه المعارك القاتلة

---

(١) يدعو المؤذنون للصلاة خمس مرات فى اليوم ، فى الصباح قبل شروق الشمس ، وفى الساعة التاسعة (كذا) ، وعند الظهيرة ، وفى الساعة الثالثة ، وعند غروب الشمس .

(٢) هذه السفينة هى الفرقاطة l'Artémise ، التى كان يقودها الكابتن ستانلى . وعندما لم تطاوع قائدها نفسه على الاستسلام ، أضرم النار فى سفينته ، بعد أن قاتل حتى النهاية . وقد أنزل كل بحارته على البر ، وكان هو نفسه فى أمان ، لكنه حين لاحظ أن النار لا تنتشر فى السفينة بالسرعة الكافية ، عاد إلى سطح السفينة ، وجمع اثنين من البحارة ، كانا مخمورين فى العنبر ، وهرع بهما إلى قاربه . وأشعل بنفسه النار فى كل مكان ، وانصرف ، وبعد لحظات لم يكن للسفينة من أثر .

والحزنة فلم يكن النصر حليف الفرنسيين هذه المرة، ولم يكن لهذا النصر أن يقدم لهم مباهجه إلا بعد عام كامل، وفى نفس مكان تلك المعركة الشهيرة : معركة أبى قير[١]، حيث سحق الفرنسيون جيشاً تركيا بأكمله يتكون من ١٥-١٨ ألف جندى، ألقى بكثير منهم فى البحر، ووقع الباقون أسرى، دون أن يتمكن رجل واحد منهم من الهرب .

وطيلة إقامتنا فى رشيد كنا نتابع جولاتنا إلى خارج المدينة، وعبرنا المراعى التى تقع إلى الشمال من المدينة تجاه البحر، وتروى هذه المراعى قنوات ضيقة تغذيها بالمياه — فى الوقت الذى لا تمتلىء فيها هذه القنوات بشكل طبيعى — سواقى سوف نتحدث عنها بعد قليل بشىء من التفصيل، وعندما يقترب المرء أكثر فأكثر من البحر، تصبح التربة فى شكل مستنقعات ولا يعود الشاطىء نفسه يتكون إلا من رمال .

لم نستطيع ان نقاوم طويلا رغبتنا فى زيارة جزيرة وارسى الواقعة أسفل مدينة رشيد، فقد كان منظرها البهيج يستحثنا على زيارتها. عرجنا على قرية يشى مظهرها بالبؤس، فبيوتها عبارة عن أكواخ فقيرة، دائرية الشكل تعلوها أبراج الحمام، وسقف هذا النوع من الأكواخ مصنوع من جذوع النخل وتمتلىء الفراغات فيما بين هذه الجذوع بقش البوص، ويغطى ذلك كله بالطين. لكن ما يعوضك عن مشهد هذه البيوت البائس، هو ما يغطى الجزيرة كلها من خضرة يانعة، بالإضافة إلى أشجار الجميز الضخمة التى يجد فى ظلها المسافرون، بين مسافة وأخرى مأوى من لهيب الشمس كما يجدون فيها مشهداً ساحراً .

وفى نفس الوقت فان الأشجار المنتشرة فى هذه الجزيرة، وفى ذلك الجزء الموازى لها من الدلتا تكاد تنحصر فى أشجار النخيل والتوت . وقد شاهدنا فى

---

(١) حدثت هذه المعركة فى السابع من ترميدور من العام السابع (٢٥ يولية ١٧٩٩) .

الدلتا عن قرب – حقول الأرز التى تصنع ثروة هذه البلاد ، ويقوم الفلاح باغراق هذه الحقول بمياه النهر التى يرفعها إما بيده « الشادوف » وإما بواسطة ماكينات هيدروليكية « السواقى » ، ويصنع الفلاح سدوداً صغيرة من الطين حول مربعات مزروعة بالأرز ، وعندما يريد إدخال المياه إليها يقوم بقطع هذه السدود ويحدث هذا دون جهد يذكر . وتقطع الأرض فى هذه المناطق المناطق ترعة رئيسية صغيرة توزع المياه بعد ذلك عن طريق ترع أكثر صغراً « المساقى » .

وقد جذبت بساتين رشيد ، وهى على الدوام تحظى بالإعجاب ، انتباهنا . وكانت هى فى معظم الأحيان الهدف المنشود من نزهاتنا ، وكنا فى كل مرة نزور حديقة « جنينة » إبراهيم بك التى أصبحت نتيجة لأحداث الحرب عقاراً فرنسياً . ولا ينبغى عليك أن تأمل فى العثور فى مثل هذه الجناين على المشاهد والاستعدادات التى تراها جميلة فى حدائقنا ، فثمة اختلافات كبيرة فى الواقع بين هذه وتلك ، تماثل تلك الاختلافات فى التقاليد والطباع التى توجد بين المصريين والفرنسيين ، إذ يظل هؤلاء على الدوام نقيض أولئك . فقلما يغير المصريون من مكانهم بل أنهم لا يعرفون مطلقاً معنى أن تتريض ، وعلى العكس من ذلك فحيوية الفرنسيين ونشاطهم يجعلانهم على الدوام فى حركة دائمة .

وتحتوى جنينة إبراهيم بك على كمية هائلة من أشجار الفاكهة ، لكنها مبعثرة بلا فن ولا ذوق كما لو كانت فى داخل غابة ، وترى هناك عدداً كبيراً من أشجار الموز ذات الأوراق العريضة والطويلة والتى يبدو نسيجها وكأنما صنعته يد الإنسان ، كما يرى المرء هناك كذلك أشجار البرتقال والليمون والريحان والرمان بوفرة . ويظهر العنب فى آلاف الأماكن المتفرقة يلف سيقانه المرنة حول جذوع الأشجار والشجيرات ، وترتفع أشجار الجميز هنا وهناك كما لو كانت ملوك

الأشجار المتوجـــة لتعلو فوق كل هذه الشجيرات التى تنشر شذاها إلى مدى بعيد .

يقطع جنينة إبراهيم بك عدد كبير من قنوات الرى الصغيرة التى تصلها المياه بفعل ماكينات سوف نصفها بعد قليل . وثمة حجرة عند مدخل الجنينة كان البكوات يأتون إليها طلبا للراحة وتنسم الهواء . وهى مرصوفة بالرخام ، وفى وسطها حوض مثمن الزوايا وعميق بعض الشىء ، وهو يمتلىء بالمياه . وتوجد حول الحوض منصات مرتفعة كانوا يجلسون عليها القرفصاء على طريقة المصريين . هنا كان إبراهيم بك يستقبل المقربين إليه ، وينصت باهتمام بينما هو يدخن نارجيلته ويشرب قهوته للحكايات التى كان يقصها عليه متملقوه لتسليته ، أو للأمور الجادة التى جاء رجاله ليضعوها رهن إشارته ، وبرغم ذلك فليست هذه الحجرة على الدرجة المفترضة من النظافة ، وهى من هذه الناحية مثل كل الحجرات من هذا النوع ، والتى أتيح لنا أن نراها منذ نزلنا إلى مصر .

وقد يتهيأ المرء وهو يعيش وسط أشجار وشجيرات بساتين رشيد لأن يترك لخياله العنان ، وأن يدع نفسه مع أحلامه ، لولا أن الاضطرابات وانعدام الأمن الذى يسيطر على هذه المزروعات سرعان ما يحطم هذا الحلم . وبرغم ذلك فإنك لاتستطيع إلا أن تستسلم للبهجة التى تصنعها الروائح التى تشذو من كل مكان ، وللمشهد الأخاذ لزهرة الرمان ذات اللون الأرجوانى ، ولزهرة الريحان ذات اللون الأبيض الباهر ، ومع ذلك فهل يمكن لهذه الجداول التى تنشر الماء والنماء فى كل مكان والتى تحمل مياهها الموحلة طعمياً مائلا للسواد . . هل يمكن لها أن تدخل فى مقارنة مع نهيراتنا الرائعة ، التى تتسلل وسط غاباتنا وحدائقنا ، حيث تنشر وتروى هذه الأبسطة من الخضرة التى لا نلمح لمثلها أثراً فى أى مكان من حدائق رشيد ، وبلا جدال فإن ثمـــار التين التى لاتحصى والتى تغطى شجرة الجميز تروح عن النفس ، كما أن أسبطة البلح الضخمة والمدلاة من أشجار النخيل

تحث المرء حثا على تذوق ثمارها ، ثم أن تلك الرمانات الضخمة تعد بانعاش صحى، أما عن ثمرة الموز فلا بد أن المرء سيجدها فى الغالب لذيذة الطعم. ولكن، أتستطيع هذه الفواكه أن تتفوق على الفواكه التى تنتجها فرنسا بتنوع ووفرة شديدين ؟ لكن تلك مسألة لا يمكن أن يحسمها سوى الذوق والاعتبار .

ويزرع فى جناين رشيد الشمام والبطيخ ، وهى فواكه تبدو رائعة فى بلد تشتد فيه درجة الحرارة.

وتقع كل بساتين رشيد هذه على وجه التقريب على حافة الصحراء وتشكل سياجاً يحدد مساحتها،وكذلك فان الأشجار التى تزرع فيها تصنع ما يشبه حواجز تصد عن المدينة رمال الصحراء فتتراكم حولها « أى حول الأشجار » .

وإذا كان لنا أن نتغاضى عن كل الأشياء الواقعة إلى خارج رشيد ، فاننا لانستطيع أن نلزم الصمت إزاء مدافن الموتى . وتقع هذه المدافن غير بعيد من البساتين التى تحدثنا عنها للتو ، إلى الغرب ، وعلى بعد مسافة قصيرة من المدينة . وتمثل مبانى هذه المقابر أنماطاً خاصة برشيد حيث لم نجد مثيلا لها لا فى أبى قير ولا فى الاسكندرية ، على الرغم من أنهما لا تبعدان كثيراً عن رشيد . وقد رسمنا واحدة من هذه المقابر فى اللوحة رقم ٨٢ « الصورة رقم ١٢ » بالمجلد الأول ـ الدولة الحديثة . وهو يشكل نمطاً بالغ التأثير وبخاصة فى لعبة الظلال. ويبدو أن هذا القبر قد أنشىء لعائلتين متصاهرتين .

وقد استخدم الخشب بشكل رئيسى فى بنائه ، وتبدو الشرائط المخصصة للحفاظ على بواكيه مكشوفة بلا غطاء ، بل إنك تلاحظ وجود الخشب كذلك فى أجزاء كثيرة من المبنى حيث زال جزء كبير من الملاط الذى يغطيه ، أما العمد التى تحمل القائمة الوسطى فهى من الرخام . أما فوق المقابر الأكثر بساطة والتى توجـد فى المقدمة ، فيلاحظ وجود حفرة مربعة الشكل يبلغ عمقها حوالى ١٤ - ١٥ سم ويوضع بها كمية من التراب يمكن أن تزرع فيه بعض النباتات ،

وتبعث أرضية المقابر على الحزن فهى بيضاء اللون فاتحة ، وهنا وهناك تتبعثر قطع الأحجار الصغيرة ونادراً ما تلمح فيها أثرا لنبات ، ويشكل الرسم رقم ١١ من اللوحة المشار إليها مقبرة لا يبين منها إلا جزؤها الأعلى بالنظر إلى أنها تظهر من فوق سور المدافن . وتدخل المقابر الموجودة إلى الأمام فى نطاق هذا السور ، وهى تبدو مقوسة من الداخل ويبدو أن الأجساد توضع فيها فى جزئها الأمامى تحت الأرض .

وتقضى النسوة أيام الذكرى السنوية ، للمتوفين النهار كما هو معروف فى المدافن، فيحضرن معهن طعامهن ويزرعن سعف النخيل أو الورود فى تلك الحفر الصغيرة التى نفذت فوق المقابر ، وتلك عادة تماثل كثيرا العادة التى نتبعها هذه الأيام فى مناطق عديدة من فرنسا ، بل وفى باريس ذاتها .

الفصل الثالث

الماكينات المستخدمة فى الزراعة والرى

أخذت على عاتقى أن أتناول فى دراسة مستقلة ، مختلف الأدوات المستخدمة فى الرى والزراعة التى رأيتها خلال جولاتى المتعددة ، لذلك فان أتناول هنا هذا الموضوع إلا بشكل موجز، مادمت قد قدمت فى مكان آخر دراسات أكثر شمولا عن هذه الأمور ، وبخاصة تلك التى شاهدتها فى عاصمة مصر .

وتنقسم الماكينات المستخدمة فى الرى فى رشيد وضواحيها إلى ثلاثة أنواع، هى تلك التى تسمى الشادوف[١] والمنطال ، والعجلة ذات الثقوب المجوفة ، والعجلة ذات القواديس .

ويتم الرى بواسطة الشادوف عن طريق رجال يتخذون أماكنهم فى طوابق

---

(١) أنظر الفنون والحرف ، اللوحة ٦ ، الشكل ١ ؛ المجلد الثانى ، الدولة الحديثة .

يختلف عددها بحسب ارتفاع الأرض المطلوب زراعتها بمياه النهر ، وفى كل طابق من هذه الطوابق يرتفع جداران صغيران من الطين وأحياناً يكتفى بغرس شعبتين فى الأرض ، يوضع عليهما بشكل عرضى جذع شجرة ، تعلق عليه بشكل رأسى عند ربع طوله من جهـــة الطرف الغليظ سلة طويلة . وعند طرف الذراع الأطول لهذه الرافعة يعلق حبل تدلى منه سلة مستديرة من سعف النخيل ، أو حقيبة من الجلد ، أما فى الذراع الأقصر للرافعة فتمرر حلقات من الطين مهمتها أن تقوم بدور المقاومة . ويقوم الفلاحون الموجودون فى الطابق الأكثر انخفاضاً أى عند مستوى النهر بنزح المياه ثم يرفعونها إلى الطابق الأول ، وتؤخذ المياه مرة أخرى وبنفس الطريقة لترفع من الطابق الأول إلى الطابق الثانى ، ثم من الثانى إلى الثالث . وهكذا حتى تصل إلى أعلى حيث تصب فى خزان توزع منه على قنوات الرى .

أما طريقة الرى المسماة منطال[1] فهى تتم عن طريق فلاحين نصف جالسين على كومة من الطين المرتفع على شاطىء النهـــر ، ويمسك كل منهما بكل يد من يديه حبلاً تتدلى منه قفة أو نوع من الجردل المصنوع من سعف النخيل ، ويقذفان بهذه الجرادل فى النهر حيث تمتلىء ، وعن طريق الحركة التى يحدثانها بارتدادهما إلى الخلف ينتزعان الجرادل من النهر ويفرغانها فى خزان صغير فى مستوى جداول الرى .

أما الماكينة[2] المستخدمة فى الرى فهى العجلة « الدولاب » ذات الثقوب المجرفة « الساقية » . وهى تستخدم فى الأماكن التى لا تصلها مياه النيل بشكل طبيعى وعندما لا يتجاوز ارتفاع الأرض المزروعة عن منسوب المياه بـ ٢ ½ - ٣ أمتار فقط . وهذه الماكينة عبارة عن شجرة موضوعة بشكل أفقى أقيمت

---

(١) أنظر الفنون والحرف ، نفس اللوحة ، نفس الشكل .

(٢) أنظر الفنون والحرف ، اللوحة ٣ ، نفس المجلد .

عليها عند منتصفها وبشكل رأسى ، العجلة ذات الثقوب المجوفة وتثبت محاورها فى الجدران الجانبية لخزان مياه صغير ، توجد فيه المياه مباشرة أو تتسرب إليه من النهر . وهناك عجلة مسننة ، تلتصق بالعجلة ذات الثقوب المجوفة ، تشتبك بعجلة أخرى أفقية مسننة هى الأخرى ، ومثبتة على شجرة أفقية وتتشعب هذه الشجرة فى جزئها الأعلى لتقوم بدور نقطة الإرتكاز لذراع الرافعة الطويل ، الذى يعلق فيه ويدور به حصان أو جمل أو بقرة أو جاموسة . وبفعل الحركة تقوم العجلة ذات الثقوب المجوفة بنزح مياه الخزان عن طريق الثقوب التى نفذت عند سطحها ، فتمتلىء الفراغات بالماء ، ثم تخرج المياه التى نزحت بفعل حركة العجلة وعن طريق نفس الثقوب ، لتسقط من جديد فى خزان صغير تذهب فيه بعد ذلك إلى قنوات الرى المعدة . ومن نافلة القول أن نذكر أن طول قطر العجلة ذات التجاويف يحدد بالعمق الذى توجد فيه المياه فى المكان الذى يراد إقامة الماكينة فيه . ولكن من المفيد أن نلفت النظر هنا ، إلى أنه من الممكن أن يرتب الأمر ، بحيث يرفع أو يخفض مدار محور العجلة المسننة التى تلتصق بها العجلة ذات التجاويف ، فهى مصممة بدقة بالغة ، لكن هذا الأمر لا ينطبق على العجلات المسننة « الأفقية » التى تحدث الحركة .

وحيث أن ارتفاع منسوب المياه فى آبار رشيد لا يعانى مما يعانيه فى أى مكان آخر فى مصر أثناء إرتفاع أو انخفاض النيل ، وحيث أن ارتفاع أو انخفاض النهر هنا أقل منه فى المناطق المرتفعة فى مصر ، لدرجة لا يمكن معها عقد مقارنة ، لذلك نرى أن استخدام العجلة « الساقية » ذات التجاويف يقتصر على هذه المنطقة « رشيد » ، لكنها فى نفس الوقت تستخدم فى دمياط وهى التى تعيش فى نفس ظروف رشيد فيما يختص بمنسوب النيل . أما فى المناطق الأخرى فقد تعود الناس استخدام الطريقة الثالثة فى الرى والتى أشرنا إليها .

أما العجلة ذات القواديس[1] التى تستخدم فى ضواحى رشيد[2] فهى

---

(١) أنظر الفنون والحرف ، اللوحتان ٤ ، ٥ ، نفس المجلد ، مع شرح هاتين اللوحتين .

(٢) أنظر اللوحة ٧٨ ، الدولة الحديثة ، المجلد الأول .

ـ شأنها فى ذلك نفس شأنها فى كل أنحاء مصر ـ عبارة عن حبل بالغ الطول يمر على عجلة تتحرك بنفس طريقة العجلة ذات التجاويف ، ويمكن للمرء أن يطيل أو يقصر من تدلى الحبل حسب منسوب مياه النهر ، وتعلق القواديس فى هذا الحبل ويمكن زيادة أو انقاص عددها حسب القوة المحركة التى يعتمد عليها وحسب المقاومة التى تبديها الحركة .

وقد واتتنا الفرصة أكثر من مرة أثناء جولاتنا إلى حصن أبى منصور أن نقوم بزيارة طاحونة يضرب فيها الأرز ، وهذه الماكينة[1] عبارة عن مدقات دائرية من الحديد المجوف مثبتة فى طرف روافع متحركة فى خط رأسى ، وتحركها شجرة أفقية مسلحة بحلمة « مساكة مزلاج » تمارس ضغطا على ذراع الرافعة الأصغر . وتتحرك الشجرة نفسها بفعل عجلة مسننة شبيهة بتلك التى سبق أن بيناها . والخيل والأبقار والجمال هى القوة المستخدمة فى ذلك . ويوضع الأرز فى ثقوب مرتبطة بالمدقات لكى يتم ضربها ، وثمة عامل يجلس فى مقدمة الماكينة يلملم تحت هذه المدقات الأرز الذى يتناثر قبل إتمام ضربه[2]. وقد زرنا فى رشيد طاحونتين شبيهتين بتلك التى انتهيت من وصفها .

وفى أثناء إقامتنا فى رشيد أيضاً جمعت رسومات لآلة لدرس الحب تعرف فى هذه البلاد باسم النورج ، ويمكن أن نرى فى اللوحة التاسعة من الفنون والحرف تصميم وتركيب النورج ، وقد قـــدم المرحوم المسيو كونتيه صورة لماكينة مشابهة فى اللوحة الثامنة الصورة رقم ٢ فى نفس مجلد الفنون والحرف. ويكفى مجرد النظر إلى الصورة ، للحصول على فكرة دقيقة عن هذه الماكينة

---

(١) أنظر الفنون والحرف ، اللوحة ٩ ، الأشكال ٥ ، ٦ ، ٧ مع شرح هذه اللوحة .

(٢) لمزيد من التفاصيل ، انظر دراسة المسيو جيرار Girard عن الزراعة والصناعة والتجارة فى مصر (المجلد الرابع من الترجمة العربية) .

التي تضم فى جزئها الأسفل عجلات خشبية مثبت عليها بشكل رأسى عند المحور، سكاكين دائرية من الحديد ، ويجر الآلة ثور بقر يقوده طفل ، وبمرور النورج وتوالى مروره فوق حزم القمح يتكسر القش وتنفصل عنه الحبوب. ولكى يعزل كل منهما عن الآخر «الحب والتبن» يرفع التبن بمذراة فيبقى الحب ، وتختتم العملية بتنظيفه بتعريضه للهواء لتحمل الريح الأجزاء الخفيفة ، وبهذه الطريقة تتم عملية التذرية .

وتوجد فى رشيد طواحين للقمح ، ويضم كل بيت فى العادة واحدة منها ، وليست ثمة اختلافات بين هذه الطواحين فيما عدا أن طواحين الأغنياء تدار بواسطة الحيوانات بينما تدار طواحين الفقراء بواسطة سواعد الرجال ، وتتم الحركة فى طاحونة الميسورين بأيسر السبل . وهذه الطاحونة عبارة عن عجلة موضوعة بشكل أفقى ومعشق بها فانوس ، ويخترق كلا من شقى الرحى محور الفانوس ، وشقة الرحى العليا أصغر من الشقة السفلى وتتحرك الشقة العليا بفعل القوة المحركة ، وتوضع الاثنتان فى وضع مائل حتى لا يتمكن الدقيق عند خروجه من النفاذ إلا عن طريق فتحة فى الشقة السفلى الرحى ، ويستقبل الدقيق فى سلة أو قفة .

أما الطواحين ذات الأذرع فتتكون من شقين من الجرانيت أخذتا فى العادة من أعمدة المنشئات القديمة . وقد قطع الشق الثانى الرحى بطريقة تجعل فى مركزها نوعا من عجلة صغيرة ناتئة تدخل فى ثقب منفذ عند مركز الرحى المتحركة ، وحول هذه العجلة الناتئة تحدث تلك الحركة الدائرية .

الفصل الرابع

البيوت فى رشيد ، عمارتها وشكلها الخارجى

شوارع مدينة رشيد ضيقة ومتعرجة ، وهى فى معظم الأحيان مليئة بالنفايات ، كما أنها ليست مرصوفة ، لكن أسواقها أكثر إتساعا وأكثر تهوية من أسواق الاسكندرية . وثمة مشهد يبدو بالغ الغرابة ، هو ذلك العدد الهائل من الكلاب الضالة التى يقابلها المرء فى الشوارع ، وبخاصة فى ميناء رشيد ، وهو نفس المشهد الذى تلقاه فى كل مدن مصر ، لكنه أصابنى فى رشيد بما يشبه الصدمة لأنى رأيته هناك للمرة الأولى وكونت عنه انطباعى ، والكلاب هناك من النوع المسمى الكلاب الذئبية ، ويبدو أنه لا الأهالى بل ولا السلطة ، يشغلون أنفسهم بأمر اطعام هذه الكلاب ، على الرغم من أن هذه الحيوانات تقدم إليهم خدمات جليلة وبخاصة فى حراسة الميناء . وفى أثناء الليل تطلق هذه الكلاب عواءها المرعب ويبدو أن سكان رشيد ، عندما يعودون إلى بيوتهم بعد انتهاء اليوم لا يلقون كبير بال لهذه الضجة .

وإذا مضى المرء نحو الأحياء المتطرفة من المدينة فسيقابل هناك عدداً كبيرا من الناس يقعدون بلا حراك بينما مبسم الأرجيلة فى فمهم . وقد شاهدنا كذلك كثيراً من الأطفال والنساء ، ولم يكن هؤلاء النسوة سوى نساء من الشعب ، يرتدين قمصاناً زرقاء غير نظيفة ومشقوقة من الأمام فى جزئها الأعلى ، مما يتيح رؤية صدورهن مدلاة ، وثمة حجاب قذر مثل ثيابهن يغطى كل الوجه فيما عدا العينين .

وللعمى ضحايا كثيرون فى رشيد ، ويبدو أنه أكثر شيوعا بين النساء عنه بين الرجال . وثمة مشهد يلفت بشدة انتباه الأجانب القادمين إلى رشيد ، هو ضعف بنية أطفالها ، وهم يمشون وحدهم فى وقت مبكر لكن أطرافهم هشة ودقيقة ،

وقد يعود السبب فى ذلك جزئيا إلى أن المرأة ترعى عدة أطفال فى نفس الوقت. وتحمل الأمهات هؤلاء الأطفال ـ متباعدى الساقين ـ على أكتافهن . وحيث تعوز هؤلاء الأطفال القوة التى تكفى لاحتفاظهم باستقامة أجسامهم فانهم ينكفئون منحنين . وعندما لا يكون المرء متعوداً على مثل هذا المشهد فانه يرتجف خوفا من أن يصيب هؤلاء الأطفال حادثاً ما .

وفى المساء ، عندما ينادى المؤذنون الناس من فوق مآذنهم للصلاة ، فليس ثمة ما هو أكثر روعة من منظر مدينة رشيد ، فالناس يتوجهون جموعا وفى صمت إلى المسجد ، ويذهب العدد الأكبر من هؤلاء ، ممن لا يملكون وسيلة للوضوء فى بيوتهم أو جنايتهم ، إلى شط النيل لأداء هذا الواجب ، فيغسلون لحيتهم ثم يؤدون صلاتهم متخذين قبلتهم الكعبة المقـــدسة ، ويعنى الذين يحوزون سجاجيد منهم ، وهؤلاء عدد بالغ الضآلة ، ببسطها على الأرض لأداء هذه الفريضة الدينية ، أما أولئك الذين لا يملكون سجادات فيستعيضون عنها بالعمامة التى تغطى رأسهم .

وما أن ينقضى وقت الصلاة ، أى ما أن يقدم الليل ، حتى يعود السكان إلى بيوتهم . وبعد ذلك لا يمكنك أن تقابل فى الشارع فرداً واحدا .

وتضىء المدينة أثناء الليل فوانيس معلقة فوق مداخل البيوت .

وقد زرت أحياء من رشيد كانت مهجورة تماماً فلم تعد سوى « مقالب » للقمامة والنفايات . وقد اعتاد السكان ألا يجروا أية ترميمات لبيوتهم ، وهم يهجرونها ما أن يبدأ يتساقط منها بعض الأتربة (أمارات البلى) ليبتنوا لأنفسهم مساكن جديدة فى مكان قريب أو فى حى آخر من أحياء المدينة . وفى المنطقة التى تجاور الصحراء من مدينة رشيد ، ثمة بيوت خربة قد غزتها الرمال بالفعل . وكنا نرى فى معظم الأحيان فى هذه الأحياء المهجورة نساء من الشعب منهمكات فى إعداد روث الماشية فيشكلن منه أقراصاً صغيرة[1]

---

(١) أنظر الفنون والحرف ، اللوحة ٨٢ ، الشكل رقم ١ ؛ وكذلك شرح هذه اللوحة .

مستديرة الشكل وغير سميكة ، ويخلطها بالقش المهروس ثم يعرضها للشمس بوضعها على الأرض أو يلصقها فى غالب الأحيان على جدران المساكن ، وتكاد هذه الأقراص تكون هى الوقود الوحيد الذى يستخدمه السكان للحصول على النيران اللازمة للطهى . ومن المعروف أن المصريين يستخرجون من السناج ملح النوشادر .

ويقوم على حراسة بيوت الأثرياء نوبيون سود البشرة ، وهم معروفون بأمانتهم وإخلاصهم الذى يصمد لكل اختبار ، كما يعهد إلى هؤلاء كذلك بحراسة أخشاب الوقود وأخشاب البناء التى تمتلىء بها الميناء .

وأثناء عبورنا المدينة ، مررنا عدة مرات بمدارس عامة ، ويمكن للمرء أن يسمع ضجيج هذه المدارس بعد أن يكون قد ابتعد عنها بمسافة طويلة ، وأطفالها عند قراءتهم ، أو عندما يحفظون عن ظهر قلب ، يهتزون إلى الأمام وإلى الخلف ويغنون ما يحفظونه أو ما يقرأونه ، وينتج عن ذلك مشهد بالغ الغرابة . . والمدارس فى رشيد كثيرة العدد ، وهو ما يتناقض كثيراً مع الجهالة التى كان من المعتاد افتراضها فى سكان مصر .

وكل بيوت رشيد مبنية من طوب ضارب إلى الحمرة ، غامق اللون ، ويعود ذلك إلى درجة احتراق هذا الطوب ، وقد لاحظنا أن البيوت فى الاسكندرية مبنية كلها من الحجر الرملى ومونتها من الجير والرمل ، وتتزعزع الحجارة فى هذه البيوت بفعل الطقس البحرى الذى يتلف هذه المدينة بينما لا تمس المونة ، ويختلف الأمر عن ذلك فى رشيد اختلافاً بيناً ، فالطوب فى رشيد يقاوم تقلبات الهواء ، لكن الأسمنت الذى يثبته هو الذى يتساقط .

وفى أثناء جولاتنا بالمدينة لاحظنا وجود بيوت بدا لنا أنها من الداخل أفضل من بيوت الاسكندرية ، ولكن فى رشيد ، كما هو الحال فى الاسكندرية ، تزين الأعمدة البيوت بشكل بالغ الغرابة ، وهذه الأعمدة مأخوذة من المبانى

الأثرية ، ويلاحظ فقدان الذوق بالمثل فى استخدامها فتوضع قمة العامود فى مكان قاعدته أو يحدث العكس .

وقد جعلتنا جولاتنا المتعددة هذه فى وضع يسمح لنا بتكوين فكرة عن داخل بيوت بعض الأثرياء ، وقد تظن فى البداية أنها تستخدم كمأوى لحيوانات دنسة وليست كمساكن لآدميين : فالحجرات معتمة سيئة الإضاءة ، والجدران عارية من أية زينة ، مغطاة بالأتربة القذرة . . وذلك هو مشهد البيوت المعتمة التى تشغلها الطبقة الميسورة بعض الشىء فى رشيد ؛ وسوء النظافة هناك أمر عام لحد يمتد معه إلى المبانى العامة ، وفى هذا الخصوص فإن المساجد ليست بأحسن حالا من البيوت .

وفى مصر ، يطلق أحياناً كنوع من التباهى ، اسم القصر على البيوت بالغة التواضع سواء فى اتساعها أو فى مبناها ، لكن هذه البيوت تكتسب أهميتها من أهمية أولئك الذين يقطنونها . وفى أثناء عيد ١٤ يولية الذى احتفلت به الحامية فى رشيد جاء المفتى إلى الحى الكبير ليقسم بأنه لن يقوم مطلقاً بفعل أى شىء ضد الجيش الفرنسى . و تلقى من الجنرال مينو تأكيداً بأن ممتلكات السكان سوف تحترم . وبعد الحفل عاد المفتى إلى قصره الذى لم يكن مظهره ليختلف فى شىء عن مظهر بيوت فلاحينا فى فرنسا .

وقد حاولنا أن نأخذ فكرة دقيقة عن المسجد الرئيسى فى رشيد ، أفضل من تلك الفكرة التى تسمح بتكوينها انطباعاتنا عن البلد ، حيث لم يكن مخولا لنا على الإطلاق دخول المساجد . ترتفع مئذنة الجامع برشاقة وسط الفضاء ، وهى تتكون من أربع طوابق من الدرابزين ، والمسجد بالغ الاتساع لكنه فى تقسيمه لا يتبع شكلا منتظما ، وثمة صفوف من أعمدة صغيرة إلى جانب أعمدة ضخمة تزينه من الداخل ، وكل صحن الجامع مغطى بالحصر . وفى بناء ملحق بالمسجد توجد أماكن لقضاء الحاجة وأحواض يتوضأ فيها المتعبدون المسلمون

قبل أداء الصلاة ، وثمة أحواض أخرى مخصصة لنفس الغرض والماء الذى يملؤها ليس شديد النظافة ولا يبدو مطلقاً أنه يتجدد فى معظم الأحيان، ونوافذ المسجد مغلقة بتقفيصات حديدية جميلة ، مصنوعة بشكل متقن وهى مجلوبة من القسطنطينية .

وتكاد تكون كل بيوت رشيد قد بنيت على نفس النمط ، ومن الطوب كما سبق أن ذكرنا ، وكلها باستثناء فروق ضئيلة ، لها نفس المظهر الخارجى . وقد حرصنا على أن نقوم بعمل عدة رسومات لواحد من أهم بيوت المدينة[١] وأحسنها موقعاً وكانت إحدى واجهات هذا البيت تطل على النيل ، وقد قيل لنا أن هذا البيت كان يخص أحد البكوات . وكانت واجهة البيت المطلة على الشارع الرئيسى فى رشيد تشكل فى الطابق الأرضى باب مدخـــل كبير وكذلك بابين أخريين أقل حجماً ، وثمة أربعة أعمدة ذات ارتفاعات ومقاسات غير متساوية مقامة على قواعد تشكل نوعاً من الزينة شديد الغرابة ، ويبنى مدخل الباب الرئيسى[٢] كله وكذا الواجهة من طوب شديد الانتظام، وثمة قطع من الخشب تختلط بهذا البناء وتظهر أحياناً بالعرض وأحياناً لا يظهر منها إلا أطرافها، وفى بعض الأحيان تزدان هذه القطع الخشبية بالرسوم والحفر . وفى الجزء الأدنى من الباب بارتفاع العضد توجد أعمدة صغيرة من الخشب المضلع محشوة فى زوايا البناء .

والقوس الذى ينتهى به الباب الكبير هو هنا قوس دائرى ، وفى بعض الأحيان يكون هذا القوس على شكل نصف دائرة بل وأحياناً على شكل قوس على النمط القوطى . وتغلق النافذة الوحيدة أو الشباك الوحيد الموجود فى الطابق

---

(١) نفس اللوحة ٨٢ ، الشكل ٥ ، الدولة الحديثة ، المجلد الأول .

(٢) نفس اللوحة ، الصورة ١٠

الأرضى تقفيصة من الحديد[١] . ويقتسم بقية الارتفاع ثلاثة طوابق تبين معالمها عن طريق كرات خشبية تظهر أطرافها من الخارج لتشكل نوعاً من الزينة . وهذه الطوابق الناتئة عالية ،وتبرز عن واجهة الدور الأرضى بقدمين أو ثلاثة أقدام . ويتكون هذا النتوء من ألواح خشبية رئيسية تتجاوز البناء وتسند أطرافها دعامات أو أفريز ، ويغطى الجميع بألواح خشبية تتجمع الى بعضها البعض لتشكل فى مجموعها سطحاً أملس .

وينفذ الضوء إلى الأدوار العليا عن طريق نوافذ كبيرة تغلقها تقفيصات من الخشب مربعاتها كبيرة ،وتوجد فوقها فتحة أصغر، تغلقها هى الأخرى تقفيصة صغيرة المربعات،ولبعض الشبابيك تقفيصات (مشربيات) أكثر أناقة وتوضع ناتئة فوق الواجهة العارية ،وفى هذه الواجهة توجد فتحات لكى تسمح بتهوية الحجرات ، وثمة فتحات كذلك فى الجوانب لكى تجعل من الميسور الرؤية عن بعد فى الشوارع،حتى ترضى فضول النساء اللاتى يستطعن بهذه الطريقة أن يرين دون أن يراهن أحد . وتعطى هذه المشربيات الناتئة كذلك الفرصة لوضع قلل المياه لترطيبها ، وهذه القلل عبارة عن آنية صنعت فى صعيد مصر من نوع من الصلصال المائل للبياض والمعجون جيداً ، وهى تحرق فى النار نصف حريق وهذا ما يحتفظ لها بطبيعة مسامية تدين لها هذه القلل بخاصية التبريد التى تتميز بها . وأشكال هذه الفازات (القلل) لا ينقصها الجمال . ويملأ الناس هـــذه القلل ويعرضونها لتيار الهواء فتتبخر المياه التى تتسرب من خلال المسام مما يتسبب فى برودة الماء الموجود فى داخل القلة . وتنخفض درجة حرارة مياه القلة على الدوام حوالى ٤ ٥ درجات.

---

(١) تقفل النوافذ السفلى للبيوت فى رشـيد عادة بواسطة أسياخ حديدية متينة ومتقنة ، وهذه تصنع فى القسطنطينية ، وقد سبق أن أشرنا الى مثيل لها عند حديثنا عن جامع رشيد الكبير .

وثمة طابق رابع يرتفع على جزء من المنزل الذى نحن بصدده ويشكل نوعاً من الأكشاك ويؤدى دون صعوبة إلى شرفة المبنى ، ومن هـــذه الشرفات يستطيع النسوة أن يروحن عن أنفسهن دون أن يراهن أحد . ومع ذلك فمن الممكن رؤيتهن عن طريق المؤذنين الذين يدعون الناس للصلاة من أعلى المآذن ، لكن الناس قد احتاطوا لهذه الصورة حيطة تتفق مع خطورة التقاليد الإسلامية، إذ لم يكونوا يختارون للقيام بعمل المؤذنين إلا رجالا من العميان .

وليس لواجهة البيت من جهة النيل سوى طابق واحد ، ونتيجة لذلك فان التعقيد هنا أقل ، فثمة ثلاثة أبواب ، أحدها رئيسى يؤدى إلى الطابق الأرضى الذى ينفذ إليه الضوء عن طريق نوافذ صغيرة ومشربيات ذات مربعات كبيرة ، وثمة عمودان فى الزوايا يحملان ركائز ناتئة بعض الشىء فوق الجدار العارى ، وفى واحدة من هذه الزوايا يوجد سبيل يحتوى على جرار مليئة بالمياه وإناء للعب منها ، وهى بذلك تقدم للمارة الوسيلة لرى غلتهم . ويعنى صاحب البيت بالجرار على الدوام فيأمر بملئها بالمياه ، وفى بلد بمثل هذه الدرجة من الحرارة يمكنك أن تتصور قيمة مثل هذه المنشآت ، لذلك فهى كثيرة العدد . وثمة بيوت تقدم المياه للمارة بطريقة مختلفة ، إذ يوجد فى داخل هذه البيوت قادوس (زير) يعنى به على الدوام ويملأ بالمياه ويوضع بالقرب من الجدار الخارجى ، وثمة مصاصة ينغمس فرعها الأطول فى القادوس أما فرعها الأقصر فيخترق الحائط لينتهى بصنبور يأتى المارة ليضعوا عليه أفواههم ، ويمتصون المياه حتى يرتووا . وفى المساجد وبيوت الأثرياء يخترق هـــذا الصنبور نضدا من الرخام نقشت عليها آيات من القرآن[١] .

ويتكون الطابق الوحيد الكائن فى الواجهة المطلة على النيل من ثلاثة أفنية

---

(١) أنظر الآنية الفخارية والأثاثات والأودات ، اللوحة F. F ، الدولة الحديثة ، المجلد ٢ ، من وضع ريبوتيه Rebouté .

أمامية تفصلها ردهتان ، وينير كل واحد من هذه الأفنية نوافذ تغطيها مشربيات ذات مربعات كبيرة ، توجد فوقها نوافذ أصغر تحيط بها هى الأخرى مشربيات . وينتهى أعلى البيت بشرفة بنيت أرضيتها من ملاط شديد البياض، وتظل أطراف دعائمها إلى الخارج وتشكل كما سبق أن لفتنا الأنظار نوعاً من الزينة[١] .

أما الواجهة الجانبية[٢] لهذا المسكن فأقسامها مماثلة لتلك التى انتهينا من وصفها فيما عدا أنها فى جزء منها تزيد طابقا واحداً عما سبق وصفه ، ويمكن أن نلاحظ فيها مساقط نور صغيرة وكثيرة العدد لإضاءة حجرات الطابق الأرضى . وعلى العموم فان الطابق الأرضى كله مخصص لاسطبلات الخيول والجمال ، ولمخازن الأعلاف ، ولحجرات منفصلة تودع بها سروج الخيول ، وللمطبخ والكرار ، وللمكاتب ، ولرحى القمح ، كما تخصص بعض حجراته أيضاً لخدم البيت ولغيرهم .

ولن تكون فكرتنا عن داخل بيوت رشيد دقيقة إذا ما تصورنا أن ألواح الأرضيات الخشبية لها نفس المستوى ، وأن الإنسان يمكنه أن ينتقل بسهولة من حجرة لأخرى ، إذ ينبغى على المرء ـ على العكس من ذلك ـ أن يصعد أو يهبط سلمــــة وأحياناً اثنتين أو ثلاثا لكى ينتقل من جناح لآخر . وليس ثمة سبب ظاهرى على الأقل لمثل هذا الوضع ،وإلا لأمكن تفادى هذا الوضع الغريب والذى لايمكن أن نجد تفسيراً له إلا فى عادات أهل البلاد .

وتكفى التفاصيل التى ذكرناها للتو لكى تعطى فكرة عن عمارة بيوت أثرياء رشيد ، ويمكن لنا أن نحصل على مزيد من الأفكار التى قدمناها إذا

---

(١) أنظر اللوحة ٨٢ ، الشكل ٣ ، المجلد الأول ، الدولة الحديثة .

(٢) أنظر اللوحة ٨٢ ، الشكل ٤ ، المجلد الأول ، الدولة الحديثة .

ما اطلعنا على الرسوم الموضحة فى اللوحة رقم ٨٢ الشكلان ١ ، ٢ واللوحة ١٠٢ الأشكال ٨ ، ٩ ، ١٠ ، ومن خواص نوافذ البيوت التى يوضح الشكل رقم ٢ مقدار ارتفاعها أنها تغلق بمصراعين أيضاً بخلاف المشربيـــة . وينبغى أن نضيف هنا أن نوافذ بيوت الأثرياء فى رشيد تغلق من الداخل على الدوام بواسطة شيش زجاجى . أما غالبية البيوت الأخرى فلا يوجد مثل هذا الشيش الزجاجى وهكذا ينفذ الهواء الخارجى بحرية إلى داخل الحجرات .

وعلى العموم فان شرفات البيوت فى رشيد مائلة ، ولها مزاريب تسهل تصريف مياه الأمطار التى تسقط على رشيد بوفرة وغزارة فى بعض الأحيان فى فصل الشتاء .

وتختلف الديكورات الداخلية للبيوت كثيراً تبعاً لاستخدام الحجرات ودرجة ثراء وطبقة المالك . فالحجرات ترصف بمربعات من الطين المحروق ، أما الجزء الأول من حجرات الاستقبال الفخمة وكذلك دورات مياه السادة وحجرات الحمام ، فهى مرصوفة بالرخام .

ويكتفى بتغطية الجدران بطلاء أملس للغاية ناصع البياض ، وتنقسم كل حجرة فى إرتفاعها إلى قسمين متساويين على وجه التقريب ،عن طريق حزام من خشب دقيق للغاية لكنه بارز ويدور بدائر الحجرة ، ويمتلىء الجزء الأسفل من الحجرة بدواليب كبيرة ،تشكل مصاريعها المرسومة بأشكال متعددة نوعا من الزينة . وثمة دواليب أخرى ذات أحجام متنوعة وهناك كذلك كثير من التجويفات المزدانة بأشغال خشبية تستكمل نظام الديكور لمختلف الحجرات . أما الأثاث فعبارة عن أرائك موزعة بدائر الحجرة تشكل مقاعد منخفضة ، واسعة ، ومريحة ، وتتكون هذه المقاعد من حشيات ومخدات ضخمة من القطن ، وتبسط هذه الحشيات على بنوك يبلغ إرتفاعها ١٥ - ١٨ سم وهى إما مصنوعة من ألواح خشبية أو من مجرد أقفاص من الجريد ، وتغطى هذه

الحشيات والمخدات أقمشة تتفاوت قيمتها ونوعها بحسب مكانة ودرجة ثراء المالك . وتخصص أثمن هذه الأقمشة لتغطية أرائك الشرفات أو النوافذ الأمامية التى تحدثنا عنها من قبل . وهناك تستريح النسوة فى معظم الأحيان ويستنشقن الهواء المنعش الذى لا يتوفر فى الأنحاء الأخرى من حجراتهن .

ولا يمكن لك أن تجد فراشاً فى أى مكان بالبيت أثناء النهار . وينام الرجال والنساء على هذه الأرائك أو على مفرش يبسطونه وسط الحجرة ، وفى بعض الأحيان لا يكون الفراش سوى حشية بسيطة مغطاة بسجادة ، وثمة ناموسية من الحرير الشفاف أو الكريب تحمى من حشرات الفراش أو من الناموس ، ولكن فى أثناء النهار تطوى كل هذه الأدوات وتوضع فى صناديق .

وينام الكثير من الناس رجالا ونساء دون أن يخلعوا ملابسهم ، كما ينام الخدم بكامل ملابسهم أيضاً ولكن على حصر بسيطة .

وقد أتيحت لنا فرصة الدخول إلى بيت واحد من أغنى رجال رشيد ، كان قد لاذ بالفرار عند اقتراب الجيش الفرنسى . ينقسم هذا البيت إلى جناحين أساسيين : جناح المالك ، وجناح الحريم ، وفى جناح المالك كانت الشبابيك مغلقة بمشربيات خشبية كبيرة المربعات ، أما هذه المربعات فى جناح الحريم فكانت أصغر ، وليس ثمة أى إتصال بين الجناحين إلا عن طريق سلم صغير وكذلك عن طريق كوة دائرية تستخدم فى إيصال الطعام إلى الحريم . وفى كلا الجناحين كانت الغرفة الرئيسية عبارة عن حجرة واسعة مزينة بطريقة مماثلة لتلك التى سبق لنا أن عرضناها ، مع اختلاف واحد ، هو أنه توجد فى أعلى الدواليب فى جناح الحريم نوع من المقصورات التى تحيط بها قضبان ، بحيث يمكن الاستنتاج بأن النساء كن معتادات على الجلوس فيها . ويضم هذا البيت مطابخ وحمامات وأفراناً وشرفات ، وعموما كل ما يمكنه أن يضمه مسكن

واحد من أثرياء الخاصة . أما المراحيض فمغطاة بمربعات كبيرة من الرخام ، حفرت بها فتحات طويلة وضيقة .

وقد سبق لنا القول بأن مختلف الطوابق فى بيوت رشيد تكون أما ناتئة أو بارزة ترتكز على دعائم بعضها فوق بعض ، وينتج عن ذلك ان البيوت بعد ارتفاع الطابق الأرضى تصبح متقاربة لحد كاف من بعضها البعض حتى تكاد تتلامس الشرفات بطريقة لا يعود يفصل بينها إلا مسافات جد ضئيلة ، ويؤدى هذا الوضع إلى تغطية سماء الشوارع المخصصة للأسواق ، أو الأسواق نفسها ، بشكل شبه تام بحيث تجعلها فى حمى من أشعة الشمس .

ولكل بيوت رشيد فيما عدا بيوت الأثرياء من أهلها سلم خارجى مبنى فى معظم الأحيان من الحجارة لكنها محاطة بفاصل كبير - بدلا من الدرابزين - وذلك لحجب رؤية النساء عند خروجهن من البيت أو دخولهن إليه .

وقد ترددنا كثيراً على الأسواق العامة فى رشيد ، ولفت انتباهنا هناك بشدة ذلك الصمت الذى يخيم على المكان والذى يشكل تناقضاً لافتا للنظر مع الضوضاء التى تنبعث من أسواقنا ، ذلك أن أهل هذه المدينـــة يتكلمون قليلا ، ولهجتهم على الدوام جادة وقورة ، لكن حديثهم لا يمنعهم من تدخين الأرجيلة أثناء الكلام ، وهم يجلسون أمام محلاتهم بلا حراك ، وكأنهم مجرد علامات قياس .

وتجار رشيد - كما بدوا لنا - متشككون ، ويخشون على الدوام أن يخدعوا من قبل الغير ، لذا فهم لا يسلمون البضائع التى اشتريت منهم إلا إذا حصلوا الثمن مقدماً .

وفى الأسواق أكثر من أى مكان غيرها تواتيك الفرصة لملاحظة عادات السكان فى بلد ما . ويبدو سكان رشيد للوهلة الأولى مختلفين لحد تستطيع

معه أن تتعرف بسهولة على التركى أو القبطى أو الرومى أو الاسكندرانى . . ويعرف الأروام على وجه الخصوص ببشرتهم البيضاء وذقونهم الحليقة .

ومقاهى رشيد — كما هو الحال فى الاسكندرية — أماكن بالغة القذارة لا يمكن لك أن تقترب منها دون أن تشعر بالاشمئزاز . وهى عبارة عن صالة واسعة ترتفع بدائر جدرانها ، وفى وسطها ، منصات مبنية (مصاطب) تغطى بالحصير . على هذه المنصات يأتى الناس ليشربوا القهوة ويدخنوا الأرجيلة التى لا تفارقهم مطلقاً . وينعسون أو يستمعون إلى إنشادات الشاعر المرتجل أو إلى حكايات يرويها حاك لا يمل الحكى ويستمع الناس إليه على الدوام بلذة متجددة . وقد لاحظنا من بين هذه المبانى مقهى يستحق عنده وقفة خاصة بسبب نظافته الظاهرة وجمال موقعه .

تقع هذه المقهى عند الميناء بالقرب من شاطىء النيل . وطول مبناها[1] يبلغ على وجه التقريب ضعف عرضه ، وهى تنقسم من الداخل إلى قسمين ، ويوجد فى وسطها ممر يؤدى إلى بابين خارجيين موجودين على واجهتها ، ويقود الباب الرئيسى إلى النهر ، ويصل الضوء إليها عن طريق شباك مزدوج يعلوه قوس على النمط القوطى تستند قاعدته على ثلاثة أعمدة خشبية ، وفوق هذين الشباكين يوجد عمود آخر أصغر لكنه مستطيل الشكل ، وترتفع فى وسط المبنى منصتان يوجد حولها أنواع من المقاعد المبنية بطريقة مشابهة وتؤدى لنفس الغرض . وسقف المبنى نانىء ليحمى من لهيب الشمس ، لكن أصحاب المقهى يحتاطون للأمر زيادة على ذلك بشكل أفضل عن طريق سقيفة من البغدادلى تدور حول مبنى هو بمثابة سرير تمتد فوقه تكعيبات العنب المزروعة أمام الواجهة فتغلفه من كل جانب بأغصانها الطويلة المرنة . أمام هذه العرائش

(١) أنظر اللوحة ٨٢ ، الشكلين ٦ ، ٧ ، المجلد الأول ، الدولة الحديثة .

تأتى العوالم — أو الراقصات العموميات .. والموسيقيون والمنشدون والشعراء ليجذبوا انتباه شاربى القهوة لاستخلاص بعض قطع النقود منهم .

ويندمج المترددون على الملاهى فى لعب أدوار شطرنج أو أدوار منقلة[1] . وهؤلاء المترددون أناس ينتمون للطبقة المتوسطة ،ذلك أن الأثرياء يعدون قهوتهم فى بيوتهم ولا يترددون مطلقاً على هذه الأماكن .

بقى علينا الآن أن نتحدث عن بعض المبانى التى أقيمت فى رشيد بقدر لا بأس به من الفخامة ، وتلك هى الوكالات (وكالة) التى يجد الناس فيها كل أنواع البضائع . ويبلغ طول المبنى من هذه الوكالات أربع أو خمس مرات قدر عرضها ، وهى تضم فناء توجد حوله ممرات تدعمها أعمدة ، وتعلو هذه الأعمدة أقواس على النمط القوطى . وتوجد المحلات داخل هذه الأروقة وينفذ الضوء إلى هذه المحلات عن طريق ثقوب تعلو الأبواب . ونجد فى الطابق الأول نفس التقسيم الذى وجدناه فى الطابق الأرضى ، وينير الدهليز الذى يحل محل الرواق فى الطابق الأرضى والذى يؤدى إلى مداخل المحلات عدد كبير من النوافذ ، كما هو الحال فى الأروقة ، مع فارق بسيط هو أن نوافذ الدهليز تعلوها فتحات مربعة صغيرة . ونفس الأمر بخصوص الطابق الثانى غير أن فتحات الدهليز المطلة على الفناء مستطيلة الشكل وأكثر عدداً . ويقدم

---

(١) تتكون المنقلة من لوحتين ، بكل واحدة منهما ستة ثقوب ، ويلعب الدور شخصان . وفى البداية يضع كل لاعب فى الثقوب التى أمامه ٦ قطع من الزلط أو الحجارة ؛ ويبدأ أحدهما اللعب بأن يأخذ الزلطات من ثقوب يختارها ليضعها بعد ذلك واحدة واحدة فى الثقوب ، بادئاً من اليمين ، ومواصلا بنفس الطريقة حتى ينتهى مما معه من زلط . ولإذا كان رقم الثقب الذى وضع فيه زلطته الأخيرة زوجياً : ٢ ، ٤ ، ٦ .. تكون هذه الزلطة له ، ومعها كل الزلطات الموجودة فى الثقوب المجاورة وهو يتجه إلى الخلف وعندما لا تتبقى أية زلطة فى الثقوب ، يبدأ اللاعبان العد ، ويكسب الدور من يكون منهما قد حصل على أكبر عدد من الزلطات .

أنظر :

Voyage en Arabie par Niebuhr tom I, Planche XXV, et p. 139.

الشكلان ٩ ، ١٠ من اللوحة ١٠١ ، الدولة الحديثة ، المجلد الثانى ، فكرة دقيقة عن هـذا التقسيم . وهذه الدهاليز والأروقة التى توصل إلى المحلات تستخدم وقت الحاجة لتهوية البضائع التى تخزن فيها .

ولقد صدمتنا قناعة سكان رشيد ، وهى قناعة نلاحظها فى بقية أرجاء مصر . وتبدو ثمرات النخيل (البلح — التمر) باعتبارها غذاءهم الرئيسى ، ويأكلون معها فى نفس الوقت قليلا من الخبز المصنوع بدون خميرة وعلى شكل أقراص صغيرة مستديرة ورقيقة . ويحتفظ هذا الخبز الذى أنضج فى أفران توقد بواسطة روث الماشية وبخاصة الجمال والذى جهز بالطريقة التى سبق أن شرحناها — يحتفظ بقدر من رائحة غير مستحبة بالنسبة للأجانب . ولست أستطيع أن أنسى على الإطلاق أنى كنت فى الأيام الأولى من إقامتى بمصر أشم رائحة الجمال فى كل ما كنت آكله .

الفصل الخامس

الصناعات اليدوية والحرف

كنت أنتوى أن أدون فى هذا الفصل تلك الملاحظات التى جمعتها عن الصناعات اليدوية والحرف التى يمارسها السكان فى رشيد ، لكننى وجدت أن الفرق ضئيل بين الصناعات والحرف التى تمارس هنـا وتلك التى تمارس فى العاصمة والتى عولجت فى مكان آخر ، لذلك فقد اكتفيت أن أورد هنا بعض تفاصيل موجزة للغاية .

لاحظت باهتمام حرفة الخراطين ذات الإنتاج الواسع الانتشار حيث تقوم هذه الحرفة بإنتاج كل التقفصيات التى تستخدم فى البيوت . وتحاط هـــذه التقفيصات فى البرج بأطر خشبية لكن هذا أمر من صنع النجار .. وليس ثمة ما هو أبسط من تلك الآلة التى يستخدمها الخراط ، فهى عبارة عن لوحة

كبيرة أقيمت بشكل أفقي ترتفع فوقها لوحتان عموديتان ، إحداهما ثابتة والأخرى متحركة ، وثمة محوران حديديان بين هاتين اللوحتين ، مهمتهما تثبيت القطعة التي يراد خرطها . ويتكون المثقب الذي يمررونه حول هذه القطعة من ذراع خشبية طويلة يتدلى من طرفيها سير جلدي عريض بعض الشيء . ويحرك الخراط المثقب بيده اليمنى ، ويقرب ويدير الآلة القاطعة باليد اليسرى والقدم اليمنى وهي تتكىء على قضيب من الحديد موضوع هو نفسه على لوحتين رأسيتين ، ويكفي ثقل هذه العارضة الحديدية في معظم الأحيان لحفظ العروسة وللتحكم في تلك الدمية المتحركة . ومحل الخراط هو أبسط المحلات التي يمكن أن يقابلها المرء ، وهو يحتوي فقط على ثلاث آلات قاطعة وثلاث أدوات للحفر ومثقب وزجاجة صغيرة بها بعض الزيت لترطيب الأجزاء التي يحدث حولها الثقب ، وقفة أو سلة توضع بها الأشياء المصنعة[١] . وهذه المحلات بالغة الصغر ويبلغ طول أي من أضلاعها مترين على وجه التقريب ويمكن أن نرى صورة لذلك في اللوحة رقم ٨٢ — الشكلين ٨ ، ٩ الدولة الحديثة ، المجلد الأول .

ولا تزال النجارة هي الأخرى في طور الطفولة ، فالنجار يعمل وهو راكع على ركبتيه ، أو وهو جالس . وهو لا يستخدم إلا عدداً ضئيلا من الأدوات أهمها الفارة كما يستخدم بلطة يطلق عليها اسم قادوم[١] .

وصناعة الأقفال في مصر ليست سوى فرع من النجارة لأن الأقفال هناك تصنع من الخشب «ضبة» ، ويتكون القفل من قطعتين من الخشب موضوعتين

---

(١) أنظر الفنون والحرف ، اللوحة ١٥ ، الشكل ٤ ، الدولة الحديثة ، ج ٢ ، مع شرح هذه اللوحة .

(٢) أنظر الفنون والحرف ، اللوحة ٣٠ ، الأشكال ١ ، ٢ ، ٣ ، ٤ ، ٥ ، ٦ مع شرح هذه اللوحة .

فى الزاوية اليمنى . كل منهما فوق الأخرى ، وتحتوى القطعة الرأسية على تجويف تغلقه قطعة صغيرة من الخشب مكعبة الشكل ، تخترقها عدة ثقوب توضع فيها أسنان حديدية يتزايد سمكها فى جزئها الأعلى ، ويتساوى عدد هذه الثقوب بالضبط مع عدد مماثل من ثقوب أخرى منفذة فى قطعة الخشب الأفقية والتى تتحرك على نحو تسقط فيه الأسنان الحديدية بفعل ثقلها الخاص فى الثقوب السفلى — وذلك عندما يكون القفل فى مكانه — دون أن تتمكن هذه الأسنان فى نفس الوقت من الإفلات من الثقوب العليا : عندئذ يقفل القفل . ويستخدم المرء لفتحه مفتاحاً ليس سوى مسطرة خشبية مزودة فى أحد طرفيها بقطع صغيرة من الحديد من نفس العيار ، مصفوفة على نفس نظام الثقوب ، بحيث ترفع الأسنان الحديدية للقفل عند إدخال هذا المفتاح فى التجويف المنفذ فى القطعة الخشبية المتحركة من المفتاح ، وعندئذ يجذب المرء كلا من المفتاح والقطعة المتحركة من القفل وينزلق الكل بلا عائق ويفتح القفل .

وتعتبر صناعة النحاس أكثر الصناعات المصرية تقدماً ، وتصنع الأوانى فى رشيد من النحاس مثل الكامرولات والصوانى والطشوت والمواقد .. إلخ مع شىء واضح من الدقة وخصوصاً إذا ما أخذنا فى الاعتبار الأدوات التى يستخدمها عمال هذه الصناعة حيث كتب عنها بإفاضة فى مكان آخر[1] .

لكن الصناعة التى يمكن القول بشأنها بأنها قد بلغت درجة يشهد معها لهذه الصناعة بالدقة ، فهى صناعة الأرجيلات . فى بلد يدخن فيه الجميع غنيهم وفقيرهم فإن الأرجيلات تصبح ضرورة أولية ، لذلك فهى تصنع هناك بكميات ضخمة وبأشكال متنوعة . فهى تصنع هناك من نوع من الطين الخزفى معجون بعناية فائقة ، ويتكون من جزءين هما الجسم واليد ويصب كلاهما فى قالب ملىء ،

---

(١) أنظر الفنون والحرف ، اللوحة ١٩ ، الشكل ٢ ، مع شرح هذه اللوحة .

وحيث يتم صب هذين الجزءين بشكل منفصل فأنهما يجمعان بعد ذلك بينما هما لا يزالان طازجين تماماً ويصنع الثقب الذى ينبغى أن ينفذ منه الدخان بحيث لا يسقط الرماد إلى قاع الأرجيلة . وشكل هذه الأرجيلات ليس ثابتاً ويمكننا أن نرى نماذج متعددة لها فى لوحات الآنية والأثاثات والأدوات[١] . وحين يكون الطين لايزال رطباً ترسم على الجسم واليد زينات تنم عن ذوق راق فى بعض الأحيان ، وقد يلصق على هذه الزينات فى بعض الأحيان بعض من ماء الذهب لتصبح أكثر جاذبية .

ولثقب خرطوم الأرجيلة يستخدم العامل ماكينة صغيرة[٢] على شكل طوق يثبتها بين قدميه ، وهى مزودة بخيط سميك من النحاس الأصفر ، ويدخل هذا الخيط عن طريق مثقاب يندفع رأسه باستمرار حتى الطرف الآخر . وتغطى خراطيم الأرجيلات هذه بعد ذلك بالأقمشة الحريرية التى تزينها أشرطة رفيعة أو شراشيب ، وهى تنتهى بمبسم من الكهرمان ثمين القيمة لحد كبير فى بعض الأحيان .

وتأتى صناعة القفف[٣] من حيث الجودة بعد صناعة الأرجيلات ويتكون نسيجها من سعف النخيل ، وهذه الشجرة «النخل» مصدر بالغ الأهمية فى مصر ، فهى تعطى بوفرة بالغة ثماراً حلوة المذاق يتخذ منها السكان طعامهم الرئيسى ، كما تستخدم جذوعها فى عمليات البناء ، وتصنع من أغصانها الأقفاص التى يقام فوقها الفراش أو توضع عليها الأرائك ، أما السعف أو الأوراق الصغيرة

---

(١) أنظر الفنون والحرف ، اللوحة ١٦ ، الدولة الحديثة ، حيث رسمت مجموعة من الأرجيلات .

(٢) أنظر الفنون والحرف ، اللوحة ١٧ ، الشكل ١ ، التى رسمها المسيو كونتيه Conté فى القاهرة ؛ وكذلك شرح هذه اللوحة .

(٣) أنظر الفنون والحرف ، اللوحة ٢٠ ، الشكل ٢ ، وشرح هذه اللوحة .

التى توجـد بطول جانبى الأغصان فتستخدم فى صنع جدائل، تخاط بعد ذلك لتصنع منها القفف أو السلال ، وهى تخاط بمهارة وسرعة بواسطة أحبال رفيعة صنعت هى كذلك من ليف النخيل . وتستخدم القفف بكثرة فى رشيد وهى تستعمل فى تعليب كل أنواع البضائع والحبوب كما تستعمل فى نقل الأرز .

تحدثنا للتو عن الأقفاص التى تصنع من فروع النخيل . ويمسك صانعها بمثقب يحدث به كل الثقوب اللازمة فى فروع النخيل لكى تجمع بعـد ذلك الأجزاء التى تكون القفص . وتشبـــه تلك الأقفاص مستطيلة الشكل التى يستخدمها سكان مصر تلك الكراسى المصنوعة من الخيزران التى نستخدمها فى فرنسا .

وفى بلد مثل مصر، حيث يعتاد الناس جميعاً شرب البن ، كان لابد أن تنشأ مهنة خاصة لإعداد هذا البن لكى تحصل عليه كل طبقات المجتمع ، لذلك توجد فى رشيد محلات يحمص فيها البن وتنزع عنه قشرته ، حيث توضع صوانى كبيرة من النحاس على سطح موقد فتحمص حبوب البن وتطحن بعـــد ذلك بواسطة هاونات من الجرانيت ، وأيديها من النحاس . ويسبب استخدام هذه الهاونات فى بعض الأحيان بعض المساوىء فقد يحدث فى بعض الأحيان أثناء عمليـة الصحن أن تنفصل أجزاء صغيرة من الجرانيت لتختلط بالبن وقد لمست ذلك بنفسى .

وتمارس فى رشيد كذلك حرفة صياغة الجوهرات ، وفى هذه المدينة حى مخصص لهؤلاء الصاغة . وكنت بعـد دخولى المدينة أمنى النفس بأننى سوف أرى محلات هؤلاء الصاغة باعتبارها أجمل محلات المدينة ، لكننى كنت مخدوعا فى ذلك. فهى مجرد محلات معتمة صغيرة وقذرة لا يرى فيها من أثاث إلا منفاخ دائرى الشكل يعمل باليد وموقد فقير وبعض البوتقات الحجرية تشبه ما لدينا إلى حد كبير . . ذلك هو كل ما يحتوية محل الصائغ ومع ذلك فلابد أن نضيف

أن فى حوزتهم شواكيش ومطارق مصممة بشكل جيد وهم لا يعرضون فى محلاتهم شيئاً من إنتاجهم بعكس ما يحـدث عندنا ، ويبدو أنهم لا يصنعون إلا حسب المقاس وحسب الطلب ، وقد شاهدتهم بعينى يصنعون خاتماً بشكل منفر خال من الذوق ، بحيث بدا شكل الخاتم وكأنه سبيكة من الذهب .

الفصل السادس

عن سحرة الثعابين

لم تتح لى أثناء أقامتى فى رشيد أن أشهد العيد الكبير الذى يقام هناك كل عام احتفالا بسيدى إبراهيم ، ولكن من المعروف أن المرء يشاهد فى العرض ، الذى يشكل جزءا من الاحتفال بهذا العيد ، كل طوائف الحرف التى تصطف كل منها تحت رايات محمد التى تحمل فى شكل أقواس نصر ، يتبعهم الشيوخ وهم فى هذه البلاد بمثابة القسس عندنا ، ويغطون رءوسهم بأغطية رأس طويلة تشبه تاج الأسقف ويسير هؤلاء خلف مواكب الطوائف بخطى وئيدة وهم ينشدون بعض آيات من القرآن ، وبعد هؤلاء جميعاً يأتى الحواة الذين يلتهمون الثعابين الحية . وقد قص علينا سافارى savary هذا المشهد العجيب بالتفصيل (١) وقد كان هو شاهدا عليه ، وليس من هدفنا هنا أن نعيد ذكر أشياء معروفة ، لكننا لا نستطيع أن نمسك عن الافضاء هنا ببعض الوقائع ، تلك التى حدثت تحت بصرنا أو تلك التى نقلها الينا أشخاص جديرون بكل ثقتنا . وهذه الوقائع تخص حواة الثعابين ، أو سحرة العصر الحديث .

توجد فى مصر فئة من الرجال يمسكون دون أن يلحق به أذى بالثعابين والحيات والعقارب ، هؤلاء هم الحواة ، شعوب الأحباش ، الذين كانت لديهم

---

(١) Lettres Sur l'Egypte, t. I, p. 62

حسبما يذكر سترالون Strabon القدرة الغامضة على حماية أنفسهم ضد لدغات الثعابين .

وتعتبر الثعابين والعقارب عادة فى مصر زواحف ، مؤذية يمكن أن تؤدى لدغاتها إلى أوخم النتائج وهى فى أغلب الحالات تفضى إلى الموت . وقد مر الجيش الفرنسى نفسه فى بعض الأحيان بهذه التجربة المحزنة . ينبغى إذن أن ننظر إلى الرجال الذين كرسوا أنفسهم لتخليص البلاد من مثل هذا الخطر باعتبارهم أناساً خيرين ، و بمعنى آخر فإن مثـل هذا الهدف الخير يتم جزئياً على يد نوع من السحرة ، يستطيعون بأعمالهم هذه إلى أن يطمئنوا من روع السكان .

ويمتلك السحرة المحدثون قدرة غامضة على تخليص المساكن من الثعابين التى قد تكون بداخلها ، كما يدعون كذلك القدرة على تأمين الناس ضد خطر لدغات هذه الزواحف ، وكذا لدغات العقارب ويجوب صائدو الثعابين هؤلاء شوارع مدن وقرى مصر وهم يعلنون بصوت جهورى على الناس ، أنهم على إستعداد لتخليصهم من الثعابين التى قد تكون كامنة بمساكنهم ، وهم يحملون فى ذراعهم سلة يضعون فيها ما اصطادوه من ثعابين ، ويحيطون على الدوام أعمالهم تلك بضروب من السحر .

ولكى يعرفوا إن كانت ثم ثعابين فى مسكن ما فإنهم يبدأون أولا بإعمال بصرهم والإتيان ببعض الحركات ، ويتخذون هيئـة منجم ويديرون أبصارهم بشكل غامض فى كل أركان الحجرة ، وينتهى الأمر بأن يتوقفوا عند المكان الذى تختبىء فيه الثعابين بالفعل ، ويتشممون كما لو كان ليتأكدوا عن طريق حاسة الشم من وجود هـذه الزواحف ، ثم يمسكون بعصا عرافة ويلفظون ببعض النصائح والمواعظ مع تغيير وإطالة فى نغماتهم وبصوت ممطوط ويستغرق الأمر مايقرب من خمس دقائق ، ثم يبصقون على الأرض وينحنون فجأة لينهضوا على الفور ، وهم يشيرون إلى ثعبان كان مختبئاً لوقت قريب فى أحد الشقوق بعد أن حلوه على عصاهم العرافة تلك . وقد يظن المرء أن هـذه العملية ليست

إلا نتيجة لبعض من أعمال الدجل ، لكننا نستطيع أن نؤكد أن ليس ثمة شيء من ذلك على الإطلاق، فنحن هنا نعرض وقائع كنا شهود عيان عليها، وقد جردناها من كل سحر أو من كل أمر غير عادى يمكن أن نكون واقعين تحت تأثيره، وبإمكان القارىء أن يثق بأننا هنا إنما نعرض الحقيقة عارية .

ومع ذلك فنفس هذه الوقائع فى النهاية ، إذا ما خضعت للنقد والتمحيص ، لا تقدم شيئاً لا يمكن تفسيره بشكل طبيعى إذا ما قارناها بوقائع أخرى كنا شهوداً عليها كل يوم . ألا توجد فى الواقع آلاف الظروف التى نستمع فيها إلى تلك التبديلات والتحويرات المختلفة فى صوت الإنسان ليجذب إليه الحيوانات المستأنسة بل وحتى المتوحشة ؟ وعندما يجلس الإنسان على حافة نهير ويختبىء وسط أوراق الشجر ويختفى عن كل النظرات ألا يهرع عند سماع صوته المخادع كل ذى جناح فى الغابة ؟ فلماذا إذن لا تنجذب الثعابين هى الأخرى بفعل تحويرات معينة فى صوت الإنسان وتغادر بالتالى مكامنها ؟ أما عن التعرف عن أماكن وجود الثعابين فإن من المحتمل دون ريب أن يكون الحواة يستدلون عليه عن طريق الشم ، ذلك أنه قد ثبت عن طريق بعض الوقائع التى كانت موضع دراسة من علماء الطبيعة ، وجود رائحة مسكية تعلق بهذه الحيوانات ، ويستطيع من تدرب على الأمر أن يستدل على وجود هـــذه الحيوانات عن طريق هذه الرائحة .

أما الطرق التى يستخدمها السحرة لتأمين الناس ضد لدغات الثعابين والعقارب فتسبقها وتتبعها ممارسات غامضة من شأنها أن تبهر آلاف الناس الذين يسهل خداعهم . وهذه العملية عبارة عن وضع قليل من الماء فى إناء ثم يضاف إلى الماء الزيت والسكر ويجاهد السحرة فى تكوين شراب من هذا الخليط ويتمتمون أثناء ذلك ببعض الأدعيات، ثم يبصقون فى النهاية فى المشروب الذى انتهوا من تجهيزه، ويأمرون الشخص الذى يطلب «العهد» ضد لدغات الثعابين والعقارب

بأن يتجرع هـذا المشروب ، ثم يعلقون فى أذنيه ثعبانين كبيرين من أسنانها ، ويتركونهما هكذا لمدة ربع الساعة، وعندئذ تنتهى العملية ويدفع المريد من كيس نقوده ثمن الخدمات التى أديت له، ثم ينصرف وهو مقتنع بأنه سيكون فى المستقبل آمناً من لدغات العقارب والثعابين .

هل يمكن الاعتقاد بأن هؤلاء الذين يقومون بهذه الأعمال دون أن تلدغهم الثعابين مجرد دجالين ؟ هذا بالتأكيد ما لا يمكن لشخص واع أن يحاول الاعتقاد فيه . لكن يمكن القول إنهم قد حصلوا على هذه النتائج بسبب أن شعورهم بالخوف قد ضعف لحد كبير ، فهم يتجرأون على هذه الحيوانات لأنهم — كما يمكن القول — قد ألفوها .

لذلك فهم يستطيعون نتيجة لحالتهم تلك أن يقربوها بثقة بل وعن طيب خاطر ، وحيث أنهم لم يعودوا يخشونها فهم يحاذونها بنوع من الطمأنينة لا تشى بأنهم من جانبهم يلتوون بهـذه الحيوانات شراً ، وهو سبب كاف لئلا تسبب لهم هذه الزواحف أى أذى ، إذ من المعروف جيداً أن كثيراً من الحيوانات لا تضر بالإنسان إلا إذا اقترب منها بكثير من الحذر ، مما يجعلها تظن فيه نوايا عدوانية نحوها . ومع ذلك فكيف يمكن فى الواقع أن نفسر كيف أن أناساً يستطيعون — كما يفعل هؤلاء السحرة — أن يحملوا فى ثنايا ملابسهم بل وعلى صدورهم نفسها زواحف مختلفة يلتقطونها كيفما اتفق دون أن يقع لهم حادث مزعج ، وأن يضعوا العقارب تحت طربوش عمامتهم دون أن تلدغهم ؟ أياً كانت الإجابة فهذا هو ما شاهدناه فى كل مدن مصر ، ولن يكون بذى جدوى أن نفسر هذه الظواهر عن طريق افتراض أنهم قد نزعوا أسنان الثعابين أو قطعوا فكى العقارب ، فقد أمكننا أن نتأكد بأنهم لا يخضعون هذه الحيوانات لأى نوع من البتر ، كما قد علمنا عن طريق أناس جديرين بكل ثقتنا وتصديقنا، بأن نفس هذه الحيوانات التى لا تضر بهؤلاء «المأذونين» كثيراً ما سببت للآخرين أحداثاً بشعة(*) .

(*) انظر دراسة مشابهة لذلك ، فى المجـلد الأول من الترجمة العربية : دراسة فى عادات وتقاليد سكان مصر المحدثين ، الملاحق ، « فن الأفاعي أو سحرة الثعابين » .

الفصل السابع

الرحيل من رشيد إلى القاهرة

بعد أن مكثنا فى رشيد لمدة مايقرب من ستة أسابيع ، أبحرنا فى الأول من فريكتيدور من العام السادس ١٧ أغسطس ١٧٩٨ فى حوالى الساعة السادسة على ظهر سفينة كانت مخصصة للقيام بعمليات الاتصال مع القاهرة ، لكن الليل الذى لم يلبث أن طوانا فى عتمته لم يمكننا على الإطلاق بأن نستمتع بمشاهدة شواطىء النيل ، ومع ذلك فقد واتتنا الفرصة ، فى أثناء اللحظات القليلة التى أبحرنا فيها ولما يزل فى الأفق ضوء الغسق ، أن نلم فى الدلتا بمناظر طبيعية كثيرة التنوع وبالغة الجمال فى نفس الوقت . وقد أعطى أفول الشمس لأشجار النخيل ملمحاً غامقاً كما أظهر مجموعات الأشجار المختلفة التى كانت تلوح لناظرنا بشكل أكثر كثافة ، وإذ كانت الريح هادئة فقد قطعنا خلال الليل مسافة قصيرة فقط من الطريق ، بحيث لم يفتنا الكثير من مشهد شواطىء النهر .

وفى اليوم التالى رأينا عدداً أكبر من القرى ، ومررنا على التوالى أمام مطوبس وديروط وهما قريتان كبيرتان لحد ما، ثم وصلنا فى الحادية عشرة إلى ميناء فوه ويتعرض النيل لعدد هائل من التعرجات[1] فيما بين هذه المدينة ومدينة رشيد . وقد بنيت كل هذه القرى التى لفتت انتباهنا من الطين[2] بطريقة تبدو معها وكأنها أكوام من الطين المجفف ، ويبدو أن بيوت هذه القرى قد بنيت من الطوب . ومنازل هذه القرى واطئة ، وقلما ترتفع فوق الأرض لأكثر من اثنى عشر قدماً . وتعلو بعض هذه البيوت أبراج حمام بنيت بشكل هرمى

---

(١) أنظر الأوراق ٣٦ و ٤٠ من الخريطة الكبرى لمصر ، والتى تقع فى ٤٧ ورقة .

(٢) أنظر اللوحة ٧٩ ، الأشكال ٢ ، ٣ ، ٤ ، الدولة الحديثة ، المجلد الأول .

وتتجمع داخل هـذه الأبراج أعداد لا حصر لها من الحمام . وفضلا عن ذلك فبيوت القرى مجرد أكواخ قذرة قبيحة المنظر يخرج من جوفها فى «عز» حرارة الصيف الشديدة سكانها ، وهم نصف عراة لينهمكوا فى أعمال الزراعة المرهقة، فيبقى بعضهم إلى جوار جاموساتهم التى تدير السواقى ذات القواديس[1] التى تنهض على ضفاف النيل والتى تسمع عن بعد ضجتها الزاعقة والرتيبة فى وقت معاً ، ويقود البعض الآخر حيواناتهم التى تجر المحراث والتى تعلق بنيره ، ويمكن القول بأن المحراث لا يفعل إلا أن يخدش سطح الأرض ، ويجلس عدد كبير من الفلاحين فى وضع متدرج على شاطىء النيل يروون الحقول المزروعة بصعوبة بواسطة الدلو « الشادوف » تحت إشراف المالك أو المزارع . وقد شاهدنا فى مكان آخر رجالا لا يعملون إلا بالصيد، ويقف هؤلاء وهم عراة ـ كما ولدتهم أمهاتهم ـ على شواطىء النهر معرضين أجسامهم للهيب أشعة الشمس، ويحملون فى أيديهم قصبات طويلة معلقة فيها شباك ، وينتظر الصيادون فى صبر وأناة حتى تأتى السمكة من تلقاء نفسها لتدخـل فى شباكهم . لكن مياه النهر العكرة تمنحهم الثقة منذ بداية الأمر أنهم سوف يحصلون على ثمن صبرهم وأناتهم تلك .

وليست أشجار النخيل وحدها هى التى تشكل زينة لشواطىء النهر ، فثمة أشجار الجميز وهى تعطى للمشهد تنوعاً محبوباً وتمد إلى بعيد ظلها المرتجى، وقد لاحظنا أن أغصان هذه الشجرة الجميلة تتحرك كلها فى نفس الاتجاه وهو اتجاه الرياح الشمالية الغربية التى تسيطر معظم الأوقات على البلاد .

وقد بلغت فوهفى واحد من أجمل المواقع على شواطىء النيل ، ويصنع أحد أذرع النيل جزيرة فيما قبل هذه المدينة ويشكل الفرع الرئيسى الذى يتجه نحوها

---

(١) أنظر نفس اللوحة ؛ وكذلك اللوحة ٧٨ ، الشكل ١ ، الدولة الحديثة ، المجلد الأول .

بشكل شبه عمودى ترعة واسعة أو قل إنه نوع من لسان البحر الذى يبدو وكأنه قد امتد إلى هنا عن عمد ليقدم مثل هذا المشهد الرائع. وكانت فوه فيما مضى وكما سبق لنا القول هى المكان الذى ترسو فيه كل سفن أوربا، لكن المزايا التى كانت تعود إليها، قد انتقلت كلها إلى مدينة رشيد وذلك منذ أن ابتعد عنها مصب النيل نتيجة لامتداد الدلتا، ومنذ أن ردمت أو سدت الترع التى كانت تربط ما بينها وبين الاسكندرية. ولقد تضاءلت فوة اليوم لتصبح فى وضع قرية لا تتميز عن بقية قرى الدلتا إلا بجمالها وتنوع أشكال مآذنها ومساجدها العديدة. وشوارع فوة بالغة الضيق، ويسكن العوالم أحد أحياء هذه المدينة، وهن أولئك الراقصات اللاتى يمتعن برقصاتهن الشهوانية والخليعة والتى تدور على أنغام موسيقى منفرة، أثرياء أهل البلاد وكذلك القابعات فى معاقل الحريم.

وما أن غادرنا فوة حتى وصلنا بعد قليل إلى ما بين قريتى الشرفا(*) وسرتباى اللتين تواجه كل منهما الآخر على شاطىء النيل، ثم اجتزنا دسوق وهى قرية كبيرة تقع فى داخل الدلتا، وبعد مسافة قصيرة من هناك بلغنا مرتفع الرحمانية، حيث تلوح تلك الترعة التى تتفرع عن النيل لتحمل المياه إلى الاسكندرية.

وعندما كنا نقترب من القرى كان الأهالى يهرعون بفعل فضولهم إلى الشط تملؤهم الثقة، وقد لاحظنا من بينهم كثيراً من الأطفال، والفتيات الصغيرات على وجه الخصوص، وهؤلاء كن عاريات تماماً، وهو تناقض يبعث على الغرابة مع تلك العادة الصارمة التى سترغمهن فيما بعد على أن يحتجبن بعناية شديدة، وبشرتهن غامقة اللون بل تكاد تكون سوداء. وفى بعض الأحيان كنا نصل إلى القرب من بعض القرى دون توقع من أهاليها، عندئذ كانت تسارع تلك النسوة اللاتى كن على شط النيل ليغترفن المياه واللاتى كنا سافرات الوجوه ثقة منهن

(*) لعله يقصد قرية الشراك أو الأشراك وهى إحدى قرى مركز شبراخيت.

أنهن وحدهن، يسارعن ما إن كنا يلحظننا برفع ذيل ملابسهن ليخفين وجوههن(١) تاركات بذلك نهباً للرؤية أجزاء من جسم المرأة تخفيها النسوة فى أماكن أخرى بعناية بالغة . ياله من اختلاف يبعث على الدهشة بين عادات أوربا وعادات أفريقيا ! وقد هيأت لنا هـذه الأمور برغم ذلك الفرصة كى نرى تلك القامة الممشوقة والجذابة لنسوة الطبقات الشعبية ولنتأمل جمـــال تكوينهن ، وهو ما يتناقض بشكل غريب مع ملامح وجوهن ، فبشرة النساء شأنها فى ذلك شأن بشرة الرجال تميل للون النحاسى الغامق .

ويحب المصريون الاستحمام حباً شديداً ، وهو ميل طبيعى فى بلد على مثل هذه الدرجة من الحرارة ، وقد شاهدنا ونحن فى طريقنا عددا كبيرا منهم يهرعون إلى النهر ويعومون بمهارة لاتصدق ، وكثيرا ما كانوا يخرجون من الماء ليغطوا أجسامهم بالتراب ، ويظلون لفترة معرضين أجسامهم للأشعة الحارقة، ثم ينهضون ليغمسوا من جديد أجسامهم فى النهر .

ومع مواصلة طريقنا إلى أعلى النيل كنا نلمح مشاهد طبيعية كانت تشد أعيننا أكثر فأكثر لتغرينا على التطلع ، فقد كنا نرى أماكن شاسعة أرضها قاحلة وليس بها بشر ، ولقد رأينا فى الدلتا على وجه الخصوص سهولا شاسعة غير مزروعة، يغطيها الكلأ وأعشاب لاجدوى منها، ولاتحتاج هذه السهول كى تكون منتجة إلا لأيد نشطة وعاملة ، لأن الأرض هناك خصبة وجيدة ، كما أن المياه اللازمة لإنمائها غير بعيدة عنها .

وفى أثناء مرورنا أمام قرية صا الحجر لمحنا سوراً هائلا وتلالا من الأنقاض

---

(١) أنظر الملابس والوجوه ، اللوحة A ، وستجد رسما لإحدى نساء الشعب اللاتى نتحدث عنهم هنا .

ثم رفنا فيها على أطلال سايس القديمة[1]. ومن طريق سايس وصلنا الى مرتفعات الفرستق عند فتحة ترعة كبيرة تسمى ترعة شبين الكوم، وهى تصل مابين فرعى رشيد ودمياط خلال المنطقة الوسطى من الدلتا .

وفى بعض الأحيان ينحصر النيل داخل مجرى شواطئه العمومية ليرتفع فى أثناء فترة الفيضان التى وصلنا خلالها إلى مابين ٦-٧ أقدام فوق مستوى سطح البحر، وفى أحيان أخرى لا يعود النهر يعرف لنفسه حدوداً ويمتد إلى بعيد ، وهذا ما أمكننا أن نراه على وجه الخصوص ابتداء من الفرستق حتى قرية نادر عند فتحة ترعة منوف الكبيرة، التى يمكن اعتبارها بمثابة نهر[2] يربط خلال الجزء العلوى من الدلتا مابين الفرعين الرئيسيين لنهر النيل .

وفى هذه الفترة من العام والتى قمنا خلالها برحلتنا هذه كان أكبر عدد من الجزر وكتل الرمال يشاهد فى نفس هذه الفترة حقولا كاملة من البطيخ الذى امتدحه كثير من الرحالة وهم محقون فى ذلك ، فهذا البطيخ قد أنقذ منذ وقت قريب حياة عدد كبير من الفرنسيين فى أثناء زحفهم العسير من الإسكندرية إلى القاهرة . أما محصول الذرة فكان فى قمة ازدهاره فى حقوله التى تمتد حول شواطىء النيل .

وقد جنح قاربنا مرات عديدة فى تعرجات النيل حين كانت تأتى الرياح معاكسة لاتجاهنا . عندئذ كان كل البحارة - بعد أن يخلعوا ملابسهم - يلقون بأنفسهم فى المياه ويجرون القارب بالحبال . وطيلة طريقنا كانت تصدمنا قناعة الناس ، فلم نشاهدهم مطلقاً يأكلون إلا خبزاً جافاً أسمر اللون ، يغمسونه فى بعض الأحيان فى ماء مغلى ، وهو ما يشكل نوعاً من الحساء غليظ القوام يأكلونه بأصابعهم .

---

(١) أنظر رحلة إلى أعماق الدلتا ، المجلد الثانى ، ص ١١٦ ؛ الدولة الحديثة (الدراسة الرابعة من هذا الكتاب من الترجمة العربية) ؛ وكذا العصور القديمة الفصل ٢٥

(٢) أنظر رحلة إلى أعماق الدلتا وكذلك الأطلس الجغرافى .

وبين مسافة وأخرى كنا نلمح على شواطىء النيل أكواخاً صغيرة كان يأوى إليها الرجال والنساء للراحة والاحتماء من لهيب الشمس، وهى عبارة عن أربعة من فروع الأشجار مغروسة فى الأرض وتوضع فوقها أغصان جافة، كما كانت تدهشنا تلك الأعداد الكبيرة من قطعان البقر والجاموس التى كنا نلمحها على الشاطىء الآخر. وتحب الجاموس الماء كثيرا وتبقى فيه لمدة طويلة حيث تغمس أجسادها حتى رأسها. ومن المشاهد التى تبعث على الفضول أن ترى قطعانا بأكملها من الحيوانات تعبر النيل أو تستحم فيه، وكثيرا ما شاهدنا رجالا وأطفالا صغارا يتسابقون فى عبور النهر وكانوا يمسكون تحت أبطهم بحزمة من القرع لتحملهم، وكانوا يعقدون ملابسهم حول رأسهم كما كانوا يستخدمون أيدهم كمجاديف لتغيير الاتجاه.

وبعد أن استمتعنا بكل هذه المشاهد المتنوعة وبكل ما يلفت الانتباه وصلنا إلى بطن البقرة، وهى النقطة التى ينقسم عندها النيل إلى قسمين ليشكل فرعى دمياط ورشيد. ويبلغ اتساع النهر هناك مداه حتى ليظن المرء نفسه يسبح وسط بحر.

كنا قد لمحنا بالفعل الأهرام الشهيرة عندما كنا ما نزال بعيد على مسافة أكثر من ثمانية أو عشرة فراسخ، وما إن كنا نتقدم حتى كانت تبين أكثر فأكثر تلك الهضبة التى تنهض فوقها الأهرام، ثم ظهرت الأهرام نفسها بمشهدها الطاغى. وفى أثناء رحلتنا هذه نزلنا فى بعض الأحيان من قاربنا وذهبنا نلتمس البطيخ من القرى المجاورة. وقد استقبلنا الفلاحون بحفاوة، وباعونا بلهفة تلك الفاكهة التى وجدناها لذيذة للغاية فى بلد يكاد يحرقها لهيب الشمس. وفى أثناء جولاتنا تلك خارج قواربنا لمسنا كم أن الشمس حارقة، كما وجدنا السماء ملتهبة وخانقة بسبب ما كان يقابلنا من لفحات هواء، بدا لنا ساخناً، كما لو كان يصدر عن فتحة فرن.

وفى أثناء ذهابنا من بطن البقرة إلى القاهرة لمحنا على الشط الأيمن رجلا

وامرأة راكبين فوق ظهر جمل وكان يسير خلفهما أهلهما وأصدقاؤهما، وهؤلاء بدورهم يركبون الجمال التي كانت بالإضافة إلى ذلك تحمل الأمتعة . لقد كانت زوجة جديدة وكان زوجها يصحبها إلى مسكنه ، وبدا لنا وكأننا نرى ربيكا[1] تسير خلف الخادم العجوز لإبراهيم، والذى جاء يصحبها لتصبح زوجة لابن سيده[2] . وفى كل خطوة فى مصر سوف تجد هكذا تلك التقاليد والعادات كما جاءت فى نفس شكلها الساذج والبسيط فى سفر التكوين .

وأخيرا وصلنا إلى بولاق فى الثالث من فريكتيدور فى حوالى الساعة الخامسة مساء ، ويمكن اعتبار هذا المكان بمثابة ميناء للقاهرة ، عاصمة مصر ، والتى سوف تكون بعد قليل موضع فضولنا الذى لا يشبع .

---

(١) سفر التكوين ، الأصحاح ٢٤ ، الآية ٥١

(٢) سفر التكوين ، الأصحاح ٢٤ ، الآية ٦١



(١٠)

دراسة موجزة عن
ترعة الاسكندرية

" لانكريه - شابرول "



يتفرع فرع رشيد[1] ، عند اقترابه من الرحمانيـة ، إلى ذراعين أساسيين مشكلا سلسلة متتابعة من الجزر ، يبلغ طولها فى مجموعها ١٨٠٠ متر ؛ وأهم هذين الذراعين هو الذراع الأيمن ، الذى يظـــل على الدوام صالحاً للملاحة ، أما الآخر — وقد كان يظل يحتفظ ، حسب شهادة أبناء البلاد بالمياه طيلة العام — فقد غص بالطمى منذ ما لا يزيد على اثنى عشر عاماً على أكثر تقدير ، لدرجة يظل معها هذا الذراع ، منذ ذلك التاريخ ، جافاً لمـــدة ثمانية أو تسعة أشهر فى العـام .

على شواطىء هذا الذراع توجد قرية الرحمانية ، ومن هذا الذراع كذلك، وعلى بعد ١,٢٠٠ متر إلى الشمال من الرحمانية ترفد ترعة الاسكندرية ، حيث تدخل إليها المياه عن طريق فتحتين ، تعلو كل فتحة منهما بمقدار ٢,٨ من الأمتار فوق منسوب أدنى مياه النهر ، كما تبعد كل منهما عن الأخرى بنحو ٦٠٠ متر . وأدنى هاتين الفتحتين هى فى نفس الوقت أقدمهما ، لكنها قد أهملت لأن أعمال التطهير المتعاقبة قد رفعت من جسورها حتى أن الرياح (اللازمة لتسيير المراكب) لم تعـــد بقادرة على الوصول إلى القلاع ؛ وهـكذا أنشئت الفتحة الثانية كى تقوم مقامها .

وليست ترعة الاسكندرية ، فى الفرسخ الأول من مجراها[2] ، سوى ما يشبه حفرة يبلغ اتساعها ٥ إلى ٦ أمتار . وقد حفر هذا الجزء من الترعة لربطها بفرع رشيد حين انسد ذلك الجزء من الفرع الـكانوبى ، الذى كان يشكل فيما مضى

---

(١) قرئت هذه الدراسة بالمجمع العلمى بالقاهرة ، فى الأول من نيفوز من العام الثامن (٢ ديسمبر ١٧٩٩) .

(٢) الفرسخ الذى تقدر به المسافات الـكبيرة والذى ورد فى هـذه الدراسة هو الفرسخ الذى يبلغ طوله ٢٤٠٠ قامة (وتساوى القامة ٢ ياردة) .

مجرى هذه الترعة الأصلى ؛ ثم يلتقى هذا الجزء (من الترعة) بالفرع الكانوبى القديم على بعد ٢٥٠ متراً من قرية كفر محلة داود ، ولا يفصله عن الترعة إلا جسر يبلغ سمكه فى هذه المنطقة أربعة أو خمسة أمتار .

وبمجرد أن نتقدم إلى ما بعد هذه النقطة ، تصبح الترعة أكثر اتساعاً ، ويصبح شكلها كذلك أكثر استواء ؛ وتستمر القرى على هذا النحو حتى قرية سماديس ، حيث يبلغ متوسط اتساعها خمسين متراً ، وتظل تحتفظ بهذا الاتساع إلى ماوراء قرية أفلاقة ، أى لمسافة تبلغ نحو الفرسخين ونصف الفرسخ. وترتفع قمم شواطىء الترعة لأكثر من أربعة أمتار فوق مستوى قاعها ، فى حين لا يبلغ عمق هذا القاع فى حقيقة الأمر سوى متر واحد أدنى من مستوى أرض السهل . ويحمل هذا الجزء من الترعة كل خصائص وسمات الماضى القديم ، إذ نجد عليه مرافىء نصف دائرية ، يبلغ اتساعها ٨٠ متراً ، الأمر الذى لا يمكن أن نشك معه أن كانت تتحرك فى هذه المنطقة أعداد كبيرة من القوارب بالإضافة إلى حركة تجارية بالغة النشاط ، وفى الواقع ، فإن هذا المكان هو ما يمكن أن يقع عليه اختيارنا اليوم حين نرغب فى تجميع منتجات ولاية البحيرة لكى نرسلها إلى الاسكندرية ؛ وفضلا عن ذلك فهذا المكان يقع بالقرب من قرية كبيرة ، منذ وقت طويل ، ونعنى بذلك دمنهور ، التى تشغل اليوم فيما يبدو — موقع هرموبوليس بارفا القديمة[1] .

وبعد ذلك لا تقدم الترعة شيئاً متميزاً خلال الفرسخين التاليين فيما عدا أن قريتى زاوية غزال وقابيل قد هجرتا الترعة القديمة إلى ترعة حفرت حديثاً بعمق منتظم ، كما أنها قد شقت فى شكل خط مستقيم .

---

(١) تمر ترعة الاسكندرية إلى شمال دمنهور بنحو ١٢٠٠ — ١٥٠٠ متر ؛ وتحصل هذه المدينة على مياه النيل من طريق ترعة خاصة تمضى لتنتهى الى ترعة الاسكندرية ، الى الجنوب قليلا من قرية أفلاقة .

وبعد قابيل نجد أنفسنا فى قرية جد مختلفة عن تلك التى تجاوزناها للتو ، حيث لانعود نمضى فى سهل خصيب ، مزروع وعامر بالقرى ، بل فى أرض غير مزروعة ، وقرى خربة ، ومدن مهجورة ؛ وقد يكون هذا المشهد أبعث على الرعب من مشهد الصحراء لأننا لاننسى أنه كان فيما مضى على حالة من الازدهار لم يعد لها وجود .

ويصبح متوسط اتساع ترعة الاسكندرية ابتداء من قابيل ولمسدة أربعة فراسخ متوالية عشرين مترا ، وتغدو جسورها فى بعض الأحيان قليلة الارتفاع ، وفى أحيان أخرى تعلو هـذه الجسور لتبلغ أكثر من ثمانية أو عشرة أمتار ؛ وهذا الجزء من الترعة هو أجمـل أجزائها وأكثرها تماثلا وانتظاماً سواء من ناحية العرض أو ناحية العمق ؛ وتحتفظ الترعة فى الفرسخ التالى ، أى عند اللوحا(*) بنفس العرض ونفس التماثل والانتظام الذى كان لها قبل ذلك على وجه التقريب ، لكن السهل المحيط بها يأخـذ فى الانخفاض شيئاً فشيئاً بحيث يصبح قاع الترعة على نفس مستوى سطح هذا السهل ، بل إننا نجد القاع فى أماكن عدة يرتفع عن منسوب سطح السهل نفسه ، ولا تعود الزراعة لتصبح تحت مستوى سطح السهل إلا قبل الاسكندرية بنصف الفرسخ .

وبعد اللوحا مباشرة تتسع الترعة بشكل مفاجىء لمسافة تبلغ نصف الفرسخ ، فيبلغ عرضها مائة إلى مائتين بل ثلاثمائة وخمسين متراً فى حين لا يكاد يبلغ ارتفاع جسورها المترين ؛ وهذه الجسور ضعيفة لحـد أن المياه تتسرب من خلالها ؛ وتضيق الترعة بعد ذلك كثيرا فلا يعود يبلغ عرضها عند المرور بالبيضا أكثر من خمسة أمتار ، وهناك تهدد الجسور التى يبلغ ارتفاعها أكثر من سبعة أمتار ، والتى تغطيها رمال متحركة ، بطمس الترعة بشكل تام . وفى هذا المكان ، تسير

(*) اللوحا أو اللوها Lelôha ويذكر القاموس الجغرافى لوصف مصر أنها قرية خربة ومهجورة كما سبق لنا القول . [المترجم] .

الترعة على مسافة تبلغ فى المتوسط نحو المائة متر من بحيرة أبى قير ، ثم تبتعد عنها بعد ذلك ، لتتخذ ولمدى فرسخ واحد نفس الانتظام والاتساع اللذين كانا لها عند الوحا ؛ ثم تقترب الترعة من البحيرة عند طرفها الغربى ، وتضغط عليها عن قرب حتى لا يعود يفصلهما سوى جسر حجرى يبلغ سمكه من ستة إلى سبعة أمتار . ويقوم حائط سميك آخر ، يبتعد عن الأول بخمسين مترا ، بدور الجسر من جانب السهل ؛ وهذا المكان الذى يعرف باسم البوصة بسبب تلك الكمية الهائلة من البوص (الغاب) الذى ينمو فيها بكثرة ، هو أكثر مناطق الترعة انسدادا لأن الأتربة الناتجة عن عمليات التطهير السنوية كانت تلقى على الدوام ، ذات اليمين وذات الشمال فى داخل الجسور ذاتها .

وبدءا من طرف البحيرة ، تجتاز الترعة أرضا تقطعها مستنقعات مالحة ، تغطيها طبقة من الملح يبلغ سمكها ١٠ — ١٢ سم ، ثم تمر بعد ذلك وسط دغل من أشجار النخيل يمتد لمسافة نصف الفرسخ ، تاركاً عن يمينه عددا كبيرا من الآبار ، يحمل بعضها طابع البنايات اليونانية أو الرومانية ، وإن كان معظمها قد شوهته الترميمات التى أدخلت عليه فى الأزمنة الحديثة ؛ وتحيط بهذا الجزء من الترعة ، وهو الجزء القريب من الاسكندرية ، من جهة اليمين ، أكوام تغطيها بيوت خربة ، هجرها منذ سنتين أو ثلاث سنوات ، العرب ، وقد كانوا آخر سكانها ، وهناك نجد بالمثل جذوعاً عديدة لأعمدة من الجرانيت بالإضافة إلى قطع من الفتات والحطام ، تنتمى لعمارة الإغريق الذين أنشأوا ، وجملوا فى الوقت نفسه ، هذه المنطقة من أرض مصر .

ويصبح عمق الترعة على مسافة نصف فرسخ من الاسكندرية أكثر انخفاضاً بقليل عن مستوى سطح البحر ، لكنها بدءا من هذا المكان ، وحتى سور العرب تمر بمنحدر عكسى ، أى أنها ترتفع مع اقترابنا من هذا السور .

وفى النهاية تستدير ترعة الاسكندرية ، وقد بلغ اتساعها الآن ٢٠-٢٥ مترا ،

حول سفح تل ينهض فوقه عمود سفيروس ؛ وبعد ذلك مباشرة تصبح باللغة الضيق ، ثم تمر من خلال سور العرب(*) لتبلغ نهايتها فى الميناء القديم ، فى شكل مجرى أو مجرور .

ويبلغ الفرق بين أعلى وأدنى مياه للنيل عند مدخل ترعة الاسكندرية ، نحو أربعة أمتار فى السنوات المعتادة ؛ كما يبلغ متوسط عمق المياه فى هذه الترعة ، حينما تصل إلى أقصى ارتفاع لها نحو ١,٦ مترا .

وتصبح الزيادة السنوية لمياه النيل محسوسة عند الرحمانية ، فيما بين ١٠ و٢٠ يوليه ؛ ونحو نهاية الشهر التالى تبلغ هذه الزيادة مدخل ترعة الاسكندرية وتستغرق المياه شهراً كاملا لكى تقطع هذه الترعة ، إذ يبطىء من مسيرة المياه عدم الاستواء فى انحدار الترعة ، وكذلك ، وبصفة خاصة بسبب تعرجاتها العديدة ، لذلك يبلغ طول امتدادها عشرين فرسخاً ، على الرغم من أن المسافة بين طرفيها لاتصل لأكثر من خمسة عشر فرسخاً ؛ وهكذا لاتصل المياه إلى الاسكندرية إلا فى نحو العشرين من سبتمبر ؛ وحيث يلاحظ انخفاض مياه النيل عند الرحمانية ابتداء من الخامس من أكتوبر ، فإنه يترتب على ذلك أن الملاحة فى الترعة لايمكن لها أن تدوم لأكثر من عشرين أو خمسة وعشرين يوماً .

وحين تصل المياه إلى الاسكندرية ، تدخل فى أربع قنوات تحت أرضية ، تتوزع مداخلها بطول نصف الفرسخ الذى يسبق مصب ترعة الاسكندرية . وتمضى المياه عن طريق هذه القنوات إلى خزانات ، وترفع منها عن طريق السواقى إلى مجار هندسية تتولى توزيعها على آبار وخزانات المدينة المختلفة . وتدار هذه السواقى ، ويصل عددها إلى ٧٢ ساقية ، بواسطة خيول وثيران

(*) أنظر دراسة عن مدينة الاسكندرية ، تأليف جراتيان لوبير ، وهى الفصل الأخير من كتابنا هذا .

تلتزم ولاية البحيرة بتوفيرها كل عام ، لهذا العمل(١) .

ومنذ زمن ليس بالبعيد كان عدد الخزانات التي تستقبل المياه يصل إلى ٣٦٠ خزاناً ، لكننا الآن لا نجد أكثر من نحو ٣٠٨ خزان ، وقد ينخفض هذا العدد سريعاً لأن بناء هذه الآبار يعود إلى زمن ضارب في القدم ، كما أنه لم يجر أي ترميم لها منذ زمان طويل ، كذلك كان يوجد عدد أكبر من القنوات الفرعية ، لكنها بعضها قد انسد ، في حين لا يفضى بعضها الآخر إلا إلى بعض الحدائق الخاصة .

ولا يقفل مصب الترعة مطلقاً في الميناء القديم أثناء العمل على ملء الخزانات . ذلك أن المنحدر العكسي الذي تحدثنا عنه ، يحول دون تدفق المياه عن طريق هذا المنفذ بكميات أكثر مما ينبغي ، أما المياه التي تفيض عن ذلك فتستخدم في تموين السفن .

وعندما تكون كل خزانات مياه الإسكندرية قد امتلأت على نحو كاف ، فإنه يسمح لسكان القرى الواقعة على ضفاف البحيرة بقطع جسورها ، لري أراضيهم أو لملء خزاناتهم ، على حد سواء .

وينتظر هذه اللحظة بفارغ الصبر ، الفلاحون الذين يقطنون القرى الواقعة على شط الترعة الأيمن في جزئها الأعلى ، والذين تروى حقولهم ترع أخرى ، لكي يقطعوا جسور ترعة الإسكندرية حتى يصرفوا إليها على وجه السرعة المياه التي ظلت فوق أراضيهم وحتى يجففوها على وجه السرعة ، وفي الوقت الذي نجد فيه هؤلاء مضطرين لتصريف هذه المياه إلى الترعة ، فإن هذه المياه نفسها سوف

---

(١) ينبغي رفع المياه لارتفاع عشرة أمتار حتى تصل إلى الخزانات الموجودة ناحية باب رشيد ، ولارتفاع خمسة أمتار فقط لكي تصل إلى الخزانات الواقعة بالقرب من الميناء القديم .

تستخدم فى رى الأراضى الواقعة فى الجزء الأدنى من الترعة والتى لا ترويها مياهها بالقـــدر الـكافى . ولا تسمح الفيضانات الكبرى إلا برى جزء من الأراضى ، أما فى حالة الفيضانات العادية فتبقى الأرض دون زراعة ، ويهجر الفلاحون مقارهم لـكى يذهبوا باحثين عن عمل فى المدن أو القرى الـكبيرة ، منتظرين إلى أن يروى النهر حقولهم كى يعودوا إلى قراهم .

لقد حفرت هـذه الترعة دون شك بأقل قدر من العناية ؛ وينبغى لنا أن ننسب هجر شواطئها إلى ضآلة كميات المياه التى تحملها الترعة كل عام ، ذلك أن الأرض هناك قابلة للزراعة لحد كبير ، فتربتها هى نفس التربة فى بقية أنحاء مصر، وإن كانت الرمال — للحقيقة — تغطيها فى بعض أنحائها ، وقد كان ذلك نتيجة لعزلة هذا الإقليم ، وليس سبباً لها .

وتحت حكم المماليك ، كان يعسكر أحد الـكشاف من حامية ولاية البحيرة، على شواطىء الترعة ، ابتداء من اللحظة التى تدخل إليها فيها المياه ، وحتى الوقت الذى تمتلىء فيه خزانات الإسكندرية ، وكان الهدف من ذلك ، هو منع عربان الصحراوات وكذا الفلاحين ، من إحداث قطوع فى جسورها ، ولـكى يقوم هذا الـكاشف بنفسه بإصلاح هذه الجسور إذاما أنذرت كميات المياه الـكبيرة للغاية بقطع بعض أجزاء من الجسر . وحالما تمتلىء خزانات الإسكندرية ، كان يدخل (هذا الـكاشف) المدينة لـكى يتأكد من حدوث ذلك ، ويقوم بذلك ، وبناء على طلب منه ، كل من قائد المدينة والقاضى والعلماء ؛ وبعد ذلك كانت تملأ جرة من مياه هذه الخزانات ، وتقفل بواسطة الذين أشرفوا على هذه العملية ، وترسل إلى حاكم القاهرة ، وبرفقتها حجة تؤكد لهذا الحاكم أن المياه فى حالة طيبة ، وأن الخزانات قد امتلأت .

وبعد أن تعرفنا على ما يسمى اليوم بترعة الإسكندرية ، وعلى النظام الذى تخضع له مياهها ، فسوف نتناول بإيجاز حالتها القديمة ثم نلقى بنظرة سريعة

على صلاتها بالتجارة والزراعة ، وفى النهاية سوف نتحدث عن الإصلاحات التى تتطلبها والتى لابد منها ، وعن التحسينات التى يمكن إدخالها عليها .

لم يبق من أثر يدل على أن ترعة ماقد حملت مياه النيل من بحيرة ماريوتيس إلى المنطقة التى تشغلها الإسكندرية . ويبدو أن سكان حواشى راكوتيس ، وكذلك الحامية التى كان ملوك مصر يحرصون على وجودها هناك ، كانوا يحصلون على المياه الصالحة ، وبالقدر الكافى من الحفر التى كانوا يحفرونها هناك على شاطىء البحر . ومن المعروف أن قيصر ومعشوقته، حين كانا محاصرين بالإسكندرية ، قد اقتصرا لوقت طويل على هذا المصدر الوحيد للمياه . وقد يكون بالإمكان اللجوء إلى هذه المياه ، فى أيامنا هذه ، إذا اقتضت الأحوال ، وقد تمت (بالفعل) تجارب للتأكد من صلاحيته .

ومع ذلك ، فإذا لم تكن شواطىء بحيرة ماريوتيس تزرع قبل الإسكندرية ، فإننا لانستطيع أن نشك فى أن جزءاً من السهل الواقع بين الإسكندرية ودمنهور كان يروى ويزرع بصفة مؤكدة على يد قدماء المصريين ، إذ لا يزال المرء يجد هناك فتات كتابات هيروغليفية تدل على أنهم أقاموا المنشئات هناك ، فتجد فى قرية أفلاقة ، كما فى قرى أخرى ، أن باب إحدى الطواحين يزدان فى تناسق بثلاثة أحجار منحوتة ، ويحمل أكثر هذه الأحجار أهمية ، رسماً لإيزيس وهى منكفئة ، بحجم يبلغ ست ديسمترات ؛ تغطى رأسها بجلد نسر ، وتمسك بيدها تلك العصا التى تنتهى بزهرة اللوتس . وقد حفظت هذه الشقفة من الحجر الجيرى بأكبر قدر من العناية ؛ وقد نقش هذا الرسم بحروف بارزة فوق التجويف ، بنفس العناية ، وبنفس التفاصيل التى نجده عليها فوق جدران معبد دندرة[1] .

---

(١) انظر المجلد الخامس ، مجموعة العصور القديمة .

أما الرأى القائل بأن هـذه الترعة إنما هى نفس الترعة التى حفرت بعـد تأسيس الإسكندرية ، حينما تقدمت المدينة وازدهرت بشكل عام ، فنحن نعتقد أن علينا أن نجرى حول هذا الرأى أبحاثاً عديدة .

نعرف عن طريق الشهادات الموضوعية لسترابون ، أن المرء عند خروجه من الإسكندرية عن طريق باب كانوب ، كان يجد عن يمينه ترعة تحمل هـذا الاسم ، توازى شاطىء البحر ، وعلى مسافة قريبة منه . ولقد كان لهذه الترعة منفذ على بحيرة ماريوتيس فى الوقت الذى لم يكن لها فيه بالتأكيد مثل هـذا المنفذ بالقرب من كانوب الواقعة على شاطىء البحر ، لـكن هذه الترعة كانت تحصل على مياه النيـل عن طريق ترعة ترفد عن الفرع الـكانوبى بالقرب من شديا ، وعلى مسافة قصيرة من فم النيل ، ماذا يمكن إذن أن يكون ذلك الدافع الذى حـدا بالمهندس المعارى دينوكراتوس لـكى يشق ترعة يبلغ طولها ١٨ فرسخاً فى حين قد كان بمقدوره الحصول على المياه من جوار كانوب عن طريق ترعة لا يتجاوز طولها ستة أو ثمانية فراسخ ، فقط ؟

وبلا جدال ، فلقد كانت ترعة كانوب هذه ، هى الترعة الوحيدة التى تحمل إلى الإسكندرية المياه المخصصة للشرب ، ذلك أننا لو افترضنا أنه كان من الضرورى — وقد أصبحت هـذه المدينة أكثر مدن مصر ازدحاماً بالسكان — شق ترع أخرى ، بدءاً من قمة الدلتا ، كى تزيد من كمية المياه الصالحة للشرب فى الإسكندرية ، لـكان علينا كذلك أن نقر بأن هذه المياه لم يكن بمقدورها الوصول إلى المدينة إلا بعد أن تتجمع إلى المياه التى كانت تحملها ترع شديا أو كانوب ؛ وبمعنى آخر ، فقد كان على هذه المياه أن تجتاز بحيرة ماريوتيس ، حيث كانت بالضرورة سوف تفسد .

ومع ذلك فلعل ذلك الجزء من الترعة الحالية ، الواقع بين قرية الـكريون والمستنقعات البحرية التى تحدثنا عنها ، هو ما تبقى من إحدى هذه الترع التى

كانت تهدف إلى زيادة كمية المياه فى ترعة كانوب . وهذا الجزء يدور حول الموقع القديم لبحيرة ماريوتيس . كما أن قاعه أعلى بكثير من مستوى سطح السهل . وهكذا ، فيما يبدو لنا ، يحتمل أن يكون القوم قد أنشأوا بالقرب من المياه المالحة ، ترعة خصصت لنقل المياه اللازمة لاحتياجات الحياة .

ومن جهة أخرى ، فقد كان يصل إلى بحـــيرة ماريوتيس ، طبقاً لشهادة سترابون ، عدد كبير من الترع أو القنوات التى رفدت عن الأجزاء العليا من النهر ؛ وكانت واحدة منها تمر بهرموبوليس بارفا ، وقد سبق لنا أن لاحظنا أن الترعة تحمل طابع الماضى فى المنطقة المجاورة لهذه المدينة التى تسمى اليوم دمنهور . وهكذا فلسنا نشك أن العديد من الترع القديمة كان يتصل ببعضه البعض على التوالى ، لتتكون فى النهاية تلك الترعة التى بقيت حتى اليوم ، ويمكن لذلك أن يفسر لنا سر الالتواءات الغريبة والكثيرة وسبب كثرة مرات عدم الاستواء التى تعانى منها هذه الترعة ، فى حين أنها تخترق أرضاً يمكن لها فيها أن تتخذ شكل الخط المستقيم ، مع أكبر قدر من الانتظام والاستواء .

ويقودنا تاريخ ترعة الإسكندرية إلى التصدى لموضوع آخر ، ليس غريباً عن ذلك الذى نعالجه .

نحن نعلم عن طريق قصة حرب قيصر فى الإسكندرية أن جزءاً من هـذه المدينة كانت تعبره ترعة تفى مياهها باحتياجات جزء كبير من شعب الاسكندرية ؛ ذلك أن أثرياء المدينة والذين يرتبطون بهم لم يكونوا ليكتفوا بمياه الخزانات أو الآبار . وقد ظن بعض النقاد أن هذه الترعة كانت هى نفسها التى تربط — فى ذلك الوقت — بحيرة ماريوتيس بميناء كيبوتوس ، دون أن يأخـــذوا فى فى اعتبارهم ، أنه حتى بافتراض أن مياه هذه البحيرة قد أصبحت صالحة للشرب عن طريق هذا العدد الهائل من الترع النيلية التى تصب فيها ، لكانت هذه المياه تميل بالضرورة للملوحة فى الترعة التى تحملها إلى البحر ، ذلك أن هذه الترعة كان

لا بد لها أن تكون واسعة مادامت قد كانت صالحة للملاحة . وفضلا عن ذلك فقد كان التعبير الذى أطلقه هيرتيوس[1] Hirtius ، والذى أطلق فيه اسم نهر النيل على الترعة التى كان الناس يشربون منها لم يكن مما يحبذه أولئك الذين يعتقدون أن هذه الترعة إنما كانت ترفد عن بحيرة ماريوتيس . هكذا نجد أنفسنا مدفوعين إلى الاعتقاد بأن المياه التى كان يستعملها القوم إنما كانت تستمد من ترعة كانوب هذه ، والتى تحدثنا عنها فيما سبق .

وقد نضيف بأن هذا الرأى لا يتعارض مطلقاً مع رواية هيرتيوس حول وضع قيصر حين كان محاصراً بالإسكندرية ، والذى لم يكن - كما هو معروف - يبسط نفوذه على الحى الذى تخترقه الترعة المسماة نهر النيل ، فهذه الترعة التى نحن بصددها ربما لم تكن - فى واقع الأمر - تمر بحى القصور التى يملكها قيصر ، ولا بد أن هذه الترعة كانت تخترق المدينة بين سورها الجنوبى والشارع الطويل ، كما لا بد أنها كانت تصب مياهها عن طريق فتحة ضيقة فى تلك الترعة التى كانت تربط بين بحيرة ماريوتيس وميناء كيبوتوس .

وهكذا نرى من وصف ترعة الإسكندرية أنها لم تعد محاطة فى الجزء الأكبر من مجراها إلا بخرائب وصحراوات ، ومع ذلك فلما تكد تمضى أكثر من ٤٦٠ عاماً منذ ذلك الوقت الذى كانت لا تزال هذه المنطقة فيه تتحلى بكل ثروات مصر . وأنقل هنا فقرة عن الكاتب العربى أبى الفداء الذى كان يعيش فى هذه الفترة ، حيث يقول فى البداية عند حديثه عن الإسكندرية :

« ويجلب إليها القمح من الخارج ، فالحقول المحيطة بها قاحلة لأن أرضها مشبعة بالملح » .

---

(١) De Bello Alex. Cap. V

ثم يقول فى الهامش :

« تقع الإسكندرية داخـــل جزيرة رملية ، شكلها كل من البحر وترعة الإسكندرية ، وهذه الجزيرة التى يصل طولها لأقل بقليل من مسيرة يوم واحد ، مزروعة بالكروم ، وتزدان بالحدائق ؛ وعلى الرغم من أن الأرض لا تتكون إلا من الرمال فإن مظهرها مع ذلك لا يخلو من جمال . وتقوم الترعة التى تحمل مياه النيل إلى الإسكندرية مظهراً منعشاً ؛ ويزدان مجراها بالحدائق والبساتين على جانبيها » .

ولكى نفهم هذين النصين من أبى الفداء ، واللذين يبدوان متعارضين لأول وهلة ، فلا بد أن نلاحظ أن النص الأول يتعلق بذلك الجزء من السهل الذى يقع على يسار الترعة ، والذى يتشبع بالفعل بالملح البحرى ، حيث كان يقع فيما مضى ، تحت مياه بحيرة ماريوتيس . أما النص الثانى ، فإنه ينطبق على كل الفراغ فيما بين الشط الأيمن للترعة والبحر ، ولم تكن هذه الأرض — فى معظمها — فى ذلك الوقت تغطيها المياه ، كما هى اليوم : لأن بحيرة أبى قير ، التى لا يصح أن نخلط بينها وبين بحيرة إدكو (المعدية سابقاً) التى لم تكن قد نشأت بعد[1] .

ولا يمكن للمرء الشك فى أن شواطىء ترعة الاسكندرية لم تكن بالغة الازدهار حتى وقت سيطرة العرب على هذه المدينة . وتدل القناطر الأربع التى

---

(١) لم توجد بحيرة أبى قير بشكلها الحالى إلا منذ عام ١٧٧٨ أو ١٧٨٠ ، وقبل هذا التاريخ ، كان ثمة سد حجرى ، لا يزال جزء منه باقياً حتى اليوم ، كان يمنع المياه من التوغل داخل الأراضى ؛ ولما قطع هـذا الجسر دون أن يسعى القوم لإصلاحه فقد غمرت مياه البحر كل السهل الأدنى من منسوبها هى ، وتكونت بحيرة أبى قير ؛ وقد غرق كثير من القرى نتيجة هذه الكارثة .

وعنـد حوالى بداية القرن الأخير قطع هذا الجسر بفعل إعصار ، كما يقص علينا بول لوكاس Paul Lucas ، لكنه أصلح بعد ذلك بقليل .

شيدوها بطول الفرسخ الذى يسبق الاسكندرية — على أن الحاجة للاتصال بين شط وآخر، فى زمنهم، كانت ملحة. وقد خربت القنطرة الأقرب إلى السور الغربى، وقد شيدت الثلاث الأخريات على نفس النمط، فهى تتكون من قوس واحد على النمط القوطى، شاهق العلو، بسبب احتياجات الملاحة.

وقبل أن نتحدث عن الأعمال التى تتطلبها ترعة الإسكندرية، سنعرض للدوافع الأساسية التى ينبغى أن تحثنا على صيانتها.

تعد ترعة الاسكندرية أكثر تلك الترع التى لابد أن ينشغل بها حكام مصر، أهمية، بعد ترعة السويس؛ إذ تغدو حلقة لاغنى عنها لتلك التى قد تربط البحر الأحمر بالنيـــل، ذلك أنه أيا كانت النقطة التى ستنتهى إليها الترعة الأخيرة، فلسوف يكون من اللازم أن تصل السفن التى تبحر فيها إلى الاسكندرية، وسيكون من الحرص أن نجعـــل هذه السفن تصل إلى هناك عن طريق ترع داخلية، بدلا من أن نسلمها فى معظم الأحيان إلى بحر هائج، أو أن نعرضها فى أوقات الحرب لعمليات العدو: وقد أدرك الإغريق كل هذه الأسباب، ولذا كانت تتم التجارة فى عهدهم عن طريق بحيرة ماريوتيس، التى كانوا يفضلون موانيها على موانىء البحر الأبيض المتوسط. ومع ذلك فإن ترعة الاسكندرية — بعيداً عن مشروع قناة السويس — تتمتع فى حد ذاتها بأهمية كبيرة وتستحق أن نوليها القدر الأكبر من الاهتمام؛ وفى واقع الأمر، ومهما تكن الوسيلة التى قد ترسل بها سلع الهنـــد والبحر الأحمر إلى مصر عن طريق السويس أو القصير، فلا بد أننا ندرك أن على هذه السلع أن تتجه على الدوام إلى الاسكندرية لكى تشحن من هناك على سفن توزعها على كل أوربا. وبمعنى آخر، فإن الأسباب التى ذكرناها للتو عن ضرورات النقل الداخلى، تحتم كذلك أن تغدو ترعة الاسكندرية صالحة للملاحة طيلة العام؛ وفضلا عن ذلك فسوف يكون هذا المشروع مصدر ازدهار لمصر، فلسوف يعود إلى الزراعة جزء

هام من أرض أفقدها إياه الإهمال الإجرامى من جانب حكامها ، ولسوف نرى من جديد شواطىء هذه الترعة — وهى اليوم جافة ومهجورة — وقد استعادت خصوبتها التى كانت لها فيما مضى ، ولسوف تفى هذه الظروف بشكل يدعو للإعجاب بالاحتياجات الجديدة للاسكندرية التى سيزيد نشاطها مع زيادة عدد سكانها ، والتى لن تمتص — مع ذلك الجزء الأكبر من منتجات مصر فى الوقت الحاضر .

ومهما تكن المضاربات التى سوف تستهدف الترعة التى نتحدث عنها ، فإن مدينة الاسكندرية ضرورية للغاية لمصر وللحد الذى لا يمكن معه أن تترك حتى تفقد اتصالها بالنيل ، ولو للحظة واحدة .

وقد سبق لنا القول بأن ثمة جسراً حجرياً عند طرف بحيرة أبى قير ، يبلغ سمكه من ٦ إلى ٧ أقدام ، يفصل البحيرة عن البحر ، وعلى الرغم من أن هذا الجسر قد بنى حديثاً ، إلا أنه قد بنى بشكل متين بعض الشىء ، وإن كان لا يلقى أى قدر من العناية ، لذا فإنه يتدهور ، وسوف تترتب على تصدعه سلسلة من الأحداث الخطيرة ، فحيث أن مياه البحر أكثر إنخفاضاً من مياه الترعة ، فإن مياه الترعة ستنصرف كلية إلى البحر ؛ وأكثر من ذلك ، فلو جاء هذا التصدع نتيجة لإعصار يمكن أن يجتاح الجسر الثانى للترعة ، فإن مياه بحيرة أبى قير عندئذ سوف تزحف على كل السهل الذى كانت تشغله فى الماضى بحيرة ماريوتيس ، والذى لا يزال — حتى اليوم — أدنى من مستوى سطح البحر ، وبذلك سوف تجد الاسكندرية نفسها ذات يوم فوق برزخ بالغ الضيق ، كما كان حالها عند وجود هذه البحيرة ، ولكن مع فارق واحد ، هو أنه لن يكون بالمستطاع إيصال مياه النيل إليها [1] .

---

(١) تحقق هذا التصور للأمور بفعل الأحداث ، وذلك عند حصار الإنجليز والأتراك للاسكندرية فى عام ١٨٠١ ، حين قطعوا جسور الترعة ، فزحفت إلى الحوض القديم لبحيرة ماريوتيس ، مياه بحيرة أبى قير والبحر الأبيض المتوسط .

ينبغى إذن إعادة إنشاء الجسور التى تفصل البحيرة عن الترعة ، بل لابد من بناء جسور جديدة فى كل المناطق التى يمكن لها أن توحى ببعض المخاوف ؛ بل ربما كان من الأحوط والأيسر أن نبعد الترعة عن البحيرة . ولن يكون الأمر فى هذه الحالة باهظ التكاليف ، بحيث أن السهل الذى تخترقه الترعة بالغ الانخفاض ، كما سبق لنا القول ، فقد يكون كافياً أن نقيم الجسور فتتكون الترعة وأخيراً ، فإننا إذا أعدنا إقامة الجسر الذى يفصل البحيرة عن البحر ، أو على الأقل ، إذا حرصنا ألا يتهدم لأكثر مما هو عليه الآن ، فلن يكون علينا أن نخشى الأحداث التى يمكن أن تتسبب فيها التحركات الكبرى للمياه

وبلا جدال ، فلن يكون بالإمكان ، فى سنة واحدة ، القيام بكل الأعمال اللازمة ، لكى يمكن أن تظل ترعة الاسكندرية صالحة للملاحة بشكل دائم ؛ وإن كان من المستطاع إدارة هذه الأعمال بحيث يمكن لها ـ منذ السنة الأولى ـ أن تعود بفوائد جمة . وهكذا يتيسر خلال عام واحد تسيير الملاحة لمدة ثلاثة شهور فى العام التالى ، وقد يكفى لإتمام هذا المشروع مبلغ لايتجاوز ٢٦٠ ألف فرنك . وإليكم كيف يمكننا الحصول على هذه النتيجة .

لقد أوضحت لنا عملية تقدير تمت للفراسخ الثمانية الأول من الترعة بدءا من الرحمانية ، أن انحدار الترعة فى هذا الجزء كبير للغاية بحيث لاتعانى الترعة بعد ذلك من أى انحدار فى بقية مجراها . وهذا الانحدار هو نتيجة لترسيبات الطمى السفوى ، وهى كبيرة للغاية عند الرحمانية ، فى حين تقل عن ذلك كثيراً بالقرب من الاسكندرية ؛ لذلك فقد يكفى أن يتم العمل فى الثمانية فراسخ الأول ، بالحفر لعمق مترين ونصف المتر عند مدخل الترعة مع إنقاص هذا العمق بشكل يتناسب مع المسافة التى نكون عليها من هذا المدخل ، بحيث نصل بعد هذه الفراسخ الثمانية إلى نفس مستوى قاع الترعة ؛ وبتنفيذ هذه العملية ، بعرض يبلغ عشرة أمتار ، يكون علينا أن نرفع ٤٦٨ ألف متر مكعب من الأتربة ؛

فإذا أضفنا إلى ذلك ١٣٢ ألف متر مكعب أخرى لأعمال تقتضيها بعض أجزاء الترعة وبخاصة أقرب هذه الأجزاء إلى بحيرة أبي قير، يكون جملة الركام الذي علينا أن نرفعه هو ٦٠٠ ألف متر مكعب، تتكلف مع تقدير تكاليف رفع المتر المكعب الواحد من الركام ١٢ مديني، شاملة كل المصاريف اللازمة، ماجملته ٢٦٠ ألف فرنك، أما الوقت اللازم لتنفيذ هذا العمل فسوف لا يزيد عن ١٥٠ يوماً إذ سيكون بالإمكان جمع ٢٧٠٠ عامل، يرفع كل منهم دون شك أكثر من متر ونصف المتر المكعب في اليوم الواحد؛ وفضلا عن ذلك فلن يكون بمقدور الفلاحين أن يتفرغوا لذلك العمل لأكثر من ١٥٠ يوماً خلال الفترتين الواقعتين بين موسمى البـذار والحصاد، ثم بين موسم الحصاد والفيضان.

لن ندخل في كل التفاصيل المتعلقة بالشروط التي لا بد من توفيرها في مناطق بعينها من الترعة كي تصبح الملاحه فيها أكثر يسرا، لكننا قد نلاحظ فقط أنه ينبغي أن نفعل كل ما يلزم حتى يكون من المستطاع صعود الترعة وهبوطها على حد سـواء وفي كل الفصول — مع ملاحظة أن المجرى العام للترعة يتجه بصفة عامة من الشرق إلى الغرب وأن الرياح التي تسود في هذه المنطقة تتجه على الدوام من الشمال إلى الجنوب بما يقتضي منا أن نحرص على ألا يمضي أي من انحناءات الترعة داخل الاتجاه الأخير. أما عن فتحة الترعة ومصبها فلابد من إحداث تغييرات لا مفر منها، وهذا ما نحن بسبيلنا إلى توضيحه.

لعل التغيير الذي ينبغي أن ندخله على منبع الترعة هو أن ننقله قريباً من معقل الرحمانية؛ فهذا الموقع، الذي تظل المياه فيه على عمق ثلاثة أمتار، في الوقت الذي يقل فيه هـذا العمق عن ذلك في أماكن أخرى، قد يصبح بقليل من الجهد مرفأ واسعاً ومناسباً؛ كما سيكون قريباً من جزيرة قد نجدها مواتية للغاية

لإقامة المخازن الضرورية لمثل هذه الملاحة . أما العقبات التى ينبغى تجنبها بأكبر قدر من العناية فى تلك المسالك الجديدة التى نسعى لتقديمها للملاحة فهى عمليتا الشحن والتخزين المستمرة والتى تتسبب فى حدود تأخيرات على الدوام، والتى تقتضى كذلك إنشاء الجمارك وفرض المكوس على السلع نتيجة لذلك . ولهذا السبب فقد يلزم أن تتصل الترعة بالبحر حتى لا نضطر لأن ننقل برا هذه السلع التى نجلبها عن طريق الترعة ، ولكننا قبل أن نتبين موقع المرفأ الذى سيغدو مناسباً أن تنتهى الترعة إليه ، فإننا نعيد إلى الأذهان أن القوم حين عمل الاسكندر على ربط جزيرة الفنار بالأرض الصلبة ، وأعطى الاسكندرية بذلك مينائين ، قد لمسوا الحاجة إلى جعـــل هذين المينائين يتصلان فيما بينهما حتى تستطيع السفن أن تخرج فى كل الفصول على وجه التقريب ، فتركوا لهذا الغرض فتحتين عند الهبتستاديوم Heptastadium ، وقد أقفلت هاتان الفتحتان حين اتسعت الهبتستاديوم بفعل أعمال الردم ، حتى شملت المدينـة الحديثة فيما شملت ، وكما هو معروف ، موقع هذا الطريق أو الممر القديم .

وحيث تظل الحاجة إلى وجود إتصال فيما بين المينائين هى نفسها على الدوام ، فنحن نظن أننا حين نحدث قطعاً واسعاً يربط بينهما ، فلابد لنا أن نجعل ترعة الاسكندرية تنتهى إلى هذا القطع نفسه بطريقة تجعلها مرتبطة بالمينائين ، بحيث تخترق المدينة الحديثة باتجاه طولى .

ومن جهة أخرى فإن الوجود الدائم لمياه النيل فى الاسكندرية سوف يغدو فى حد ذاته ذا ضرورة مطلقة فى حالة افتراض ازدياد حجم سكانها ، إذ أن كميات المياه التى تحويها كل خزانات المدينة لا يمكنها أن تكفى — على أكثر تقدير — إلا لمدة عام ونصف العام ، للعدد الحالى من سكانها .

وفى الحقيقة ، فإن مصباً جديداً لمياه النيل قد يضعف لحد كبير فرع رشيد،

الذى تختلط فيه بالفعل مياه البحر (بمياه النيل) لمسافة أربعة أو خمسة فراسخ إلى جنوب مصبه ؛ ومع ذلك فإلى جانب أن بمقدورنا على الدوام أن نزيد من (اندفاع) مجرى للنيل بتضييق فتحات مصابه على البحر ، فسوف نتحكم على الدوام فى مجرى الترعة بحيث لانعطيها سوى كميات المياه الكافية لاحتياجات الناس ولمراعاة المتطلبات الصحية ؛ كما أن هويساً يقام عـــند منتصف طولها وآخر عند طرفها نحو الميناء ، قد يكفيان لمنع ضياع المياه الزائدة (عن الحاجة) ، بل إن الهويس الموجود عند الطرف قد يكفى وحده للوفاء بنفس هذا الغرض ، وإن كان ينبغى أن تكون أبوابه بالغة الارتفاع ، كما لابد أن تكون الجسور بالمثل شديدة العلو ، مما يلزم أن تكون قمتها أفقية بطول الترعة كلها .

لكنا لن نأخذ على عاتقنا أن نمضى لأبعد من ذلك فى مناقشة الوسائل التى تجعل ترعة الاسكندرية صالحة للملاحة طيلة العـام ، ولا فى تعداد الأعمال الفنية التى ينبغى أن تعاضدها ؛ ولربما كان أهم مافعلناه هو أن قدمنا تقويما عنها حيث كان من المستحيل أن نقيم ولو بطريقة احتمالية كل ما يمكن أن ندخله تحت اسم : بناء ، فى حين أن بمقدورنا أن نفعل ذلك بخصوص رفع وإزالة الأتربة .

ولقد أورينا بالفعل أن ٢٦٠ ألف فرنك قد تكفى لجعل الترعة صالحة للملاحة لمدة ثلاثة شهور ؛ ومع ذلك فقد لايحق لنـا أن نستنتج أنه بضرب هذا الرقم فى أربعة سوف نحصل على المبلغ اللازم لجعلها صالحة للملاحة طيلة العام ، إذ ينتج عن قانون حركة مياه النهر أنه إذا كان علينا فى الحالة الأولى أن نخفض مدخل الترعة بعمق مترين ونصف المتر ؛ فإنه لن يلزمنا فى الحالة الثانية أن نزيد العمق إلا لمتر واحد و ٣, من المتر ، أى بحيث يصل إجمالى

العمق فى المرحلتين ٨و٣ من الأمتار،وفضلا عن ذلك ، فإننا حين نقدر عرض الترعة على الدوام بعشرة أمتار ، فى الوقت الذى يبلغ امتدادها فيه ١٩ إلى ٢٠ فرسخا ، وفى الوقت الذى نجدها فيه على عمق كاف بالقرب من الاسكندرية ، فإننا نجد أن علينا أن نزيل عنها ٠٠٠و٧٣٠و١ متر مكعب (من الأتربة) ؛ أى ما يمكن أن يتم ، طبقاً للتقديرات السابقة ، خلال سنتين أو ثلاث سنوات على الأكثر ، وبتكاليف لا تتجاوز ٧٥٠ ألف فرنك .



(١١)

دراسة عن مدينة الإسكندرية

" جراتيان لوبير "



« لقد أصبحت قصور الملوك مأوى للحيوانات الضارية ؛

وأضحت مذابح الآلهة مرتعا للزواحف الدنيئة . .

آه !

كم من مجد أفل نجمه ،

وكم من المنشآت قد اندثر !

هكذا تفنى أعمال البشر ،

وهكذا . .

تغرب شمس الأمبراطوريات والدول . . »

فولنى Volney من كتابه :

« تأملات حول سقوط الأمبراطوريات »



أصبحت الاسكندرية فى عهد البطالمة ، خلفاء الاسكندر ، مؤسسها الذى منحها اسمه ، عاصمة لمصر ، ومركزاً لتجارة الهند ، وارتفعت فى عهد الامبراطورية الرومانية إلى مرتبة المدينة الثانية فى العالم ، وظلت تحتفظ بمكانتها ، مع ما ظل لها من مجد وعظمة ، كأغنى مستودع للمعارف الإنسانية . ومنذ استقرار المسيحية ، وحتى عصر الامبراطورية الواطئة ، كانت كنيسة الاسكندرية ، أولى كنائس الشرق ، واحدة من مدن المسيحية الحصينة فى هذه المنطقة ؛ لكن السطوة التى كانت لها ، والتى تزعزعت على يد القنصل العام الثانى قد سلبت منها كلية ، على يد القنصل الثالث ، لتنتقل منها إلى القسطنطينية ، على الرغم من معارضة البابوات ، وأخيراً سقطت الاسكندرية ، بعد أن عانت طويلا من التمزقات ، فى قبضة العرب الحديدية حملة الدعوة الإسلامية ، ولم تتوقف منذ ذلك الحين عن الانحدار نحو الهاوية ؛ وإذا كانت لاتزال بها اليوم بقية من حياة ، فيمكن القول بأنها قد تضاءلت - بعد أن عانت طويلا طيلة اثنى عشر قرناً - فى عهد الامبراطورية العثمانية ، فلم يعد يعيش بها سوى شعب صغير ، لا يزال يقيم وسط خرائبه وتراب مقابره ، ونحن نكتفى هنا بأن نستعيد ، باختصار ، أهم العهود والتطورات التى مرت بهذه المدينة الشهيرة ، فى حوليات العالم .

فى العام ٤٢٢ من تأسيس روما ، الأول من الأولمبياد الـ ١١٢ ، والعام ٣٣٢ قبل الميلاد ، لم يكن أمام فاتح آسيا والهند ، إلا أن يستولى على مصر ، لكى يحكم سيطرته على هذه المنطقة ، وأن ينشىء فيها المدينة الجديدة التى حملت اسمه ، والتى علت وتدعمت بعظمة لمدة ثلاثمائة عام فى عهد الحكام البطالمة ، خلفائه .

وفى العام ٧٠٦ من تأسيس روما ، أى السابع والأربعين قبل الميلاد ،

استولى يوليوس قيصر على الاسكندرية ، واعمل فيها الحديد والنار ، انتقاماً من دفاع سكانها العنيد .

وفى العام ٧٢٣ من تأسيس روما ، وهو العام الثلاثون قبل الميلاد ، مر بمصر أوكتافيوس أغسطس ، ليطارد أنطونيو وكليوباترا ، واستولى على المدينة ، وتحت أسوارها قضى إلى الأبد على عدوه الذى لم تكن تفتر له همة .

وفى عامى ٢٦٩ و ٢٧٥ من العصر الحديث ، كان على هذه المدينة أن تتحمل فترتى حصار طويلتين وبائستين ، وذلك فى عهد الامبراطورين : كاود الثانى ، وأورليان .

وفى عام ٢٩٨ حاصر الامبراطور دقلديانوس Dioclétien المدينة واستولى عليها ، ولقد كان يجد فى الحصول عليها ، على الأقل لتعويض خسائره .

وفى عام ٦١٥ استولى الفرس على الاسكندرية ، واندفعوا نحو أفريقيا من طريق البنتابول(*) الليبى .

وفى العام العشرين من الهجرة أى ٦٤٢ من العصر الحديث ، قام مبعوث الخليفة عمر ، وهو عمرو الرهيب ، وبعد أربعة عشر شهراً من الحصار والقتال العنيد بين كلا الجانبين ، باقتحام المدينة وقلبها رأساً على عقب .

وفى العام ٥٦٢ من التقويم الهجرى أو السنة ١١٦٧ ميلادية حاصر الأفرنج المدينة واقتحموها ، لكن السلطان صلاح الدين طردهم منها فى العام التالى .

(*) Pentapolis وهو الاسم الرومى المقابل لكلمة أنطابلس Antapulus العربية ؛ ويعنى هذا الاسم : المدن الخمس ؛ وتذكر كتب القبط أنه يعنى المدن الخمس بجهة الغرب ؛ ويطلق جغرافيو العرب على مجموعة المدن الخمس المذكورة اسم إقليم برقة ، ويظن بعضهم أن برقة أو أنطابلس اسم مدينة ، والصواب أنه اسم لإقليم يشتمل على خمس مدن ، هى : بنغازى Berénice ؛ طوقرة Tokhira ؛ طلميثه Tolimais ؛ قرناه وهى الآن قيرنيا Cyréne ويسمونها باريتشى أى باربس ؛ درنه Adirnai .

أما القرية التى يطلقون عليها اسم برقة فهى قرية المرج الواقعة بين هذه المدن الخمس فى منطقة أراضى الجبل الأخضر ببرقة الذى يسميه الفرنجة Cyrénaique نسبة إلى Cyréne التى كانت قاعدة له قديماً .

[المترجم؛ نقلا عن القاموس الجغرافى للأستاذ محمد رمزى ، الجزء الأول، البلدان المندرسة].

وفى سنة ١٢٠٢ ميلادية استولى البنادقة على الاسكندرية ، واستعادت المدينة تحت سيطرة هذه الجمهورية ، التى كانت قوية فى ذلك الوقت ، بعض ازدهارها بسبب التجارة التى قامت بها عن طريق البحر الأحمر والمحيط الهندى.

وفى سنة ١٢٥٠ ، وبينما كان لويس التاسع يتباحث فى أمر افتداء نفسه من سلطان مصر ، استولى ملك قبرص من جديد على هذه المدينة وخربها .

وفى العام ٧٦٧ من الهجرة أو ١٢٦٧ ميلادية ، غزا الفرنجة المدينة من جديد وانتهبوها .

وعلى الرغم من هذه الكوارث الجمة ، فقد ظلت الاسكندرية مزدهرة حتى نحو نهاية القرن الرابع عشر ، حسبما يذكر أبو الفداء ، الذى قام بزيارة لها فى عام ١٣٨٣ .

وفى عام ١٥١٧ ، استولى السلطان سليم على هذه المدينة من يد حكام مصر وسوريا الذين كانوا مستقلين عن الباب العثمانى ، ومنذ هذه الفترة ، يبدأ تاريخ أكبر تغيير جلب الانحدار والخراب الكامل إلى هذه المدينة .

وفى الرابع عشر من ميسيدور من العام السادس لتأسيس الجمهورية الفرنسية (٢ يونيه ١٧٩٨) أى العام ١٢١٣ الهجرى ، استولى الفرنسيون من جديد على الاسكندرية تحت قيادة بونابرت ؛ فلم يكد هذا القائد ينزل على الساحل الأفريقى حتى تقدم للهجوم على المدينة ، ولا بد أن أسلافنا ، سوف يصعب عليهم أن يصدقوا أن ثلاث ساعات فقط كانت كافية لكى يتمكن ثلاثة آلاف من الفرنسيين أن ينتصروا ، وأن يستولوا على هذا المكان ، الذى كان الباب العثمانى ينظر إليه باعتباره الطريق لامبراطوريته فى أفريقيا ، ومع ذلك ، فمع اعترافنا بأن جدران أسوار هذه المدينة لم تعد منذ وقت طويل سوى مجرد أثر من آثار قوتها فى الماضى ، فإننى أعيد إلى الأذهان بأنه ، قبل ذلك باثنين وعشرين يوماً ، لم تصمد عاصمة لجزيرة اشتهرت منذ القدم بأنها عسيرة الغزو ،

والتى لا يمكن فى الحقيقة قهرها بسبب حصونها ، هى جزيرة مالطة ، سوى يوم واحد أمام الهجوم المفاجىء لجيش بحرى كان وجود قائده سبباً فى انتصاره ، وبعد سيطرة القائد المظفر على هذا المكان ، الذى يعد مفتاحاً لمصر من جهتها الغربية، غادرها بعد عدة أيام قضاها فى استعدادات حربية لاستكمال حملتـــه . وكانت إحدى هذه الاستعدادات تقتضى من مختلف فرق المهندسين فى الجيش (الفرنسى) التعرف على المدينة ، وعمل خريطة لها . وهنا نستطيع بحق أن نقول بأنه بعد البطل العبقرى الذى أسسها ومنحها اسمه ، قد جاء اسكندر آخر بعد واحد وعشرين قرناً ، ليعيد إليها إزدهارها القديم .

ذلكم هو موجز تواريخ الاسكندرية ، ورغبة منا فى ألا نؤذى عيون القراء بالصفحات الدامية من تاريخ اضطرابات هذه المدينة ، والتى اقتصرنا على تسجيل أبرزها ، فسوف نقدم هنا وصفاً لحالة المدينة كما وجدها عليها الفرنسيون بينما القرن الثامن عشر يوشك على نهايته .

ولكى نفهم هذا الوصف ينبغى أن يكون تحت أبصارنا الخريطة العامة للاسكندرية التى ألحقها المسيو لوبير ، أخو الأكبر ، بدراسته عن القناة التى تربط بين البحرين[١] وإلى هذه الخريطة الطبوغرافية التى يسمح مقياس رسمها

---

(١) انظر الخريطة العامة للمدينة والميناءين ، الدولة الحديثة ، المجـــلد الثانى ، اللوحة ٨٤ ، وكذلك تلك الدراسة عن القناة التى تربط بين البحرين ، الجزء الثالث ، الفصل الخامس ، الدولة الحديثة ، المجلد الأول ، ص ص ١٣٨ ، ١٣٩ والذى رد فيه المؤلف إلى السادة المهندسين ، المدنيين والعسكريين ، وبالاسم ، الفضل فى الجزء الذى قاموا به فى هذا العمل المبدئى الذى قام به الفرنسيون فى مصر . وهذه الخريطة التى عملت بأكبر قدر من العناية فى كافة تفاصيلها ، والتى رسمت بدرجات مختلفة ، قد رسمت بمقياس ١٠ر٠ من السنتيمتر لكل ١٠٠ متر أى ٠٠٠١ر٠ على الطبيعة . أما الخريطة العامة للخلجان والموانىء والمدن التى قمت برسمها لفهم هذه الدراسة (انظر اللوحة ٣٢ من المجلد الخامس) فقد رسمتها بمقياس رسم ٠٠٤ر٠ ملليمتر لكل مائة متر، أى ٠٠٠٠٤ر٠ $= \frac{٤}{١٠٠٠٠٠} = \frac{١}{١٥٠٠٠}$ من الحجم الطبيعى . وسنرى أنى بتجميع كل المعطيات الناتجة عن العمليات الجرافية لمهندسى الجيش الفرنسى كنت أسعى إلى إعطاء هذه الخريطة التى يعود تنفيذ رسمها الرائع إلى عناية المسيو كولان M. Collin كل التفاصيل مع كل ما تحتويه من فائدة .

بتبين الآثار القديمة لهذه المدينـــة ، ظننت أن من الواجب على أن أضيف بمقياس رسم أصغر ، تخطيطاً ، أو بالأحرى خريطة عامة تقدم فى نفس الإطار خليجها ، وميناءيها ، وأحياءها ، وضواحيها .

إذن فبمعونة من هاتين الخريطتين ، سوف نمسح موقع هذه المدينة القديمة ولسوف تمتد هذه الأبحاث لتشمل كل الآثار التى يجدها المرء هناك .

وحتى نعالج الأمر بنظـــام ووضوح فسأقسم دراستى إلى جزءين أو قسمين :

الجزء الأول : وسيكون وصفاً مبسطاً للأماكن فى حالتها الحديثـــة ، أى فى الحالة التى وجـــد عليها الجيش الفرنسى هذه المدينة عند استيلائه على مصر .

أما الجزء الثانى : فسيكون مناقشة مقارنة ومدعومة عن الحالة الحديثة والحالة القديمة ، وسنحدد فى هذه المناقشة الآثار التى ستكون فى نفس الوقت شاهدة على ثراء وعظمة هذه المدينة القديمة : إذ ترتبط هذه المناقشة بالآثار شديدة الشهرة ، وسننهى هذه الدراسة بلمحات عامة حول إمكانية ترميمها .

الجزء الأول

الحالة الحديثة لمدينة الاسكندرية تحت حكم امبراطورية الباب العثمانى

١ — تقع مدينة الاسكندرية ، وهى التى تسمت باسم مؤسسها الاسكندر ، عند الطرف الشرقى للساحل الأفريقى ؛ وقد بنيت فوق كتلة من الرمال ربطت القارة بجزيرة فاروس القديمـــة ، وهذه الجزيرة التى أدت عمليات الردم إلى تحويلها إلى شبه جزيرة تحمل نفس الاسم القديم ، تشمل المدينة من الجنوب

الغربي إلى الشمال الشرقي ، وميناءيها الطبيعيين ، وهما الميناءان الوحيدان اللذان تمتلكهما مصر — وذلك لمسافة ستين فرسخاً من سواحل البحر المتوسط .

وإليكم موقع المدينة تبعاً لمعلومات قدمها السيدان نوى Nouet وكسنو Quesnot الفلكيان بجيش الشرق :

خط الطول (شرق خط زوال باريس) ٣٠" ٣٥' ٢٧°

خط العرض (شمالا) ٥" ١٣' ٣١°

وتحد أرض الاسكندرية التي تلامس في الشمال البحر الأبيض ، جنوباً بحيرة ماريوتيس القديمة (مريوط) والتي كان حوضها الواسع قد جف تماماً في المدة التي استولينا فيها على مصر ، بينما تغزوه الآن مياه البحر . وقد ربط من جديد تدفق مياه البحر هذه والتي تعود كارثتها لمجهودات تلك القوة الأوربية ، غريمتنا في السلم ومنافستنا في مجال العلوم والفنون ، كما هي عدوتنا الأبدية في الحرب (بريطانيا) — ربط من جديد وبطريقة لا لبس فيها أرض هذه المدينة بشبه الجزيرة التي تكونها سلسلة متتابعة من الحجر الجيري ، والتي تمتد من رأس أبي قير في الشرق إلى ما وراء برج العرب على بعد ثمانية ميريا مترات ، إلى الجنوب الغربي .

٢ — وأول ميناءي الاسكندرية ، الذي تقابله السفن القادمة من جهة الشرق عند وصولها إلى هذا الجزء من الساحل الأفريقي ، هو الميناء القديم ، ويقع في جنوب خليج فسيح يتكون من سلسلة من صخور تختبيء جزئياً تحت المياه وتظهر جزئياً على سطحها ، ويمتد قاع هذه الشعب الصخرية منذ رأس الشيخ (العجمي) حتى رأس التين الواقع على أقصى نقطة إلى الغرب من شبة جزيرة فاروس حيث الفنار ، بطول ٨٣٠٠ متر (٤٢٥٨ قامة و ٣ أقدام) .

ولهذا الخليج ثلاثة ممرات طبيعية ، أسهلها وأعمقها ، على الرغم من تعرجه

وعدم استواء قاعه ، هو الممر المسمى بالأوسط ، ومع ذلك فإن الجزء الذى يقع منه ناحية الشيخ لايزيد عن ثلثه ، ويبلغ عرض هذا الممر حوالى ٢٠٠ إلى ٣٠٠ متر ، ويبلغ عمقــه فى أكثر أجزائه ضحالة من ٥ إلى ٦ باعات (الباع = ١ر٦م) ، وهو الوحيدالقادر على استقبال الفرقاطات والسفن البحرية بدون بطارياتها ، وقد ظن ضباط بحريتنا أن كل سفينة لا يزيد غاطسها على ٢٣ قدماً بعد إنقاص تباينها إلى الصفر ، يمكنها أن تدخل الخليج عن طريق هذا الممر فى حالته الراهنة ، وبدون أية تجهيزات . وسنظل نقرأ على الدوام بشغف ذلك الكتاب الذى أرسله الأميرال برووى Brueye إلى الحكومة الفرنسية ، قبل عدة أيام من معركة أبى قير البحرية . ونورد هنا ، فى الهامش ، هذا الكتاب الذى يحتوى من حيث علاقتــه بموضوع دراستنا ، على معلومات من المهم الإلمام بها لخير الملاحة(١) .

---

(١) كتاب الأميرال برووى Brueye ، قائد الأسطول الفرنسى فى حمــلة مصر ، والموجه إلى حكومة الإدارة للجمهورية الفرنسية :

من ظهر سفينة الشرق L' orient ، بخليج أبى قير ، فى ٢١ ميسيدور من العام السادس (٩ يوليه ١٧٩٨) :

« فى التاسع عشر من ميسيدور ، وبعد أن عرفنا أن السفن لا تستطيع أن تدخل الميناء بسبب ضحالة الميــاه عند مدخله ، رفعت أشرعتى ومعى ١٣ سفينة وثلاث فرقاطات كى نلقى رواسينا فى خليج أبى قير . وهــذا الموقع هو أكثر المواقع التى يمكن الحصول عليها منعة فى خليج مفتوح ، حيث لايكون بمقدور أحد أن يقترب من الأرض لحد يكفى لإقامة البطاريات ، وحيث لا تستطيع سوى سفينتين معاديتين أن تصلا إلى المسافة التى تناسبهما وإنه لأمر مرعب ألا يكون للاسكندرية ميناء تستطيع السفن أن تدخل إليه ؛ فالميناء القديم الذى حظى بمديح الكثيرين ، تغلقه شعب الصخور البارزة فوق سطح الميــاه أو المختفية تحته لتشكل مداخل بالغة الضيق لا يزيد اتساع أى منها عن ٢٣ إلى ٢٥ أو ٥٠ قدماً من المياه . والبحر هناك فى العادة عال ، ومن هنا نرى أن سفينة مزودة بـ ٧٤ مدفعاً سوف تكون معرضة تعريضاً شديداً لخطر التحطم بعــد ½ ساعة من إصابتها . واستجابة منى لرغبات القائد العام فقــد عرضت ١٠ آلاف فرنك لأى ملاح من أهل البــلاد يستطيع أن يمرر الأسطول ، لــكن أحداً لم يشأ أن يتعهد إلا بالسفن التى يبلغ غاطسها ٢٠ قدماً على أكبر تقدير ؛ ومع ذلك فانى آمل أن نتوصل إلى ممر نستطيع عن طريقه أن ندخل سفننا ذات الـ ٧٤ مدفعاً ، وإن =

أما الممران الآخران المساعدان فيبلغ عمق مياههما ٣ إلى ٤ باعات لكن اتساعهما وعمقهما غير مستويين ، واتجاههما متعرج ، وقاعهما مليء بالأعشاب الصخرية مما يجعل الرسو فيها صعباً ؛ وثمة ممر أخير ، يقع إلى أقصى الشرق ، وهو غير صالح إلا لدخول الزوارق والسفن الصغيرة التي تقوم بالتجارة بين مدن السواحل .

أما الرياح التي تسهل أكثر من غيرها الدخول إلى الممرات ، فهي تلك التي تهب فيها بين غرب الجنوب الغربي وشرق الشمال الشرقي مارة بالشمال ، وحيث أنها رياح شبه دوارة فهي تؤدي إلى حدوث دوامات تجعل من مغادرة الممر أمراً شاقاً ، وفي الواقع فإنه يحدث في بعض الأحيان ، أن تضطر السفن إلى الانتظار ، وبخاصة في موسم الرياح العنيفة ، أشهراً بأكملها حتى يمكنها مغادرة الخليج .

وعندما نلقي البصر على هذا الخليج ، الذي يسمح له عمقه واتساعه أن يستقبل الأساطيل كبيرة العدد ، فإننا لنأسف لأن الطبيعة التي فعلت الكثير كي تزوده بشاطئ وطيء لا يمكن الوصول إليه من أية نقطة أخرى من الساحل ، لم تكمل صنيعها فتوسع من ممراته التي يمكن الدفاع عنها دون كبير عناء .

أما الصخور التي تشكل قاع هذا الخليج فهي من طبيعة جيرية ، ويمكن ببعض المجهودات الفنية التوصل إلى إعطائها اتساعاً أكبر وعمقاً

= يكون ذلك إلا ثمرة لمجهودات بالغة الصعوبة ، وبعد ذلك قد نستطيع أن ندخل دون أخطار كبيرة ، وقد يزيد عمق القاع عند الشعب الصخرية إلى ١٥ باعاً ، ومع ذلك فسيظل الخروج على الدوام بالغ الصعوبة ويستغرق وقتاً بالغ الطول .

وعلى هذا ، فإن هذا المكان بالنسبة لأية سفينة هو مكان بالغ السوء » .

أكبر[١] ، ويستطيع المرء أن يتصور أية أهمية تعلق على إنجاز مثل هذا العمل الذى سيوفر لمصر حماية لتجارتها عن طريق إنشاء بحرية عسكرية ، ذلك أن هذا الخليج ، على الرغم من الحماية الطبيعية المتوفرة له ، يمكن أن ينال حماية أكبر عن طريق أرصفة حاجزة للأمواج ، وعن طريق منشئات أخرى على شطآنه ، بل وكذلك على نقاط مختلفة على خط الشعب الصخرية التى تحيط بمدخله ، وبوسع الطبيعة الجيرية للسلسلة التى تمتد بطول الساحل الجنوبى الشرقى ، أن تسهل إنجاز مثل هذه الأعمال الأخيرة .

وتجعل صعوبات ممرات الخليج مما لامناص منه اللجوء إلى معونة المرشدين الساحليين لكل سفينة تريد الدخول إليه ، ومع ذلك فإن الطقس القاتم واضطراب البحر الذى ينتج عنه لا يسمحان فى معظم الأحوال للمرشدين البحريين بالاستجابة لنداء الإشارات . ويمكن علاج هذا العيب بانشاء منارات على الشاطىء ، ويتمثل ذلك فى بناء بعض الأبراج المرتفعة لحد يكفى كى تلمحها السفن على بعد فرسخين وهى فى عرض البحر ؛ ويمكن لهذه الأبراج أن تستخدم فى نفس الوقت كمنارات ونقاط حصينة وفنارات ، ذلك أن الحاجة ماسة لمضاعفة الضوء المخصص لتأمين الملاحة أثناء الليل ، حيث أن الساحل منخفض وخطير بسبب الترسيبات التى تتم على شاطئه .

٣ — أما الميناء القديم ، الواقع عند الطرف الشرقى للخليج فيحده الفضاء الدائرى الواقع بين رأس التين والساحل فى الجنوب ، وتجعله مرتفعات شبه

---

(١) يعتقد أنه عن طريق بعض الجسور العائمة المسلحة ببطارية ذات أجراس ، ومسلحة بمطارق معدنية وتقام فوق قطع طويلة وقوية من خشب البلوط ، والمسلحة بسنابك من الحديد المدبب والقاطع ، يمكن التوصل إلى تقويض وتحطيم والتقاط نتوءات الصخور البارزة تحت خط الشعب الصخرية فى الممرات .

كما يمكن بطريقة أسهل أن نزيل وأن نرفع أنقاض وركامات هذه الصخور لتطهير قاع الممرات بواسطة جهاز للغواصين ، يسمح استخدامه لثلاثة أو أربعة من العمال أن يعملوا معاً لمدة أربع إلى خمس ساعات متتالية على عمق ٣٠ أو ٤٠ قدماً تحت سطح الماء .

جزيرة الفنار كلية فى حمى من نوائب رياح الشمال الغربى وكذا رياح الشمال والشمال الشرقى ، تلك التى تهب بعنف وانتظام ، على نحو ما ، على شواطىء مصر ، وهذا الميناء فسيح وعميق ، والرسو مضمون فيه ، وتستطيع أكبر السفن التجارية أن ترسو هنـــاك على مسافة من الأرض تعادل نصف طول قلسها (حبالها أى حوالى ١٠٠ متر فقط) ، وفى نفس الوقت ، فقد يكون من السهل ، عن طريق بعض الأعمال الفنية وبعض المنشئات البحرية الأخرى ، جعل هذا الميناء ، واحداً من أصلح الموانىء ، مثل ما هو ، طبيعياً ، واحداً من أجمل موانى العالم ، وقد عرفنا عن طريق المجسات أن الفرقاطات والسفن الحربية تستطيع الرسو فيه ، وقد كان دخوله فيما مضى محرما على السفن الاوربية ، ونحن نأمل أن يكون الباب العالى الآن أكثر استنارة وإدراكا لمصالحه ، فيأمر بفتح هذا الميناء منذ الآن لتجارتنا ، وكذلك لتجارة الدول الأوربية الأخرى[1] .

٤ - ويتكون الميناء الجديد ، أو الميناء الشرقى ، من خليج صغير شبه دائرى تبلغ فتحته من جهة الشمال ١٧٨٩ متراً (٩١٧ قامة و ٥ أقدام) ، وهو بالمثل محصور بسلسلة من الشعب الصخرية أو الصخور التى لا تبلغ مستوى سطح المـاء ، ويقلل هذا من إتساع الممر القابل لمرور السفن إلى حوالى ٥٠٠ متر ، وحيث هو مفتوح كلية أمام رياح الشمال والشمال الشرقى فليس بإمكانه أن يستقبل إلا بعض الفرقاطات والسفن الحربية الصغيرة .

ويبدأ مر هذا الميناء على مسافة قلس (القلس هو حبل السفينة ويبلغ طوله ٢٠٠ متر) إلى الشرق من حصن الفنار ومن الصخرة فى المقدمة ، والتى تسمى الزمردة والتى يمكن الاقتراب منها بشدة (دون خطر) ، ويبدأ الرسو عند

---

(١) للتعرف على موانىء الاسكندرية يمكن الرجوع إلى الـ ٢٢ لوحة من أرقام ٨٥ إلى ٩٦ وذلك بخلاف ورقتين للخرائط . انظر الدولة الحديثة ، المجلد الثانى م

هذه المسافة مع الاتساع إلى جنوب الجنوب الشرقى للفنار ؛ وتضطر السفن التجارية التى لا تستطيع أن تلقى رواسيها إلا عند هذه السلسلة،إلى الحصول على هلبين لكى تقاوم دفع رياح الشمال والشمال الشرقى،وهذه كما سبق القول كثيرة الهبوب ، وكثيراً ما يؤدى عنف هذه الرياح إلى تحطيم السفن التى تقاومها لتهوى إلى القاع ، وفى حالات الطقس المثقل والقاتم فى الشتاء ، لا تستطيع السفن أن تحتفظ بتوازنها فتضطر للذهاب إلى الميناء القديم لترسو فيه .

ويبدو الميناء ، الذى يسهل الدخول إليه والجرى منه للوهلة الأولى فسيحا ولكنه على وجه العموم ضحل العمق ، تحده شعاب من الصخور فى مستوى سطح الماء توجد حتى منتصفه ، وهو فضلا عن ذلك يغص بالرمال والأحجار التى تلقى به منذ قرون السفن التى ترسو هناك ،كما أن قاع الميناء الصخرى يجعل من الرسو أمراً خطراً بعض الشىء ، وتضطر السفن فيه أن تبقى كابلات رسوها عائمة حتى لا تتعرض للقطع بواسطة القاع الصخرى أو الحجرى التى يسير موازيا كل خط الرسو ، ويعود انسداد هذا الميناء ، وهو الذى قد كان فيما مضى رائع العمق ، على نحو كبير إلى الرمال التى تنقلها إليه دون إنقطاع تيارات البحر التى تتنوع تبعاً لضعف واتجاه الريح ، وكذا إلى تيارات مياه الفرع الغربى للنهر فى أوقات الفيضان ، كما تم كذلك بفعل تفتت الصخور الجيرية للساحل الغربى ، الأمر الذى يحدث بفعل الحركة المدمرة للبحر .

٥ — حركة مد البحر وجزره ليست ملموسة ،كما أنها ليست دورية على الإطلاق على سواحل الاسكندرية كما هو شأنها فى كل البحر المتوسط ، وهى ترتبط بالرياح أكثر من ارتباطها بأى شىء آخر محسوس ودائم ، ولا يبلغ أقصى ارتفاع لهذه الحركة التى تتم عند محاور الرياح القادمة من الغرب والشمال الشرقى لأكثر من ١٨ إلى ٢٤ بوصة (٤٩ — ٦٥ سم) .

وبعد أن ذكرنا كل ما ينبغى ان نعرفه عن الممرات والرسو فى الخلجان

وفى ميناء الإسكندرية ، سنتناول الأرض ، ونجتاز خرائب المدينة التى سقطت من جديد ، وربما لعدة قرون ، بين تراب مقابرها ، حين أفلتت من سيطرة الفرنسيين ، تلك السيطرة التى كان يمكن لهذه المدينة فى ظلها ان تأمل فى بعث جديد .

٦ — يحمى مدخل الميناء الجديد ، الذى لم يكن مسموحا للسفن الأوربية قبل حملتنا بالرسو إلا فيه وحده ، حصنان بنيا فوق الرءوس التى ينتهى بها شكله شبه الدائرى ، هما حصن الفنار فى الغرب ، وحصن المنارة pharillon فى الشرق .

اما حصن الفنار ، فعبارة عن سور محصن تحصيناً حديثاً ، ويضم برجاً مربع الشكل[1] بنيت على جوانبه أربعة ابراج صغيرة ، تعلو سطحها منارة بها فانوس توقد فيه النار ليلا[2] ، وقد شاهدت فى الحجرات شديدة الارتفاع من هذا الحصن اكواماً من السيوف والأسلحة الأخرى التى بليت تماماً بفعل

---

(١) انظر ارتفاع هذا الحصن باللوحة ٨٥ ، الدولة الحديثة ، المجلد ٢ . ويقدم هذا المنظر الذى ندين به للمسيو سيسيل Cécile دقة كبيرة فى التفاصيل .

(٢) حدد علماء الفلك التابعون للجيش الفرنسى من فوق حصن الفنار موقع مدينة الاسكندرية . ويعود الى هؤلاء الفلكيين أنفسهم نتائج الحسابات التى قامت على أسس حساب المثلثات والتى استخدمت فى تشكيل خرائط الاسكندرية ، واليكم هذه النتائج :

المسافة من الفنار [الى الشيخ (العجمى) ١١٫٧٢٨ م
[الى العمود ١٠٫٩٣٦ م

المسافة من الشيخ (العجمى) [الى خط الزوال ٩٫٢٢٨ الى الغرب .
[الى الرأس ٧٫٢٤٠ الى الجنوب .

أما ملاحظاتهم على البوصلة فقد أدت الى النتائج التالية :

درجة الميل الى الغرب	"٠	'٦	°١٣
زاوية الميل	"٠	'٣٠	°٤٧

ملحوظة : عبرنا عن مجسات الموانى ، التى يعود الفضل فى الحصول عليها الى عناية السادة ضباط البحرية ، ومهندسي الطرق والكباري ، بحسب مقياس القدم الفرنسى .

الصدأ ، والتي جعلتنا أشكالها والعلامات التي تحملها ندرك بأنها تعود إلى الصليبين ، وبلا جدال ، فإنها تعود إلى صليبي حملة لويس التاسع البائسة .

ويتم الاتصال بالفنار عن طريق جسر ضيق تحميه طرق مغطاة ، ومقامة عليها متاريس ، وطولها ٥٥٠ متراً . ويكاد هذا الجسر الذى بنى فوق سلاسل صخرية يستوى فوق سطح الماء وعلى صخور ضخمة وقطع مفتتة من الأعمدة الجرانيتية،رميت وتكدست بشكل أفقى ، وتخترقها بعض القناطر الصغيرة التى نفذت بعرض الطريق،والتى تؤدى إلى تحطيم وإضعاف قوة الأمواج التى تندفع لتصطدم بها فى عنف،بواسطة رياح الغرب والشمال الغربى ، لكن هذه الفتحات الصناعية يعيبها أنها ، عندما تترك مياه العرض تتدفق إلى الميناء الجديد ، تسمح بمرور كمية كبيرة من الرمال إلى الميناء ، مما يساهم فى الإسراع بإغلاقه (نتيجة تكدس الرمال فيه) .

٧ — أما الزمردة ، أو الماسة ، فهى صخرة بمستوى سطح الماء ، تقع بالقرب من حصن الفنار وإلى الشمال منه ، وتكون مكشوفة فى الأوقات الهادئة، ويلاحظ أن على سطحها آثار مبان قديمة ، وتحيط بها قطع من الحجارة شذبتها يد الإنسان، وقد فسر ذلك بعض الرحالة بأن هـذه الصخرة كانت تستخدم فى الأصل كقاعدة للفنار القديم ،وإن كان سطحها لا يبدو مطلقاً أنه كان ممتداً لهذا الحد ، وقد عرفنا مما أوضحته المجسات أن مياه البحر فى كل مكان من حول هذه المنطقة ، شديد العمق لحد كبير .

٨ أما شبه جزيرة الفنار ، والتى تسمى بالعربية روضة التين ـ إذ كانت تزرع هناك بنجاح كبير أشجار التين التى تنتج أفخر الثمار ـ فتغطى الميناء القديم بطول يبلغ ٢٦٥٠ متراً بالاتجاه نحو الجنوب الغربى ، وتربتها الملحية الفاصلة ليست سوى صخرة جيرية يبهر ويؤذى العين لونها الأبيض الذى تجعله الشمس باهراً على الدوام ، وكل شبه الجزيرة هذا محاط بشعب صخرية فى مستوى سطح الماء،

وبخاصة إلى الغرب من جسر حصن الفنار . وترى هناك كذلك بقايا مصانع قديمة ومبان أخرى من الطوب والأسمنت أمكنها أن تقاوم تكسر أمواج البحر ، فى الوقت الذى أمكن لهذه الأمواج أن تحدث دماراً فى صخور هذه الشعب .

ويدافع عن الرأس الواقع إلى جنوب غرب شبه الجزيرة هذه ، والذى لا يمكن الاقتراب منه ، بطارية قريبة تتسمى باسم رأس التين ، وهناك حصنان آخران لها طابع عربى يحميان الميناءين من الداخل . ويوجد بالقرب من الميناء القديم وإلى الشمال الغربى منه لسان من المياه المالحة ، ينتج بشكل طبيعى ملحاً شديد البياض ، وإن كان له مذاق أكثر لذوعة من مذاق الملح البحرى من العادى .

وهذا الجزء من شبه الجزيرة الذى يتوازى مع أرض المدينة الحديثة مخصص فقط لمقابر المسلمين . وقد بحثنا على الخريطة ، بواسطة خطوط صغيرة سوداء ومتلئة المدافن الخاصة بالعائلات ، وهذه تشكل أضرحة من الرخام الأبيض أو من الحجر الجيرى ، بنيت فى بساطة تتفاوت درجتها ، وتتفاوت كذلك درجة تزيينها بالرسوم والكتابات .

٩ — وبعد أن يجتاز المرء حى المقابر هذا ، ينفذ إلى داخل المدينة الحديثة التى تفصل بين الميناءين . وقد بنيت هذه المدينة فوق كتلة من الرمال تكونت حديثاً ونتجت عن تراكم الرمال الذى سبق أن تحدثنا عنه . يقول المسيو دي مايه M. de Maillet الذى أقام بمصر أربعين عاماً بوصفه قنصلا لفرنسا : « هكذا كانت تتم هذه الترسيبات[1] ، بحيث أنه فى ظرف مدة ٢٦ عاماً ، أى من ١٦٩٢ إلى ١٧١٨ ، أصبح ارتفاع هذه الترسيبات يبلغ أربعين قدماً

---

(١) وصف مصر ، الجزء الأولى ، ص ١٨٧ ، طبعة لاهاي .

أمام منزل القنصلية الذى كنت أقيم فيه حتى أن الناس قد ابتنوا لأنفسهم بيوتاً فوق تربة هذا الشاطىء الجديد » . وقد امتدت حركة الترسيب هذه لأبعد من ذلك بكثير داخل الميناء، حتى أصبحت الرمال تهدد بغزوه كلية فى مدى أقل من قرن واحد .

ولا تضم هذه المدينة أى مبنى له أهمية ، وتمتلىء مساجدها الرئيسية التى يبلغ عددها من ٢٥ إلى ٣٠ مسجداً ، وكذلك الوكالات والمتاجر العامة والبيوت الخاصة ، والأرصفة هناك ، بأدنان من أعمدة من الحجر الجيرى أو الرخام أو الجرانيت أو الآبستر . وتوجد عليها نقوش قديمة ، وهى مأخوذة من قصور قديمة خربة . وقد اكتفينا بالإشارة بالحروف فقط كى نبين على الخريطة مكان المنشئات المتصلة بخدمة البحرية والإدارات العامة ، وليس هناك من بين كل هذه المنشئات ، منشأة واحدة تستحق وصفا خاصاً . وإذا ما استثنينا تصميم الوكالات ، فإن البناء والتوزيع الداخلى للبيوت بالغ السوء ويستعصى على الفهم . ولا تشكل واجهات البيوت إلا واجهات ملساء تميل للبياض وتخترقها نوافذ صغيرة تغطيها تقفيصات من الخشب ذات مصلبات ضيقة . أما شوارعها الضيقة، غير المرصوفة ، والتى ليس بها أى مجرى لتصريف مياه المطر فتظل متربة أو موحلة حسب الطقس . ولا نشاهد هناك حركة إلا باتجاه الأسواق أو الأحياء التجارية؛ وباختصار ، فكل شىء يساهم فى إعطاء المدينة مظهراً حزيناً وطابعاً رتيباً فى ناظر كل أوربى ، تجذبه إلى هذه المنطقة من العالم التجارة أو حب السياحة .

وهذه المدينة محرومة بشكل طبيعى من المياه الحلوة كما سنوضح ذلك فيما بعد . وتستطيع آبار المدينة ، التى تمدها بالمياه والتى ترتبط بمساجدها العشرين أن تحتوى على ١٥٫٤٠٠ حمولة جمل ، وتقدر حمولة الجمل الواحد بـ ٢٠٠ بلتة (البلتة بـ ٠٫٥٦٨ من اللتر) تزن ٤٠٠ لبرة أو ١٩٥ ك ج و ٨٠ ديكاجرام (ديكاجرام = ١٠ ج) ، ويمكن لهذه الكمية أن تكفى الاستهلاك لمدة ١٢٨

يوماً أو أربعة أشهر لثمانية آلاف نفس يشكلون تعداد سكانها عادة ، وتمتلىء هذه الآبار سنوياً حتى نصفها عن طريق مياه الأمطار التى يعتمد عليها ، أما النصف الآخر فيجىء عن طريق نقل المياه .

وفضلا عن هذه الخزانات العامة ، فإن لكل منزل خزانه الصغير ، يعمل المالك على ملئه بواسطة القرب المحمولة على ظهور الجمال أو البغال أو الحمير ، كما توجد هناك أيضاً آبار قليلة العمق ، تستخدم مياهها التى تتفاوت درجات ملوحتها فى الأعمال المعتادة وتقدم بعض هذه الآبار مياهاً صالحة للشرب ، ويضطر أكثر الأهالى فقراً ، وهم أولئك الذين لا يمتلكون فى منازلهم آباراً أو خزانات للمياه ، للذهاب للحصول على المياه اللازمة لاستهلاكهم اليومى من الخزانات الكبرى فى المدينة القديمة .

ولا توجد فى هذه المدينة أية طاحونة تدار بالمياه ، وثمة طاحونة هواء تقع على شط الخليج إلى الشمال من شبه جزيرة الفنار، بنيت منذ حوالى ٢٠ إلى ٣٠ عاماً على يد واحد من أبناء رودس ، وهى الطاحونة الوحيدة من نوعها فى كل مصر . وقد أنشأنا نحن طاحونتين من هذا النوع فى ضواحى القاهرة . ولتفادى سوءات هذه الماكينات يمتلك كل فرد غنى فى بيته طاحونة تدور بواسطة الخيول أو الحمير ، وتخصص بعض هذه الطواحين للخدمة العامة . ويمتلك أكثر الأهالى فقراً لاستعمالهم الخاص طواحين ذات ذراع (رحاة) تديرها عادة نسوة لا يقمن عادة بأى عمل آخر ، وهن يقمن بعملهن هذا حتى وقت متأخر من الليل .

١٠ — لا يمكن تحديد فترة بعينها أنشئت فيها هذه المدينة الحديثة ، فقد بنيت وسكنت من جهة بمجرد أن شكلت أكوام الرمال ما يبلغ مرحلة الردم ، ومن جهة أخرى ، عندما كانت الحروب المدنية والدينية ، أو تلك التى تشنها الدول الأجنبية ، تنشب لتسبب فى المدينة القديمة دماراً يدعو إلى هجرها بشكل جزئى ، ولا يعود أكبر اتساع حدث بالنسبة لهذه المدينة إلا إلى منتصف القرن

السادس عشر ، بعـــد بضع سنوات من هزيمة مصر على يد سليم الأول . وينبغى أن نختم ذلك بمقتطف من عند جان ليون الأفريقى Jean Léon d' Afrique[(١)] .

١١ — ويوجد على شاطىء الميناءين بعض الجدران وبعض الأرصفة البحرية لتسهيل عمليات الإبحار ، وقد بنيت هـذه المنشئات فى الجزء الأكبر منها من أجزاء من أعمدة مكدسة ، أما المحال والمبـانى الأخرى المرتبطة بخدمة ورش إصلاح السفن، فإن حالة الإهمال والخراب التى توجد عليها هذه المنشئات، لتجعل المرء يتعرف على روح اللامبالاة من جانب الحكومة التركية، التى تركت كل شىء يتآكل وينهار دون ترميم أو صيانة .

١٢ — وقد بنيت فى الإسكندرية بعض السفن التجارية الكبرى ، وسفن الكرافيل (مركب سريع بثلاثة صوار أو اربعة) وهى نوع من الفرقاطات التركية المزودة بـ ٤٠ إلى ٥٠ مدفعاً ، والمراكب التجارية التى تقوم بتجارة الشط (اى نقل البضائع بين المدن الواقعة على الشط) بين رشيد ودمياط عن طريق مصبى النهر[(٢)] . أما طبقة السكان التى تعمل فى خدمة البحرية فتسكن شواطىء الميناءين وبالذات الشواطىء الواقعة إلى الجنوب من شبه جزيرة الفنار والمخصصة

---

(١) يقول جان ليون الأفريقى الذى كان فى جولة فى مصر عام ١٥١٧ وهى نفس السنة التى هزمت فيها على يد سليم الأول أن المدينة العربية ، وهى التى تشغل جزءاً من موقع المدينة القديمة ، كانت فى هذه الفترة لا تزال مزدحمة بالسكان . ويضيف هذا الرحالة بأن كل بيوتها كانت تنهض فوق خزانات . وكان يطلق على الميناء الجديد اسم مرسى السلسلة . ويوجد بالمدينة جبل مرتفع شكله غير طبيعى ، وهو مغطى ببقايا فخارية ، ويوجد على قمته برج أو مرصد

Collection de Ramusis en 3 vol· t. Ier

(٢) نستطيع أن نرى فى دراسة عن القناة التى تربط بين البحرين مقالا عن الملاحة فى النيل (ج ٢ فصل ٦ ، الدولة الحديثة ، المجلد الأول ، ص ١٢٣) ، ونجد فيه وصفاً لمختلف أنواع السفن التى تبنى فى مصر .

للإنشاءات البحرية . أما أهل الإسكندرية الذين يعملون بالصيد أو بتجارة الشط فهم بحارة شديدو المراس ، وهناك من بينهم سباحون مهرة ، وكذلك ـ بصفة خاصة ـ غطاسون ذوو مهارة كبيرة ، وتروى عنهم حكايات تثير الدهشة .

١٣ — كان تعداد شعب الإسكندرية أثناء فترة سيطرتنا على مصر ، يبلغ حوالى ثمانية آلاف نفس ، وقد تناقص إلى سبعة آلاف نفس فقط عند جلائنا. ويتكون هـــذا الشعب من مصريين خلص ، ومن أتراك وعرب ومغاربة وأروام وسوريين ويهود ، ومن بعض المسيحيين من الأوربيين . وإنه لأمر مثير للفضول حقاً ، ان تنظر فى ظل الأسواق او فى الأحياء التجارية ، إلى تجمع حشد كبير من الناس ، ينتمون إلى جنسيات مختلفة ، تجمعهم فى سلام مصالح العلاقات التجارية ، لتفرقهم ـ هى نفسها ـ فى ضجة عشر مرات وربما عشرين مرة فى اليوم الواحد . إن المرء لا يمكنه إلا فى لوحة حية أن يقدم العناصر التى لا نهاية لها ، والتى هى بصمات الطبيعة على المكان بمثل ما لها من بصمات كذلك على حركة جسم الانسان ، وفى هذه اللوحة الحية فقط يمكن أن تبين كذلك الاختلافات الخلقية والخلقية ، التى يضيفها الطقس والتعليم والدين ، إلى طابع الإنسان وإلى آرائه ووجوده .

إننى لن أحاول هنا أن اقدم هذه اللوحة ، فلسوف تكون مثل هذه اللوحة ناقصة طالما ظلت محرومة من الألوان التى يتطلبها مثل هذا النوع من اللوحات ، ذلك إن اقوى الخطوط لن يكون بمقدوره ان يعوض غياب الريشة ، ولو اننى حاولت مجرد المحاولة لخرجت عن الإطار الذى ينبغى أن أحصر نفسى بداخله .

١٤ — وسأمسك كذلك عن الحديث عن الإدارة المدنيــة وعن القوة

العسكرية للحكومة التى تسهر على حماية أمن ووجود سكان هذه المدينة،وسأكتفى بالقول بأن المؤسسات التى كانت تشتغل على وجه الخصوص بالإدارة المدنية لمصر،كانت ترتبط بالدين فيما مضى ، وان الأمور بهذا الخصوص قد ظلت على حالها ، فلا يزال القرآن حتى اليوم بالنسبة للمفتين (مفتى) والقضاة ورجال الدين هو الكتاب المقدس،الذى يشكل مجموعة القوانين ويضع قاعدة التقاليد والعادات. أما عن القوة العسكرية ، فهذه لم تكن فى معظم الأحيان سوى سند للمساوىء الظالمة السائدة ، إذ لم يكن يسودها اعتدال عاقل ، كما كانت تفتقد ـ على وجه الخصوص ـ إلى النظام الصارم .

١٥ — ويمكن القول بأن تجارة الإسكندرية اليوم لا تشتمل على تصدير الحبوب والأرز والنطرون من مصر،فى مقابل بن الجزيرة العربية وبعض بضائع من الهند تصل إليها عن طريق البحر الأحمر . وعن طريق موانى هذه المدينة تتبادل مصر وايوبيا الأصواف والحراير والآنية الزجاجية واشياء اخرى ، من مارسيليا وليفورنيو والبندقية والقسطنطينية وموانى الشرق الأخرى .

وقبل مجيئنا ،كانت الإسكندرية ، التى ينبغى ألا ننظر إليهـــا اليوم إلا كمستودع للبضائع ، تضم حسبما يذكر المسيو اوليفييه Olivier :

٨٨ مسجداً من بينها ٣٦ مسجداً من الدرجة الأولى و ٤٢ من الدرجة الثانيـة .

٢٠٠ نول لصنع المنسوجات الحريرية الخفيفة والخاصة بملابس الطبقة الميسورة من كلا الجنسين .

٤٠٠ نول لنسج قماش التيـل المسمى مغربين لصنع القمصان التى يرتديها أبناء الطبقات الشعبية .

٥٠ نولا لصنع منسوجات صوفية خشنة لملابس العربان .

٣٠ مصنع صابون تستورد الزيوت اللازمة لها من المورة وكريت وسوريا، ويصنع هناك أيضاً الجلد المراكشي الأحمر ، وهذه جلود ثمينة بالغـــة الجودة وتحظى بإقبال كبير في القاهرة ومدن مصر الأخرى وفى داخل أفريقيا .

١٦ — وطقس الاسكندرية صحى إلى حد كبير ؛ وعلى الرغم من شدة حرارته صيفاً فإنه يكون معتدلا عن طريق نسيم الليل ؛ أما ندى المساء ، وعلى وجه الخصوص فى فصل الرياح الشديدة فيحدث فى هذه المدينة ، وذلك شأنه فى كل مناطق مصر الساحلية ، رطوبة ملحية تخترق مسام الأجسام . وشتاء الاسكندرية غزير المطر ؛ وفى هـذا الفصل الرطيب تظهر الأمراض الموسمية بدرجات متفاوتة[1] ، ويقول سترابون وهو يتحدث عن طقس هذه المدينة :

(١) كان على الجيش أن يلاحظ بمزيج من الدهشة والقلق تلك الخسارة التى لحقت بنا والتى كلفتنا ١٦٥٠ رجلا من حامية الاسكندرية فى أثناء الشهور الثلاثة لأول شتاء قضيناه فى هذه المدينة أى فى ديسمبر ١٧٩٨ ويناير وفبراير ١٧٩٩ فى حين لم يصب الطاعون إلا عدداً ضئيلا من السكان . ويرى بعض الرحالة وهم يتحدثون عن أسباب تأصل الطاعون فى مصر ، أن هذا المرض ليس متوطناً على الاطلاق فى مصر، وأنه لا يأتى إليها إلا عن طريق سفن قادمة من القسطنطينية أو أنه يأتى من داخل أفريقيا ، وأعتقد أن كبار الأطباء الضباط فى الجيش وهم السادة ريجينيت des genettes ، كبير الأطباء ، ولارى Larry ، كبير الجراحين ، وسافارسى Savaresy ، وفرانك Frank ، وبالم Balme وهم ضباط أطباء عاديون . . وكذلك آخرين من الذين عالجوا هذا المرض فى مصر ، والذين نشروا عنه دراسات هامة لا يشاطرون هؤلاء الرحالة هذا الرأى . لمـاذا لا نعتنق رأى سترابون Strabon الذى نجد فيه الأسباب معروضة بطريقة واضحة ، وبسيطة ، وطبيعية للغاية . فهل العقل الانسانى لا يسير فى نسق منتظم فيكون عليه أن يقبل على الاطلاق آراء فى قرن ما ليهدمها وينقضها بآراء جديدة فى القرن الذى يليه ؟ ومع ذلك فيمكننا أن نتفق ، بعد أن نكف عن تعميم الأمور ، على أن ركود المياه والرطوبة التى تنتج عنها ، هى هنا ، كما هى فى كل البلدان الحارة ، بذرة كل الأمراض المتوطنة والوبائية التى تسيطر هناك باستمرار . فلنتذكر مثلا تلك البلاد التى تمارس فيها هـذه الأمراض دمارها : غيانا ، سان دومنجو ، مصر ، هولنـدا . . الخ ، وفرنسا فى الأجزاء الرطبة منها مثل : جافلين gavelines وروشفور RoChefort ، وسوف نـكون على يقين تام بأن هـذه الأوبئة قد انتشرت فى كل هذه البلاد عن طريق أبخرة الطاعون، التى تحدثها الشمس فى المياه الراكدة فتترك بعد تبخرها أراضى موحلة ، من يستطيع إذن أن يشك فى أن الأوبئة التى تجتاح الحيوانات ليست ═

« يلاحظ بوضوح أن هواء المدينة صحى ، ويعود بعد ذلك إلى موقعها حيث

سوى أنواع من الطاعون تنتج من المياه الراكدة التى تشربها ماشيتنا فى أوقات الجفاف؟ وقد يعترض البعض بأن الطاعون يظهر أيضاً فى صعيد مصر حيث لا تكاد الأمطار تسقط على الاطلاق ، وحيث لا توجد مستنقعات ، هـذا صحيح ، ومع ذلك فقد لوحظ أن الطاعون لا يحدث هناك إلا بعد فيضان غير عادى للنهر ، ويكون ذلك بلا جدال بفعل رطوبة الأرض الشديدة ، الناتجة عن بقاء المياه فترة طويلة ، وعندئذ يكون الطاعون ذا قوة و كثافة مرعبتين ، إذ يدمر قرى بأكملها كما حدث فى نفس العام الذى جلونا فيه عن مصر ، أى فى عام ١٨٠١ . ويلاحظ أن الطاعون فى هـذه الحالة يهبط مع النهر إلى مصر السفلى ، بينما يحدث فى نوبات الوباء الاعتيادية أن يتخذ الوباء مساراً مناقضاً أى أنه يتجه من البحر إلى الداخل ، نحو الجنوب .

وينبغى أن نأخذ فى اعتبارنا أيضاً أن هـذا التتابع الدائم بين الحرارة الشديدة أثناء النهار ، والرطوبة الشديدة أثناء الليل ، وبخاصة فى فصل الأمطار وفصل الفيضان ، يحدث ارتباكاً فى توازن الأمزجة ، وأن آثار هذه التغييرات الفجائية والمتكررة تؤدى إلى تحلل الدم ، وهو الذى قد أضعفه إلى حد كبير العرق الغزير والمتكرر ، وفى مثل هذه الحالة ، فإن الجسم — وهو مستعد والأمر كذلك لاستقبال أشد المؤثرات ضآلة بسبب الطقس الثقيل فى المساء والملىء بالأبخرة الآسنة فى النهار — يسربه عن طريق كل المسام ، ذلك أن الدم مثله مثل الهواء والماء ، إنما هو سائل ذائب يفسد ويتحلل بسبب الركود . وفى نفس الوقت فاننى أبعد ما أكون عن أن أنكر أن الطاعون يمكنه فى بعض الأحيان أن يأتى إلى مصر من الخارج ، وبخاصة من داخل أفريقيا ، ذلك أنه ، إذا كان هذا الوباء يحدث فى كثير من الحالات المهيجة للاحتكاك ، فلا بد إذن أن نوقن أن الرياح ، وهى المركبات التى تركبها الأبخرة الضارة والمهلكة التى يغص بها الجو ، تنقله سريعاً من منطقة لأخرى ؛ وينبغى ألا تدع سرعة انتشار هذا الوباء ، التى حدث فى فترات عديدة سنوات ١٧٦ ، ٢١١ ، ٢٥٢ ، ٥٣٩ ، ٥٤٢ ، ٥٥٨ ، ٧٤٧ ، ١٠٠٦ ، ١٣٤٨ من العصر الحديث ما يقرب من ثلث السكان فى أوربا ، وهددت بقية الكرة الأرضية ، ينبغى ألا تدع مجالا للشك حول هـذا الموضوع ، فمن الممكن أن ينتقل واحد من هذه الطواعين ، وبخاصة إذا كان قادماً من داخل أفريقيا مع سرعة الرياح إلى مصر وسوريا ، ومن ثم ينتشر فى أوربا . لذن فإنى أوافق على أن الطاعون متوطن ووبائى فى وقت معاً ، أو يأتى من تلقاء نفسه حسب حالة الطقس ، فى مصر بالذات . إن ما رآه سترابون هو الذى قادنى إلى الوصول لهذه الاعتبارات الفيزيقية عن الطاعون ، كما أنه يتطابق مع الرأى الذى سقته هنا تبعاً للملاحظات التى قمت بها والتى كنت فى وضع يسمح لى بالقيام بها ، فى المرتين اللتين أصبت فيهما بهذا المرض فى مصر ، واللتين لم أفلت منهما إلا بفضل الطاقة والحيوية اللتين يهيئهما صغر السن ، وكـذلك بفضل طبعى المتفائل وكـذلك بفضل نوبات العرق الغزير التى كانت تأتينى فى الوقت المناسب .

تلامسها المياه من جهتين ، كما يعود كذلك إلى الفوائد التى تجنيها من فيضان النيل ، ذلك أنه فى كل المدن الواقعة على شواطىء البحيرات ، لا يستنشق الإنسان أثناء حرارة الجو الشديدة إلا هواء ثقيلا وخانقاً ، ينتج عن الأبخرة التى تحدثها الشمس ، كما أن الأوحال تظل لمدة طويلة على حواف البحيرات مما يؤدى إلى انبعاث روائح مستنقعية تنتشر فى الطقس بذور الأمراض ويتولد عنها الطاعون : أما فى الاسكندرية فإن النيل الذى يفيض فى كل عام فى بداية الصيف يقوم برفع مياه البحيرة ، وبذلك لا يدع الأجزاء الموحلة مكشوفة فلا تصعد منها أبخرة ضارة ، وعندئذ تجلب الرياح العنيفة التى تهب من الجزء الشمالى ، من أعالى البحـــار ، النسيم المنعش إلى سكان الاسكندرية فيمضوا الصيف على نحو طيب » .

وبالنسبة لى ، فليس بالإمكان أن نقول شيئاً أكثر من هذا تحديداً ودقة ، وعلينا أن نضيف قبل أن نختم هذه الفقرة للجغرافى الإغريقى أن امتلاء بحيرة ماريوتيس (مريوط) يظل داخل حدود صحيحة، طالما هو يغطى الأجزاء الموحلة من حوضها الجاف ؛ وكما سبق أن قلنـــا فى دراستنا عن البحيرات المصرية ، الجزء الخاص ببحيرة مريوط ، فإن هذا الامتلاء هو صاحب الفضل فى المباهج الصحية التى كانت تنعم بها هذه المدينة قديماً . لقد قلنا قديماً لأنه يبدو أن الأوبئة التى تخرب فى معظم الأحيان هذه المدينة ، كما تدمر مصر بشكل عام ، كانت فى ذلك الوقت أقل تردداً أو أنها كانت أقل انتشاراً عنها الآن ، ومنذ أن سقطت المنطقة تحت سيطرة شعب تجعل منه معتقداته الدينية من القدر الذى لا فكاك منه بخصوص مصير الإنسان ، لا يتخذ أدنى حيطة أو وقاية .

وبعد أن عالجنا كل ما يهم أن نعرفه عن المدينـــة الحديثة ، نواصل الآن مسيرتنا ودراستنا ونحن نطالع بعيوننا خريطة موقعها القديم .

١٧ — عندما نترك أرض الروم فى المدينة الجديدة لـكى نصل إلى القارة

القديمة ، فاننا ندخل عن طريق أبواب عالية إلى سور واسع حصين لم يعد يضم سوى بقايا الاسكندرية القديمة . وهذه الأطلال الأثرية تجذب عموماً فضول الناس ؛ ويبدو أن النفس تجد فى ظل الآثار القديمة للأجيال الماضية بعضاً من جمال الذكريات المليئة بالشجن تذكر بها هذه المبانى ، فظهرها الصامت يبث فى الروح انفعالا خفيا يهزها ويتسامى بها ،كما أن الإنسان يحب أن يتأملها فيفارقها بصعوبة ويعود إليها بشوق ، لكن آثار الاسكندريه على العكس من ذلك لاتوحى إلا بحزن مرير وعميق ، إذ هى لاتقدم إلا صورة بشعة وكئيبة للدمار التام الذى يصيب الإنسان ومنجزاته . وفى الواقع ، ففى فراغ فسيح ، يحيط به سور مزدوج ، تعلوه أبراج عاليـــة ، فان الأرض لاتغطيها إلا أطلال المبانى القديمة المدفونة تحت تلال من الأنقاض ، والأعمدة وتيجان الأعمـــدة المهشمة أو المقلوبة ، وقطع متماسكة من جدران منهارة ، وقباب مدفونة، وتكسيات الجدران التى تآكلت أحجارها الشوهاء بفعل رطوبة وملح وأحماض البحر.. فى كل مكان يجد المرء آبار وخزانات نصف مطموسة ،أوحفراً عميقة يستخرج منها السكان أحجاراً جيرية لاتزال تحمل آثار عمل الإنسان ، والتى حولها الإنسان بدوره إلى مجرد جير ؛ فى كل مكان لايسير المرء إلا على بقايا فخار ، وزجاج ، ومخلفات معدنية ، وإلا على فتات من كافة أنواع الرخام، ووسط أتربة تميل للبياض ترفعها الرياح وأقدام المارة لتدور بها فى شكل دوامات . . وسط هذه الفوضى يبدو هذا البعض من المساكن المنعزلة ، والتى بها المقابر ، وكأنها لم تنهض وسط هذه الخرائب إلا لتغطى بظلالها مأوى الموت، وهذه المقابر التى تتكون من كهوف صغيرة ، تضم جثثاً ترقد فوق أرض ترابية ، ترابها هو آخر بقايا الإنسان الهش . . فى داخل هـذا الفناء تتأثر أتربة وأنقاض مدينة واسعة ، نبحث عنها دون جـــدوى ، ونتخبط نحن وسط أسوارها .

١٨ - وأول ما يظهر لعيون المسافرين، فى حقل الخرائب هذا ، مرتفعات يسمح علوها، الذى يبلغ من ٥٠ إلى ٦٠ متراً ، بأن يستخدمها هؤلاء المسافرون

نقطتى استرشاد عند الإقتراب من ميناء مصر الوحيد . ويحمل أول هـذين المرتفعين ، وهو الذى يقع إلى أقصى الشرق ، اسم هضبة سانت كاترين ، وهو الاسم الذى خلعه عليها الفرنجـة أو مسيحيو هذه البلاد ، أما الآخر فيقع إلى الغرب ، وتنتهى قمته ببرج صغير يستخدم مرصدا . ولا يتكون هذين المرتفعين إلا من أنقاض آنيـة فخارية وأنقاض أخرى يحملها إلى هناك كل يوم سكان المدينة ، وتتوج قمتى هذين المرتفعين ، حيث يستطيع البصر أن يمتـد إلى بعيد فوق الأرض وفوق الماء ، بحصن صغير من سلسلة الحصون التى تلتف حولها وتحمى أطراف المدينة[1] ومن الضرورى ألا يكون هذان المرتفعان قد تكونا إلا منذ أقل من ربع قرن ، ويبدوا أن المرتفع الغربى ، حسبما يذكر ليون الأفريقى الذى سبق أن أوردنا ما قاله قبل ذلك ، كان موجودا أيام سليم (الأول) فى عام ١٥١٧ ، إذ من المعروف أن هذا السلطان ، لكى يعالج الآثار الضارة لجبال الأنقاض التى يبدو أن القاهرة وبقية مدن مصر كانت توشك أن تدفن تحتها ذات يوم ، قد أصدر أمرا بنقل كل مخلفات المدن برا أو نهرا إلى مصبات

---

(١) كرم القائد العام الجنرال بونابرت ذكرى اثنين من كبار ضباط الجيش المهندسين ، ماتا فى ساحة الشرف ، وذلك بأن أطلق اسميهما على هذين الحصنين فأطلق على الحصن الشرقى اسم حصن كريتان Fort Crétin ، وهو اسم كولونيل مهندس قتل فى موقعة أبى قير فى يولية ١٧٩٩ . أما الثانى فقد سمى حصن كافاريللى Fort Cafarelli ، وهو قائد فى نفس الجيش مات متأثراً بجروحه فى واحدة من عمليات حصار حصن عكا فى سوريا فى ٢٧ أبريل ١٧٩٩ ، وقد كان كافاريللى ، وهو ضابط شجاع بقدر ما هو مهندس بارع ، يحتفظ على الرغم من الخسارة التى كلفته إحدى ساقيه فى بداية حصار مدينة مايانس Mayence فى أكتوبر ١٧٩٥ ، بنشاط يدعو إلى الدهشة . وفى نفس الوقت فقد كان مشهوداً له بأحلى الصفات الروحية وبمعارفه المتنوعة والواسعة فى العلوم الفيزيقية ، وفى الأخلاق والسياسة ؛ لذلك فقد سبب موته أعظم الأسى للجيش ، كما بكاه القائد العام ، وكـذا الجنرالات والجنود وأعضاء مجمع العلوم والفنون الذى كان كافاريللى بمثابة أب وصديق له فى نفس الوقت فى مصر . وليس ما أقول هنا هو مجرد عاطفة تذكر فى ذكراه كنوع من الوفاء والعرفان ، لكنه شهادة عدل شاء رئيس أركان حرب الجيش ، عن طيب خاطر ، أن يقدمها لتلك المميزات العظيمة لهذا الجنرال الذى كان أفضل ضباط جيش حملة مصر .

النيل ، وسوف نتحدث عن الجانب المفيد الذى قد يكون لهـذه التلال (من الانقاض) والتى تحمل الرياح منها على الدوام أجزاء تسقط فى معظم الأحيان كأمطار من تراب فوق المـدن التى تشرف هذه التلال عليها وتغطى جزءاً كبيرا منها .

١٩ — هناك شىء ينجذب إليه المرء بأكبر قدر من الإهتمام ، ذلك هو تلك المسلة التى يلمحها المرء عند شواطىء الميناء القديم ، وقد دفعتنى قمتها المرتفعة فى شكل سهم والتى تجذب انتباه المسافرين لأبدأ وصفى لهذا الأثر ، وهو الأثر الأوحد ، أو الأكثر كما لا وسلامة من بقايا المدينة القديمة .

إلى الجنوب ، وقريبا من أحد أبراج السور ، الذى يسمى برج الرومان ، وهو يطل على الشاطىء الشرقى للميناء الجديد ، توجد مسلتان من الجرانيت ، جرى العرف على تسميتهما مسلتى كليوباترة ، باسم تلك الملكة الرائعة ، آخر سلالة البطالمة التى اضطرت بعد أن اعتلت وحدها عرش خلفاء الإسكندر ، أن تهجر مقاليد الحكم ، وأن تتخلى عن مباهج حياة وهبتها لغريم أغسطس (أكتافيوس) ، وأن تقتل نفسها ، بعد معركة أكتيوم .

ومسلات كليوباترة ، هى مسلتان من الجرانيت الشرقى ، إحداهما مقلوبة ، أما الأخرى فقد ظلت تنهض على قاعدتها ، وحجما هاتين المسلتين يتماثلان على وجه التقريب ، ولـكل منهما وجوه أربعة مليئة بالنقوش الهيروغليفية . وقد رسمت نقوش واحد من الوجوه الأربعة للمسلة التى كانت مقلوبة .

ويلاحظ المرء من بين علامات هذه الـكتابة الرمزية ورسوما مقلدة بشكل بالغ الدقة ، ومنقوشة بحروف بارزة وجوها لبعض الحيوانات منها : الثور ، الثعبان ، الجعران ، البومة ، البومة الصلعاء ، السحالى ، طائر أبى منجل ، طائر اللقلق ، البط ، وطيور أخرى وحشرات ذات أجنحة لا نعرف عنها الـكثير ،

وبين هذه النقوش الموضوعة داخل إطارات تمثل لوحات سيمترية لا يمكن للمرء أن يخطىء الأعضاء الجنسية للإنسان . ويقول هيرودوت حول هذا الموضوع : إن سيزوستريس قد أمر بحفر هذه هذه النقوش تحقيرا للشعوب التى كان قد هزمها وجللها بالعار ، وذلك عندما أخضعها بدون قتال .

أما مقاييس المسلة المقلوبة التى قمت بقياسها فهى :

الارتفاع حتى القمة الهرمية = ٥٧ قدما (١٨٫٥١٦ م)

ب ق
عرض الضلع = ٤ ٧ (٢٫٣٨٢ م)

وعلى الرغم من أن زوايا قاعدة هذه المسلة قد تهشمت بل وتشوهت فقد

ب ق
حسبت أن عرض الضلع الأدنى لهذا الوجه الذى رسمته كان ١٠ ٦ (٢٫٢٢٠ م)

ل ب ق
بينما يبلغ عرض الضلع الوجه الملاصق، والذى قام بقياسه المسيو بلزاك ٥ ٥ ٧ (٢٫٤٢٠ م) ، وهذه الاختلافات فى عرضى الوجهين المتلاصقين لوجوه المسلات الرباعية تبدو موجودة بشكل عام فى هذه المسلات كما تبدو فى جوانب الأهرام ، ويلاحظ فى الزوايا الأربع لتصميم قاعدة هذه المسلة أربع فتحات للتعشيق عرضها من ٢٠ إلى ٢٥ سم وهو نفس طول عمقها ، وكانت هذه مخصصة بلاشك، كما هو الحال فى المسلات الأخرى ، لكى توضع بها السنة التعشيق التى ينبغى أن تدعمها عند قاعدتها .

ومن المعروف أن أباطرة من الشرق ومن الغرب قد نقلوا فى عصور مختلفة مسلات مختلفة إلى روما وإلى القسطنطينية[١] . وقد حصرت فى الرحلة التى

---

(٢) أنظر A ، المجلد الخامس ، اللوحتين ٢٢ ، ٣٣ . وقد ذكر فى مؤلف ولسون أن لورد كافان Cavan عندما كان يتولى القيادة فى الاسكندرية ، قد أمر بعمل اللازم لنقل المسلة المقلوبة فى هذه المدينة إلى لندن ، ثم اعترضت تنفيذ هذا المشروع عقبات مختلفة . ويذكر مستر ولسون أن مصاريف النقل قد قدرت بـ ١٥ ألف جنيه استرلينى (تاريخ حملة الجيش الإنجليزى على مصر فى عامى ١٨٠١ ، ١٨٠٢ تأليف روبرت ولسون ، لندن ، ١٨٠٣ ، فى مجلدين ، الفصل الثامن).

قت بهـا إلى روما عام ١٨١٠ حوالى ١٠ — ١١ بين هـذه المسلات ارتفعت بزهو لتتحدث عن أمجاد روما ، ومع ذلك فينبغى أن نسجل أن المهندسين الذين أقاموا هذه المسلات قد بددوا مالها من تأثير عظيم فى النفوس حين أقاموها فوق قواعد لم تحافظ على النحافة التى كانت لها ، فى حين أن المصريين القدماء كانوا قد نصبوها كما نشاهد ذلك حتى الآن فى هايوبوليس وطيبة فوق قاعدة صغيرة يبلغ ارتفاعها من ٢٥ إلى ٣٠ سم على الأكثر فوق الرصيف أو فوق الأرض المحيطة به . وبنفس الطريقة فقد حجبنا جزئياً الأثر الرائع لأعمـــدة قصورنا حين أقمناها فوق قواعـــد نزعت منها — حين قللت من قوة الدعم أو الثبات البنائى الخاص بها — طابعها المزدوج : طابع الجرأة وطابع الأناقة التى ينبغى أن تبدو عليها .

ويصل وزن المسلة المقلوبة التى يبلغ طولها ، بما فى ذلك قمتها الهرمية التى

= وحيث أن مسلة الاسكندرية كانت قد أزيلت من حولها الأنقاض تماماً فقد أمكن قياس أطوالها بكل دقة ، وكانت كما يلى :

	ل	ب	ق
الجزء الأعلى ابتداء من فجوة اللسان	—	—	٦١
الجزء السفلى تحت فجوة اللسان وداخل القاعدة الخشبية	—	٣	٧
إجمالى الطول	—	٣	٦٨

وإذا ما راعينا طول القدم الإنجليزى بالنسبة لطول القدم الفرنسى فاننا نجد أن الطول

	ل	ب	ق
الإجمالى لهذه المسلة بالقدم الفرنسى	١٦	٦٠	٦٣

أما العرض فكان كما يلى :

	ل	ب	ق
العرض عند القاعدة	٧	٧	٧
العرض عند أضيق نقطة عند القمة	١ر٤	١	٥

(نفس المؤلف ، الجزء الثانى ، ص ٦٢) .

وهذه المقاييس تتطابق لحد كبير مع المقاييس التي حصلت عليها وقدمتها عن نفس هذه المسلة .

ب ق

بتر طرفها المدبب ٦ ٦٣ ، أى مايعادل ٦٢٧ر٢٠م[1] حوالى ٤٦٩ر٤٥١ لبرة و ٨٠/١٠٠ من اللبرة أى ما يساوى ٠٦٨ر٢١٩ كج و ٤٢٠/١٠٠٠ . وفى رأى أنه يمكن الاكتفاء بسفينة حمولتها ٢٢٠ إلى ٢٥٠ طناً لكى تنقل مثل هذه المسلات ، ولابد لنا أن نستنتج أنهم قد استخدموا لنقل المسلات الموجودة فى القسطنطينية وروما جسوراً عائمة أو طوافات لمعاونة السفن الشراعية أو السفن ذات المجاديف التى قامت بهذه المهمة .

وأكتفى بهذا القـــدر من الحديث عن تلك المنشآت التى تتطلب وصفاً خاصاً وبالذات عندما يكون ذلك داخل إطار الحديث عن مجموعة المسلات المصرية ؛ وأتفحص الآن الأطلال بالغة الأهمية والتى يحتويها السور .

٢٠ — لايحتوى سور هـذه المدينة المهجورة والذى قويت أجزاء منه بسور ملاصق يعلوه أكثر من مائة برج من أشكال مختلفة ، إلا على جزء من المدينة الإغريقية أو الرومانية القديمة التى يشار إليها من زمن طويل باسم فناء مدينة العرب إذ يظن أنها من عمل حكام هذه الأمة التى ضمت لأمبراطوريتها ، الاسكندرية ومصر كلها من اثنى عشر قرنا . وفى الواقع فإن هذا السور الذى يبلغ محيطة ٧٨٩٣ متراً (٤٠٥٠ قامة) كان فى جزء منه من عمل العرب فى القرن التاسع ، وتبـدو جدرانه بشكل عام بحالة سيئة . وهذه الجدران مليئة بالثقوب (الطاقات) الصغيرة ، وعدد كبير من هذه الأبراج العالية جيد البناء ، كما يلاحظ أن بعضاً منها ، وبالذات تلك التى تطـل على البحر عند الميناءين أو بالقرب من

---

(١) يقدر وزن القدم المكعب من الجرانيت المصرى المسمى بالشرقى ب ١٨٦ لبرة زنة مارك أى ٩١ ك.ج و ٥ ديكا جرام (٥ ح) . ويزن المتر المكعب وهو الذى يحتوى على ٧٩ ق و ١٧٤ م ، ٥٤٢٦ لبرة و ٣٦/١٠٠ من اللـبرة زنة مارك أى ٢٦٥٦ ك.ج و ٢٤ ديكا جرام . أما مكعب هذه المسلة فيبلغ ٣٩ر٧٧ م بما فيها ٧٧ر٢ م هى حجم قمتها الهرمية ، وقد قدرنا حجمه المذكور قبل ذلك بواقع ٤٩٠ جم للبرة زنة ١٦ أونسة (أوقية) .

المدينة الحديثة ، يعود تاريخها إلى القرون الأولى من تاريخ الاسكندرية . وهكذا شاءت المقادير أن يكون أحـــد هذه الأبراج ، وهو المطل على الميناء الجديد ، من صنع الرومان ، ولا يزال يحمل اسمهم . ويقع هذا البرج إلى الشمال وبالقرب من مسلات كليوباترة . وهناك برجان آخران يلفتان النظر بضخامتهما ولونهما الحائل ، ويقع الأول عند الميناء الجديد مطلا على داخل الفناء (الساحة) حيث يصب مجرى ماء هندسى ، أما الآخر فيقع إلى أقصى الغرب ، ويطل على الميناء القديم ، ويضم بداخله برجاً آخر مركزيا وهـذا البرج المزدوج الذى تتلامس جدرانه داخلياً عن طريق قبـة حلقية (دائرية) شديد الاتساع ، كما أن بناءه بالغ الفخامة . وكان من الضرورى على الأبراج الأخرى أن تخزن المياه الاحتياطية فى أجزائها السفلية ؛ وفى أحد الأبراج التى تشرف على الجانب الأوسط من المدينة الحديثة خزان جميل .

وقد رمم الحصن الواقع عند الزاوية الناتئة (إلى خارج المدينة) إلى الجنوب الغربى من السور ، ووضع فى حالة دفاع يخشى معها بأسه لحد كبير . ويشار إلى هذا الحصن باسم الحصن المثلث ، نسبة إلى الشكل الذى يميزه . وقد دمر هذا الحصن كلية بسبب النيران التى شبت بمخزن البارود فى حوالى نهاية ١٨٠١ . ويقول المستر ولسن الذى ذكر هذه الواقعة فى تأريخه للحملة الانجليزية على مصر ، حيث كانت الاسكندرية فى هذة الفترة تحت سيطرتهم ، بأن أحداً لم يستطع معرفة سبب هذا الحادث .

وترتفع أبراج السور المبنية على نمط التاكتيك العسكرى القـــديم ، بعظمة فوق الجدران التى كان عليها أن تذود عنها . وكل هذه الأبراج متوجة بطوار بارز تمنع بفعل مراميها من الاقتراب من محيطها . ويكاد يكون لـكل الأبراج الموجودة فى الخط الخارجى أبواب سرية أو أبواب خروج تؤدى إلى خنادق . وتختفى هذه الأبواب السرية اليوم ، وهى التى ترتفع عتبتها إلى مترين فوق قاع الخنادق ، تحت أكداس من فتات الأرصفة وقطع البناء .

ويلاحظ المرء فى جسم جدران السور ، وبخاصة فى أسفل جدران معظم الأبراج عدداً كبيراً من الأعمدة الرخامية والجرانيتية أقيمت بها بشكل أفقى ، ويرى أحد أطرافها مطلا إلى الخارج ، وسوف أقدم فى الجزء الآخر من هذه الدراسة رقم٨٩ — الملاحظات التى سأوصى بها بخصوص هذا الاستعمال الشاذ لهذه الأعمدة داخل هذه الكتلة الصلبة فى مبانى جدران السور . وقد كانت بعض أجزاء واجهات هذه الجدران ، وبخاصة من جهة الجنوب ، مغطاة بطلاء من ملاط الجص بقصد حماية طلائها من أثر الرطوبة البحرية ، ومن التلف الذى ينتج عن سقوط الندى المتواصل على الجزء الساحلى لمصر ، وكذلك على هذه الواجهة لجدران السور بالقرب من الزاوية الناتئة إلى جنوب باب رشيد حيث نرى آثار تفتت هذه الأحجار الجيرية[١] .

٢١ — ويبلغ عدد الأبواب المنفذة فى جدران هذا السور خمسة أبواب هى : اثنان يطلان على واجهة المدينة الحديثة ، وواحد يقع إلى الشرق ويسمى باب رشيد ، وآخر يقع إلى الجنوب ويسمى باب العامود ، وخامس يقع إلى الغرب ويؤدى إلى الميناء القديم عن طريق البرج الضخم الواقع إلى أقصى

---

(١) وجوه حجارة هذه الجدران مغطاة فى جزء منها بتخاريب سوس محفورة بشكل بالغ الانتظام فى كل اتجاه حتى ليعتقد المرء لأول وهلة أنها عمل غير عادى من صنع الانسان ، ولكن عندما نتفحصها جيداً وباهتمام فاننا ندرك أنها تخاريب طبيعية نتجت فيما يقال عن طريق ديدان تقرض الحجارة ، بمثل ما يوجد نوع منها يقرض الخشب فى الهواء أو فى الماء . وتقليداً لذلك ، يلاحظ على سطح بعض الأحجار الجيرية أن نوع الحفر المعروف باسم نخر السوس Vermoulure قد اقتبس واتبع فى نمط العمارة الريفية rustique بمثل ما نراه منفذاً فى أسفل الجدران وعلى الأعمدة والأعمدة الناتئة فى قصرى التويليرى واللوفر فى باريس . انظر فيما يتعلق بطبيعة الديدان التى تقرض الحجارة Les Journal des Savants لسنة ١٦٨٨

الغرب من السور[1] .

وقد أقيمت هـذه الأبواب فى الأبراج التى تعلو السور ، وقد طمست جدران الأبراج منافذها ، وتستخدم هذه الأبواب للإرشاد وللدفاع عن الموقع على طريقة الأبواب السرية فى أجنحة حصوننا ، ويغطى الواجهة الخارجية لمصراعى هذه الأبواب ، وهى مصنوعة من هيكل قوى من خشب الجميز ، بنصال حـديدية مثبتة بمسامير مدببة الرءوس ومتعددة الأشكال وإن كان حديدها قد تآكل بسبب الصدأ وأصبح فى حالة من التفتت التام بينما يكاد يكون الخشب قد ظل على حاله ، بل وكأنه يكتسب المزيد من الصلابة بمرور الزمن ؛ ويمكننا أن نستنتج الأزمنة التى بنيت فيها هذه الأبواب عن طريق الكلمات العربية المكتوبة بخط الكوفة على واجهاتها .

٢٢ — ومن بين المبانى التى عثرنا عليها مبعثرة داخل السور العربى الواسع ، كانت توجد قرية مجاورة لباب (بوابة) رشيد ، وقد دمرت هذه القرية عن آخرها نتيجة للحرب التى دارت فى السنتين الأولى والأخيرة لاحتلالنا لهـذه المدينة . أما بخصوص المبانى الأخرى المبعثرة إلى الجنوب الغربى والتى لم تعان مطلقاً من أحداث الحرب ، فقد ظلت على العكس من ذلك تمتـد فى مساحة واسعة بل اوزدادت مساحتها اتساعاً بفعل خرائب المبانى التى تحدثنا للتو عنها .

٢٣ — وقد عثرنا بين كثير من الخرائب على ديرين ومعبد يهودى ، هى أطلال منشئات أسستها تلك المذاهب العديدة التى سببت فى هذه المدينة الكثير من الانشقاقات والثورات والآلام والتعاسة فى أثناء القرون الأولى للمسيحية .

---

(١) لست أدخل فى عداد أبواب هذا السور بابين جديدين فتحهما الفرنسيون ، الأول بالقرب من الحصن الثالث المسمى حصن باب المقابر ، وهذا ليس سوى ثغرة فى جسم السور ، والآخر فى الاستحكام البارز بكورتينة ملحقة بالحصن الأخير بالقرب من الباب الذى يطل على ساحة الباب الجديد ، وقد أقيمت هذه الكورتينة الحصينة للدفاع عن المدينة الحديثة أثناء حصار الاسكندرية على يد الجيش الانجليزى — التركى فى عام ١٨٠١ .

أما اليهود الذين ينبغى ذكرهم على الدوام ، وفى المقام الأول ، فى أحداث الحروب الدينية فيحتفظون هناك بمعبد يقع بالقرب وإلى الجنوب من مسلات كليوباترة ، وتقع مقابرهم إلى ما وراء المدينة العربية ، إلى الشرق من برج الرومان ، ولا يستطيع المرء إلا أن يدرك مدى ارتباط وتعلق هذا الشعب الدائمين بعاداته القديمة حتى فى الأحجار التى يستخدمها فى المبانى التى تغطى مقابر هذا المدفن .

وبالقرب، وإلى الشرق من هذا المعبد يوجد دير يونانى ، هو مقر بطريرك الأقباط (الروم) أى المطران الأول لهؤلاء المسيحيين الذين تشبثوا بوجودهم فى مصر بحكم أصلهم المصرى ، بعد أن آلت هذه المنطقة إلى سيطرة العرب والمسلمين .

وإذا ما اتجهنا نحو وسط المدينة العربية من جهة الباب الشمالى الذى يطل على ساحة الميناء الجديد ، نجد ديراً آخر للمسيحيين الكاثوليك من طبقة الدعاة أى من رجال الدين القادمين من الأرض المقدسة . ولدخول هذا الدير الذى زرته ، يصعد المرء أولا فوق أكوام من الأنقاض تحيط به ، ويضطر المرء بعد ذلك للهبوط عدة سلمات قبل اجتياز الباب . ويكاد يعتقد المرء أنه يدوس فى داخل هذا الدير على الأرض المبدئية للاسكندرية ، ولست أعرف ما إن كان ثمة أشخاص آخرون يمكنهم أن يقدموا تفاصيل أكبر عن داخل هذه الأديرة ، وقد واتتنى الرغبة والفكرة أكثر من مرة للذهاب إلى هناك لقضاء ١٥ يوماً فى هذه العزلة لكى أغترف من هناك معلومات هامة . وإننى لأشعر بشديد الأسف لأننى لم أتصل فى هذه المدينة ، كما فعلت فى القاهرة ، بهؤلاء الرهبان القائمين بأعمال البر والذين استبقاهم حبهم لدينهم — وهو حب يختلف أشد الاختلاف عن هذه الحماسة العمياء التى كانت لهؤلاء النساك الزاهدين فى أديرة صحراوات النطرون والصعيد — استبقاهم ولا يزال ، فوق نفس أطلال

مدينة المسيحية العتيدة والقوية، وبين شعب لم يعد يحتفظ من بغضائه القديمة إلا بازدراء ماس بالمسيحيين .

٢٤ — نميز من بين المساجد أو معابد الديانة المحمـــدية والتى بقيت داخل الحى العربى مسجدين ، يقع أحدهما بالقرب من الباب الذى يقع إلى أقصى الغرب ، ويحمل هذا المسجد منـذ وقت طويل اسم مسجد (جامع) السبعين ، لأنه قد حدث هنا ، حسبما يقول الأثر ، منذ ثلاثمائة عام قبل المسيح أن بطليموس بن لاجوس قد أمر بترجمـة التوراة العبرية إلى اللغة اليونانية بواسطة السبعين مترجما الذين أرسلهم الكاهن الأكبر إليعازر ، ويضم هذا المسجد ذو الشكل المربع والذى تبلغ أبعاد أى من واجهاته ١١٧م × ١٢٦م ، فى داخله رواقا له صفان من الأعمدة الرخامية أو الجرانيتية ، وهى من بقايا مبان قديمة خربة ، وحيث لم تعد تقام فى هذا المسجد منذ وقت طويل الشعائر الإسلامية ، فقد رممت جدرانه وأقيم به مربض حصين لمدفعيتنا[1] .

٢٥ — ويقع المسجد الثانى ويسمى جامع سانت أثناز عند منتصف المدينة على بعد ٢٥٠ متراً إلى الشرق من الدير المسيحى الذى تحدثنا للتو عنه ؛ ويستمد هذا الجامع اسمـــه من اسم مؤسسه ذلك أنه قد حل محل كنيسة مسيحية ، هى واحـدة من الكنائس التى بناها سانت أثناز فى مدينة الاسكندرية عند نحو منتصف القرن الرابع ، وتبلغ أطوال الواجهة الواحدة من واجهاته ٥٤ × ٦٢ .

ومن المعروف أن سانت أثناز ، بطريرك الاسكندرية ، الذى اضطهد فى عهـده سان مكاريوس وانسحب إلى صحراوات بحيرات النطرون حيث بنى بعض المغارات (الأديرة) التى تحمل اسمـــه ، قد أصدر فرماناً كنسيا ضد آريوس زعيم المذهب الهرطقى للآريوسيين فى السنة ٣٦٤ من الميلاد ، وفى عهد هذا البطريرك تسببت الانقسامات الدينية للدوناتيين والآريوسيين لهذه

(١) أنظر تصميم هذا المسجد فى A من المجلد الخامس ، لوحة ٣٨ .

المدينة البائسة فى انشقاقات طويلة ودامية بنفس القدر الذى أحدثته انقسامات الـ Guelfes والـ Gibelins (*) التى روعت إيطاليا عند حوالى منتصف القرن السابع[1] .

ويحتوى محراب هذا المسجد الذى لم تطأ أرضه أقدام المسيحيين ، فى وسطه ، على رواق بالغ القيمة مبنى من منشئات وآثار مصرية قديمة ، ولم يكن يلزم أقل من جيش منتصر حتى يمكن اجتياز عتبة هذا المسجد ، وحتى يمكن انتزاع هذا الأثر من هذا المكان حيث ظل مجهولا ومفقودا لفترة طويلة من الزمن ، إنه حوض من الرخام الصناعى الأخضر ، تحمل كل وجوهه الخارجية والداخلية كتابات ورسوم هيروغليفية ، وله شكل شبه منحرف ، أما أطواله كما قستها فهى كما يلى : ٢٫٩٠م لطول كل من الواجهتين الكبيرتين حتى زاوية اتكاء الرأس ، كما أن عرض كل منهما عند هذه النقطة يبلغ ١٫٦٠م فيما بين طرفى قوسه الخارجى ، إذ أن شكل الرأس مقوس ، أما أطوال الواجهتين الصغيرتين فهى ٠٫٩٣م و١٫٢٤ م . وهو محفور من الداخل بشكل مواز لشكله الخارجى على عمق يبلغ ١٫٠١ م فى حين يبلغ هذا العمق من القاع إلى قمة قوس الرأس ٢٫٤٠ م ، أما سمك جدران هذا الحوض فيبلغ ٠٫٢٣ م ، ولابد أن وزنه يصل إلى ١٢ إلى ١٣ ألف ليبرة زنة مارك ، أى حوالى (٦٢٦٣ إلى ٥٨٧٤ ك . ج) . وهذا الأثر هو واحد من أكثر الآثار التى بقيت من الحضارة المصرية القديمة مدعاة للفضول ، وقد كان واحداً من تلك الآثار التى كلفت بنقلها إلى فرنسا مع اثنين من زملائى[2] لكن ما قدرته مسيرة الحرب كان أمراً مغايراً .

(*) حزبان قويان أحدثا انقساماً كبيراً فى إيطاليا ابتداء من القرن السابع حتى القرن الخامس عشر ، وكان الأولون يتبعون البابا بينما يتبع الآخرون الأباطرة الألمان . (المترجم)

(١) انظر تصميم هذا المسجد فى A من المجلد الخامس ، لوحة ٣٨

(٢) كان القائد العام كليبر قد عين ثلاثة أعضاء هم السادة : نويه الفلكى Nouet ، ديكوستيل Des-Costils ، وأنا . وقد سافرت من القاهرة فى السابع والعشرين من بليفور من العام الثامن أو ١٦ فبراير ١٨٠٠ لكى نبحر مع هذا الأثر الجميل لجامع سان =

وإذا كانت الأحداث العسكرية الأخيرة التي أدت إلى جلائنا عن مصر قد حرمت فرنسا من إحدى المغانم التي كان يمكنها أن تثرى متحف العاصمة ، فليس للآداب والفنون أن تأسى ، فخسارتها لم تكن تامة ، فهذه الغنيمة تظل بفضل عزيمتنا التي لا تلين في متناول أيدينا ، إذ يستطيع العلماء والفنانون أن يذهبوا لتأمل هذا الأثر الذي لا يقدر بثمن بالنسبة للفنون والتاريخ ، في متحف لنـــدن .

٢٦ — تجاه جامع أثناز وبالقرب منه ، يلاحظ المرء كذلك ثلاثة أعمدة من الجرانيت الأحمر واقفة ، ويمكن أن يبلغ ارتفاع الواحد منها ١٢ — ١٣ متراً × ١٤٠سم هو قطرها الأوسط. ويوازى هذا الصف من الأعمدة الجميلة التي يفصل بين كل واحد منها ١٠ — ٢٠ خطوة ، الشارع الذي يفضى إلى بوابة في الاتجاه القادم من الباب الغربي للميناء القديم . ويرى المرء بالمثل ، من ٧ إلى ٨ أعمدة ضخمة واقفة كذلك ،وملتصقة بجدران الواجهة الداخلية للبيوت الواقعة إلى اليمين عند الوصول إلى القرية المتاخمة للبوابة الشرقية للسور ، وهذه القرية اليوم محطمة عن آخرها ، وفي عام ١٦٩٢ أحصى المسيو دى ماييه Maillet القنصل الفرنسي عددا كبيرا من هذه الأعمـــدة توازى أيضاً هذا الشارع القـــديم .

= أثناز بالاضافة إلى حوضين آخرين من القاهرة ، عرف أحدهما لوقت طويل باسم حوض أو نافورة العشاق ، وكان يوجد أسفل سلم جامع ابن طولون مطلا على أكبر شوارع القاهرة . أما الآخر فقد اتخذ على شكل جسم إنسان وكان معنا كذلك مسلتان صغيرتان من الحجر الأسود يبلغ طول كل منهما من ٣ إلى ٤ أمتار ، وكذلك حجر ذو كتابات ثلاث وقبعة أحد التماثيل الضخمة من ممفيس، وقطع مفتتة من أحواض وتماثيل أخرى وقد نسخت النقوش الهيروغليفية من على المسلتين الصغيرتين المصنوعتين من البازلت ، كما قمت برسم تصميم ومقاطع للنافورة التي على شكل جسم إنسان . أنظر التفاصيل التي قدمها السيدان جومار Jomard ورافينو Raffeneau ، في A من المجلد الخامس ، اللوحات ٢١ ، ٢٢ ، ٢٣ ، ٢٥

٢٧ — أما الخرائب الهائلة التى نراها على بعد ١٦٠ مترا إلى الشرق من نفس هذا المسجد، والتى تشكل بقايا جدران ضخمة لمبانى قديمة من الطوب الأحمر ، فتعود ، مثلها مثل تلك التى تقع على بعد ٣٥٠ مترا إلى الشمال الشرقى من جامع السبعين ، إلى قصور قديمة ، حيث لا نزال نلمح فيها حتى اليوم أقواس قناطر وبقايا أحواض أو خزانات مياه ؛ ويستخلص من فحص هذه الأطلال ، أن هذه المبانى كانت تشتمل على حمامات ونافورات عمومية ، وقد اكتسبت كتل الأسمنت الأحمر التى تغطى الطوب الأحمر المسطح ، الكبير الحجم ، المستخدم فى هذه الأبنية السميكة والضخمة ـ اكتسبت بمرور الزمن تماسك الصخور وصلابتها الشديدة .

٢٨ — وقد تناقص اليوم عدد الحمامات — وقد كان فيما مضى هائلا — إلى حمامين أو ثلاثة فى كل هذه المدينة ، وثمة واحد من بينها مفتوح للعامة ، يقع فى ظهر خرائب القصر بالقرب من جامع أثناز . ولن أقدم هنا وصفاً خاصاً لهذا الحمام ، إذ هو يشبه كل الحمامات المفتوحة للعامة فى القاهرة وسائر المدن المصرية الأخرى ، وقد نيط بآخرين غيرى أن يضيفوا رسوماً إلى التفاصيل الوصفية ليقدموها فى وصف مصر .

٢٩ — أما المجرى الهندسى للمياه والذى تحمل قناطره العالية المياه من المدينة العربية إلى البرج الضخم عند البوابة الشرقية والذى يطل على ساحة الميناء الجديد ، فإما أنه بناء حديث وإما أنه يعود إلى القرون الوسطى ، وقد هدم هذا المجرى بسبب أعمال التحصينات الجديدة التى قام بها الفرنسيون .

٣٠ — أما المبانى التى أفلتت — جزئياً على الأقل — من تخريب الزمن فهى خزانات المياه المخصصة للتموين السنوى للمدينة . وهذه المنشآت تحت الأرضية والتى بنيت فوقها المدينة تشكل قباباً تدعمها عواميد على شكل قناطر مقوسة من طابقين أو ثلاثة طوابق ، جدرانها الداخلية مطلية بطبقة سميكة من

الأسمنت الأحمر المسمط ، الذى لاتنفـــذ من مسامه المياه ، وقد أنشئت هذه الخزانات على قيعان متفاوته الارتفاع ، ولـكنها على الدوام أدنى من سطح البحر بحوالى ٥ — ٦ أمتار ، وهى واسعة وعميقة ومتعددة الفتحات ، وتمثل الزوايا آباراً شبه دائرية على الحواجز الرأسية ، التى نفذت فيها حفرات يستخدمها العمال سلالم يضعون عليها أقدامهم عند الهبوط أو عند الصعود ، عندما يقومون بأعمال الإصلاحات التى يستدعى الأمر تنفيذها ، لتطهير الآبار من الطمى الذى يرسبه فيها مياه النيل كل عام .

إن خريطة للمنشئات تحت الأرضية لمدينة الاسكندرية ستكون مثيرة للفضول بقـــدر ما تكون هى مثيرة للاهتمام حين نربطها بخريطة الاسكندرية وموقعها[١] ، ذلك أن هذه الخريطة سوف تسهل لنـا مهمة دراسة أحوال المناطق والأماكن القديمـــة حين توضح لنا اتساع وكثرة مصادر المياه التى أنشاها لنفسه شعب كبير العدد ، لإشباع واحدة من أهم الاحتياجات الأولى لحيـاته .

كان عدد الخزانات لا يزال حتى بضع سنوات يصل لحوالى ٣٨٠ - ٤٠٠ خزان ، لـكنه الآن يبلغ بالكاد ثلاثمائة وثمانية خزانات ، ومن المحتم أن يتناقص هذا العدد بسبب الإهمال فى صيانة الآبار والعناية بها ، حتى تـكفى على الأقل احتياجات الشعب الحالى للاسكندرية ، ولتفى كذلك باحتياجات البحرية لعامين متتالين . إن المرء ليستطيع أن يجزم بأن عـــددا هائلا من الخزانات تحت الأرضية القديمة مطمورة الآن تحت أنقاض المدينة .

ولقد تناقص عدد الخزانات الصالحة للاستعمال إلى ٢٠٧ ، تبلغ طاقتها بعد

(١) عهد بتصميم الخريطة تحت الأرضية للاسكندرية إلى المسيو فاى Faye مهنـدس الطرق والـكبارى ، والذى كان مكلفاً بالأعمال الهيدروليـكية الميناء ، وإنى أقدم هنا هذه التفاصيل تبعاً للمقاييس والمعلومات التى توصل إليها هذا المهندس .

طرح ١/٣ من سمتها، وهو تقديرنا لحجم أعمدة ودعائم القباب والقناطر المقوسة ، ٣٨ر٢٣٤٣ مترا مكعباً ، بمتوسط قدره ١٦١ م٣ للخزان الواحد ، ومن جهة أخرى ، فإذا كان المتر المكعب من المياه الحلوة يزن ٢٠٤٢ لبرة و ١٧٣ ½ أو ٢٠٠٠ رطل من زنة مارك أى مايساوى ٩٧٩ ك . ج وديكا جرام واحد (١٠ ج) من العدد الدائرى مثل الطن البحرى ، حيث أن ٧٠ رطلا تساوى ٣٤ ك ج و٢٧ ديكا جرام هى زنة القدم المكعب من المياه الحلوة ، فإننا نحصل على كمية تبلغ ٠٠٠ر٨٧٦ر٦٦ رطل ، تعطى عندما نقسمها على ٦ أرطال هى وزن ثلاثة بنتات(*) من المياه — نصيب الرجل ، الواحـــد فى اليوم — ٠٠٠ر١٤٦ر١١ نصيباً أى مايكفى لاستهلاك ٢٠ ألفاً من الرجال ، يدخل فيهم نصف حامية الاسكندرية ، فى حالة الحصار لمـدة تبلغ ٥٥٧ يوماً ، أى مايقرب من عام ونصف العام ؛ ولا يضع هذا الإحصاء فى اعتباره الخسارة التى تنتج بفعل البخر ونقل المياه ، ذلك أن هذه الخسارة التى لا يمكن تفاديها ، تعوض بشكل مجز عن طريق مياه الأمطار ، وكذلك مياه الآبار التى تتفاوت درجة صلاحيتها للاستعمال ، والتى نجدها فى كثير من البيوت فى المدينة الحديثة ، كما قلنا من قبل ، كما تعوض هذه الخسارة كذلك عن طريق مصادر أخرى سنتناولها فيما بعد .

٣١ — وبخلاف هذا العدد من الخزانات فإننا نحصى هناك أيضاً ، داخل الحى العربى ، ٧٣ مجروراً يبلغ عمقها من ١٥ إلى ٢٠ متراً ، تستقبل مياه النيل عن طريق جداول سفلية تتفرع من الخليج ، سنتحدث عنها فيما بعد . وهـذه المجرورات الواسعة ، ذات الشكل الدائرى ، والتى يبلغ عمق قاعها ١٠-١٢ متراً تحت مستوى سطح البحر ، تستخدم فى تغذية الخزانات أولا بأول للاستهلاك ، كما تساهم فى رى الحدائق التى تزرع داخل المدينة . وتستخرج منها المياه بواسطة

(*) البنتة ، كيل للسوائل يسع ٥٦٨ر من اللتر . (المترجم)

عجلات ذات قواديس ، على شكل سبحة (ساقية) . وتدور هذه الماكينات ذات التصميم الريفي بواسطة ثيران تلتزم ولاية البحيرة بمد الإسكندرية بها كل عام .

٣٢ — ويعهد بصيانة الخزانات والعناية بها إلى خدمات ورقابة الشوربجى تحت إشراف الكاشف أو حاكم المدينة[1] . ويرصد للتطهير السنوى لهذه الخزانات مبلغ لابأس به. وهذه الأعمال ـ كما لابد أن نتصور ـ بالغة الأهمية ، حيث تتوقف على القيام بها حياة أهل الإسكندرية . لكن هذه الصيانة ، وكذا تطهير هذه الخزانات ، وبالمثل تطهير كل ترع مصر ، كان وسيظل لوقت طويل لسوء الحظ ، يتم بشكل ردىء ، بل ويهمل كلية ، مادام يتم تحت رحمة هذا الجشع الإجرامى للجنود الذين يفتشون عليه .

٣٣ — وكما رأينا فى الفقرة الخاصة بترعة هذه المدينة ، فى الدراسة عن القناة التى تربط بين البحرين ، فإن المدينة لا تحصل على مياهها الحلوة إلا عن طريق

(١) تتراوح المبالغ المخصصة سنوياً لمصاريف إصلاح الخرابات بالمدينة ، مثلها فى ذلك مثل مصاريف ترعة الاسكندرية بين ٢٠ إلى ٢٥ ألف قرش (يساوى القرش ٤٠ مدينى) أى ما يبلغ من ٢٨ر٠٧١ جنيهاً و ١٠ سو إلى ٣٥ر٧١٤ و ٧ سو من العملة التورية (النقد فرنسى قديم مسكوك فى مدينة تور على الطراز الملكى) . وبواسطة هذه المبالغ يأخذ الحاكم على عاتقه مهمة التموين السنوى بالمياه لخزانات المدينة ، وتحرر حجة أصلية بهذه العملية ، وترسل حسب الأصول ، إلى باشا القاهرة . وتحتوى هذه الحجة على محضر يثبت أن كل الخزانات قد امتلأت بالمياه اللازمة لاستهلاك المدينة أثناء السنة .

وبخلاف هذه المبالغ ، يحصل الشوربجى على أتعاب تبلغ ٣٥ر٨٠٠ مدينى أو ١٢٧٨ جنيها و ١١ سو : ٨٥٠ منها عن طريق الكاشف و ٤٢٨ عن طريق الجمرك . وقد تحدث المسيو أوليفييه Olivier عن هذا الموضوع بالتفصيل فى تقريره عن رحلته إلى داخل الأمبراطورية العثمانية ، مصر واليونان ، ج ٣ ، ص ص ١ ، ٧٨ ؛ كما يمكن أن نعود حول هذا الموضوع إلى الدراسة عن الترعة التى تربط بين البحرين ، الجزء ٣ ، الفصل ٣ ، ص ١٢٩ ، فيما يتصل بترعة الاسكندرية ؛ وكذلك إلى دراسة المسيو استيف Estève عن مالية مصر ، ص ٣٧٣ ، الدولة الحديثة ، المجلد الأول .

الترعة التى تأخذ مياهها من النيل ، عند الرحمانية ، وتعبر من الشرق إلى الغرب. إقليم البحيرة بطول يبلغ ٩٣٫٥٣٠ متراً . ويعبر هذه الترعة شديدة التعرج ، أربعة قناطر عند ضواحى الإسكندرية ، وهى القناطر الوحيدة التى نجدها فوق مجراها[١] .

وهذه القناطر ، وهى عبارة عن أقواس معلاة ، ومبنية على الطراز القوطى، هى من إنشاء العرب،وهى كذلك فى حالة سيئة بعض الشىء . ولم تعد هذه الترعة التى أفاض المؤرخون العرب فى وصفها وامتداحها ، سوى امتداد لحفرة ، لم تزل على الرغم من أنها توشك أن تكون شبه مردومة ، تتجه إلى المدينة،حيث توزع مياه النهر على كل المجرورات ، عن طريق أربعة جداول سفلية. وأقصى هذه الجداول من جهة الغرب هو نفس امتداد الترعة ، التى تذهب لتصب فى الميناء القديم على شكل مورد للسفن (المكان الذى تتزود فيه السفن بالمياه العذبة). وإلى هذا المورد، الضرورى للغاية لمنشأة بحرية ، والذى يشبه بالنسبة لهذا الميناء خزان مياه حقيقى ، تذهب السفن للتزود بالمياه ، أوقات فيضان النيل[٢] .

---

(١) يمكن أن نعود إلى خريطة القناطر والخلجان فى الاسكندرية لنرى بداية هذه الترعة التى تجمع عندها الانجليز والأتراك وقاموا بقطعها ؛ وبسبب ذلك فقد حدث ، فى شهرى أبريل ومايو من سنة ١٨٠١ ، أن صب البحر ماءه فى حوض ماريوتيس (مريوط) عن طريق بحيرة المعدية ، فأغرقت ما يقرب من ثلاثين قرية فى منطقة لا ينبغى أن ترويها سوى مياه النيل وحدها ، كما كان يحدث وقت وجود هذا الاقليم القديم .

(٢) حددنا مربعات مرسومة بخطوط متقطعة فوق جداول ترعة الاسكندرية ، فتحات هذه المجارى الهندسية ، وكانت هذه فتحات لادخال الضوء والهواء الى هذه المجارى تحت الأرضية ، ولتسهيل عمليات التطهير والصيانة السنوية اللازمة .

ويحدث المسيو دى ماييه ، الذى سبقت الإشارة إليه ، عن قنوات أخرى تحت أرضية كانت فى عصره (١٦٩٢ — ١٧٣٢) تنقل مياه النيل ، محاذية الساحل كله من الاسكندرية حتى أبى قير إلى الشرق، أى بطول يزيد عن ٢٠٫٠٠٠ متر ، وما يقرب من ٥٫٠٠٠ =

٣٤ — ووسط الخرائب التي انتهينا من عبورها، لا يجد المرء ما يمكن أن يجذب ناظره أو يوقف خطو المسافر المحزون سوى خضرة بعض شتلات النخيل في الحدائق القائمة حول المساكن المنعزلة والتي تحيط بها . وبخلاف أشجار النخيل يجد المرء في هذه الحدائق أشجار التين، والتوت، والرمان، والمشمش، والبرتقال، والعناب، والحنة، وشجيرات أخرى . ومن بين الخضروات يزرع هناك الباذنجان والكرنب، والخس، والهندباء، والقنبيط ..إلخ؛ وفضلا عن ذلك، فإن النسيم الذي يستمتع به المرء في هذه الحدائق سيئة التنظيم ، يجعل الطقس مناسباً لدرجة كبيرة حتى ليغامر المرء بأن يصل إليها ، من خلال أتربة بيضاء مالحة في أرض ملتهبة .

٣٥ - وعندما نخرج من هذا السور لنجتازه إلى خارجه، فإننا لا نقابل سوى مبنى واحد نستطيع بسبب ارتفاعه، وإذا ما اعتايناه، أن نبصر ما يدور في أعالي البحار. وأود أن أتحدث هنا عن هذا العامود الضخم الجدير بلفت أنظار المسافر الذي يتجه إلى مصر عن طريق الإسكندرية . يقوم هذا العامود، الذي نلمحه إلى جنوب سور المدينة العربية، فوق ارتفاع يبلغ ١٢-١٥ متراً، نلاحظ فيه كتلا هائلة من مبان قديمة . فوق هذا المرتفع أقيم هذا العمود الأثري من

ق ب ل

الجرانيت الشرقي، ويبلغ ارتفاع جذعه ٦٣ ١ ٣ أو ٢٠,٥٠ متراً على محيط أوسط يبلغ ٢,٥٦ م ويزن ٥٧٣,٧٣٠ رطلا من زنة مارك أي ١٢٨,٢٨١ ك م و ٧٠ ديكاجرام(٧٠٠ج)، غير شامل قاعدته وأساسه وقمته التي

= إلى ٦,٠٠٠ متر بحذاء المقابر إلى الجنوب الغربي ، ويقول هذا القنصل الفرنسي الذي أقام أربعين عاماً « إن الترعة تحت الأرضية ، التي كانت تمتد إلى الشرق ، كانت واسعة حتى ليستطيع رجل أن يعبرها واقفاً بكامل راحته » . وهذا ما يلاحظه المرء ، في الواقع ، في الجداول الأربعة المتجهة إلى الجنوب . ويمكن الظن بأن الترعة التي تحدث عنها المسيو دي مايه ، هي الترعة القديمة المكشوفة ، والتي يحتمل أن تكون قد غطيت بمرور الزمن ؛ وكانت هذه تتجه من الاسكندرية إلى كانوب وهيراكلي ، أي أبي قير حالياً .

يبلغ ارتفاعها ٩ ل ٤ ب ٢٥ ق أى ٨٫٥٢ م ، وهو ما يجعل الطول الإجمالى للأثر : ٨٨ ق ٦ ل أى ٢٨٫٧٥ م . ويبدو أن هذا العامود ، الذى كان يسمى حتى هذه اللحظة على نحو غير دقيق عامود بومبى ، قد أقيم على شرف الامبراطور سبتيموس — سيفيروس[1] . ويمكن القول بأنه يشبه برجا ، كان الهدف من إقامته أن يستعمل دليلا للسفن التى يمكنها أن تلمحه على بعد يزيد عن فرسخين فى الماء ، فى الوقت الذى تختفى فيه عن الأنظار الأبراج المقامة فى الحى العربى فى أرض سواحل مصر المنخفضة والمتعرجة . ونرى أن جذع هذا العامود يزيد فى وزنه عن وزن المسلة المقلوبة بحوالى الربع ، وهى المسلة التى تحدثنا عنها من قبل ، والتى كان يلزم لنقلها سفينة تبلغ حمولتها ٣٠٠ طن . ولن

---

(١) جاء أبو الفداء ، أمير سوريا ، والمؤرخ الجغرافى العربى إلى المدينة عام ١٣٨٣ . ويقول هـذا المؤلف إن العامود فى زمنه كان يحمل اسم سبتيم — سيفير — Septime Sévère) كما أنه قد أقيم على يد أهل الاسكندرية اعترافاً منهم بالمكاسب التى حصلوا عليها من هذا الامبراطور الذى زار مصر سنة ٢٠٠ ميلادية ، ومما لا جدال فيه أن الكتابات اليونانية التى كان يصعب قراءتها فى زمن أبى الفداء ، والتى لم يعد من الممكن قراءتها الآن ، كانت فى ذلك الوقت لا تزال تشهد على هذا الحدث التاريخى ، ويدعى عالم انجليزى ، أمكنه فيما يقال أن يفك رموز هذه الكتابات بعد رحيلنا ، أنها تحمل فى الواقع على الاعتقاد بأن هذا العامود قد أقيم على شرف سبتيموس — سيفيروس . ويقدم المسيو دى شاتوبريان Chateaubriand الذى زار المدينة فى أكتوبر وديسمبر ١٨٠٦ هذا النص اليونانى الذى نترجمه كما يلى : إلى امبراطور الاسكندرية البالغ الحكمة ، دقلديانوس أوغسطوس ، حاكم مصر ؛ لكن هذا النص لا يهدم فى رأيى الشهادات التى تنسب إقامته إلى سبتيموس — سيفيروس . أنظر :
L'Itinéraire de Jerusalem à Paris, Par M. de Chateaubriand t. III Pag. 100 etc.

ويمكن أن نرى الوصف الخاص الذى قدمه عن هذا العامود المسيو نورى Norry ، المهندس المعمارى ، وعضو مجمع العلوم والفنون فى مصر ، فى مجلدات العصور القديمة ، وصف مصر ، فصل ٢٦

ويقول المستر ولسون ، فى الجزء الثانى من مؤلفه ، ص ١٤٩ « من بين الآثار القديمة التى عثر عليها الانجليز يلفت الأنظار حجر على شكل مائدة كبيرة عليها نقوش هذه ترجمتها : إلى كل من يهمه الأمر ، أقيم هـذا العامود على شرف سبتيموس سيفيروس على يد جنود الفيلق الحادى عشر . وهذه المائدة طرف الجنرال كوت Coat » .

أواصل الحديث عن هذا الأثر ، الذى يمكن أن نشاهد قامته وتفاصيله فى ٨ من المجلد الخامس ، اللوحة ٣٤ .

٣٦ — ولكى نتابع بانتظام ، الأبحاث الأخيرة التى كان علينا القيام بها ، شأننا فى ذلك شأن المسافر الذى يعد خطواته حتى لا يعود أدراجه من جديد ، فإن علينا أن نعود إلى الميناء الجديد ، وأن نعبر ، من الشرق إلى الغرب ، الخرائب الأخرى التى توجد خارج هذه المدينة .

عندما نخرج من السور العربى ، عن طريق برج الرومان المؤدى إلى الميناء الجديد ، نجد فى كل خطوة ـ إذا ماسرنا بحذاء الشاطىء ـ بقايا وآثار من مبان قديمة ، مثل الحمامات ، والبواكى التى نتعرف على كتل بنائها من الطوب الأحمر والأسمنت وكتل من الأحجار الضخمة ، وأجزاء من أرصفة كانت جزءاً من ميناء ، وخرائب أخرى . ويمكن القول بأن هذا الجزء الشرقى للميناء الجديد ، هو الآن مهجور تماماً ، بدءاً من برج الرومان حتى رأس المنارة Pharillon ، وملىء بأنقاض المبانى القديمة ، التى قلبتها يد البشر رأساً على عقب ، أكثر مما فعلت أمواج البحر التى كانت تضرب سفحها بلا انقطاع .

٣٧ - والـ Pharillon (المنارة) هو هذا الحصن الصغير الذى سبق أن تحدثنا عنه ، والذى يتخذ اسمه من موقعه تجاه حصن الفنار ، وهو مقام على حافة شريط من الشعب الصخرية التى تقفل مدخل الميناء الجديد الذى يقوم الفنار بالدفاع عنه . أما الجسر الذى يؤدى إلى هذا الحصن الصغير ، فهو بنفس مستوى مياه البحر التى تغطيه فى أيام الطقس المعتم (الشتوى) . وهذا الحصن الصغير ، ليس اليوم سوى برج مربع الشكل تحول إلى خراب . وقد شاهدت هناك بعض قطع ضخمة من موقع حديدى ، حولته الأكسدة التى تسببها الرطوبة المالحة ، الناتجة من مياه البحر ، إلى مثل هذه الحالة من التفتت ، حتى أن الحديد يتساقط إذا لامسته النصال أو أية قطع معدنية .

٣٨ — ووسط الخرائب الموجودة على الشاطىء إلى الشرق ، لا نجد سوى خرائب فناء واسع تغلقه جدران يبلغ ارتفاعها ٧ — ٨ أمتار ، وواجهات هذا السور ذى الجوانب الأربع ، والمفتوحة من بعض الجهات والتى تعلوها بعض الأبراج الصغيرة ، يمكن أن يبلغ طولها من ١٢٠ إلى ١٤٠ متر ؛ وجدران هذه الخرائب الضخمة التى تسمى بلغة البلاد : قصر القياصرة ، ذات سمك كبير ، ويشكل بناؤها ، وهو من الحجارة التى تميل إلى اللون الأبيض ، ومن النوع الجيرى ، وكذلك من الطوب الأحمر ذى الأحجام الكبيرة ، الطبقة المميزة من الطبقات الأفقية والمنفصلة لارتفاعات مختلفة ، على طريقة المصانع والمحلات الرومانية . وفوق المرتفعات التى تحيط بخرائب هذا القصر ، الذى يبعد بمسافة ٤٣٥٠ متراً إلى الشمال الشرقى من بوابة رشيد ، دارت معركة ٣٠ فنتوز من العـــام التاسع (٢١ مارس ١٨٠١) بين الجيش الفرنسى من جهة ، والجيش الإنجليزى التركى من جهة أخرى .

٣٩ — ولا يعود الإنسان يقابل على شبه الجزيرة الطويلة والضيقة والتى تمتد إلى الشمال الشرقى حتى أبى قير ، إلا بعض الخزانات والبيوت المتفرقة وسط أشجار مزروعة أو غابات أشجار النخيل ، تحيط بها رمال الصحراء ومياه البحر إلى الشمال ومياه بحيرة المعدية إلى الجنوب من كل اتجاه .

٤٠ — أما أبو قير ، الذى يعيد إلى الأذهان على الدوام أعظم ذكرياتنا من انتكاسات وانتصارات الجيش الفرنسى فى مصر ، فهو رأس متقدم فى البحر ، يشغل قمته أحد الحصون ، وتبلغ المسافة بينه وبين حصن الفنار فى خط مستقيم ، ٢٢٫٢١٠ متراً كما تبلغ ٢٠٫٧٠٠م إلى الشمال الشرقى من ميناء رشيد . وقد دمرت القرية التى كانت تقوم تحت جدران هذا الحصن عن آخرها أثناء معركة أبى قير وحصار هذا الحصن نفسه ، من ٧ إلى ١٥ ترميدور من العام السابع (٢٥ يولية إلى ٢ أغسطس ١٧٩٩)[1] .

---

(١) أنظر شكل هذا الحصين ، الدولة الحديثة ، مجلد ١ ، اللوحة ٨٣

٤١ — وقبل الوصول إلى أبي قير ، نجد على الشاطىء وعلى مسافة حوالى ٢٠٠٠م إلى الجنوب الغربي لهذا الحصن ، مرتفعات تكونت من الأنقاض التي تعود إلى كانوب القديمة (أبي قير حالياً) ، ومن بين قطع الجرانيت والرخام المبعثرة على الشواطىء ، نميز جذع الأعمدة ورؤوس بعض الأعمدة ، وكرياتيد(*) ، وأباهول ، وتماثيل أخرى مشوهة أو محطمة ؛ وعند هبوطنا إلى الساحل ، نجتاز بعض منشئات تحت أرضية ترتفع مستوى أرضها بـ ٥ إلى ٦ أمتار فوق مستوى سطح الأرض ؛ ونرى هناك بقايا حمام محفور في الحجر الجيري الذي يقفل ويحد ساحل الاسكندرية حتى أبي قير ، حيث يتوقف فجأة كي لا يظهر بعد ذلك إلا على شاطىء سوريا في الشرق . وينتهي هـــذا الحمام الذي يضم حجرات متنوعة موزعة بشكل منتظم ، وإلى الشمال ، بردهة نصف دائرية ، تصل منها مياه البحر عن طريق أربع فتحات تتصل بدهاليز يدور بشكل مركزي على هيئة نصف دائرة ، وتخترق بواكي هذا الدهليز نفسه ، إلى الخارج ، أربع فتحات أخرى تصب في البحر ، متخذة اتجاها معاكساً للاتجاه الذي تتخذه الفتحات الأربع الداخلية ، وكل حجرات هذا الحمام ، وكذلك هذه الدهاليز الدائرية منحوتة في الصخور ، والفكرة من وراء هذا التصميم ، وهي واضحة تماماً ، تهدف كما يمكن لنا أن نستنتج إلى تكسير وإضعاف ضربات أمواج البحر حتى لا تدخل إلى الحمام إلا مياه هادئة وشفافة ؛ وقد تحممت عدة مرات في هذه الحمامات ، أما حجراته التي يبلغ عددها سبع حجرات أو ثمانية ، فهي تغص بالرمال عن آخرها ، فيما عدا أكبر هذه الحجرات التي لا تزال تحتفظ بـ ٣ إلى ٤ أقدام من المياه ، عند مصبات الفتحات الداخلية الأربع للدهاليز الدائرى ، ونصل إلى هذا الحمام عن طريق طرقات وحجرات سفلية ، وقد استوجب الأمر أن يكون حماما مغطى ، ولابد أنه كان تابعاً لأحد القصور أو لمنشأة عامة على درجة كبيرة من الأهمية ، ونجد آثاراً مشابهة على كل ساحل المقابر

(*) تمثال لامرأة يقوم مقام الأعمدة . (المترجم)

فى جنوب غرب الاسكندرية ، وقد كانت الحمامات بلا جدال ذات نفع عظيم كما كانت تشكل متعة كبيرة فى هذه المناطق الساحلية ، ويمكن لنا أن نعتقد أنها كانت تساهم فى مباهج تلك الأعيـــاد الخليعة التى كان يتوجه إليها شباب الاسكندرية فى شكل جماهير ،والتى كانت تقوم فى مدينتى كانوب وتابوزيريس ، ولـكن ، فانعد الآن إلى قصر القياصرة ، الذى لم نبتعد عنه إلا لإلقاء الضوء فى كلمات سريعة على الأرض التى تحد من جهة الشرق مدينة الاسكندرية .

٤٢ — إذا ما توجه المرء من قصر القياصرة نحو الجنوب وخارج سور المدينة فإنه سيقابل سهلا منخفضا ومالحاً ، حيث يغوص سطحه الرطيب محدثاً شيئاً من الطقطقة تحت أقدام المسافر ، كما لو كان يطأ ثلجاً متجمداً ؛ ثم وبعد أن يترك عن يمينه المرتفعات التى ليست — كما سبق أن قلنا — سوى أكوام من الأنقاض ، فإنه يصل إلى القنطرة القصوى من جهة الشرق ، المقامة فوق الخليج أو ترعة الاسكندرية ، التى نجد على شواطئها عدداً هائلا من الآبار وخزانات المياه . ولـكى نتعرف جيداً على شكل هذه القنطرة ، وهى شبيهة بشكل القناطر الثلاث الأخرى التى لاتزال باقية حتى اليوم داخل سور المدينة باتجاه الغرب ، فإن علينا أن نعود إلى الرسوم التى قدمها لنـا المسيو بلزاك[1] ، ووجود هذه القناطر الأربع ، وهى الوحيدة التى بنيت فى ضواحى الاسكندرية ، على كل مجرى الترعة التى يبلغ طولها حتى الرحمانية ٩٣٫٥٣٠ متراً ، يبرهن إلى أى حد كانت هذه المنطقة ولا بد مزروعة وآهلة فى عهد الرومان ، وخلفائهم العرب ، وكان بمقدور المرء حتى بضع سنوات خلت ، أن يرى بعض غابات النخيل على شواطىء هذه الترعة ، وكذلك فى شبه الجزيرة التى تمتد حتى أبى قير ، لـكن هذه الأشجار ، التى يجد الناس فى السعى إلى ظلالها الضئيلة ، والتى تعد ثمارها واحدة من أكبر

---

(١) انظر الأطلس ، الدولة الحديثة ، المجلد الثانى ، اللوحة ٩٩

مصادر الدخل فى مصر ، قد اختفت مع مجىء الجيوش المتعادية التى دمرت ، الجيش تلو الجيش ، ضواحى هذه المدينة فيما بين عامى ١٧٩٨ و ١٨٠١ .

٤٣ — بالقرب ، وإلى الجنوب من عامود سبتيموس سيفيروس ، وهى تسميته أصبح من المناسب منذ الآن أن نطلقها على هذا المبنى ، يوجد مكان فسيح ، لا يسمح شكله المستطيل الذى ظل يحتفظ به ، وكذلك نتوء شوكته المقتطعة والمنحوتة فى صخرة صلبة ، لا يسمح بأن يتسرب أى شك بأن هذا ليس سوى بقايا مضمار (لسباق الخيل) قديم يبلغ طوله ٥٥٤٫١٧ م وعرضه ٥١٫٦١ م ، أما طوله من الخارج من فوق المحور الكبير ، فيبلغ ٦١٤٫٦٠م ، وهو ما يدل على أن عرض المدرج المخصص للمتفرجين على الألعاب يبلغ ٣٠ متراً .

وتبعاً لهذه المقاييس ، فإننا نستنتج أن العربات التى كان يراهن عليها فى ألعاب السيرك كان عليها أن تعبر ٦½ غلوة يونانية أو أولمبية[1] وعند الطرف الغربى من الشوكة ، نرى ثقبا عميقا ، حيث كانت تنتهى — على الأرجح — ترعة تتصل ببحيرة مريوط ، كانت تستخدم ، إذا صح هذا الاحتمال ، فى إدخال المياه إلى حلبة السيرك .

٤٤ — وبعد أن تعبر الترعة عند مرفقها الموجود فى أقصى الغرب ، فإنك تقابل مرتفعاً مكوناً من صخرة حجرية صلبة ، تجد فيها مغارات مقتطعة على شكل دهاليز أو كهوف تحت أرضية ، وتعرف هذه الكهوف المخصصة للدفن باسم : المقابر .

ويلاحظ عند الحواجز الرأسية لهذه الدهاليز وحجراتها ثلاثة أو أربعة

(١) انظر رسم السيرك للمسيو بلزاك فى A من المجلد الخامس ، اللوحة ٣٩

صفوف من المقابر المحفورة فى الصخور فوق بعضها البعض ، والتى لا يظهر منها بسبب هذه الطريقة فى الحفر إلا الجزء الذى تنتهى إليه أقدام الجثث التى تدفن فيها ، ويختلف هذا الوضع ـ البالغ الفائدة من كافة النواحى ـ عن الوضع الذى نلاحظه فى مقابر مالطة وروما ، التى زرتها ، الأولى فى يونيه ١٧٩٨ والأخيرة فى مارس ١٨١٠ ، والتى تحفر كلها على شكل اخصاص أو حجرات رمسية (مقابر) بالاتجاه الطولى الدهاليز ، ويشعر المرء على الفور أن مثل هذا الوضع الذى يتطلب فراغا كبيراً لابد وأن يضم عدداً أقل من الأجساد عما لو كان قد حفر على غرار مقابر الاسكندرية ، ومن جهة أخرى فإن التشابه القائم بين مقابر الاسكندرية هذه وبين مقابر روما ومالطة ينبغى أن يدفعنا للاعتقاد بأن مقابر الاسكندرية كانت تستخدم مقابر للمسيحيين الأوائل ، أثناء اضطهادات الكنيسة ، فى عهد أباطرة الشرق .

٤٤ — ويتردد أهالى الإسكندرية والعرب البدو على المسجد الذى يقع إلى الغرب قريبا من هذه المقابر ، وهم يذهبون إلى هناك لأداء الصلوات وتقديم الصدقات فى فترات معينة من السنة .

٤٦ — يشكل الشاطىء الذى ينحدر إلى الجنوب محيطا بخليج الميناء القديم ، صخرة جيرية تلطمها المياه وتفت فيها منذ قرون ، ويتراوح ارتفاعها من ٥ إلى ١٠ أقدام فوق مستوى سطح البحر ، وقد اكتشفنا على هذا الشاطىء أعداداً لا حصر لها من الكهوف تحت الأرضية ، كانت ملحقة دون شك بمدينة المقابر للإسكندرية القديمة ، وجزء من هذه الكهوف مكشوف ، وبعض منها تسده الرمال ، ونتيجة لذلك فقد أعطيت لكل هذا الجزء من الساحل اسم شاطىء المقابر .

وكل هذه المقابر تؤدى إلى البحر ، ولها حمامات يتفاوت حجم اتساعها ، أما أكثرها لفتاً للأنظار ، فهى تلك المقبرة التى تقع على بعد ٣٥١٠ مترا إلى

الجنوب الغربى من عامود سبتيموس سيفيروس ، وكان العامة يطلقون عليها ، وقد جانبهم الصواب فى ذلك — اسم حمامات كليوباترة ؛ وقد أشرنا إليه على خريطتنا تحت اسم : معبد تحت أرضى ، ولا يمكن للمرء ، إلا بمشقة بالغة ، وبالاستعانة بمشاعل ، أن يدخل هذا المعبد نصف المطموس بفعل رمال الصحراء وأنقاض المبانى التى تحيط به ، وهو فسيح ، ومنتظم ، وعمارته بسيطة ، تتناسب مع الغرض من إقامته[١] .

وتدل أكوام العظام ، وهى التى لا يمكن أن تكون إلا عظام خراف وجمال وخيل وماشية أخرى ، على أن مساكن الموت هذه كانت تستخدم كمأوى لحيوانات متوحشة أو لكواسر جارحة كانت تجر الى هذه الكهوف جثث فرائسها ، وينبغى على المرء أن يدلف الى هذه المساكن السفلية بحذر شديد ، مخافة أن تفاجئه بعض هذه الحيوانات المتوحشة التى لا تخرج منها الا للبحث فى عتمة الليالى عن غذائها والذى تجده فى معظم الأحيان فى مقابر المدينة .

وكثيراً ما يقابل المرء فى هذه المنطقة وفى ضواحيها ، كمية كبيرة من فتات وقطع الرخام من كل صنف ، مما يشهد بأن هذه الأماكن كانت تضم مبانى جنائزية على درجة من الأهمية ، ولا ينبغى أن نولى بالا لما يحكيه العربان ، الذين يدعون بأن هذه المقابر تمر من تحت حوض مريوط وأن دهاليزها السفلية تمتد حتى دهاليز الأهرام ، فهذه خرافة بينة ، ومع ذلك فهذه الدهاليز تمتد بالفعل لمسافة كبيرة ، ولابد أنها تشكل ما يشبه اللابرنت (التيه) .

٤٧ — وعندما يواصل المرء مسيرته نحو الجنوب الغربى ، فإنه يجد فيما

---

(١) انظر تصميم هذا المعبد تحت الأرضى الذى رسمه بعناية السيدان فاى Faye ومارتان Martin ، مهندسا الطرق والكبارى ، A ، المجلد الخامس ، اللوحة ٤٢

وراء هذه المقبرة الأخيرة بقايا قناة لابد أنها كانت تربط الترعـــة ببحيرة ماريوتيس ، وتقع هذه القناة على بعد ٥٨٥٠ متراً من عامود سبتيموس سيفيروس ، ويبلغ طول شواطئها من البحر حتى البحيرة ١٤١٦ قدما ، وهذه القناة مطموسة ، ولا يزيد ارتفاعها الآن فوق مستوى سطح البحر بأكثر من متر ، ويكفى لإعادتها الى العمل، القيام ببعض الأعمال البسيطة والميسورة للغاية ؛ وسوف يعود ذلك بأجل الفوائد الى تجارة الاسكندرية وملاحتها .

٤٨ — ولا يشكل الجزء الباقى من الشاطىء حتى الشيخ الا صحراء ، ثم تبدأ السلسلة الصخرية ، التى تحيط به الى وراء آثار القناة التى تحدثنا عنها للتو، تسمح لنا بأن نلقى نظرة غير متمكنة على المحاجر العديدة التى استغلت فى الماضى ، والتى استخدمت حجارتها دون شك فى بناء مدينة الاسكندرية .

ويزرع حول لسان المياه المالحة الذى نجده قبل أن نصل الى الشيخ (العجمى) البطيخ والشمام من نوع رائع ، وتدعم هذه الزراعة الرأى القائل بأن مياه هذا اللسان تأتى فى جزء كبير منها عن طريق المطر ، وتستخدم هذه المياه فى رى هذه الحقول ذات الطبيعة الرملية .

٤٩ — أما الشيخ أو الضريح (العجمى) فهو حصن صغير أقيم على قمة السلاسل الصخرية التى هى فى مستوى سطح مياه لسان إلى الجنوب الغربى من خليج الاسكندرية ، ولا يحمى هذا الحصن ، الذى تبلغ المسافة بينه وبين حصن الفنار حوالى ١١٧٢٨ متراً ، الا على نحو ضعيف منفذ مضيق الخليج ؛ وبالقرب من هذا اللسان قام الجيش الفرنسى بعملية انزال جنوده فى ١٣ ميسيدور من العام السادس (أول يولية ١٧٩٨) .

٥٠ — ويجد القارىء فى دراستى عن الجزء الغربى من ولاية البحيرة وعن بحيرة مريوط(*) ، وصف الجزء الباقى من الساحل والذى يمتد حتى برج العرب

(*) أنظر الدراسة الثانية من المجلد الثانى من الترجمة العربية لوصف مصر .

إلى الجنوب الغربي وتنتهي معه أرض الاسكندرية ، ويبقى على الآن أن أتكلم عن الطبيعة الجدباء لهذه المدينة .

٥١ — لا تتكون أرض الاسكندرية ، وكذا كل أرض شبه جزيرة رأس أبي قير في الشرق ، وحتى بُرج العرب في الجنوب الغربي بطول يبلغ ٦ — ٧ ميريامتر ، إلا من صخرة جيرية ضاربة إلى البياض ؛ وتغطيها في جزء منها كثبان رملية متحركة .

وعلى الرغم من أن هذه الأرض ذات طبيعة رملية ، قاحلة وملحية ، فإننا نجد فيها في نفس الوقت بعض المياه المالحة والتي تتفاوت درجة صلاحيتها للشرب ؛ ويتحقق ذلك بالنسبة لشاطىء شبه الجزيرة إلى الشمال الشرقي وإلى الجنوب الغربي ، بمجرد أن نحفر عدة أقدام في رمال هذه الصحراوات ، وقد اضطر الجيش الإنجليزي التركي لاستخدام هذه المياه أثناء الشهور الستة التي حاصر خلالها الاسكندرية .

ومن بين النباتات البريه التي تتكاثر بشكل طبيعي على أرض الصحراء المجاورة نجد الـ nitraire والـ ficoides وأنواع مختلفة أخرى من الصودا (الاثنان) التي يجمع رمادها القلوى لينقل تجارياً إلى أوربا ، حيث يستخدم في صناعة الصابون[١] .

٥٢ — قبل أن تغرق مياه البحر بحيرة مريوط ، كنا نرى على شواطئه

---

(١) نجد في روايات سونيني Sonnini وأوليفييه Olivier اللذين سبقت رحلتهما الى مصر الحملة الفرنسية بعدة سنوات ، تفاصيل هامة فيما يختص بتاريخ الاسكندرية ، وتجارتها ، وطبيعة الصحراوات التي تحيط بها . انظر :

Le Voyage en Egypte dans l'année 1778 par Sonninī, tcme ler, Chap. VII, VIII, IV et X, pag. 100 à 106 ; Le Voyage dans l'Empire Ottoman, l'Egypte et la perse, en 1792, par Olivier, tom. III, pag. 1 à 78.

هذه البحيرة التي يمتلىء حوضها بمياه المطر ، وبالمياه التي يصبها النهر أثناء فيضانه في الترع التي تتفرع عنه ، كنا نرى كما نرى الآن على شواطىء بحيرات أخرى في مصر السفلى أعداداً هائلة من الطيور من كل صنف مثل أبي قردان الأبيض ، وطائر أبي منجل ، والنحام (طائر طويل الساق والعنق) والبط البرى ، والبط المائى ، وزمج الماء (طائر بحرى طويل الريش) ، والبجع ، وأنواع أخرى ؛ وفي تلك الأيام كان العربان يجلبون إلى الاسكندرية البط ، والبط المائى ، الذى يصيدونه بواسطة الشباك ، وهناك نوع آخر من الطيور التي تستهلك منها كمية كبيرة في هذه المدينة ، والتي لا يتطلب صيدها أدنى مشقة ، تلك هي طيور السمان ، وعصفور التين ، والقبرة ، وطيور أخرى مهاجرة ، تسقط بفعل الإعياء ، بعد الرحلة الطويلة التي قطعتها فوق البحار والتي تقوم بها كل عام في شهر أكتوبر ، تسقط منهكة على أول شريط من أرض مصر ، لتقع فريسة في يد الإنسان . وقد حدث أثناء عودتنا إلى فرنسا ، في ٢٧ إلى ٢٩ سبتمبر ١٨٠١ وفي أثناء توجهنا من سواحل مصر أن كان بإمكاننا أن نلاحظ الهجرات الموسمية للطيور المسافرة ، وكانت هـــذه تسقط جماعات مصطدمة بصوارى وأحبال شفينتنا ، في حين لم تكن هذه الطيور قد عبرت بعد نصف المتوسط ، وكان بعضها يستريح للحظات على سطح المـاء ، محاذراً ألا يدع نفسه يغوص بجناحيه أكثر مما ينبغى ، وقد شاهدنا بعضاً منها لا تستطيع النهوض برغم المجهود الكبير الذى تبذله لتعاود تحليقها في الأجواء ، ذلك أنها كانت قد بللت أجنحتها أكثر مما يلزم .

٥٣ — وأخيراً ؛ فمن بين الحيوانات ذوات الأربع ، التي تقترب من ضواحى الاسكندرية ، والتي تجتاز أسوارها في غالب الأحيان ، نذكر ابن آوى ، والضبع ، وتتخذ هذه الحيوانات الضارية عادة مآويها في قاع الكهوف والمغارات تحت الأرضية ، ولا تخرج منها إلا ليـلا ، كي تذهب لتبحث عن فرائسها في المقابر وأماكن رمى القاذورات ، وتجرها من مسافات

كبيرة حتى مخابئها . ويمكننا أن نعد أيضاً من بين هذه الحيوانات النهمة ، الكلب المصرى ، على الرغم من أنه يقطن نهاراً فى سلام فى القرى ، وضواحى المدن الآهلة بالسكان ، فإنه يحيا طليقاً لا صاحب له ، فى قطعان أو عائلات متفرقة[١] تنتشر فى الليل وسط المساكن ، كى تبحث عن غذائها .

وكان كل الجزء الأول من الخليج ، فيما بين القناطر الأربعة ، بطول ٦٠٠٠ إلى ٧٠٠٠م ، يزرع على يد العربان ، بواسطة المياه التى يحصلون عليها من الآبار وخزانات المياه العديدة التى تحيط بجسور هذه الترعة . وهكذا كنا نرى هناك بعض حقول البرسيم ، والحلبة ، والشعير ، والقمح ؛ كما كانوا يزرعون أيضاً بعض الخضروات ، مثل البقول التى نجدها أكثر كثافة فى بساتين المدينة العربية ، وعلى سبيل المثال :

الفوم ، والفول ، والباذنجان ، والخس ، والبصل ، وغيرها .

---

(١) ليست الكلاب فى مصر ، على عكس حال مثيلاتها فى البلاد الأخرى ، أى أنها ليست حيوانات مستأنسة ؛ ويلاحظ أنها تعيش هناك وسط المدن والقرى ، حرة طليقة بلا صاحب ، ولكن فى شكل أسر متميزة ، تعيش فى غالب الأحيان فى هذا الحى أو ذاك حسب اختيارها ، تطارد وتسيء معاملة الكلاب الأخرى التى تريد اقتحام حيها ، ومن المعروف أنه توجد فى مصر منشئات خيرية لتأمين غذاء الكلاب والطيور . وهذه الأخيرة من النوع آكل الحبوب ، وكانت تجد الحب يومياً فى أصص على شكل مناضيد صغيرة ، كانت توضع فى قمة أسهم مآذن المساجد ، وتعود هذه العادة إلى بقية من الاحترام المقدس الذى كان قدماء المصريين يحملونه للحيوانات . وأذكر هنا ، أننا فى الأيام الأولى من إقامتنا فى مصر ، كنا مضطرين أن نرسل ليلا ، إلى الاسكندرية ، والقاهرة ، ورشيد ، ودمياط ، وكذلك إلى مدن أخرى ، سرايا عديدة — كنا نفعل ذلك كما لو كان إجراءاً حربياً وقائياً — لمفاجأة وقتل هذه العصابات من الكلاب الجائعة والمتشردة ، والتى كان نباحها الحزين والمرعب حقاً يبدو كما لو كان يستثير الناس ويحفزهم ليلا للقتال ، ولم يكن يخطر على بالنا فى الواقع أن السكان كانوا سيسمحون مطلقاً ، قبل مجيئنا ، بترك هذا النوع من الحيوانات غير المرغوب فيها ليتضاعف عددها ، أو أن هذه الحيوانات كانت معتادة على تعكير هدوء الليالى هكذا بنباحها ، الذى لا يمكن — فى رأينا — أن يسببه إلا فزع ، كان مجهولا قبل مجيئنا .

٥٤ — تلك كانت لوحة للحالة التى بدت عليها الاسكندرية للجيش الفرنسى ، قرب نهاية القرن الثامن عشر ، وبعد ما يزيد على ألفى عام من تأسيسها .

وهنا ، أصل إلى ختام وصفى للحالة الحديثة لهذه المدينة ، ثم أمضى بعد ذلك إلى القسم الثانى من هذه الدراسة ؛ تلك التى تهدف إلى معرفة حالتها القديمة ، أيام مجدها وازدهارها تحت حكم الإغريق والرومان .

القسم الثانى

الحالة القديمة لمدينة الاسكندرية فى عهد امبراطورية الإغريق والرومان ، مع مقارنة هذه الحالة بحالتها الراهنة

٥٥ — بنيت المدينة التى أسسها فى مصر ، فاتح آسيا وأسماها باسمه ، مكان قرية كانت موجودة قبل ذلك بوقت طويل ، وكانت تقع على شواطىء البحر المتوسط تجاه وبالقرب من جزيرة فاروس ، وكان بهذه القرية التى تسمى راكوتيس[1] معبد صغير لعبادة إيزيس وسيرابيس Serapis ، وكان يقطنها الصيادون والرعاة الذين كانوا يشغلون هذه النقطة من لسان ضيق ، تحيط به مياه المتوسط أو بحر الإغريق من الشمال ، ومياه بحيرة ماريا Maréa من الجنوب ، وقد قام الفرس ، ومن قبلهم فراعنة مصر ، بتحصين هذه القرية ، وكذلك جزيرة فاروس ، حتى يكونوا من مأمن من إغارات الإغريق ، وهكذا كان سكان هذه الضاحية والذين يطلق عليهم اسم أبناء راكوتيس ، فى حالة تمكنهم من صد اعتداءات هؤلاء القراصنة ، الذين كانوا يروعون سواحلهم . يقول سترابون فى هـــذا الخصوص : « وحيث كان ملوك مصر الأوائل يشعرون بالكفاية بما لديهم ، فإنهم لم يستشعروا كبير حاجة إلى استيراد أشياء من الخارج ؛ ومن جهة أخرى فقد أقام هؤلاء الملوك ، حتى يرصدوا

(١) راكوتيس حسبما يذكر سترابون ، الكتاب السابع عشر ، وراخوتى حسب الكتابة القبطية .

حركات البحارة (المغيرين) وبخاصة الإغريق منهم ، أولئك الذين تدفعهم قحولة أراضيهم إلى الذهاب إلى مكان آخر للحصول على ، أو لسلب ما لا يجدونه عندهم ، حامية مهمتها الدفاع عن سواحل هذه المدينة ضد الأجانب ، ومع ذلك فلم تكن راكوتيس بالضرورة كبيرة فى الوقت الذى ظهر فيه الاسكندر ، إذ أن هيرودت ، الذى زار مصر عام ٤٦٠ ق.م قبل ذلك بقرن لم يشر إلى هذه القرية فى كتابه ، فى الوقت الذى يذكر فيه مدن كانوب إلى الشمال الشرقى ، وماريا وأبيس إلى الجنوب باعتبارها مدناً كبيرة .

ويرجع المؤلفون العرب تأسيس هذه القرية إلى عصر مصرايم ابن حفيد نوح ، ويرجعه آخرون إلى أمير اسمه شداد Chedad ، وهو سابق على مجىء الفاتح المقدونى بزمن طويل ؛ وحيث كانت هذه المدينة مزودة بثلاثة أسوار حصينة ، فلابد أنها قد دمرت ، وأعيـــد بناؤها فى فترات مختلفة ، على يد الآراميين ، وأن شداد هذا لم يفعل سوى أن رممها ، ثم على يد الفرس بقيادة بختنصر ، وهو نفسه ملك الآشوريين الذى خرب ممفيس ، والذ يسميه سفر الكتابة نابوخوذنصر ؛ ويقول المقريزى[1] : إنه فى عام ٢٣٥٦ بعد الطوفان ، العام ١٦٨٤ قبل تحطيم معبد أورشليم ، فى السنة ١١ شمسية بعد هذا الحادث ، أنشأ الاسكندر بن فيليب ، وهو نفسه الذى هزم داريوس وسيطر على فارس ، هذه المدينة (الاسكندرية) ومنحها اسمه ، ونقل إليها مقر امبراطوريته الذى كان قبل ذلك فى ممفيس ، ويتفق كل المؤرخين لحد كبير على هذا الحادث ؛ فمن المعروف أن مصر كانت تئن منذ مائتى عام ، تحت سيطرة الفرس ، عندما تقدم الاسكندر ، بعد أن دمر صوره الرائعة ، نحو مصر التى استقبلته كمنقذ محرر ، وفتحت بيلوز (تل الفرما كما يسميها العرب ، وبالوظة الآن) مفتاح مصر ،

---

(١) يذكر المستشرق لانجليه Langlès ، الذى ترجم المقريزى ، ذلك المؤلف العربى الشهير بجغرافيته التاريخية عن مصر ، فى طبعة باريس ١٨٠١ عن رحلات نوردان Norden ، المجلد الثالث ، ص ١٥٧ ، تفاصيل هامة ، رجعنا إليها ، وسنقابلنا مقتطفات منها فى هذه الدراسة .

ومنفيس التى كانت عاصمة لها ، أبوابهما للفاتح ، وبعد أن قدم القرابين إلى العجل أبيس فى مدينة منفيس ، ركب الاسكندر النهر حتى كانوب (أبى قير) ، والتف حول ماريوتيس (مريوط) إلى الشمال ، وتوقف عند راكوتيس التى أعجبه موقفها ، ولكى يفيد من المميزات الطبيعة التى يقدمها هذا الموقع ، فقد قرر أن يؤسس هنا مدينة ، وعهد بتنفيذ هذا المشروع إلى دينوكراتوس Dinocrate ، المعمارى المقدونى الشهير ، فى نفس عام انتصاره دون شك ، أى فى السنة ٤٢٢ من تأسيس روما ، السنة ٣٢٢ ق . م ، وقد حدث بعد هذه الإجراءات ، حسبما يذكر أريان Arrien[1] أن رحل الاسكندر ، وهو الذى كان يرغب فى إعلان نفسه ابنا لجوبيتر ، إلى معبد آمون ليستشير وحيه .

وتبعاً لهذه الشهادات ، فإنه لا ينبغى أن ينظر لفاتح آسيا باعتباره مؤسس الاسكندرية ، وإنما باعتباره فقط قد قام بتوسيعها وتحصينها وتجميلها ليتخذ منها مقراً لامبراطوريته الجديدة ، وحسبما يذكر ديودور وكينت كورس[2]

---

(١) أريان ، الكتاب الثالث ، الفصل الثانى . انظر بخصوص أريان ، الترجمة الجديدة لمؤرخ الاسكندر هذا ، والتى قام بها شوسار Chaussard ، المجلد الأول ، ص ٢٣٧

(٢) ديودور ، الكتاب ١٧ ، ص ٥٨٩ ؛ وكينت كورس ، الكتاب الرابع ، الفصل السابع ، ولا تزال هذه العادة متبعة حتى اليوم فى مصر ؛ فلرى أساسات بيت أو منشأة ، يقوم المعلم ، أى البناء ، حيث لا يعرف هناك لا مهندس معمارى ولا حتى مهندس عام كما هو الحال فى أوربا ، بتخطيط التصميم على الأرض بواسطة الجص أو بودرة الجير ، وعندما تحدد الأسوار بهذه الطريقة ، وبدون تصميات وبدون رسوم أو مقايسات تقديرية ، تقام الجدران الرئيسية ، وبعد ذلك يطلب المالك فى معظم الأحيان من المعلم هذا المكان أو ذاك ، وهذه الحجرة أو تلك حسبما يتراءى له ، وعلى الطبيعة ، وينبغى أن ننسب إلى هذه العادة السيئة عدم التناسق فى المبانى ، وكذلك الأخطاء التى نلاحظها فى مساكن العامة وكذلك قصور الكبار . وفى الواقع فشكل المبانى مقسمة إلى حجرتين أو حجرات ثلاث كبيرة ، تحيط بها على الدوام حجرات صغيرة أرضيتها ليست على مستوى واحد . أما السلالم التى يبلغ ارتفاع درجاتها من ٢٠ إلى ٢٥ سم ، فهى على الدوام ضيقة ومعتمة وغير مريحة .

Quinte· Curce فإن السور الذى خطط لها ، والذى رسم فى جزء منه بالجير وفى جزء آخر بالدقيق ، كان يضم كل المساحة الواقعة بين البحر وبحـــيرة ماريوتيس ، وكان طول الجهتين اللتين تمتدان بطول البحر والبحيرة يبلغ ٣٠ غلوة ، أما الجهتان الصغيرتان الأخريان اللتان تعبران اللسان بعرضه فـكان طولها يبلغ من ٧ إلى ٨ غلوات حسبما يذكر سترابون و ١٠ حسبما يذكر آخرون ، أما السور الذى يشبه سترابون شكله بشكل معطف مقدونى[١] فقد كان طول محيطه يبلغ ١٥٫٠٠٠ خطوة ، أى ما يساوى حسبما يذكر دانفل d'Anville ١٢٠ غلوة ، وان كان كيدث كورس لا يقدره بأكثر من ٨٠ غلوة وفى النهاية فإن المؤرخ يوسفوس Josephe (فلافيوس جوزيفوس) يقدر طول المدينة بـ ٣٠ غلوة وعرضها بـ ١٠ غلوات[٢] ونحن فى هذا كله نميل إلى ترجيح معلومات سترابون ، حيث أن هذا المؤلف ، فضلا عما يشتهر به من صدق ، قد خصص دراسة مفصلة لوصف مدينة الاسكندرية فى كتابه الجغرافى الذى تناول فيه مصر[٣] .

٥٦ — يقول سترابون إن الاسكندرية كانت تغرقها من الشمال مياه البحر ، ومياه البحيرة من الجنوب ، ولم يكن من المستطاع الوصول إليها برآ إلا عن طريق لسانين ضيقين يسهل الدفاع عنهما ؛ وكانت تغطيها جزيرة فاروس التى كانت تشكل بالنسبة لها ميناءا طبيعياً فى منأى عن رياح الشمال والشمال

(١) Pline, Hist. nat liv. V, chap. X, et Plutarque, vie d'Alexandre.

(٢) Josephe, De bello Jud. liv, II. ch. XVI.

(٣) سنكف منذ الآن عن الإشارة إلى الكتاب السابع لسترابون الذى صحب الیوس جالوس Elius Jalus فى حملته على مصر ، والذى نقل إلنا فى هذا الكتاب ، الذى خصصه لتاريخ هذه المنطقة ، تفاصيل خاصة عن مدينة الاسكندرية ونحن فى الواقع ، مدينون لهذا العالم الجغرافى ، بالمعلومات التى لدينا عن تاريخ هذه المدينة فى الأزمنة القديمة .

الغربي ، وحتى تتم الإفادة من هذه الميزة الكبيرة فقد تم توصيل القارة بالجزيرة عن طريق جسر ضيق يبلغ طوله ٧ غلوات ، يسمى كما يذكر هذا الجغرافي هبتاستاديوم Heptastadium ، ويقدر هيرتيوس Hirtius طوله بـ ٩٠٠ خطوة [١] وكان هذا الجسر يتكىء من جهة المدينة على ميدان كبير ، يقع عند سفح جدران ينفصل عنها بواسطة قنطرة ، يحميها من الأمام أحد الحصون ، وعند طرفها الشمالي يغطى حصن ثان قنطرة ثانيـــة تتصل بجزيرة فاروس . وتتكون هاتان القنطرتان من أعمدة عالية ، مثبتة بالبحر ، وترتفع إلى حد ما فوق سطح المياه ، لتشكل ممراً حراً إلى السفن . ويقسم هذا الجسر الذى يتجه من القارة إلى الجزء الغربي من الجزيرة ، الميناء الطبيعي إلى قسمين ، يحمل القسم الغربي منها في عهد الرومان اسم Eunostus Portus ، بينما كان يحمل القسم الآخر ، الواقع إلى الشرق اسم Magnus Portus .

٥٧ — وعند الدخول إلى الميناء الكبير ، يجد المرء على يمينه برج الفنار ، وقد أنشأه Sostrate de Cnide في عهد بطليموس فيليب في عام ٢٨٢ ق م . وكان هذا البرج ، الذى شيد على صخرة تلاطمها من كل مكان مياه البحر ، يرتفع لعدة طوابق ، يحيط بكل طابق منها دهليز يدعمه صف من الأعمدة ، ويحمل البرج هذا النقش «من سوستراتوس من اكنيدوس ابن ديكسيفان إلى الآلهة الراعية للملاحة» وفي أثناء الليل يضيء هذا البرج ، الذى يبلغ ارتفاعه ٤٠٠ قدم ، شعلتين يراهما المسافر على بعد ٣٠٠ غلوة من عرض البحر ، ذلك أنه يصبح من الضروري ، حيث أن الساحل منخفض وخطر بسبب كتله الرمليـــة وشعابه

---

(١) يقدر هيرتيوس طول هذا الطريق : ٩٠٠ خطوة أي $\frac{9}{10}$ من الميل الروماني ، أي ما يبلغ ٦٨١ قامة حيث يقدر الميل : ٧٥٦ قامة . ومن جهة أخرى فان الهبتاسداد تساوى حسب الغلوة اليونانية ٦٦٥ خطوة وهو ما يبلغ حوالى نصف غلوة (ستاد) بالاشارة إلى الطول الذى يعنيه سترابون .
انظر Hirtius De bello Civili, Chap CII.

الصخرية ، وجود إشارة عالية ترى من أعالى البحار لترشد السفن بأمان إلى الميناء[1] .

وهناك أثناء النهار ، مرآة معدنية تلتقط صور السفن قبل أن تظهر فى الأفق وكانت هذه السفن تضطر لكى تدخل الميناء أن تقترب بشدة من الفنار ، حيث لم تكن الصخور ولا الشعاب الصخرية الواقعة إلى اليسار لتسمح لها بالاقتراب من هذه الناحية ، وهو نفس ما يحـــدث اليوم . وكان هذا البرج يستخدم كذلك بمثابة حصن .

٥٨ — وكان الدفاع عن شمال مدخل الميناء ، يتم عن طريق قصر حصين ، بنى فوق شناخ (أنف الجبل الخارج منه والداخل فى البحر) يتوغل كثيراً داخل الميـاه ، وكان هذا القصر يحمل اسم لوخياس Lochias ، ولكى يضيق المدخل أكثر من ذلك كثيراً فقد أقيم أمام هذا الحصن رصيف حاجز ، ينهض فوق صخور فى مستوى سطح المـاء يطلق عليه اسم arcolôchias أى رأس لوخياس(*) وقد أشار إليها يوسيفوس باسم الساق التى صنعتها يد الإنسان[2] . ويرى المسافر عنـدما يواصل طريقة على اليسار ، حى القصور الذى يحيط به البحر . وعند بداية حاجز لوخياس ، كان ثمة ميناء صغير مغلق ، مخصص لسفن الملوك أى للبحرية الملكية ؛ ويحدد لها سترابون مكاناً آخر يقع تجاه جزيرة

---

(١) يلمح المرء على هذه المسافة ، التى تبلغ ٣٠٠ غلوة يونانية تساوى ٢٨٫٥٠٠ قامة أو ١٠ فراسخ بحرية ، أنوار الفنار ، ولم تعد هذه المسافة بذات بال بعد لإقامة هذا البرج ، ذلك أننا نستطيع بسهولة ونحن فى كاليه على شواطىء فرنسا أن نلمح أثناء الليل أنوار فنارى ميناء دوفر Douvres على السواحل الانجليزية ، وتبلغ المسافة التى تفصل هذين الميناءين ٢١٫٣٦٩ قامة تساوى سبعة فراسخ بحرية ونصف الفرسخ ، تبعاً لحسابات السيدين بيكار Picard ولاهير le Hire ، ويذكر أبو الفداء وبعض المؤرخين العرب ، أن المرآة التى كانت لا تزال موجودة فى برج الفنار فى العام ٩٢ من الهجرة (٧١٢م) ، وهى الفترة التى انتزعت منه .

(٢) Josephe, De bello Judaico lib. V.

(*) السلسلة حاليا .

صغيرة تسمى Antirrhodos ، وكان لها هى الأخرى ميناء صغير به قصر ؛ و بمواصلة الطريق ، يقابل المرء المسرح الذى كان يتصل بالقصر عن طريق ممر يطاق عليه بوليب[1] Polybe اسم Syrinx، ويفصل هذا الممر ميدان الألعاب الرياضية عن المضمار (سباق الخيل) ؛ وبعد ذلك يرى البوزيديوم Posidium وبه معبد مخصص لعبادة نبتون Neptune (*) ، وهو مقام فوق لسان من الأرض يتجه إلى داخل الميناء ، وقد أمر مارك أنطونيو بأن ينشأ فيه حاجز آخر أكثر توغلا فى البحر ، يأتهى القصر الذى أسماه تيمونيوم Timonium ؛ وبعد ذلك يأتى السكوزاريوم Coesarium (معبد قيصر، وهى الرمل حاليا) والسبباستيوم Sebasteum ثم قصر الملوك وقد أقيمت من قبله مسلتان وأخيراً يأتى الأمبوريوم Emporium والأبوستاذ Les Apostases ، أما بقية محيط هذا الميناء ، التى كانت تشغله المنشئات التابعة لترسانات البحرية ، فكانت تمتد حتى الهبتاستاديوم .

٥٩ — وفيما وراء الهبتاستاديوم يجد المرء الميناء الثانى الذى كان يحمل اسم أونوستوس Eunostus الذى كان الإقبال عليه أقل بكثير من الإقبال على الميناء الأول على الرغم من أنه أوسع منه لغير ماحد ؛ وكان يضم ميناء آخر يسمى كيبتوس Kiptos أى القوس وكان مزوداً بكل ما يتناسب مع الخدمة البحرية ، كما كان يستقبل مياه الترعة التى كانت تعبر المدينة لتتصل ببحيرة ماريوتيس ؛ وفيما بعد هذه الترعة بقليل كانت تنتهى المدينة لتنهض تحت أسوارها مباشرة قرية نكروبوليس Necroplis مدينة الموتى أو الجبانة .

ويتمتع ميناء اونوستوس[2] من الداخل بهدوء تام ، كما يسمح عمقه

---

(١) Polybe, Excerpt. lib. V.

(٢) تتناسب تسمية Eunastos Portus ، أى « ميناء العود الحميد » على الدوام مع ميناء الاسكندرية القديم (الميناء الغربى) ، الذى كان الدخول إليه بالغ اليسر ، بسبب رياح الشمال ، والغرب ، والشمال الغربى ، التى تسود فى غالب الأحيان ، والذى يكون الخروج منه ، لنفس السبب ، بالغ المشقة لحد كبير ، حيث تكون هذه الرياح عكسية بشكل مباشر .

(*) إله البحار .

لأضخم السفن بالاقتراب من الرصيف ، أما الشعاب الصخرية التي تتكسر عليها الأمواج فتمنع الدخول إليه من جهة العرض .

٦٠ — وقد بنيت الاسكندرية في عهد بطليموس بأنقاض هليوبوليس ومنفيس وطيبة ، كما زينت بأعمدة هذه المدن ومسلاتها التي نقلت إليها بتكاليف باهظة ، ويخترق الاسكندرية من الداخل شوارع مخططة بطريقة تسمح باستقبال نسيم رياح الصيف القوية ، أي أن الشوارع تتجه من الشمال إلى الجنوب ، ومن شمال الشمال الغربي إلى جنوب الجنوب الشرقي ، وتستطيع العربات أن تمر فيها بحرية ، كما يعبر المدينة بطولها وعرضها شارعان كبيران ، يبلغ عرض الواحد منهما ما يقرب من مائة قدم ، يتقاطعان بزوايا مستقيمة عند منتصفهما ، ويبلغ طول أكبرهما حسبما يذكر سترابون ٣٠ غلوة ابتداء من ملتقاه عند بداية كانوب ، حتى نهايته من جهة الغرب عند بوابة نيكروبوليس (وهو شارع طريق الحرية حاليا) . ويقدم يوسيفوس نفس المقاييس وإن كان ديودور يقدره بـ ٤٠ غلوة ، ولكنه يضيف إليه دون شك امتداده إلى الضاحية الشرقية . أما الشارع الكبير الآخر ، الذي يعبر المدينة بعرضها ، فقد كان يبلغ امتداده ٧ — ٨ غلوات ، بادئاً من موانىء النهر في ماريوتيس ، لينتهي عند مباني الترسانة البحرية في الميناء الكبير (شارع النبي دانيال حاليا) .

وعند نقطة تقاطع الشارعين الكبيرين ، أي حوالى وسط المدينة ، نلاحظ ميداناً فسيحاً يقسمها إلى أربعة أقسام أو أحياء ؛ لكن فيلون Philon ، معاصر سترابون ، يذكر أن الاسكندرية كانت منذ عهده تنقسم إلى خمسة أقسام تحمل الحروف الخمسة الأولى من الحروف الهجائية الإغريقية . وقد أطلق اليهود اسمهم على اثنين من هذه الأحياء ، حيث كانت توجد مساكنهم الخاصة بهم[1] .

---

(١) فيلون ، كاتب يهودي ، كان يعيش في الاسكندرية من عام ٣٠ — ٤٠ م انظر De pells Alex in Flaccum, p. 753.

ويقول يوسيفوس[١] إن اليهود كانوا يسكونون جزءا من حى القصور على شواطىء البحر؛ وقد أطلقت أسماء أخرى على هذه الأحياء، التى كان أقدمها، وأكثرها أهميـــة، هو حى القصور أو حى بروخيون Bruchion وحى راكوتيس Rachotis أو سيرابيوم Serapeum .

٦١ - وكان حى بروكيون يشمل كل الخلاء الواقع بين الميناء والساحل إلى الشرق، ابتداء من لوخياس Tochias (السلسلة) حتى بوابة كانوب؛ وكان يضم القصور والمينائين: الميناء الملكية، وميناء الجزيرة الصغيرة انتررودس Antirrhodos ، والمسرح والدهليز الخاص به، والبوزيديوم Posidium ، والتيمونيوم Timonium والكوزاريوم Coesarium ، وميدان ألعاب الرياضية والمصارعة والمضمار (مكان ترويض وسباق الخيل) أو ميناندروز Menandros والمتحف والجناز، وهو عبارة عن مبنى واسع تزينه الأروقة والأعمـدة لمساحة يزيد طولها عن غلوة هو مخصص لدراسة العلوم . وترتبط هذه المنشأة بقصر الملوك، وتمتد حتى بوابة كانوب، وكانت ترى به المكتبة الشهيرة، التى كان مؤسسها إما بطليموس سوتر (الأول) Ptolemé Soter وإما بطليموس فيلادلفوس P. Philadelphe[٢] وكانت ترى هناك كذلك معابد أخرى وغابات مقدسة . هنا صد يوليوس قيصر قوات البطالمة وأهل الاسكندرية، ومنذ ذلك الوقت حصن هذا الحى بسور خاص عزله عن بقيـــة المدينة، وجعل منه شكلا من أشكال القلاع، قد صمد لهجوم آخر فى عهد الأمبراطور كلوديوس الثانى

---

(١) يوسيفوس، كاتب يهودى، كان يعيش فى الاسكندرية من عام ٦٠ — ٧٥ م .

(٢) تكونت المكتبة على يد بطليموس فيلادلفيوس، وتوسعت على يد خلفائه، وكانت تضم ٤٠٠ ألف مجلد، وقد أحرقت جزئياً أثناء حصار الاسكندرية، على يد يوليوس قيصر فى العام ٧٠٦ من تأسيس روما، العام ٣٧ ق . م، فقد وصلت نيران السفن الراسية فى الميناء إلى حى الملوك، وأحرقت جزءاً كبيراً منه، وكذلك من المكتبة .

ولا نفصل هنا المتحف عن الجناز الذى لم ينشأ منه إلا مبنى واحد، على الرغم من أن سترابون، فيما يبدو، يفصله عنه ليجعل منه مبنى قائماً بذاته ،

Claude II في عام ٢٧٠ م ، ثم تحطم الحى تماماً على وجه التقريب ، منذ بضع سنوات في عهد أورليان في عام ٢٧٥ . ويذكر سان جيروم S. Jerôme أن الحى كان في عصره ، أي حوالى ٤٢٠ م منعزلا عن المدينة وأنه كان يستخدم كمأوى لبعض الزاهدين المنعزلين ؛ وبعد ذلك بقرن واحد ، في عصر سانت إبيفان S. Epiphane ، أصبح الحى خراباً تماماً .

٦٢ — وكان حى راكوتيس يشتمل على معبد سيرابيس Sérapis ، الذى أعيد بناؤه على يد بطليموس ابن لاجوس Lagus ، مكان معبد صغير كان مخصصاً لسيرابيس وإيزيس Isis معاً ؛ ويقول سوزومين Sozomène إن هذا المعبد كان يقع على ربوة صغيرة إلى الشرق من الترعة ؛ ويقول روفان[1] Rufin الذى

---

(١) يقول روفان ، أن تيوفيل ، وهو في سبيله للقضاء على الوثنية نهائياً في كل مصر ، قد حصل في عام ٣٩٠ م من الامبراطور تيودوسيوس Théo-dose على مرسوم يسمح له بأن يدمر كل المعابد المصرية ، وتبعاً لأمر من الامبراطور قسطنطين Constantin ، قام بطريرك الاسكندرية بانتزاع تمثال سيباريس عام ٣٢٨ م وكذلك المقياس الذى يستخدم في ملاحظة مياه النيل ، وقد أحرق الوثن ، أما المقياس أو الـ Separi فقد نقل إلى كنيسة مسيحية ، في ذلك الوقت ، من كنائس المدينة هي كنيسة سانت أثناز التى بناها جريجوار الأريوسى Ga(goire l' Arien ، وعندما أراد الامبراطور جوليان Julien أن يعيد عبادة الأوثان ، فقد أمر أن ينقل إلى السيرابيوم ، المقياس الذى كانت بواسطته تحدد درجات فيضان النيل ، وقد بقى المقياس هناك حتى سنة ٣٩٠ م ، وهو الوقت الذى حطم فيه تيوفيل نهائياً هذا المعبد ، حسب أوامر الامبراطور تيودوسيوس .

ويطلق المصريون اسم سيرابيس Sérapis ، أو بالأحرى شيرابى Cherapi على المنشآت المخصصة للملاحظة السنوية لفيضانات النيل ، صانعة الخصوبة والوفرة اللتين كان المصريون يقدسونهما تحت اسم أبيس .

ويقول جابلونسكى Japlonski ، إن اسم سيرابيس هــــذا يتكون من كلمتين مصريتين ، احتفظت بهما اللغة القبطية هما : سير Ser ، أو شير Cher ، أو سار Sar ومعناها كاپا عامود ؛ وأبيس Apis ومعناها مقياس .

وهكذا ، فقبل انشاء الاسكندرية ، كانت لمفيس سيرابيوم أى معبد مخصص لأبيس ، وكان ينهض فوق ربوة صغيرة تسمى سينوبى Synopi (أى المكان الذى يتم فيه القياس) ، وكان المعبد مخصصاً لدفن العجل أبيس .

(مأخوذ من مذكرات المسيو لانجليه Langlés ،

(Voyage de Norden; Tome III, p. 236 et 241).

زاره قبل بضع سنوات من قيام تيوفيل Théophile بطريرك الاسكندرية بتدميره نهائياً فى عام ٢٩٠م ، إن هذا المعبد قد بنى فوق مرتفع ليس من فعل الطبيعة وإنما من صنع الإنسان ، وهذا المبنى الواسع ، كما يضيف روفان ، كانت تدعمه شرفات مقدسة يصعد إليها عن طريق سلم تبلغ درجاته ما يزيد على المائة ، وكان داخله ، الذى تزينه الأعمدة والأورقة ، يضم حجرات مختلفة ، مخصصة للأسرار المقدسة وكذلك لمساكن الكهنة الموكلين بهذه الأسرار . وكان يوجد بهذا المعبد مقياس للنيل مخصص لسيرابيس وكان يحمل اسمه ، وقد أمر قسطنطين بإقامته فى عام ٣٢٨م ، لكى ينقل بعد ذلك الى كنيسة الإسكندرية ، ولا تزال توجد بها حتى اليوم المكتبة الثانية التى أثرت بما تبقى من مكتبة المعبد(١) ، التى

(١) أقيمت المكتبة الثانية بعد وقت قصير من حريق مكتبة المتحف فى عهد يوليوس قيصر ، وكانت تضم ٧٠٠ر٠٠٠ مجلد ، عندما تحولت الى رماد ، تنفيذاً لأوامر عمرو (بن العاص) فى العام ٢٢ من الهجرة (٦٤٢ م) ، فقد كتب الخليفة عمر الى قائده الذى استولى لتوه على الاسكندرية (ما معناه) « اذا كانت هذه الكتب لا تضم الا ما جاء به القرآن فاحرقها اذ لا حاجة لنا بها ، واذا كانت تضم شيئاً مخالفاً فاحرقها لخطورة ما تحتويه » . ويقول التاريخ(*) ، انه تبعاً لهذا الأمر الذى لا يتصور صدوره عن رجل متحضر ، فقد بعثرت كل كتب هذه المكتبة ، ووزعت على حمامات المدينة لاستخدامها فى التدفئة ، وظلت تشتعل لمدة ستة شهور ، وكان قد بنى منذ وقت طويل ، فى مكان المعبد ، كنيسة تحمل اسم الامبراطور أركاديوس Arcadius والتى يظن بعض المؤرخين دون سند ، أنها اليوم هى الجامع المسمى جامع لألف عمود الذى يقول موروث البلاد انه ترجمة لكلمة السبعين

ووجود هذه المكتبة أمر يجادل فيه ، عن سوء نية ، بعض المؤرخين المحدثين ، فهذه قد تكونت من بقايا مكتبة المتحف ، وهى الأقدم ، وقد بينا أن حى بروخيون الذى كانت تقع فيه هذه المكتبة (الأقدم) كان قد تهدم تماماً منذ بداية القرن الخامس ، وقبل نهاية القرن الرابع بقليل .

وقد قدم المسيو لانجليه Langlés فى النبذ التى ساقها ، والتى استخلصها من المؤرخين ، المعلومات التى من شأنها أن تثبت الوقائع (التى انتهينا اليها) .

أنظر : Voyaye de Norden

(*) يحق لنا أن نستشهد هنا بما يسوقه حول هذا الموضوع مؤرخ فرنسى معاصر هو جاستون فييت فى كتابه :

Précis de l'Histoire d'Egypte par divers historiens et archéologues, Tome II, par Gaston Wiet, l'Egypte musulmane, de la Conquête arabe a la Conquête ottonane — le Caire, 1932, p. 111—112.

أحرقها من قبل يولوس قيصر Jules Césaa [1] .

٦٣ — أما السوما Sôma (**) التي كانت تتبع حي القصور حسبما يذكر سترابون ، والتي كانت تضم قبر الإسكندرية ، فكانت تقع حسبما يقول تاتيوس Tatius عند نحو مركز المدينة ، حيث كانت تعد جزءاً من حي يحمل اسمها .

= حيث يستبعد هذا المؤرخ تماماً ، تلك الرواية التي يوردها عبد اللطيف البغدادي عن أمر الخليفة عمر بحرق مكتبة الاسكندرية ، وهي الرواية التي بنى عليها كل المؤلفين في الغرب موقفهم في هذا الخصوص .

ويرى جاستون فييت أنه على الرغم من أن هذا الحادث ممكن الوقوع أثناء الحروب القديمة ، ويستشهد على ذلك بحرق المغول لمكتبة بغداد ، وحرق الفرنجة لمكتبة تونس ، فإن الرواية في حد ذاتها غير صحيحة ، ويرى أن بالإمكان اهمالها كلية ، ويستند في ذلك على ما يلي :

١ — أن هذه الرواية لم ترد إلا عند عبد اللطيف البغدادي ، وبعد مرور ٢٠٠ (مائتي) سنة على الحادث المزعوم .

٢ — أنها لم ترد عند مؤرخين عرب ثقاة مثل الكندي وابن عبد الحكيم والبلزوري والطبري والمسعودي .

وقد يكون هذا كافياً لدحض ذلك الاتهام الذي يحاول المؤلف أن يلصقه بالعرب والمسلمين . (المترجم)

(١) بنى فوق معبد سيرابيس ، كنيسة كانت تحمل اسم أركاديوس ، بتضرع من يوحنا المعمدان ، وقد افتتحت في احتفال مهيب .

(Histoire du Bas - Empire, tome per, liv. XXIV).

(**) السوما أو السيما ومعناها الجبانة الملكية وتقع كما يذكر محمود الفلكي في كتابه عن الاسكندرية القديمة عند تقاطع طريق الحرية مع شارع النبي دانيال . (المترجم)

٦٤ — وفى أحياء أخرى من المدينة ، كان المرء يجد مبانى عامة مختلفة لم تتحدد مواقعها بدقة ، مثال ذلك مبنى الستاديوم Stadium والفوروم Forum حيث كان يتم التقاضى. أما البانيون Panium (*) الذى يقع على مرتفع ينتهى بقمة مدببة ، فيبدو أنه صخرة طبيعية على الرغم من أنه من صنع الإنسان، ويتم الصعود إليه من الداخل بواسطة سلم دائرى لولبى ، ومن قمة هذا المرتفع يشرف المرء على كل المدينة ؛ وأخيرا نرى المدرج أو السيرك ، وكذلك بعض معابد تهدمت كانت مبنية عند نيكوبوليس Nicopolis .

٦٥ — أما القناة التى تربط بحيرة ماريا بميناء أونوستوس Eunoste عن طرق الكيبوتوس Kibôtos (الميناء الصغير الداخلى) ، فتعبر الطرف الغربى من المدينة ، وكانت القناة تسمى ترعة ماريا، وفيما بعد ترعة شديا Schedia ، وكانت هذه الترعة المتفرعة من الفرع الكانوبى عند قرية شديا (كوم الجيزة حاليا)، تبعد عن الاسكندرية من جهة الشرق ، بـ٤ شونات (١٢,٠٩٦ قامة أى ٢٣٥٧٥ م) وكانت تنقل كما هو شأنها اليوم ، المياه العذبة إلى المدينة : يقول استرابون «عندما يغادر المرء الاسكندرية عن طريق بوابة كانوب، يجد عن يمينه ترعة تصل إلى البحيرة وتؤدى إلى مدينة كانوب ، ويستطيع المرء أن يبحر عن طريق البحيرة نحو النهر ثم يتوجه إلى كانوب وإلى شديا ، وقبل أن يمضى إلى إيليوزين Eleusine (**) يجد على يمينه ترعة تؤدى إلى شديا ، تبعد عن الإسكندرية بـ ٤ شونات[١] .

وكانت مياه النهر توزع ، بواسطة مشاريع هندسية تحت أرضية ، على الآبار والخزانات المحفورة تحت المدينة ؛ ويقول هيرتيوس Hirtius الذى أشرنا اليه من قبل ، وهو يتحدث عن هذه الخزانات والآبار « يكاد يكون محفورا تحت الاسكندرية بأكملها خزانات سفلية، تتلقى مياه النهر، وتأتى لها هذه المياه عن طريق

(١) انظر دراسة عن القناة التى ترتبط بين البحرين ، القسم الثانى ، الفصل الأول ، الدولة الحديثة ، المجلد الأول ، ص ص ١٢٤ — ١٣٠ .

(*) البانيون ، تل صناعى أقيم تعظيما للاله بان بحيث تشرف قمته على المدينة كلها ، وتحيط به حديقة جميلة. ويظن بأن بقايا هذا التل هى ما نعرفه اليوم باسم كوم الدكة . (المترجم)

(**) النزهة حالياً .

مسارب توزعها على خزانات بيوت الخاصة حيث تركد وتنقى شيئاً فشيئاً ؛ ولا تشرب المدينة مياها أخرى ، إذ لا توجد بها مطلقاً أية عيون طبيعية . ويضطر العامة لاستخدام المياه التي ينزحونها من مجرى النهر أو الترعة ، ولكن حيث أن هذه المياه عكرة للغاية ، فإنها تسبب أمراضاً مختلفة ، ويطلق أوزون Ausone على الاسكندرية ، وهو يتحدث عن العدد الهائل من بها الخزانات أو الصهاريج المخصصة لحفظ المياه اللازمة لاستهلاك سكان هذه المدينة ، « بيت النهر » .

٦٦ — ويقول ديودور[1] إن عدد سكان هذه المدينة يتناسب مع اتساعها إذ كانت قد بلغت فى عهد أغسطس ما يزيد ٣٠٠,٠٠٠ مواطن حر ، الأمر الذى يفترض وجود شعب يبلغ تعداده حوالى ضعف هذا العدد ، إذا ما أضفنا إلى هؤلاء عدد العبيد ، لكن هذا الرقم يبدو لنا مبالغا فيه ، ومع ذلك فإن كليتو فون Clitophone يقول أثناء حديثه عن شعب الاسكندرية ، إنه « عندما يتأمل هذه الألوف من سكانها ، فإنه لا يستطيع أن يتصور أن من الممكن أن توجد مدينة كبيرة لحد تستطيع معه أن تضم هذا العدد الهائل ، كما أنه — من جهة أخرى — لا يستطيع أن يتصور وجود عدد ضخم من الناس لحد يستطيعون معه أن يشغلوا امتداد هذه المدينة الواسعة » .

٦٧ — كانت الاسكندرية هى وطن كل من أوريجين Origène ، إقليدس Euclde ، إيبان Appien ، هيروديان Hérodien ، فيلون Philon .. إلخ وإلى مدارسها الأكاديمية الضليعة جاء مانيتون Manéthon وإراتوستين Eratcsthène الذى كان أول أمين لمكتبة المتحف التى أنشأها بطليموس إيفرجيتوس ، وكذلك جاء العالم الجغرافى بطليموس ، بالإضافة إلى آخرين جاء هؤلاء جميعاً لينهلوا من المعارف التى نقلوها إلينا فى كتاباتهم ، ومن ناحية أخرى ، فقد وضع أتباع كل

---

(١) ديودور الصقلى ، الكتاب السابع عشر .

من كليمان Clément ، وجيروم Jérôme ، وجريجور ، وأغسطس ، مؤلفاتهم بالاسكندرية .

٦٨ — كانت جزيرة فاروس ، كما سبق القول مأهولة قبل مجىء الاسكندر بوقت طويل ، وقد حصنها البطالمة قبل يوليوس قيصر كما نعرف ذلك من تاريخ حربه فى الاسكندرية حيث لقى الكثير من المصاعب لكى يستولى عليها ، وقد كان لقرية فاروس ، شأنها فى ذلك شأن المدينة ، أبراج عالية تربط ما بينها أسوار تقفل القرية بسور منيع بعض الشىء ، وكان يقطن هذه القرية بحارة يمارسون القرصنة ، وكانت مياه النيل تأتى إلى كل مكان من هذه المدينة عن طريق مشروع هندسى مبنى بطول الهبتاستاد ، وقد تحطم هذا المجرى ، وكذلك قناطر الهبتاستاد ، بالإضافة إلى هذه القرية الرائعة ، أثناء حصار الاسكندرية على يد يوليوس قيصر .

٦٩ — وعند الخروج من الاسكندرية ، عن طريق بوابة كانوب ، يجد المرء على يساره ضاحية اليوزين Eleusine (النزهة) والتى يشطرها من طولها شارع كانوب الكبير والتى تحاذى البحيرة والبحر ، والتى خططت شوارعها على غرار شوارع الاسكندرية ، ويقابل المرء بعد هذه الضاحية مجرى هندسيا يسير بطول الساحل ويتجه إلى كانوب ، وفيما بعد إليوزين ، كان ثمة سيرك أو هيبودروم Hippodrome ينتهى عند نيكوبوليس .

٧٠ — وتقع مدينة نيكوبوليس (ومعناها النصر) على شواطىء البحر ، وتبعد عن الاسكندرية بـ ٣٠ غلوة حسبما يذكر سترابون ، وبـ ٢٠ غلوة حسبما يذكر يوسيفوس ، وقد سميت كذلك نسبة إلى الانتصار الذى أحرزه أوكتافيوس أغسطس على مارك أنطونيو ، وكانت تقام هناك احتفالات بهذه المناسبة ، مرة كل خمس سنوات .

٧١ — أما كانوب (أبو قير)، تلك المدينة التي اشتهرت بمعبد سيرابيس المقام فيها، وبورعها وفجورها، فكانت تقع على بعد ١٢٠ غلوة من الاسكندرية، وكانت تقوم على ضفاف الترعة التي تؤدي إليها فنادق صغيرة، كان يطرقها على الدوام ألوف الرجال والنساء، الذين كانوا يتوجهون كل عام إلى هذه المدينة، للاحتفال بالأعياد التي يسودها المجون الجامح الذي يسود الأعياد الباخوسية عادة .

٧٢ — وإلى ما وراء كانوب ، كانت تقوم هيرا كليوم Heracleum التي تقع عند رأس خليج أبي قير ، والتي أطلق عليها هذا الاسم مرة أخرى على اسم معبد قديم كان مخصصاً لهيرقل .

٧٣ — أما فتحة كانوب التي كانت تلي مباشرة هـــذا الموقع الأخير ، مشكلة بذلك النقطة الشمالية للقاعدة الغربية للدلتا ، فكانت تقع حسبما يذكر بلين Pline على بعد يساوي ٩٠٧٣ قامة أي $\frac{٦٦}{٢٠٢}$ ١٧٦٨١ إلى الشرق من الاسكندرية .

٧٤ — أما قرية نكروبوليس ، أي مدينة الموتى ، حيث كان هذا المكان مخصصاً كلية لدفن موتى الاسكندرية ، فكانت تبدأ من نفس جدران السور ، وتمتد إلى الجنوب الغربي من البحر والبحيرة(*).. ولقد كانت قرية بمعنى الكلمة ، تحتوي على كثير من البيوت المزدانة بالحدائق ، توجد تحتها أماكن سفلية نسميها مقابر .

٧٥ — وأخيراً ، فقد كان يوجد بعد هذه « القرية » قصر الشرسونيز La Chersonèse ، المبني على قمة رأس يقع على بعد ٧٠ غلوة من الاسكندرية ، وقد حصن هذا القصر، وكانت له حامية ، وهو نفس المكان الذي نطلق عليه اليوم اسم الشيخ (العجمي)، وهو الذي يقفل خليج الاسكندرية من جهة الجنوب الغربي .

(*) كانت هذه الجبانة الغربية للاسكندرية تشغل المناطق التي تسمى حاليا : الأنفوشي ، كوم الشقافة الوريان (المترجم) .

والآن، بعد أن قدمنا كل هذه المعلومات التي حصلنا عليها عن الاسكندرية القديمة ، والتي كانت ضواحيها تغص بمساكن جديدة وفخمة ، والتي تغطيها اليوم الرمال وكل قحولة الصحراوات الليبيـــة ، فإننا نمضي إلى الجزء الأخير من الدراسة والذي يقدم مقارنة مدعومة ـ حيث هو يتفرع عن القسمين السابقين ـ عن حالتي هذه المدينة العريقة .

القسم الثالث

لخص موثق عن حالة مدينة الاسكندرية بشكلها القديم مع مقارنتها بحالتها في شكلها الراهن

٧٦ ـــ بعد أن قدمنا في القسمين السابقين حالة مدينة الاسكندرية في عصور حياتها المختلفة ، سوف نشير حسب المعلومات التي حصلنا عليها أثناء إنشاء الخريطة الطبوغرافية الملحقة بهذه الدراسة ـ إلى وضع أكثر الأماكن والمباني في هذه المدينة شهرة ، وسوف يقودنا ذلك إلى لخص موثق ، تدعمه بعض الأسئلة التاريخية والجغرافية ، التي من شأنها أن توضح مدى صحة الرأي حول الانتقادات الموجهة حول قيمة المقاييس الطولية التي قدمها المؤرخون القدماء ، والتي تدور حول إتساع هذه المدينة .

٧٧ ـــ كانت تنقص الأبحـــاث العلمية ، لكل من بونامي Bonamy ودانفيل d'Anville[1] وهما اللذان قد عالجا ، كلاهما هذه المسألة ، وقد لخصنا

(١) قدم السيو بونامي Bonamy عضو أكاديمية النقوش والفنون الجميلة ثلاث دراسات عن مدينة الاسكندرية ، نشرت في عام ١٧٣١ في مجلد دراسات هذه الأكاديمية ، المجلد التاسع ، ص ٤١٦ . وقد رجعنا إلى النبذ الدقيقة لهذا الأكاديمي ، والتي ذكرنا بعضها في هوامش هذه الدراسة .

وفي حوزتنا بالإضافة إلى ذلك ، دراسات عن مصر ، ألفها دانفيل ، وقد ذكرنا مؤلفه هذا — الذي استخدم كدليل للجيش الفرنسي — كمصدر له احترامه في هذه الدراسة ، ولئن كنت أعتقد أن بالإمكان على الأقل ، استبعاد بعض آرائه .

=

أبحاثهما عند وضع تصميم دقيق لخريطة الاسكندرية ، ووجدنا أنه كانت تنقصهم على وجه الخصوص معرفة الأماكن ، وهى المعرفة التى توفرت لنا ، حتى يستطيعا أن يحددا بدقة الحالة القديمـــة للمدينة ؛ وقد بين دانفيل ، وهو المشهود بالنظر الثاقب فى بحوثه الجغرافية ، أن الاسكندرية كانت ، بما لا يدع مجالا للشك ، تشغل مساحة أكبر بكثير من تلك المساحة التى يحددها السور الحالى ، الذى يقول عنه إنه لابد أن يكون قد بنى حديثاً ، ويتطلب هذا الظن من جانبه – ونحن نشاطره الرأى فيه – المزيد من الدرس والمناقشة .

٧٨ — أما الاختلاف الذى يوجد ، نسبياً ، فى أطوال هـذه المدينة فى تقارير المؤلفين القدماء: ديودور ، سترابون ، بلين ، كينت كورس، يوسيفوس،

= ويمتدح دانفيل أبحاث بونامى ، لكنه يضيف بأن ذلك لا يعنى أنه يستطيع أن يمتدح بالمثل خريطة الاسكندرية التى ألحقها هذا الأكاديمى — بونامى — لدراساته ، ويقول بونامى لأنه قد حصل على هذه الخريطة من مكاتب البحارة ؛ ولذلك فلا بد أن تكون هذه الخريطة غير كاملة ، ولا يمكن القياس عليها بالمقارنة بتلك الخريطة التى قدمها دانفيل على اعتبار أنها الأفضل ، والتى ضمنها هذا الجغرافى فى دراساته المطبوعة فى عام ١٧٦٦

وقد قدم نوردان Norden ، الذى سافر إلى مصر فى عام ١٧٣٩ ، خريطة أقل خطأ . ويقول هذا الرحالة : إن هـذه الخريطة قد تم إنجازها على يد فرنسى يأسف لعدم معرفته باسمه .

وفى الواقع ، فقد كان إنجازاً كبيراً فى ذلك الوقت ، أن يستطيع رحالة بوسائله البسيطة أن يقدم تخطيطاً متصوراً لمدينة مصرية ، بل ومدينة شرقية أى الاطلاق .

وفى عام ١٨٠٢ ، أورد المسيو شوسار Chaussard فى كتابه تاريخ الحملات على مدينة الاسكندرية Histoire des expéditions d' Alex. الذى ترجمه عن آريان المؤرخ الإغريقى فى القرن الثانى — أورد وصـــفاً موجزاً لحالات ثلاث متتابعة لمدينة الاسكندرية ، ويتطابق ما يقوله هذا المؤلف عن المدينة تماماً مع الرأى الذى قدمه دانفيل فى دراساته عن مصر صفحات ٥٢ إلى ٦٣ ، وقد رسمت الخريطة التى ألحقها المسيو شوسار بكفاءة ، وهى الخريطة التى أصاب التلف بعض أجزائها ، رسمت تبعاً للخريطة التى أنشأها السادة المهندسون العسكريون والمدنيون التابعون لجيش الشرق ، والتى كان مقياسها ، وهى ملحقة بهذه الدراسة ، ٤ . . ر مم لكل ١٠٠ متر .

وكذلك هذا التفاوت الهائل فى المقاييس التى لم توضح بدقة فى كتاباتهم، فإنه يلقى بالشك حول تحديدهم للأماكن نفسها .

وقد شاهدنا فى القسم السابق أن معطيات هذه المقاييس تتنوع كما يلى :

البيانات التى يقدمها المؤرخون القدامى	المقاييس			
	الطول	العرض	الواجهة	المحيط
ديودور مقدراً بالغلوة . . .	٤٠	١٠	٤٠٠	١٠٠
سترابون مقدراً بالغلوة . . .	٣٠	٧ – ٨	٢٢٥	٧٥
كينت - كورس مقداراً بالغلوة	٣٠	٧ – ٨	٢٢٥	٨٠
يوسيفوس مقدراً بالغلوة . . .	٢٠	١٠	٢٠٠	٦٠
بلين مقدرا بالخطوة الرومانية	٢٠	١٠	٢٠٠	١٢٠

ويظل الأمر على نفس الدرجة من الصعوبة ،عندما نحاول أن نكتشف فى هذه البيانات المختلفة طول المقياس المتخذ كوحدة ، حيث لم يحـــدد هؤلاء المؤلفون طول الغلوة ، فنحن مثلا نعرف فى دراسة سترابون عدداً كبيراً من الغلوات المختلفة ، وبمعنى آخر فإن كل المؤلفين القدامى الذين كتبوا عن الإسكندرية كانوا إما إغريقاً أو رومانيين ، فهل كانوا على الدوام يستخدمون مقاييس بلادهم؟ هذا ما قد نجازف بالأخذ به ، ومع ذلك فلم يكن هذا - فيما يبدو - هو ما يحدث على الدوام ، إذ كانوا فى غالب الأحيان ، وببساطة شديدة ، يأخذون بالمقاييس المصرية ، كما يذكرها لهم علماء مصر ، أو أولئك الذين سبقوهم فى رحلاتهم .

وإذا ما قبلنا ،مع المسيو لارشيه ،مترجم هيرودوت الحاذق ، أن سترابون لم يتحدث إلا عن الغلوة الأولمبية ،فسوف نتبين كيف ستكون المسافات التى يقدمها

عن مدينة الإسكندرية ، وعن الأماكن المحيطة بها ، بالغة الضخامة لحد مبالغ فيه[1] . أما الثلاثون غلوة التي يعطيها ذلك الجغرافي للشارع الكبير الذي يبدأ من بوابة نكروبوليس لينتهي عند البوابة الكانوبية فإنها تساوي ٢٨٥٠ قامة (= ٥٥٥٤ ٧٥/١٠٠ م) ، لكن الخريطة الكبيرة التي رسمت بمقياس ٠٫٢٥٠رم لكل مائة متر لا تبين هذه المسافة ، ابتداء من البوابة الكبيرة على الميناء القديم وحتى بوابة رشيد إلا ٣٢٢٥ متراً أي ١٦٥٤ قامة وأربعة أقدام . وفي هـــذه الحالة يظل هناك فرق يبلغ ١١٩٦ قامة أي ١٢ غلوة في أقل طول من أطوال المدينـة .

ويقدر يوسيفوس هذه المسافة نفسها بـ ٢٠ غلوة من نفس النوع أي ١٢٥ خطوة لكل غلوة أي ما يبلغ ⅛ الميل الروماني . وبذلك لا يبلغ طول هـذا الشارع حسب تقدير هذا المؤرخ إلا ١٩٠٠ قامة أو ٣٧٠٣ ٧/١٠٠ متراً أي ما يزيد على طول المدينة الحديثة بـ ٢½ غلوة اغريقية .

٧٩ — ومن هنا نرى أن هذه البيانات لا تتفق كذلك مع بقية المسافات ، وقد حاول دانفيل ، وهو يسعى إلى تدعيم الرأي الذي رجحه ، وهو أن السور الحالي لمدينة الإسكندرية أصغر لحد كبير من سورها القديم ، وذلك حين لم يجد في الخريطة التي كانت معه لهذه المدينة ، المقاييس اللازمة لكي يؤسس عليها ، حاول أن يعطي للغلوة الواحدة طولا يمكن بمقتضاه توسيع حدودها . وفي هذا الصدد فإنه يحدد موقع الهبتاستاد، الذي كان لا يزال غير محدد ، في المسافة التي توضحها

---

(١) يبين سترابون في كتابه الثاني طول الغلوة الواردة بجغرافيته على نحو نستنتج منه أن طول الغلوة عنـده يبلغ ⅛ الميل الروماني أي ١٢٥ خطوة ، أي أن الميل الروماني يحتوي على ثمانية غلوات إغريقية ؛ ومن المعروف أن الميل الروماني يساوي عادة ٧٥٥ ياردة و ٤ أقدام وثمانية درجات ، ويقربها دانفيل إلى ٧٥٦ ياردة أي أن الثمن يساوي ٣ قدم و ٩٤ ياردة (الترجمة هنا بتصرف واختصار) .

خريطته بين البرج الشمالى فوق الميناء القديم والبرج الواقع إلى الشرق من شبه جزيرة فاروس على الميناء الجديد . ويحدد هذا الجغرافى هذه المسافة بـ ٥٣٠ قامة، وبقسمة هذا الرقم على ٧ كما تعبر عن ذلك نفس تسمية الهبتاستاديوم . (أى الطريق التى يبلغ طوله سبعة ستاد أى سبع غلوات) فإنه يقدر بذلك قيمة الغلوة التى ينبغى اتخاذها أساساً لتحديد الأطوال الدقيقة لهذه المدينة القديمة بـ ٧٦ قامة .

وينبغى الاعتراف بأنه ، إذا كان طول هذه الغلوة الجديدة ، لا يرتكز إلا على هذا المعطى لكانت النتيجة خاطئة بقدر ما قد يعترى القاعدة التى تكون قد استخدمت فى تحديدها ، حيث أن الخريطة التى تحدد هذا الطول على أساسها غير دقيقة ، ذلك أن جسر الهبتاستاد ، الذى يربط بين المدينة وجزيرة فاروس ، يظل مفقوداً بشكل تام ، وسط كتلة الرمال التى ترتكز عليها المدينة الحديثة .

كيف يمكننا إذن أن نتعرف فى واقع الأمر على طرفى هذا الطريق الذى يبلغ طوله كما يذكر هيرتيوس ٩٠٠ خطوة أى $\frac{٩}{١٠}$ من الميل الرومانى أو ٦٨١ قامة ، والذى تفضى نهايتاه كلاهما إلى ميدان يحميه حصن وتقع أمامه قنطرة ؟ وقد يكون بمقدورى أن أعتقد أن أسوار الرصيف القديمة ، التى تحيط بمنشآت البحرية فى الميناء القديم هى بقايا وأنقاض الهبتاستاد ، لكن هل كان هذا الجسر الذى يتجه إلى الجزء الغربى من جزيرة فاروس يتبع خطاً مستقيماً ؟ أم تراه أنه كان مقطوعاً مثل ذلك الجسر الذى يتصل اليوم بحصن الفنار ؟ هذا ما نجهله ، وفضلا عن ذلك فمن أية نقطة ينبغى أن نبدأ فى تعداد الغلوات السبع ؟ هذا أيضاً مالم نتمكن من معرفته طوال السنوات الثلاث التى احتل الفرنسيون خلالها مصر ؛ لكننا نستطيع هنا على الأقل أن نلاحظ أن المسافة التى تقدمها الخريطة الكبرى للاسكندرية ، والتى رسمت بمقياس ٠,٢٥ م لكل ١٠٠ م ،

بين نفس النقطتين اللتين حددهما دانفيل ، واللتين أشرنا إليها من قبل ، تبلغ ٦٦٥ قامة (أى ١٢٩٦,١٢م) أى ٧ غلوات اغريقية ، طول الغلوة ٩٥ قامة أو ١٨٥,١٦ م .

٨٠ — أما إذا أقمنا أبحاثنا على أنواع أخرى من الغلوات لوجدناها تنطبق على الغلوة المصرية التى يقدرها دانفيل بـ ٥١ قامة أى ٩٩,٩٤ مترا .

هذه هى النتائج التى يعطيها تطبيق هذه الغلوة الصغيرة على الامتداد الحالى للإسكندرية ، وقد شاهدنا من قبل أن طول الشارع الكبير ، بدءا من بوابة الميناء القديم وحتى بوابة رشيد ، كان يبلغ ٣٢٢٥ مترا ؛ أما بخصوص متوسط عرض السور ابتداء من باب البحر المطل على ساحة الميناء الجديد إلى باب العمود فى الجنوب فيبلغ ١٠١٣ مترا . وهذه المقاييس تعطى طولا قدره ٣٢ غلوة وعرضاً قدره ١٠ غلوات ، طول كل غلوة ٥١ قامة .

وأكثر من ذلك ، فإننا إذا أخذنا محيط السور الحديث بالتتابع ، وبأكبر قدر من التحديد ، بفتحات ثلاث مختلفة لبرجل ، أطوالها على التوالى ١٠ ، ٢٠ ، ٥٠ قامة ، كما فعلنا نحن على «كروكى» الخريطة الكبيرة لهذه المدينة ، لوجدنا امتدادا قدره ٤٢٥٠ قامة أى ٨٣ غلوة ، طول الغلوة ٥١ قامة .

٨١ هذا الانضباط فى تطابق العلاقة بين هذه المقاييس الأخيرة الموجودة على خريطة مضبوطة ، رسمت بمقياس رسم كبير هو ٠,٢٥م لكل ١٠٠م ، مع المقاييس التى طبقها سترابون على سور ندعى مع دانفيل أنه هو السور الحديث ، يبدو أنه ينهى المشكلة وأنه يحسم أن الغلوة التى حددها هذا الجغرافى اليونانى فيما يمس اتساع الاسكندرية هى الغلوة المصرية الصغيرة ذات الـ ٥١ قامة وليست الغلوة الأولمبية ذات الـ ٩٥ ، وأخيرا ، فإن السور الحالى لهذه المدينة التى ننسبها للعرب سيكون هو سورها فى عهد الإغريق والرومان . ومن الواضح

أنه إذا كان هذا الاحساس ، وهو منتشر إلى حد ما[1] لا يجد الأساس اللازم لتأكيده ، لأول وهلة ، وذلك فيما يتصل بالعلاقة الدقيقة للمقاييس التي للسور الحالى مع المقاييس التي قدمها بعض المؤلفين القدامى فإن المرء مع ذلك لا يستطيع كلية ألا يستفيد مما يذكره المؤرخون العرب ، الذين يشهدون بأن عمرو بن العاص قد قلب هذا السور رأساً على عقب ، فى حوالى السنة ٢٢ من الهجرة الـ ٦٣٢ من الميلاد ، وبأن ابن طولون حاكم مصر ، قد أمر بتشييد أسوار جديدة لهذه المدينة بعد ذلك بـ ٢٣٣ سنة ، وأن هذا السور الجديد قد قلص من اتساعها المبدئى إلى النصف[2] ، ونسعى الآن لكى نقيم الدليل على هذه الشهادات الأخيرة .

---

(١) استولى عمرو بن العاص ، قائد الخليفة عمر ، على مدينة الاسكندرية ، بعد أربعة عشر شهراً من الحصار ، فقد أثناءها ٢٣ ألف رجل ، ولم يكن لدى هيرقل امبراطور القسطنطينية ، الذى جمع قوات هائلة لنجدة هذه المدينة ، وكذلك لنجدة أورشليم (بيت المقدس) ، التى كانت فى نفس الوقت محاصرة بواسطة عمر (كذا !) ، لم يكن لديه إلا الوقت الذى يكفى لكى يعطى حبر (مقوقس) الاسكندر سلطات مطلقة للتفاوض ، وبعد أن أنصت عمرو فى برود — وكان معسكراً فى ضواحى المدينة — إلى مقترحات المقوقس ، أجابه وهو يشير إلى عمود كبير كان أمامهما : « أترى هذا العمود ؟ لن نخرج من مصر إلا بعد أن تكون التهمته» . وقد كتب ، وهو الذى كان قد وقع فى قبضة أهالى الاسكندرية قبل ذلك ببضعة أيام فى إحدى جولاته الاستطلاعية وأفلت لحسن حظه بفضل مهارة الجندى الذى كان يرافقه ، كتب بعد أن استولى فى النهاية على الاسكندرية إلى الخليفة عمر أنه وجد فى هذه المدينة ٤٠٠٠ قصر ، وعدداً مماثلا من الحمامات العامة ، و ٤٠٠ سيرك أو ساحة للألعاب ، و ١٢٫٠٠٠ حديقة ، و ٤٠٫٠٠٠ يهوى يدفعون الجزية ، وقد حطم هذا الغازى البغيض (كذا !) المعابد والكنائس وأمر بإحراق مكتبة سيرابيوم (راجع ما سبق أن أوردناه نقلا عن جاستون فييت — المترجم) ودك الأسوار ونقل مقر الامبراطورية الجديدة (!) إلى الفسطاط التى تسمى حالياً مصر العتيقة .

من كتاب :

Histoire du Bas - Empire, Tome XII liv LVIII et LIX.

وثمة كثير من المبالغات بالتأكيد فى هذا النص ، وعموماً فى كل تاريخ الشرقيين فكيف يمكن أن نصدق على سبيل المثال وجود ٤٠٠ سيرك أو ميادين ألعاب ، و ٤٠٠٠ حمام ومثلها من القصور ؟

(٢) فى العام ٢٦٠ من الهجرة (٨٧٥ من العصر الحديث) أمر ابن طولون كما يقول الـكين ببناء أبراج وأسوار للاسكندرية بالشكل الذى توجد عليه اليوم . وهذا الحاكم هو الذى أمر بتشييد الجامع الكبير والرائع الذي يحمل اسمه ، والذي يقع الى الجنوب من =

٨٢ ــ وهكذا ، فإذا تبنينا نحن الغلوة المصرية ذات الـ ٥١ قامة ، فإننا لن نجد بعد ، هذا الاتساع الذي ينسبه إلى المدينة ، كل المؤلفين القدامى الذين انتهينا من ذكرهم فى أبحاثنا السابقة .

يقدر سترابون المسافة الواقعة بين الباب الغربى للاسكندرية وبين مدينة نيكوبوليس الصغيرة[1] (بولكلى)، والتى حددنا موقعها فى مكان قصر القياصرة، بـ ٦٠ غلوة؛ ويعطينا هذا الرقم ٣٠٦٠ قامة أو ٥٩٦٤ مترا إذا كانت الغلوة تبلغ ٥١ قامة ، و ٥٧٠٠ قامة أو ١١١٠٩ مترا اذا كانت تبلغ ٩٥ قامة ؛ على أن المسافة الفعلية التى تعطيها الخريطة الملحقة بهذه الدراسة هى ٤٠٠٠ قامة أو ٧٧٩٦ مترا و ١٥ سم[2] .

ويلاحظ المرء أنه يوجد هنا وهناك فى هذا التقسيم اختلاف يجعل الغلوة المصرية أصغر بمقدار يتجاوز الربع ، بينما تظل الغلوة الأولمبية أكبر بنفس النسبة على وجه التقريب ، حيث سنحصل على أرقام ٧٨ غلوة مصرية، و ٤٢ غلوة إغريقية .

٨٣ ــ وإذا قمنا بنفس الحساب لمسافة الـ ١٢٠ غلوة التى يذكرها نفس

= القاهرة داخل سور قصر قديم كان يقيم فيه، والذى لا يزال يحمل اسم قلعة الكبش ، وكان هذا القصر يحمى مدينة الفسطاط الى الشمال ، وينبغى الظن بأنه فى العام ٦٠٠ من الهجرة (١٢٤١ من العصر الحديث) ، أمر السلطان صلاح الدين ، وهو الذى شيد قلعة القاهرة ببناء أسوار ضخمة لمدينة الاسكندرية .

(١) يحدد سترابون المسافة من نيكوبوليس الى الاسكندرية بـ ٣٠ غلوة ، وعلى هذا ، فحيث أنه كان لهذه المدينة الأخيرة نفس الطول من البوابة الكانوبية الى بوابة نكروبوليس ، فاننا نضيف هنا هاتين المسافتين ، بقصد البدء من نقطة محددة ومعروفة ، وهى النقطة من الباب الغربى للاسكندرية ، فى حين يظل موقع البوابة الكانوبية المقابلة ، عند الطرف الشرقى غير محدد .

(٢) هذه الخريطة للسواحل المتاخمة الى الشرق والى الجنوب الغربى ، قد رسمت بمقياس ٥٠٠/م لكل ١٠٠م ، ويعود الفضل فيها الى المسيو تاسكان Tasquin ، الضابط ذي العبقرية الحربية فى جيش مصر .

هذا الجغرافى ابتداء من البوابة الكانوبية فى مدينة الاسكندرية حتى مدينة كانوب، فسنجد أن هذه الـ ١٢٠ غلوة تعطى ٦١٢٠ قامة بحساب الغلوة الصغيرة ذات الـ ٥١ قامة، بينما يرتفع الرقم إلى ١١٫٤٠٠ قامة بحساب الغلوة الإغريقية ذات الـ ٩٥ قامة للغلوة الواحدة ؛ أو مع ذلك فقد سبق أن قلنا فى الفقرة ٤١ إن خرائب كانوب تقع على بعد ٢٥٠٠ متر أو ١٢٨٢ قامة، على الساحل، إلى الجنوب الغربى من خليج أبى قير، وإذا بدأنا القياس من بوابة رشيد، وجدناها تبعد بـ ٢٠٫٧٠٠م أو ١٠٫٦٢٠ قامة وثلاثة أقدام ؛ وعلى هذا فإن الـ ١٠٫٦٢٠ قامة تعطى حين ننقص منها ١٢٨٢ قامة ٩٣٣٨ قامة أى ١٨٫٢٠٠ متر، وهى المسافه التى تعطيها فى الواقع خريطة هذا الجزء من سواحل مصر.

ونرى هنا أيضاً أن هذين النوعين من الغلوات ليسا قابلين للتطبيق على المسافة التى يشير إليها الجغرافى الإغريقى، لأننا إذا ما قسمنا المسافة الفعلية والتى تبلغ ٩٣٣٨ قامة من الاسكندرية حتى خرائب كانوب بـ ٥١ قامة للغلوة فسنحصل على ١٨٣ غلوة مصرية وهو رقم كبير لحد مبالغ فيه، أما إذا قسمناها بحساب الغلوة ٩٥ قامة، فسنحصل على ٩٨ غلوة، وهو رقم صغير لحد مبالغ فيه كذلك.

وإذا ما تابعنا نفس الحسبة لمسافة الـ ٧٠ غلوة والتى أشار إليها بالمثل سترابون، من باب نكربوليس إلى شيرسونيسوس بروموتوريوم Chersonesus promontorium وهو خايج على الساحل، إلى الجنوب الغربى من الاسكندرية، الذى يشغل مكانه حاليا الحصن الصغير التابع للشيخ (العجمى)، فإننا سنجد أن هذه المسافة تبلغ ٣٥٧٠ قامة تساوى $\frac{1}{3}$ ٦٩٥٨ متراً، بحساب الغلوة المصرية ذات الـ ٥١ قامة، و ٦٦٥٠ قامة تساوى $\frac{1}{3}$ ١٢٩١ متراً، بحساب الغلوة الإغريقية ذات الـ ٩٥ قامة ؛ ولكن المسافة التى تعطيها نفس الخريطة تبين أن تلك المسافة

التى بينت قبـــل ذلك تبلغ ٦٠٧٥ قامة تساوى ١٩٥/١٠٠ ١١٨٤٠ متراً بمحاذاة شاطىء الخليج .

وأخيراً ، فإننا نرى أن الغلوة المصرية ستكون أكثر صغراً من ذلك ، مادامت المسافة التى تعطيها ليست إلا حوالى النصف من المسافة الفعلية مع تقريب يبلغ ٣ ١/٢ ، ويمكن أن يكون هذا الاختلاف ناتجاً عن بعض الانحناءات والتعرجات التى كانت تزيد عن طول الطريق القديم بهذه النسبة .

٨٤ — بينت للتو فى هذا الفحص ، أن الغلوة المصرية كانت بالغة الصغر وأن الغلوة الإغريقية كانت فى المقابل بالغة الطول ، لحد لانستطيع معه أن نجد فى استخدامهما الامتداد الحقيقى للاسكندرية القديمة وللمدن المحيطة بها ؛ كما سبق أن قلت إن دانفيل ، الذى يشاطرنا هذا الإحساس ، كان قد انطلق من قاعدة غير مؤكدة فى أبحاثه حول متوسط طول الغلوة التى وجدها فى نسبة ٣ : ٤ على الأكثر أو على الأقل مع هذين المقياسين القديمين . وسأقدم فى الجدول الآتى بيانات عن المسافات المقارنة فى استخدام هذه الغلوات المختلفة :

بيانات عن المسافة الطولية للأماكن		عدد الغلوات المبينة	العدد بالقامات للغلوات ذات ٥١ قامة	العدد بالقامات للغلوات ذات ٩٥ قامة	المسافات المختلفة للأماكن بالقامة	المسافات المختلفة للأماكن بالمتر	عدد الغلوات باعتبار الغلوة تساوى ٥١ قامة	عدد الغلوات باعتبار الغلوة تساوى ٧٦ قامة	عدد الغلوات باعتبار الغلوة تساوى ٩٥ قامة
الاسكندرية	القديمة	٣٠	١ر٥٣٠	٢ر٨٥٠	—	—	٦٠	٤٠⅓	٣٢
«	الحديثة	٣٠	١ر٥٣٠	٢ر٨٥٠	ق ١ر٦٥٤٤ –	م ٣ر٢٢٥ –	٣٢	٢١⅔	١٧⅓
من الاسكندرية إلى	نيكوبوليس (بولكلى)	٣٠	١ر٥٣٠	٢ر٨٥٠	٤ر٠٠٠ –	٧ر٧٩٦ –	٧٨	٥٢⅓	٤٢
	كانوب (أبي قير)	١٢٠	٦ر١٢٠	١١ر٤٠٠	٩٣٣٨ –	١٨ر٢٠٠ –	١٨٣	١٢٣	٩٨
	شيرسونيسوس (حصن العجمى)	٧٠	٣ر٥٧٠	٦ر٦٥٠	٦٠٧٥ –	١١,٨٤٠ –	١١٩	٨٠	٦٤

وإذا ما قارنا هذه المعطيات فيما بينها ، ومع دلالات المسافات كما أمدنا بها المؤلفون القدامى ، فلن نجد سوى علاقات غير متوافقة ، وسوف نقتنع ، كما بين ذلك المسيو جوسلان Gosselin ، فى أبحاثه عن الجغرافية اليونانية ، أن سترابون لم يقدم عن الاسكندرية إلا مقاييس خاطئة ، لأنه هو نفسه لم يكن يعرف قيمة الغلوات المختلفة التى قدمها فى جغرافيته لمصر .

وقد أكون أكثر ميلا لتبنى ، كمقياس ، قيمة الغلوة كما يقدرها دانفيل أى بـ ٧٦ قامة ، تساوى ١٤٨,١٣ متراً ، إذ يبدو لى هذا الطول وسطاً نسبياً ، بحيث أنه يقرب أطوال المسافات من تلك التى أعطيت ـ على وجه التقريب ـ بشكل تخمينى ، للاسكندرية القديمة ؛ ولكننى سأقف بأبحاثى عند هذا الحد ، إذ سيكون من التجاوز أن أسعى لكى أضع الأسس لغلوة جديدة ، فى الوقت الذى يتبنى فيه العلماء هذا العدد الكبير من الغلوات المختلفة ، وفى الوقت نفسه الذى ينقسمون فيه ، إلى هذا الحد ، حول النظام المترى للقدماء ؛ لكننى سأكتفى بملاحظة حول هذا الموضوع ، هى أن النص الذى انتقل إلينا من المؤلفين القدامى ، لابد أن يكون قد أصابه بعض التحوير على يد المترجمين أو الشارحين ، بقدر ما ينبغى أن نقتنع بذلك عن طريق القيام بفحص مدروس لجغرافية إراتوستينوس Eratosthène وبطليموس ، ومؤلفين آخرين أقل قدما .

٨٥ ــ يبقى على أن أبرهن على أن السور الحالى الذى ينسب إلى العرب ليس هو نفس السور فى عهد الإغريق ، وهذا ما ذهب إليه ـ على عكس رأى المسيو دى توت M. de Tott [1] ـ كل من دانفل وبوكوك Pococke ونيبور

(١) يظن المسيو دى توت (Mémories sus les Turcs Tome II, p.180) أن السور الحالى المنسوب للعرب هو نفس سور الإغريق ؛ لكن دانفيل (Nemoire sur l'Egypte) ، وبوكوك (Voyage en Orieut, t.ler, p 493) ، يذكرون على العكس من ذلك ، لأنه فى العام ٦٠٠ من الهجرة (١٢١٢ م) أمر خلفاء صلاح الدين بإعادة إنشاء أسوار الاسكندرية ، ويقول نيبور (Voyage en Arabie) أن النقوش الكوفية ، الموجودة على الأبراج الرئيسية للسور الحالى لمدينة الاسكندرية ، تنسب بناءه إلى الحكام العرب .

Nicbuhr ، وسونيني Sonnini ، ومؤلفين آخرين محدثين أشاطرهم نفس رأيهم .

٨٦ — أما الخرائب الهائلة التى نجدها فى ضواحى الاسكندرية ، وبشكل أساسى على طول الساحل الشرقى للميناء الكبير ، وكذلك فى الشمال الشرقى وإلى الجنوب ، وفيما بين السور وشواطىء ماريوتيس ، فهى قرائن تشهد بأن المدينة كانت تحتل فى الماضى مساحة من الأرض أكثر اتساعاً بكثير . وفى الواقع ، فثمة نقطة يتفق عليها كل المؤرخين ، هى تلك التى تحدد العرض الذى كانت تشغله المدينة ، أى فيما بين البحر والبحيرة ، إلى الجنوب . يقول كيدت كورس « كانت الاسكندرية تشمل فى الواقع ، كل الفراغ الواقع بين البحيرة والبحر » وعلى هذا ، فإذا كنا فى وضع يسمح لنا بملاحظة امتداد مياه الاغراق الحديثة والقريبة من هذه البحيرة والتى تأتى عن طريق البحر ، وأن نلاحظ كذلك خرائب المبانى الموجودة على شواطئها ، على الرغم من أننا لم نستطع معرفة أين كانت توجد حدودها الأخيرة ، وما إذا كان النهر ، كما حدث قديماً ، يصب فيها المياه التى تزيد من اتساعها ، فإننا على الأقل ، نستطيع أن نحددها بربطها بخرائب الأرصفة وأنقاض الحواجز والخزانات أو الصهاريج ، التى نجدها على حواف الشواطىء الجنوبية للخليج أو ترعة الاسكندرية .

وقد سبق أن قال سترابون ، قبل كيدت كورس « إن المرء لم يكن يصل إلى الاسكندرية إلا عن طريق برزخين ضيقين ، بينما لا يمكن الوصول إليها من جهة البحيرة إلا عن طريق موانى النهر » ويضيف هذا الجغرافى « أن النيل الذى يزيد فيضانه من حجم بحيرة مريوتيس لا يترك للاسكندرية ، عند انحساره ، أى جزء من مستنقعات يمكن أن ترتفع منها روائح كريهة وضارة » إذن ، فلقد كانت البحيرة ، فى حالة المياة المنخفضة ، تغرق الأسوار وأرصفة موانى النهر ، وكذلك السور الجنوبى لهذه المدينة .

٨٧ - وينبغى كذلك أن نكون أكثر ميلا للاعتقاد بأن السيرك أو الهيبودروم Hippodrome ، وكذلك المرتفع الذى ينهض عليه اليوم عمود سبتيموس سيفيروس (عمود السوارى) ، كانت كلها تقع داخل المدينة ، اللهم إلا إذا كنا نفترض أن كل هذه المواقع والخرائب العديدة التى نقابلها ، كانت تشكل جزيرات متباعدة داخل مياه ماريوتيس .

٨٨ - وثمة دراسة أخرى ، يتفق عليها بشكل عام ، وهى أن كل الجزء الواقع إلى الشمال الشرقى ، خارج السور الحالى ، والمطل على الميناء الجديد ، والذى كان يسمى فيما مضى portus magnus (الميناء الشرقية) ، كان يشكل جزءاً من هذه المدينة القديمة ، ولايدع وصف سترابون، الذى يضع هناك حى بروخيون أو حى القصور ، وميناء الملوك ، وكذلك وصف هيرتيوس Hirtius الذى يعطيه له فى كتابه عن الحرب الأهلية فى الاسكندرية ، لايدع كلا هذين الوصفين أى شك حول هذا الموضوع .

إن الخرائب الهائلة التى يعثر عليها ، والتى تذكر بقاياها بكل المبانى التى تتطابق مع هذه الشهادات بنفس النظام والترتيب اللذين ينسبهما إليها جغرافيونا . يقول يوسيفوس ، الذى كتب تاريخ اليهود فى هذه المدينة ، فى حوالى السنة ٧٠ من الميلاد ، إن اليهود كانوا يسكنون فى زمنه جزءاً من حى القصور ؛ ويقول سان جيروم ، الذى كتب عن نفس المدينة فى حوالى عام ٤٢٠ ، إن نفس هذا الحى ، والذى كان منفصلا فى ذلك الوقت عن المدينة ، قد أصبحت ملجأ لبعض النساك المنعزلين ، كما كان مهجوراً تماماً فى عصر سانت إيفان ، الذى كان يعيش فى نحو نهاية هذا القرن .

وينتج عن هذه الشهادات التى لا يمكن الطعن فى صحتها ، أن السور الحالى للمدينة سور حديث ، حيث أن كل الجزء الذى كان مأهولا للغاية فى عهد البطالمة وحتى نهاية القرن الرابع ، والذى يستخدم اليوم كمدفن خاص بالطائفة

اليهودية ، يظل مهجوراً كلية ، وخارج هذا السور نفسه الذى ننسب بناءه إلى الحكام العرب .

٨٩ — قلنا فى القسم الأول من هذه الدراسة ، الفقرة رقم ٢٠ ، إن المرء يلاحظ بدهشة ، ذلك الاستخدام غير المألوف فى أى مكان آخر ، لعدد كبير من الأعمدة التى أدمجت فى بناء جسم أبراج وجدران هذا السور . وأن هذه الأعمدة الموضوعة بشكل أفقى ، بين مسافة وأخرى ، تسمح برؤية أطرافها على واجهات هذه الجدران ، وإليكم الملاحظات التى يمكن استنتاجها من ذلك والتى تأتى لتدعم تحليلنا .

لا يتخيل المرء إلا أن بناة الاسكندرية قد استطاعوا أن يجلبوا بنفقات باهظة ، من الصعيد ، ومن ممفيس ، وهليوبوليس ، بل ومن اليونان نفسها ، وإيطاليا ، هذه الكمية الهائلة من الأعمدة من الحجر الرملى ، وكذا الأعمدة الجرانيتية والرخامية ، والتى تنتمى إلى أنواع أخرى[١] لكى يستخدموها فى بناء الأسوار الحصينة ، التى التحمت بجسمها هذه الأعمدة ، على هذا النحو الغامض ، ذلك أنهم بالتأكيد لم يكونوا ليكلفوا خاطرهم كل هذه المشقة ولا أن يتكبدوا كل هذه النفقات فى قطعها وصقلها ـ الأمر الذى لا يزال واضحاً حتى اليوم ، أو الذى كان واضحاً فيما مضى ، حيث يتحدث كل المؤرخين القدامى عن هذه القصور ، وهذه المعابد ، وهذه الأروقة ، وهذه الشوارع المزدانة بالأعمدة ، والتى كانت مثار إعجاب كل من زار هذه المدينة ؛ كما لا ينبغى الاعتقاد بالمثل ، بأن ألوف الأعمدة التى تراها مكدسة ، لتشكل أرصفة وحواجز بحرية فى ميناءى المدينة الحديثة ، قد قطعت مبدئياً لهذا الغرض . أليس من الطبيعى للغاية أن

---

(١) يقال إن من الضرورى أن كثيراً من هذه الأعمدة المصنوعة من الرخام الأبيض قد جلبت من اليونان أو من إيطاليا ، حيث أنه من المعروف أن كل المبانى القديمة فى مصر العليا ، لا تشتمل إلا على أعمدة حجرية أو جرانيتية ، وفضلا عن ذلك ، فاننا لا نعرف محاجر للرخام الأبيض فى مصر .

نظن أن هذه المدينة الرائعة التى أخنى عليها الزمن والتى دمرتها الحروب السياسية والدينية أثناء قرون المسيحية الأولى ، والتى انتهى عمرو البغيض (كذا !) بأن قلبها رأساً على عقب ، وحيث لم تعد تشكل إلا مدينة الأنقاض والخراب عند خلفاء هذا الغازى ـ قد أعيد بناؤها من نفس مواد أنقاضها ؛ وأن ثمة ألوفاً من الأعمدة المحطمة والمقلوبة ، والتى لم يعد لها نفع فى تجميل معابد مخصصة لعبادة اندثرت أو لقصور أخرى ومبانى عامة ، سوف تستخدم منذ الآن فى دعم وتقوية جدران هذا السور[1] ، ونضيف إلى ذلك أن الطابع الذى تحمله عمارة الجدران والأبراج الجميلة فى الاسكندرية هو ـ وبشكل مطلق ـ نفس الطابع الذى تحمله الأجزاء التى ما تزال ظاهرة من السور ، وبخاصة قلعـــة القاهرة ، ونتيجة لذلك فإننا نقرر بشكل موضوعى أن سور عاصمة مصر الحديثة وقلعة هذه المدينة ، يعود إلى حكام مسلمين ، وبصفة خاصة إلى السلطان صلاح الدين الذى أمر ببنائه فى الجزء الأكبر ، فى السنوات الأولى من القرن الثالث عشر .

٩٠ — وهناك ملحوظة أخيرة تأتى لتدعم افتراضنا ، تقوم على الشكل الدفاعى الذى للسور ابتداء من البرج المسمى بالبرج الرومانى على الميناء الجديد وحتى باب رشيد ، والذى يبلغ امتداده ١٥٩٠ر١ متراً ٨ ٤ ٨١٥ (ب قدم قامة) ؛ ويلاحظ المرء فى الواقع أن نظام كل هذا الجزء هو أن يدافع عن نفسه دفاعا ذاتياً ضد المناطق الخارجية التى تحتلها اليوم مقابر اليهود ، والتى تقع كما سبق أن بينا فى نفس حى بروخيون القديم أو حى قصر الملوك ؛ ومن جهة أخرى فنحن نعرف أن بوليوس قيصر كان قد قام بتحصين هذا الحى من بقية المدينة ، على نفس نظام

---

(١) لا بد لنا أن نظن أن استخدام هذه الأعمدة التى وضعت على هذا النحو فى جسم الجدران كانت له غاية مفيدة ، هى منع أو إيقاف سقوط الأجزاء العليا من هـــذه الجدران فى الحالة التى تــكون فيــه الأجزاء السفلى قد تــكسرت أو تقوضت بفعل المنجنيق أو أية آلات حربية أخرى ، كانت تستخدم فى ذلك الوقت ، أوقات الحصار .

قلاعنا ، أثناء الحصار الذى تحتم عليه القيام به ضد قوات البطالمة وأهل الاسكندرية ؛ لذلك لا يمكن للمرء على الإطلاق أن يستخلص فى هذه الحالة ، أن السور الحالى لهذا الجزء من المدينة ، كان جزءاً من مدينة الإغريق على أى وجه من الوجوه ، حيث أنه قد بنى بنظام الدفاع المضاد أى أنه يصارع ويحارب — على العكس — حى الملوك القديم[1] .

٩١ ويمكن الاعتقاد ، تبعا لما يقوله أحد المؤرخين العرب ، وهو ابن عبد الحكم والذى يورده الفرجان فى صفحة ١٥٩ ، أن هذه المدينة كانت مزودة بثلاثة أسوار بالشكل الذى كانت عليه كل المدينة القديمة على وجه التقريب ، ومن المحتمل عندئذ أن السور العربى الذى نحن بصدده هو السور الداخلى للحصن القديم الذى على أنقاضه ، قام الحكام المسلمون بإعادة بنائه ؛ لكن صمت المؤلفين القـــدامى عن موضوع هذه الأسوار الثلاثة لا يسمح بالتوقف كثيراً عند هذا الاحتمال ، الذى لا يمكن أن يعد سوى دعم ضعيف لما نحن بصدده .

٩٢ — وأنهى هنا هذه المناقشة التى تؤكد بشكل لا نزاع فيه ما قلته من أن السور الحالى ، الذى قلص إلى حوالى نصف الاتساع الذى كان عليه فى زمن الإغريق ، لايمكن أن يكون فى الواقع إلا من عمل الحكام العرب أو ربما أباطرة المشرق ، ذلك أنه يمكننا أن نستنتج من النص التاريخى الذى أوردناه من

---

(١) لا بد أن نكون على يقين من أن هذه المدينة قد قلبت رأساً على عقب ، وأن سورها الحالى الذى يعلوه مائة برج ، ليس فى جزئه الأكبر ، إلا عملا بالغ الحداثة ، حتى أننى تعرفت عند باب رشيد ، فى الحفريات التى قام بها المهندسون العسكريون لتغطية هذا الباب ، أثناء حصار هذه المدينة فى يولية ١٨٠١ ، على حصن نصف دائرى تذود عنه من الأمام حفرة ، كما أنى تعرفت على طريق مرصوف بالبازلت الأسود على طريقة الشوارع الرومانية . وقد شق هذا الطريق على عمق خمسة أقدام تحت نفس هذا الباب الحديث ، وعلى هذا النحو كانت تزدحم شوارع روما كما نتعرف على ذلك اليوم فى عمود تراجان ، وفى قوس سبتيموس سفيروس وفى أماكن أخرى من عاصمة العالم القديمة هذه .

حصار الاسكندرية على يد عمرو ، أن هذا السور قد تقلص ، ولا بد ، فى جزء منه عند نحو منتصف القرن السابع إلى الإتساع الذى له اليوم من ناحية الجنوب ، لأن هذا الغازى كان ولا شك معسكراً إلى فوق مرتفع سبتيموس سيفيروس عندما أعطى هذه الاجابة البالغة الحدة لمقوقس الاسكندرية : هل ترى هذا العمود ؟ لن نخرج من مصر إلا إذا أكلته[1] . ومع ذلك فلابد أن هذه المدينة كانت قوية للغاية فى هذه الفترة ، حيث فقد على أسوارها هذا القائد ٢٣ ألف رجل بعد حصار دام ١٤ شهراً ، وإنى لأميل إلى الإعتقاد بأن أول إعادة لبناء سور الاسكندرية ، قد تمت قبل وقت قليل من انتهابات هذه المدينة تحت حكم الامبراطورين كلوديوس الثانى وأورليان فى عامى ٢٦٩ و ٢٧٥ من العصر الحديث .

٩٣ — وبعد أن أوضحنا أن المرء لا يمكنه أن يؤسس على معطيات المؤرخين القدماء ، فيما يخص الامتداد المبدئى (للاسكندرية) فى عصر امبرطوريتى الإغريق والرومان ، حين حلت الصحراء محل الجزء الأكبر من أرض هذه العاصمة القديمة لمصر ، فلا يبقى على سوى أن أبرز المواقع التى حددتها لبعض هذه المبانى على الخريطة المرفقة .

وان أضع فى اعتبارى هنا أن أقيم مناقشة جديدة سعيا للعثور على الشكل الذى كان عليه سور هذه المدينة ، والذى يقارنه بلين Pline بمعطف مقدونى إذ ليس لذلك كبير أهمية ، وفضلا عن ذلك فلابد أن نفترض أن نقاشا كهذا سيكون فيه من الحذق أكثر مما فيه من الدقة والتحديد : لا بد إذن أن أنبه مسبقا أن الخط الذى يمثله على الخريطة قد تأسس على تصور الأماكن فى حالة دمارها الحالى أكثر مما هو مؤسس على أبعادها التى قدمها عنها المؤرخون القدماء

---

(١) انظر الهامش السابق ووروده مع الفقرة ٨١ من هذه الدراسة .

الذين يصعب أن نوفق بين مقاييسهم المختلفة ، ولا بد أن القارىء سيقتنع بذلك حين يطلع على الأطوال المتنوعة للمقاييس القديمة والحديثة التى بينتها فى هذا الخصوص ، على هذه الخريطة .

٩٤ — قلت من قبل إننى أعتقد ان حصن الفنار ، كان يمثل موقع هذا المبنى القديم ، أحد أعاجيب الدنيا السبع ، وقد تأسس هذا الرأى على شواهد تاريخية ، وعلى البراهين الآتية :

ينسب المؤرخون العرب إنشاء الفنار(١) إلى الفرعون العاشر مصرايم ابن بوصير ، وهو نفس الفرعون الذى أسس راكوتيس ؛ كما ينسبونه كذلك إلى الملكة دوليكا Douleka وإلى دارا (داريوس) الفاتح وإلى بطليموس فيلادلفوس ؛ وإلى كليوباترة ، وما يقوله هؤلاء المؤلفون عن هذه المقاييس هو بلا شك أمر مبالغ فيه . ومع ذلك ، فينبغى القول على الدوام بأن هذا المبنى جدير بأن يعد من عجائب الدنيا السبع ؛ وقد تحطم الفنار جزئياً عند حوالى نهاية القرن الهجرى الأول فى عهد الخليفة وليد بن عبد الملك ، حوالى عام ٧٠٥ من الميلاد ، بفعل خدعة من أحد الأروام كما يذكر المقريزى ، وقد أدت هزة أرضية ، حدثت سنة ١٧٧ هجرية أو ٧٩٣ م إلى انهيار جزء من قمته ؛ وهكذا كان الفنار مبتوراً فى السنة ٢٤٨ ﻫ (٨٦٢ م) ، وفى حوالى ٢٦٠ ﻫ (٨٧٣ م) أمر أحمد بن طولون بتتويج الفنار بقبة خشبية . ونجد على الواجهة الشمالية ، وهى تلك التى تطل على البحر ، نقشاً يبلغ طول حرف من حروفه ذراعا وبعرض يبلغ الشبر ، وهذه الحروف التى لم يقدم لها شرح ما ، كانت ولا شك هى حروف النقش الإغريقى الذى أمر بتنفيذه هناك سوستراتوس من إكنيدوس Sostrate de Cnide سنة ٢٨٣ ق . م ؛ وقد أدى زلزال أرضى مرعب ، شعر به الناس فى بلاد البربر ومصر وسوريا ، إلى تحطيم جزء آخر منه . وفى العام

---

(١) Voyage d'Egypte et de Nubie, par Norden, t. III. édition de Langlès, p. 162 et 169, Paris, 1801.

٦٧٣ هـ (١٢٧٤ م) تقوضت أعمدة وسقوف الفنار ؛ كما أنهار مسجد بنى فيه في عام ٧٠٢ هـ (١٣٠٣ م) بفعل زلزال أرضى آخر ، أضر بالفنار وبعض أجزاء من جدران أبراج الاسكندرية ، حتى أنه لم يكد يبقى شيء من هذا المبنى، وقد أمر الناصر محمد بن قلاوون ؛ فى السنة التالية ، بإعادة بناء المسجد ، الذى ظل موجوداً حتى زمن المقريزى ، فى حوالى نصف القرن الخامس عشر .

ومن جهة أخرى ، فإننا نقرأ عند عبد الرشيد أن سليم (الأول) ، فى عام ١٥١٧ ، قد أمر ببناء مسجد وقصر فى نفس مكان الفنار ، الذى كان فى ذلك الوقت قد تخــــرب تماماً ؛ ولا يزال المسجد والقصر موجودين حتى اليوم ، ويحملان نفس الاسم[١] .

٩٥ — وسوف ندرك بالتأكيد ، تبعا لتفاصيل هذه الأحداث ، أن الفنار القديم لم يستطع البقاء فوق الصخرة المسماة الماسة Diamant ، التى تحدثت عنها فى القسم الأول ، الفقرتين ٦ ، ٧ حيث أن أنقاض هذا المبنى الضخم ، الذى قوضته رأسا على عقب زلازل أرضية عديدة ، قد غمست البحر فى المناطق المجاورة ؛ كما يلاحظ المرء فى الواقع ضحالة المياه فيما حول حصن الفنار ، فى الوقت الذي لا نجد فيه على العكس من ذلك ، إلا مياها شديدة العمق حول الماسة .

٩٦ — ولا يفوتنى عند الحديث عن الفنار القديم أن أتناول الجزيرة التى منحته اسمه ، والتى كان موقعها موضعا لمناقشات طويلة بين المؤلفين والجغرافيين

---

(١) Décade Egyptienne, t. Ier, p. 237 ;

وكذلك :

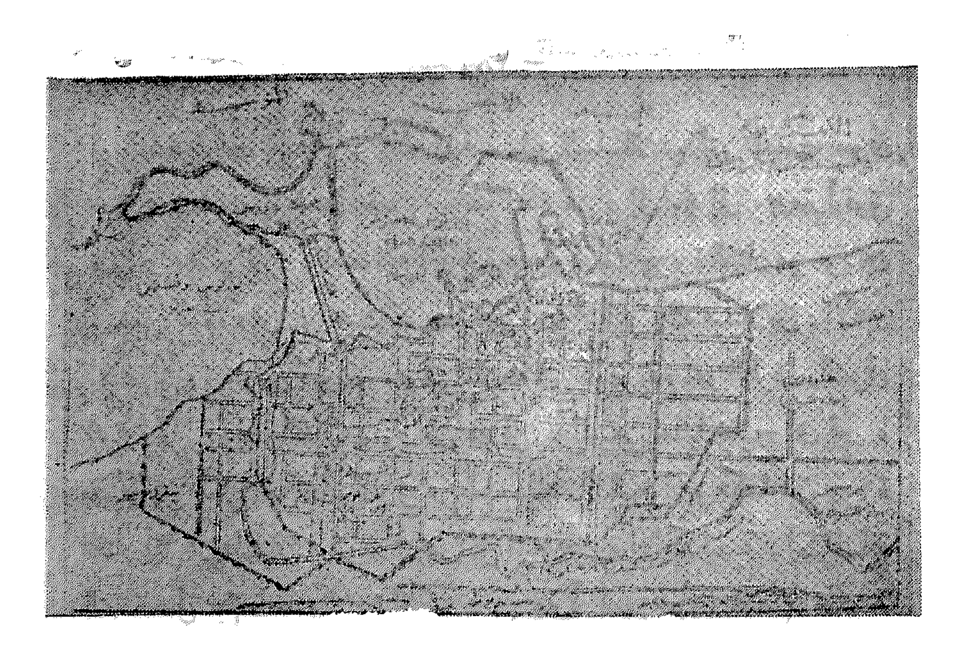
Mémoire sur l'Egypte, t. II, p. 54, Paris, 1800.

المحدثين ، ولن أتناولها هنا إلا لكى أحسم الأمر ، إن كان ذلك ممكنا ، تبعا لما ذهب إليه سترابون ، وبفضل المعرفة الكاملة التى حصلت عليها عن مواقع الأماكن .

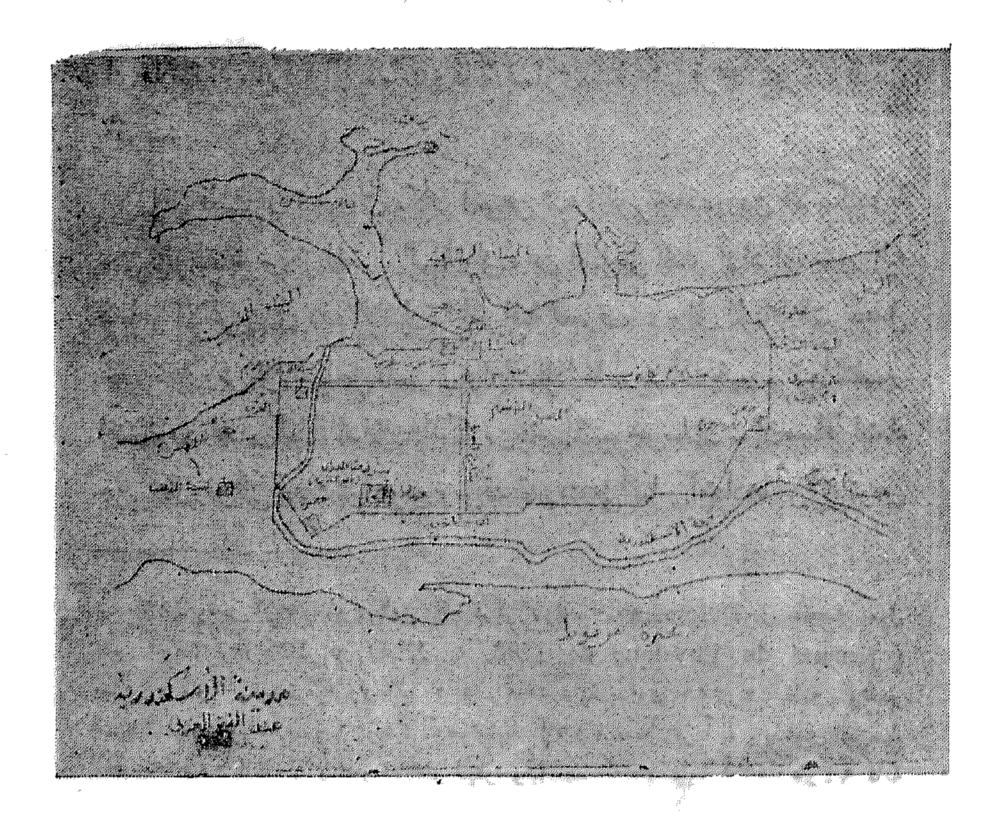
يقول سترابون Strabon ، إن هوميروس الذى كان قد سافر إلى مصر كثيراً ما كان يخلط الأساطير بتاريخه الشعرى ، وفى الواقع ، فإنه يمكن الظن بأن هذا المؤلف قد استخدم الأساطير على هذا النحو ، فى تلك الفقرة التى أدت إلى هذه المناقشات الطويلة ؛ يقول هوميروس ، إن جزيرة فاروس كانت تبعد عن الشاطىء المصرى بمسافة تساوى تلك التى تقطعها سفينة تدفعها ريح مواتية فى يوم كامل[1] ، إن هـــذا النص الذى ارتكز عليه خطأ كثير من المؤلفين المحدثين كى يتلمسوا تقدم ترسيبات الدلتا ، هو أبعد عن أن يكون قد توضح بدرجة كافية ؛ وهذا هو الفحص الذى يدعم رأيى بهذا الخصوص .

إذا لم يشأ المرء أن يفهم من كلمة فاروس،إلا أنها هى هذه الجزيرة الصغيرة التى كانت تقع بالقرب،وإلى الشمال الغربى،من راكوتيس ، تلك القرية البحرية التى بنيت عندها مدينة الاسكندرية ، فإننى فى وضع يسمح لى بأن أوكد أن هذا النص عار من كل دقة جغرافية ، حيث لم تكن تبعد هذه الجزيرة الصغيرة عن مدينة الاسكندرية إلا بمسافة ٧ غلوات ، وهو ما يساوى ٦٦٥ قامة أى ١٢٩٦ متراً ؛ وبمعنى آخر ، فإن هذه المدينة قد بنيت فوق شبه جزيرة طويلة ، تمتد (أى شبه الجزيرة) من المصب الكانوبى عند الشرق إلى جنوب الجنوب الغربى ، لمسافة ١٠ ميريامتر أو ٢٠ فرسخا ، وترتبط ، حيث هى تتكون من سلسلة من الجبال تتصل بمرتفعات يبدو أنها كانت تنتهى إلى البحر الفارغ

(١) هوميروس ، الأوديسا ، الكتاب الرابع ، الأبيات من ٣٥٤ إلى ٣٥٧ وقد جاء هوميروس بعد حرب طروادة بـ ٣٧٧ سنة ، وهى الحرب التى قامت حسبما يذكر هيرودوت فى العام ٣٤٣٤ من العصر الجوليانى أو ١٢٨٤ قبل الميلاد .



الاسكندرية فى العهد الاغريقى والرومانى



الاسكندرية عند الفتح العربى لمصر

فى الصحراوات الليبية ؛ لكن هــــذه السلسلة ، التى ليست سوى صخرة متصلة من طبيعة حجرية ترتفع عادة من ٥ إلى ١٠ إلى ٢٠ متراً فوق مستوى سطح الماء ؛ وكانت شبه الجزيرة هذه وكذلك جزيرة الفنار موجودتين فى زمن هوميروس ، حيث قد جعل هــــذا الشاعر بطله مينيلاس ، الأمير الإغريقى ، يرسو فى كانوب ، وهى المدينة التى كانت تقع نحو الطرف الشرقى لشبه الجزيرة هذه بالقرب من رأس هيرقل ، المسمى حاليا خليج أبى قير ، حيث كان ينتهى الفرع الـكانوبى ويصب مياهه فى البحر ؛ وهكذا فإن جزيرة الفنار أقل ارتفاعا عن مستوى أرض كل شبه جزيرة الاسكندرية ، أما المسافة التى تفصل بينهما ، والتى تبلغ ٢١٧٢٠ر٢١ متراً (١١٠١٤٤ر١١ قامة) محسوبة باستخدام حساب المثلثات ، وفى خط مستقيم مع خليج هيرقل ، فهى أقل بكثير جداً من الإبحار ليوم ، وهو الذى يقدر بـ ٥٠٠ غلوة أو ٦٠ ميلا رومانيا[1] ، اى ما يبلغ ٤٥٠٠٠ر٤ إلى ٤٧٠٠٠ قامة تساوى ستة عشر فرسخاً بحريا ونصف الفرسخ .

إذن فعلينا أن نبحث فى مكان آخر عن شبه الجزيرة هذه، ومن الاسكندرية حتى كانوب، بل وحتى المصب الـكانوبى ، عن الساحل الذى أراد أن يشير إليه الشاعر الإغريقى فى هذه الإشارة الجغرافية الصرف ، وإلى المسافة التى تفصل جزيرة فاروس عن الساحل المصرى، ولذلك فإذا ما أريد أن يفهم ـ تبعاً للتفسير الذى نورده لبعض العلماء المدققين ؛ نذكر من بينهم المسيو جوسلان ـ ان مسافة ابتعاد جزيرة فاروس التى تحدث عنها هوميروس قد قدرت على أساس ابتعادها عن أيجبتوس

---

(١) يقدر الإبحار ليوم كامل كما يذكر دولوميان Dolomien فى ملخصه حول نفس الموضوع (Journal de Physique de 1793. t. XLII, p. 176) بـ ٥٠٠ غلوة أو ستين ميلا رومانياً ؛ فالـ ٥٠٠ غلوة تساوى ٤٢٢٥٠ر٤٢ قامة ، وتقدر الـ ٦٠ ميلا رومانياً بـ ٤٥٣٦٠ر٤٥ وهو مايبلغ ١٦½ فرسخاً بحرياً ، ويساوى الفرسخ البحرى ٢٨٥٣ قامة ، ويقدر الإبحار لنهار وليل بـ ١٠٠٠ غلوة أو ٩٤٥٠٠ر٩٤ قامة حسبما يقدر تيوفيل Théophile ، كما يذكر الأستاذ جوسلان Gosselin فى كتابه :
Navigation des anciens, t, II. p. 3 .

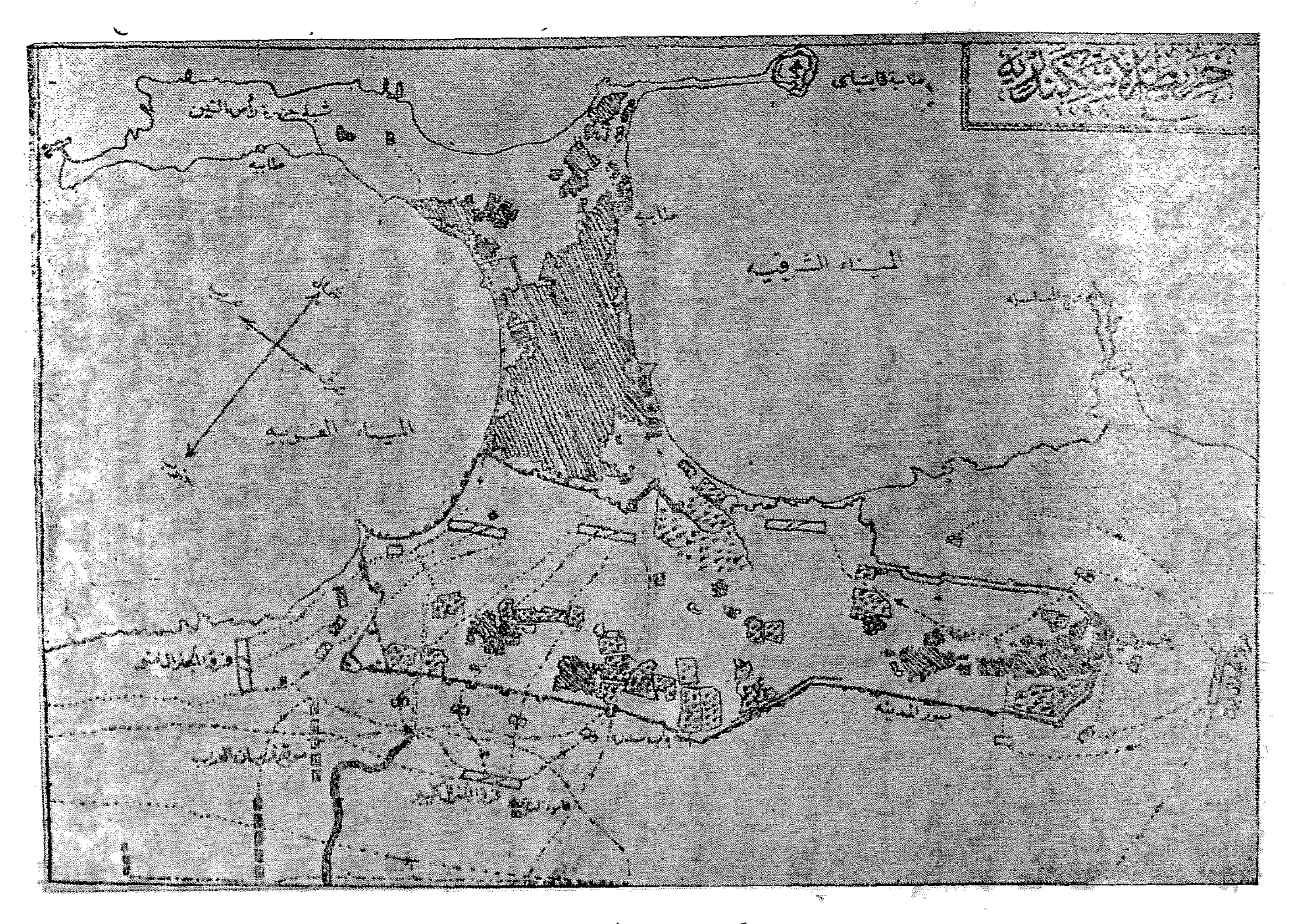
Aegyptus ، وهو الاسم الذى كان النهر يحمله فى ذلك الوقت ، وليس مطلقاً عن مصر التى كانت شواطئها فى ذلك الوقت ليست سوى أرخبيل ، فإننا نرى أنه ينبغى ـ والحالة هذه ـ أن يكون مصب النهر الموجود إلى أقصى الغرب ، وهو المصب الكانوبى ، كما كان يسمى زمن حصار طروادة ، فى ميتيليس Metelis أو فى هرموبوليس Hermopolis (حالياً فوه ودمنهور) الواقعتين على بعد ١٤ و ١٦ فرسخاً إلى الجنوب الشرقى ، ومن العسير أن نفسر على خلاف ذلك ، نص الشاعر الإغريقى ، الذى كان ، حسبما يذكر سترابون على علم ببرزخ السويس الذى كان موجوداً فى عصره .

ولكن ، هل كان لهوميروس أن ينسى عند حديثه عن جزيرة فاروس هذه أن يتكلم عن شبه الجزيرة هذه ، الطويلة والضيقة والتى تقع أمامه على بعد سبع غلوات فقط ، وتضم مدن كانوب ، راكوتيس ، نيسى ، بلنتين (رشيد) ، ومدينتى تابوزيريس إلخ . إلخ ، اللهم إلا إذا لم يكن يعنى بهذا الاسم شبه الجزيرة هذه نفسها ؛ لكن هذا الصمت عن وجود شبه الجزيرة التى كان ينبغى أن يلحق بها كذلك بقية الجزر ، وكل الساحل الصحراوى المرتفع ، والذى ينتهى جنوبا ببحيرة ماريوتيس ، هذا الصمت لابد أن يحمل على الاعتقاد أن جزيرة فاروس التى تحدث عنها الشاعر الإغريقى ، والذى قال إنها كانت تقع فى أعلى البحار ، لابد أنها قد غرقت ، أو بمعنى أصح أنها لم تكن سوى أسطورة أو جموح شعرى ، ان لم نقل بأنها مبالغة ، حيث أننا لا نستطيع مطلقا أن نحملها ، كما رأينا ، على أنها الجزيرة الصغيرة التى أمر بطليموس ، بعد أكثر من ستمائة عام بأن يشيد عليها هذا البناء ، أحد عجائب الدنيا السبع ، والذى عرف باسم فاروس ، وتوجد هذه الجزيرة الصغيرة اليوم ، وقد اتصلت بفعل عمليات ردم الرمال بشبه جزيرة الإسكندرية .

ويخيل إلى أن ما سقته الآن يحسم نهائياً هذه المسألة .

٩٧ — أعود الآن إلى الميناء الجديد الذى يحمى مدخله عند الشرق حصن صغير ، والذى أدى موقعه أمام وفى مواجهة حصن الفنار لأن يشار إليه باسم المنارة أو الموقد Pharillon ، ولست أظن أن هذا الحصن الصغير يشغل مكان حاجز الموج القديم الذى كان يعرف باسم أكرولوخياس (السلسلة حالياً) لأن هذا الحاجز ولابد ، قد كان فيما مضى يتوغل كثيراً داخل البحر باتجاه الفنار ، إذا ما اعتمدنا فى ذلك على نص من لوكان Lucain ؛ إذ يقول هذا الشاعر بأن كليوباترة عندما أرادت اللحاق بقيصر فى الاسكندرية ، قد دخلت إلى هناك عن طريق الميناء الكبير ، بعد أن أدركت حاكم الفنار ، الذى فتح لها سلسلة فناره وتركها ترسو فى ميناء حى الملوك حيث كان يسكن قيصر ، ويبدو أن مدخل الميناء الكبير ، كانت تقفله سلسلة كانت لا تزال تستخدم حتى عام ١٥٥٠ كما يذكر ليون الأفريقى ، الذى كان يطلق على هذا الميناء اسم مرسى السلسلة أى ميناء السلسلة ، وقد رأينا فى القسم الأول ، الفقرة ٤ أن فتحة هذا الميناء الذى يقع بين الحصنين اللذين يذودان عن مدخله ، كانت تبلغ ١٧٨٩ متراً (= ٩١٧,٥ قامة)، ولسنا نتصور — دون شك — أنه ليمكن أن تمتد هذه السلسلة من حصن لآخر بعرض هذا الممر ، بل يمكننا أن نستخلص أن الأكرولوخياس كان متقدماً بكثير نحو الفنار مع خط السلسلة الصخرية وخط أعماق المياه الضحلة ، كما أوضحناه على خريطة الاسكندرية .

٩٨ — وقد رأينا فى هذا القسم ، الفقرة ٧٩ ، أن المرء يظن أنه قد تعرف على إتجاه الهبتاستاد فى الخط الذى يمر بالبرج الشمالى لسور الميناء القديم ، والحصن الواقع فى الميناء الجديد ، بالقرب وإلى الجنوب الشرقى للطريق الذى يغطيه حصن الفنار ، وتماثل هذه المسافة التى تبلغ ٦٦٥ قامة مع تلك التى تبلغ سبع غلوات أولمبية ، لكن اتجاهها لا يتماثل مع ذلك الذى يقدمه سترابون ، حين يقول أن الهبتاستاد كان يبتدىء من القارة ويتجه نحو الطرف الغربى



الاسكندرية وقت الحملة الفرنسية

لجزيرة فاروس ، بحيث أنني أذهب لحد أن أعطيه نفس الاتجاه الذي للبرج الكبير المشرف على ساحة الميناء الجديد ، نحو الحصن الصغير الواقع في مركز الجون الذي تكونه جزيرة فاروس إلى الشمال الشرقي من الميناء القديم ؛ أما المجرى المائي الهندسي ، الذي تحطم اليوم ، والذي تحدثنا عنه في القسم الأول ، الفقرة ٢٩ ، والذي قد يكون هو أنقاض ذلك المجرى الذي كان ينقل المياه ، حسبما يذكر سترابون ، إلى جزيرة فاروس عن طريق الهبتاستاد ، فيقدم بعض الدعم لهذا الرأي ، ومع ذلك فكيف كانت مياه هذا المجرى تعبر الميناءين اللذين كانا يسمحان بمرور السفن من خلال الهبتاستاد ؟ واضح أن هذا السؤال يقدم بعض الصعوبات التي سيكون علينا أن نخوض طويلا لنبحث في صميمها .

٩٩ — ووسط الخرائب التي تحيط بالشرق الشرقي للميناء الجديد ، يتعرف الإنسان ، حين يترك جسر الأكرولوخياس المحطم ، والمسمى حالياً بالمنارة Pharillon ، على حاجز بحري ، لابد أنه كان جزءا من مدخل ميناء الملوك المغلق .

١٠٠ — لم نستطع العثور على آثار جزيرة أنترودس Antirrhodos التي كانت تحجب ، كما يذكر سترابون ، مدخل هذه الميناء ، اللهم إلا إذا كانت هذه الجزيرة قد احتلت موقع هذه الشعاب الصخرية التي توجد بحذاء سطح المياه ، والتي لاتزال توجد عند مركز الميناء الجديد ، منعطفة نحو غرب الجنوب الغربي .

١٠١ — وبمحاذاة الساحل إلى الجنوب ، توجد بقايا حاجز بحري آخر ، يلفت النظر ببنيانه الحجري الذي يتكون من أحجار بالغة الضخامة ، وتعود هذه الخرائب بلا جدال إلى هذا المرفأ أو الممر الذي يسميه بوليب : سيرنكس Syrinx ؛ والذي كان يؤدي إلى البوزيديوم posidium ـ ذلك الذي حددت

مكانه بين تلك الخرائب الهائلة التى توجد فى هذه المنطقة تحت اسم قصر خرب palais ruiné (فى الخريطة) فى هذه المنطقة أيضاً كان يوجد معبد لنبتون، الذى أقام تجاهه مارك أنطونيو بعد أن هجره حزبه، وهرب مع كليوباترة من خصمه اللدود أغسطس، قصراً أسماه تيمونيوم Timonium لكى يعيش فيه منسياً من العالم، على غرار Timon تيمون الفظ، كاره البشر(*).

١٠٢ — لا يمكن للمرء أن يخطىء موقع الكرازيوم Coes-arium أو قصر الملوك، بسبب وجود المسلتين اللتين تحدثنا عنهما فى القسم الأول الفقرة ١٩، حسبما يذكر بلين pline، الذى يقول: «توجد مسلتان ومعبد لقيصر، ويبلغ طول المسلة الواحدة أربعين ذراعا، وقد أخذتا من آثار الملك مسفيس Mesphees rex

١٠٣ — وقد سبق أن قلت إن الطول الإجمالى لكل من هاتين المسلتين، اللتين ذكر بلين أن ارتفاع كل منهما يبلغ أربعين ذراعا، يصل من القاعدة وحتى قمتها الهرمية ٦ ٦٣ قدما أو $\frac{٦٢٧}{١٠٠٠}$ ٢٠ م، وإذا كانت هذه الإشارة من بلين pline دقيقة محددة، وهذا ما لا نستطيع أن نعول كثيراً عليه، فإن قيمة الذراع تصل فى هذه الحالة إلى ١٩ بوصة تساوى ٥١٦ر من المتر.

١٠٤ — وقد تصورت أنه ينبغى أن أضع الجمناز Gymnase فى المكان الذى يجد فيه المـــرء الاطلال الهائلة لذلك القصر الخرب المطل على الشارع الكبير، حيث أن الصفوف المتوازية من الأعمدة الضخمة، التى لا تزال موجودة فى تلك الجهة، تذكر بالدهاليز المغطاة لهذه المبانى، والتى كان يبلغ طولها أكثر من غلوة.

١٠٥ — يضع كل من بونامى Bonamy ودانفيل d'Anville السيرابيوم Serapeum تحت جبل الأنقاض الواقع إلى الشمال الغربى من سور الميناء القديم، والذى كان لا يزال مقاما فوقه حتى عدة سنوات برج للمراقبة، وأظن أن على

(*) فيلسوف أغريقى من القرن الخامس قبل الميلاد.

أن أحدد مكان هذا المبنى ، الذى ذكر سترابون بأنه كان يقع إلى الشرق من النزهة عند مرتفع صغير ، بالقرب وإلى الجنوب منه ، حيث يجد المرء هناك خرائب هائلة ، لمبنى ضخم مبنى بالطوب الأحمر يشبه طوب القصر الخرب بالقرب وإلى الشرق من جامع سانت أثناز(*) .

١٠٦ — وأضع على قمة عمود سبتيموس - سيفيروس البانيوم panium الذى يضعه كل من بونامى ودانفيل تحت ربوة أو جبل سانت كاترين ، الواقع إلى الجنوب الشرقى للسور الغربى ، حيث أن هذا المرتفع الذى نجد فوقه بقايا بناء ، يتفق لحد كبير مع الوصف الذى يعطيه سترابون للبانيوم ، الذى كان عبارة عن مكان مرتفع ولكن ارتفاعه هذا ليس من فعل الطبيعة وإنما هو من صنع الإنسان ؛ ومن قمة هذا المبنى يستوعب النظر كل المدينة والموانى القائمة على البحر والبحيرة فى سهولة .

وأرنى الآن مدفوعا إلى الاعتقاد بأن العمود الضخم ، عمود سبتيموس - سيفيروس (عمود السوارى)، إنما هو واحد من تلك الأعمدة التى كانت تشكل جسرى الهبتاستاد ، واللذين من تحتهما كانت ترى السفن الغادمة Mangnus portus وذاهبة إلى Euncstus portus ؛ ومما يرجح هذه الفكرة وجود تلك الأعمدة ذات الأحجام المماثلة له أو المتقاربة معه على الأقـــل ، والتى قال المسيو دى مايه Maillet إنه رآها فى البحر عند مدخل الميناء الجديد ، لأنه إذا كانت هناك أعمدة كبيرة على هذا النحو ، قد أقيمت فوق قاع البحر وتشكل كما يقول سترابون جسرين تمر من تحتهما السفن عن طريق الهبتاستاد ، فلابد أن يكون حجمها هائلا لحد غير معتاد .

(*) جامع سان اثناز = كنيسة بناها الأسقف ثيوناس (٢٨٢ — ٣٠٠) بالقرب من الميناء الغربى ، ثم أعاد بناءها وزاد من حجمها الأسقف اسكندر ، وبقيت حتى نهاية القرن الرابع الكنيسة الكبرى ومقر الأسقف ، وكانت هذه الكنيسة التى هاجمت فيها الحامية الرومانية لأثناسيوس (سان اثناز) وهو على رأس المصلين وأخيراً حولها العرب إلى مسجد ، بعد أن كانت قد فقدت أهميتها بعض الشيء فى القرن السادس حين أصبحت كنيسة القيصرون (السكيزاريوم) هى الكنيسة الرئيسة . وسمى هذا المسجد بالجامع الغربى أو جامع الألف عمود . [المترجم]

١٠٧ — ويتحدث سترابون عن سيرك كان موجوداً عند مدينة نيكوبوليس الصغيرة (بولكلى)، لكننى لم أتبين أثراً لذلك إلا بالقرب وإلى الجنوب من عمود سبتيموس (عمود السوارى)، فهل كان ثمة خطأ فى النص من جانب النساخ الذين ربما كتبوا نيكوبوليس على أنها نيكروبوليس؟ ذلك أن السيرك يوجد فى الواقع عند بوابة هذه المدينة الأخيرة، اللهم إلا إذا كان هذا السيرك قد بنى فى الأزمنة اللاحقة، كعمل من أعمال أباطرة روما أو سلاطين القسطنطينية.

١٠٨ — إذا كنا قد استطعنا أن نطبق كما ذكرنا فى هذا القسم، الفقرة ٨٢، واحداً من مقاييس الغلوات المصرية أو الأولمبية على مسافة الـ ٤٠٠٠ قامة التى توجد بين الطرف الغربى لشارع الاسكندرية الكبير والموقع الحالى لقصر القياصرة حيث حددنا موقع نيكوبوليس القديمة، فلن يخالجنا أدنى شك حول قيمة الغلوة التى يشير إليها سترابون، حين يقدر هذا الجغرافى نفس هذه المسافة بـ ٣٠ غلوة، ومع ذلك، فعلى الرغم من أننا قد رأينا أن طول كل من هذه الغلوة وتلك لا يتفق وهذا البيان، فإننا لن نتردد فى أن نحدد عند قصر القياصرة موقع هذه المدينة القديمة، ويدعم رأينا هذا تلك الخرائب الهائلة التى نجدها فى هذا المكان، وكذلك بعض التماثيل من الرخام الأبيض التى اكتشفناها هناك، والتى استخرجناها من وسط أنقاضها.

١٠٩ — ويمكن أن نستنتج أن قصر القياصرة يعود إلى عصر جوستنيان Justinien، فهو الذى أمر فى منتصف القرن السادس ببناء عدد كبير من المنشآت، فى صحراوات سوريا وفى جبل سيناء وفى مصر وفى البنتابول الأفريقى، ونقرأ عند procope de Césarée أن هذا الامبراطور قد أمر بإقفال مكان يسمى فيال phiale بجدران حصينة، كانت تستخدم فى احتواء مخزون الحبوب عن طريق ترعة شيريه Chérée التى كانت تحمل مياه بحيرة ماريا، ويتفق هذا النص تماما مع شكل وموقع هذا الحصن، الواقع إلى القرب من الاسكندرية، والذى لم

يعد باقياً منه سوى جدران ذات سمك كبير[١] ، كما سبق أن قلنا فى القسم الأول من هذه الدراسة ، الفقرة ٣٨ .

١١٠ — أما المقابر التى تحدثنا عنها فى القسم الأول ، الفقرة ٤٦ ، والقسم الثانى ، الفقرة ٧٤ ، فهى بلا جدال من انجاز شعب كبير العدد ينتمى لسلسلة طويلة من الأجيال ، ويقول المسيو أوليفييه Olivier بهذا الخصوص إن علينا ألا ننسب لا إلى الإغريق ، ولا إلى الرومان الذين جاءوا بعدهم ، الأعمال الضخمة لهذه الكهوف المقبرية حيث كان هؤلاء وأولئك يحرقون أجساد الموتى بدلا من تحنيطها على طريقة المصريين . ويستخلص هذا العالم من هذا الرى أن مدينة الاسكندرية كانت ولابد هائلة لحـــد كبير قبل مجىء الفاتح الذى منحها اسمـه ، مادام ينبغى ، تبعاً لرأيه ، أن تنسب هذه المنشآت إلى الشعب التى سكنتها قبل مجىء هذا الحاكم (الاسكندر). وعلى الرغم من أنى قد قلت فيما سبق أن راكوتيس كانت بالضرورة قرية على درجة من الأهمية قبل فتح مصر على يد الاسكندر ، إلا أنى مع ذلك أذهب إلى عكس ماذهب إليه المسيو أوليفييه ، فأرى أن هذه المقابر تنسب إلى سكان هذه المدينـــة فى عصرها الإغريقى بل وكذلك فى عهـــدها الرومانى ، حيث ترك هؤلاء وأولئك — الإغريق والرمان — للشعوب التى أخضعوها عاداتهم ، وبخاصة احتفالاتهم الدينية والجنائزية .

ونحن نعرف ، فى الواقع ، أن الرومان لم يهتموا مطلقاً بنشر دياناتهم فى مصر ، بل إنهم على العـكس من ذلك ، قد أقاموا فى روما معابد لإيزيس ولإلهات مصريات أخريات ، وفضلا عن ذلك فإن المعبد تحت الأراضى الذى يشار إليـــه على نحو غير دقيق باسم حمامات كليوباترة يرتبط بالنمط اليونانى

(١) Procope de Césarée, traduit du Grec par Cousin tome II, liv. VI.

وليس بالنمط المصرى فى فن العمارة ، بهذا التناسق والانتظام فى تصميمه ، وبحفره من الداخل حيث هو منحوت فى الصخور .

١١١ – ويضع المسيو أوليفييه . دونما سنديدعم رأيه مدينة نكروبوليس إلى الاسكندرية ، حين يذكر أن الترعة التى كانت تتجه من بحيرة ماريوتيس إلى الكيبوتوس Kipôtos عبر الـ Eunostus portus [1]، وليسمح لى هذا العالم أن ألاحظ وجود صخرة قد اكتشفت على مسافة ١٠٠ إلى ١٢٠ متراً من مصب هذه الترعة القديمة فى الخليج . . كانت تشكل نوعاً من ميناء كان يذود عنه حاجز بحرى ؛ وإذا كانت هذه الصخرة ليست صخرة طبيعية . فإنها لا تكفى لدعم رأى سوف يعطى الاسكندرية ، فى الواقع ، وبالشكل الذى يطلق عليه هذا الاسم ، مساحة كبيرة لحد لا نهاية له ، وذلك حين يؤدى ما يذهب إليه المسيو أوليفييه إلى أن نضع مقابر هذا الساحل دون جدال فى ذلك الجزء من المدينة القديمة ، المسماة نكروبوليس أو مدينة المقابر .

وهنا أجد من الضرورى أن أنهى الأبحاث التى قمت بها أو عرضتها فى هذا القسم ، لأنها تكفى بوضوح كى تبين صعوبة التوفيق بين تقارير القدماء عن الاتساع الحقيقى لسور هذه المدينة القديمة .

ملخص

١١٢ – لقد أوضحت على التوالى فى ثنايا هذه الدراسة :

(ا) أن مدينة الاسكندرية الحديثة ، والتى قدمنا وصفاً لها ، قد بنيت فوق كتلة من الرمال انتهى بها الأمر أن ربطت القارة القديمة بجزيرة فاروس ، وهى

---

(١) نشر المسيو أوليفييه ، الطبيب ، وعضو المجمع العلمى الفرنسى فى عام ١٧٩٤ رحلتـه فى داخل الامبراطورية العثمانية ومصر وفارس Voyage dans l'Empire ottoman, l Egypte et la Perse ، فى ثلاثة مجلدات ، وقد خصص فى مجلده الثالث وصفاً مفصلا لمدينة الاسكندرية فى فصل عدنا إليه فى كثير من الأحيان ، وكان على الدوام ذا نفع لنا .

تدين بتكوينها إلى إنجازات مستمرة فى عمليات الردم على سواحل مصر ، وبخاصة إلى هذا الطريق القديم الذى انشىء بقصد وصل القارة بهذه الجزيرة والذى اتخذ اسمه (الهبتاستاد) من طوله الذى يبلغ ٧ غلوات (ستاد تعنى غلوة) .

(ب) أن أرض المدينة القديمة التى نقـــل إلينا سترابون وصفاً لها لم تعد تشكل اليوم سوى أكوام من الأنقاض ، وبعض بقايا شائهة للمنشئات التى صنعت ازدهار الاسكندرية وعظمتها فى ظل أمبراطورية البطالمة ثم أمبراطورية الرومان .

(ج) أن السور الحالى المسمى سور العرب لايشكل سوى جزء من السور الذى كان لهذه المدينة فى عهد البطالمة والرومان ، ومع ذلك فلا يمكن أن نحدد نحن بدقة حدوده القديمة ، حيث لم يقدم لنا المؤلفون الذين نقلوا إلينا أوصافاً له ، سوى إشارات غامضة حول مختلف أنواع المقاييس التى تختلف أطوالها من إقليم لآخر ، على الرغم من أنها تحمل نفس التسمية ، على النحو الذى يتنوع نه الميل والفرسخ عند مختلف شعوب أوربا .

١١٣ — وعندما يأسى كل الرحالة المحدثون فى كتاباتهم على ما آلت إليه هذه المدينة الرائعة ، التى سوف تنمحى وتزول أطلالها عما قريب من فوق أرضها ، وهو نفس المصير الذى آلت إليه منذ قرون كثيرة عابرة خرائب طروادة الإغريق ، وأطلال بابل وطيبة وممفيس وتدمر وصور وقرطاجة وروما ، تلك الحاكمة القديمة للعالم وأطلال مدينة اليهود المقدسة ، وأطلال مدن أخرى اختفت من فوق الأرض ، فإننى أكرر مع هذا المؤلف المتميز الذى يبدو وكانما أراد أن يبعث الحياة فى رماد كثير من مدن خربت بشكل تام فى مؤلفه : الخرائب ، أو تأملات حول سقوط الأمبراطوريات :

Ruines, Ou Méditations Sur Les revolutions des Empires.

أكرر هذا النص الذى شكل تصديراً لدراستنا هذه :

« لقد أصبحت قصور الملوك مأوى للحيوانات الضارية ؛
وأضحت مذابح الآلهة مرتعاً للزواحف الدنسة .
آه ! كم من مجد أفل نجمه
وكم اندثرت من روائع المنجزات ؛
هكذا تفنى أعمال البشر ، وهكذا تزول الأمبراطوريات والدول ! »

ومع ذلك ، فلو قدر للاسكندرية أن تئول إلى حكم أمبراطورية أو دولة قوية متنورة كما كان شأنها فى عهد البطالمة ، فسوف يكون بمقدورها أن تجعل منها مركزاً لتجارة كل من أفريقيا والهند مع أوربا .

وأنى فى هذا الصدد ، أحيل القارىء إلى الآراء التى قدمها مؤلف دراسة : القناة التى تربط بين البحرين ، وهو المسيو لوبير ، أخى الأكبر ، والذى كنت أنا واحداً من معاونيه ، وهى الآراء التى عرضها فى دراسته حول مشروعات إعادة ترميم هذه المدينة ، ومع ذلك ، فهل ياترى سيكون بمقدور هذه الآراء ، التى أحيل القارىء إليها ، أن تتحقق ذات يوم ، من أجل رفاهية سكان مصر ومن أجل أزدهار تجارة الأمم الأوربية .

ملحوظة : يحيل مؤلف هذه الدراسة عنـــد حديثه عن الطقس ودرجة الحرارة فى الاسكندرية ، الفقرة ١٦ وكذلك الفقرة ٥٠ ، إلى دراسته عن البحيرات البحرية فى مصر ، ومع ذلك فلا بد من ملاحظة أن هذا المؤلف لم يضمن دراسته هذه فى كتاب وصف مصر ، إلا على شكل ملخص (الدولة الحديثة ، المجلد الثانى ، ص ٤٦٩ إلى ٤٨٢) أما الدراسة بأكملها والتى تبلغ ٣٥ صفحة بحجم الفوليو ، والتى طبعت فى شهر يونيه ١٨١٥ ، فقد نسخت منها ١٠٠ نسخة أودعت المكتبة الملكية ومكتبة المجمع العلمى ومكتبات أخرى عامة ، أو وزعت على عديد من العلماء ، ويستطيع من يشاء الاطلاع عليها كاملة ، أن يجدها فى الهيئات التى حددتها للتو .

استدراكات

فاتنا فى ثنايا الدراسة الخاصة بالحدود القديمة للبحر الأحمر أن نبين أن مدينة قمبز القديمة يشغل مكانها اليوم مدينة كبريت .

وقد فاتنا أن نوضح - فيما يختص بالبلدان القديمة - أن طوا هى طنوب حالياً ، وأن نواكراتيس هى كوم جعيف ، وأن كباسا هى شباس الشهداء ، وأن كويس هى سخا ، وأن سكيديه أو شيديا هى النشو البحرى .

أما بخصوص فروع النيل القديمة ، فينبغى أن نذكر أن الفرع المنديسى هو ما يسمى حالياً بترعة البوهية ، وأن الفرع التانيسى هو بحر مويس ، أما الفرع البيلوزى فهو الآن ترعة الشرقاوية ، كما أن ترعة الاسماعيلية الحالية هى نفس مجرى خليج تراجان (أو الترعة التى كانت تربط بين النيل والبحر الأحمر) ، أما الفرع الكانوبى فكان ينقسم عند منتصفه إلى فرعين الفرع البولبيتينى (فرع رشيد حالياً) وكان ينتهى عند بولبتين (رشيد) وفرع آخر يمضى إلى كانوب (أبى قير) ويسمى هذا الفرع حالياً ترعة أبى دياب ويسمى شمالا ترعة المحمودية . ومن جهة أخرى تشغل ترعة البتانونية نفس مجرى الفرع الترموتى ، ويشغل بحر تيرة نفس مجرى الفرع السبنيتى ، كما أن البحر الأتريبى هو حالياً بحر شبين الكوم ويسمى شمالا باسم بحر بسنديلة .

وقد استقيت هذه المعلومات من الخرائط التى رسمها جرجس القبرصى ، المؤرخ البيزنطى فى أواخر القرن السابع الميلادى ، ويمكن اعتبار تاريخه وصفاً لحالة مصر منذ فتح العرب لها ، وقد وردت هذه الخرائط بكتاب جغرافية مصر ، تأليف الأمير عمر طوسون .

كما وقعت بعض أخطاء فى الدراسة عن بحيرة المنزلة بخصوص « فتحتا ديبة وام فرج » وصحتها « فتحتا فم الديبة وأم فارج » .

كتب أخرى للمترجم

(ا) كتب أدبية :

المطاردون (١٩٧٠)، حكايات من عالم الحيوان (١٩٧٤)، المصيدة (١٩٧٤) — مجموعات قصصية موتى بلا قبور (١٩٧٦) مسرحية مترجمة .

(ب) التاريخ (مترجمات) :

تطور مصر من ١٩٢٤ — ١٩٥٠ تأليف مارسيل كولومب (١٩٧٢) ، فصول من التاريخ الاجتماعي للقاهرة العثمانية ، تأليف أندريه ريمون (١٩٧٤) ؛ مجلدات الترجمة الكاملة لوصف مصر ، وقد صدر منها :

المجلد الأول : دراسة فى عادات وتقاليد سكان مصر المحدثين ، تأليف شابرول (١٩٧٦) .

المجلد الثانى : العرب فى ريف مصر وصحراوتها ، تأليف مجموعة من علماء الحملة الفرنسية (١٩٧٨) .

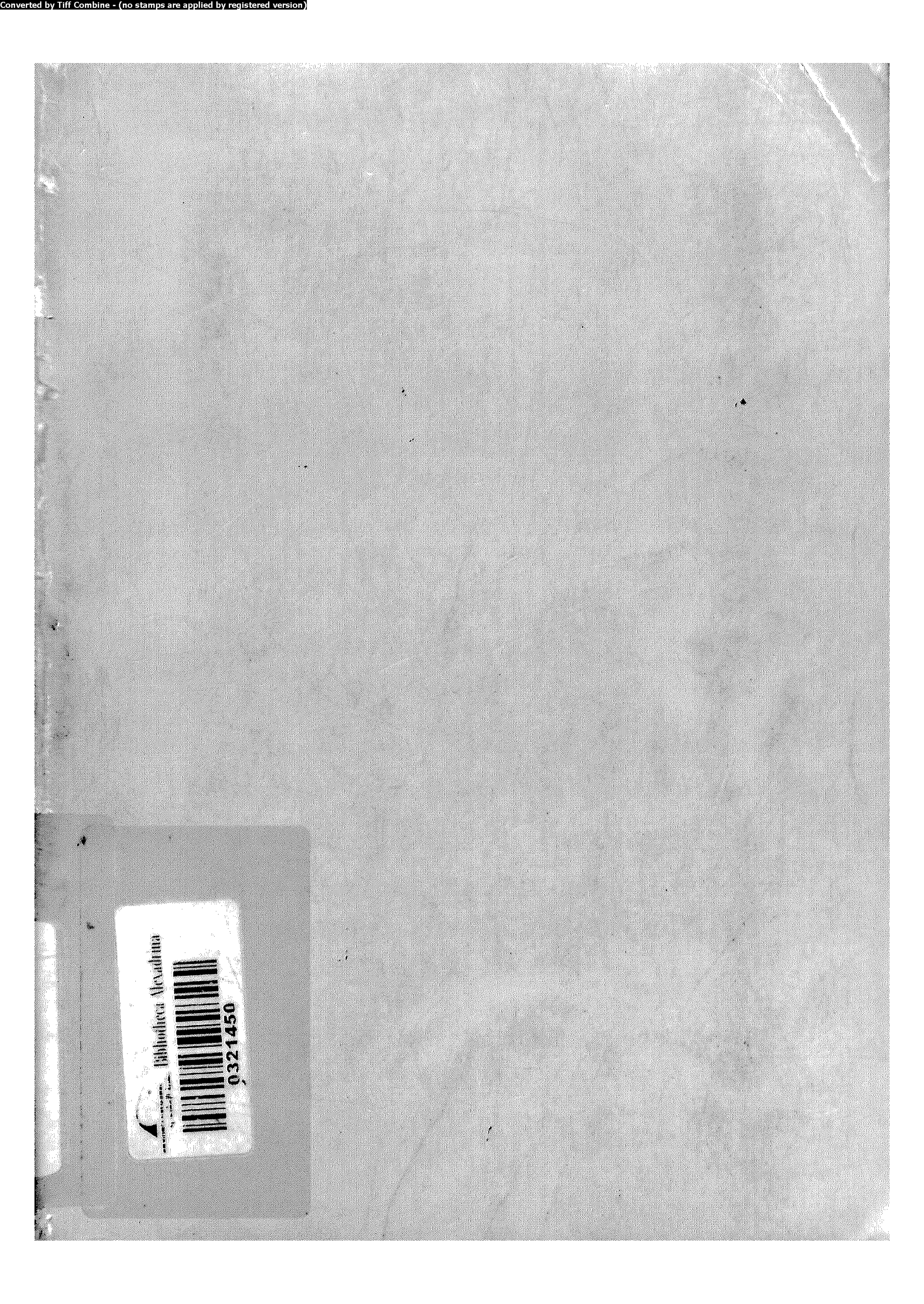
المجلد القادم بإذن الله

موسوعة الحياة الاقتصادية فى مصر فى القرن الثامن عشر . الجزء الأول : الزراعة — الصناعات والحرف — التجارة . تأليف ب . س . جيرار

وبقية المجلدات تصدر تباعاً بإذن الله

مطبعة الجبلاوى
٣٠ شارع الترعة البولاقية

رقم الإيداع ١٩٧٨/٤٣٦٤ الترقيم الدولى ٠ - ٩١ - ٧٠٤٧


Bibliotheca Alexandrina
0321450